مكتبة الأسرة ٢٠١٢
إنسانيات

مصر الفرعونية

تاليف: أحمد فخرى



مصر - ثقافة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مصر الفرعونية

موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ قبل الميلاد

مصر الفرعونية

موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور
حتى عام ٣٣٢ قبل الميلاد

تأليف
أحمد فخرى

مكتبة الأسرة ٢٠١٢

مكتبة الأسرة ٢٠١٢

تنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مصر الفرعونية ـ موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ قبل الميلاد

فخرى، أحمد
مصر الفرعونية موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور
حتى عام ٣٣٢ قبل الميلاد / تأليف أحمد فخرى.ـ
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢
٤٠٠ص ٢٤سم (مكتبة الأسرة ـ سلسلة إنسانيات)
تدمك ٣ ـ ١٧٥ ـ ٢٠٧ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١ ـ مصر القديمة ـ تاريخ
أ ـ العنوان

رقم الإيداع ٢٠١٢/٧١٠٦
I.S.B.N 978- 977- 207-175-3
ديوى ٩٣٢

توطئة

مشروع له تاريخ

مشروع «القراءة للجميع» أى حلم توفير مكتبة لكل أسرة، سمعنا به أول مرة من رائدنا الكبير الراحل توفيق الحكيم.

وكان قد عبر عن ذلك فى حوار أجراه معه الكاتب الصحفى منير عامر فى مجلة «صباح الخير» مطلع ستينيات القرن الماضى، أى قبل خمسين عامًا من الآن.

كان الحكيم إذًا هو صاحب الحلم، وليس بوسع أحد آخر، أن يدعى غير ذلك.

وهو، جريًا على عادته الخلاقة فى مباشرة الأحلام، تمنى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه جموعًا من الحمير النظيفة المطهمة، وهى تجر عربات الكارو الخشبية الصغيرة، تجوب الشوارع، وتتخذ مواقعها عند نواصى ميادين المحروسة، وباحات المدارس والجامعات، وهى محملة بالكتب الرائعة والميسورة، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من حاملات الخضر وحبات الفاكهة.

ثم رحل الحكيم مكتفيا بحلمه.

وفى ثمانينيات القرن الماضى عاود شاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور التذكير بهذا الحلم القديم، وفى التسعينيات من نفس القرن، تولى الدكتور سمير سرحان تنفيذه تحت رعاية السيدة زوجة الرئيس السابق. هكذا حظى المشروع بدعم مالى كبير، ساهمت فيه، ضمن من ساهم، جهات حكومية عدة. وخلال عقدين كاملين صدرت عنه مجموعة هائلة من الكتب، بينها مؤلفات ثمينة يجب أن نشكر كل من قاموا باختيارها، إلا أنه، للحقيقة ليس غير، حفل بكتب أخرى مراعاة لخاطر البعض، وترضية للآخر، ثم إن المشروع أنعش الكثير من متطلبات دور النشر، بل اصطنع بعضها أحيانًا.

وبعد ثورة ٢٥ يناير والتغيرات التى طرأت توقفت كل الجهات الداعمة لهذا المشروع الثقافى عن الوفاء بأى دعم كانت تحمست له عبر عقدين ماضيين. سواء كانت هذه الجهات من هنا، أو كانت من هناك.

ولم يكن أمام اللجنة إلا مضاعفة التدقيق فى كل عنوان تختار، وسيطر هاجس الإمكانات المحدودة التى أخبرتنا بها الهيئة فى كل آن.

والآن لم يبق إلا أن نقول بأن هذه اللجنة كانت وضعت لنفسها معيارًا موجزًا:

جودة الكتاب أولاً، ومدى تلبيته، أولاً أيضًا، لاحتياج قارئ شغوف بأن يعرف، ويستمتع، وأن ينمى إحساسه بالبشر، وبالعالم الذى يعيش فيه.

واللجنة لم تحد عن هذا المعيار أبدًا، لم تشغل نفسها لا بكاتب، ولا بدار نشر، ولا بأى نوع من أنواع الترضية أو الإنعاش، إن لم يكن بسبب التربية الحسنة، فهو بسبب من ضيق ذات اليد.

لقد انشغلنا طيلة الوقت بهذا القارئ الذى انشغل به قديمًا، مولانا الحكيم.

لا نزعم، طبعًا، أن اختياراتنا هى الأمثل، فاختيار كتاب تظنه جيدًا يعنى أنك تركت آخر هو الأفضل دائمًا، وهى مشكلة لن يكون لها من حل أبدًا. لماذا؟

لأنه ليس هناك أكثر من الكتب الرائعة، ميراث البشرية العظيم، والباقى.

رئيس اللجنة

إبراهيم أصلان

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويـــات

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله والحمد لله وبعد :

فهذا كتاب عن «مصر الفرعونية» أحسست منذ وقت غير قصير بالحاجة إليه ، وها قد انتهيت منه ، وأقدمه إلى القارىء راجياً أن أكون قد قمت بعملى هذا بأداء جزء مما يفرضه على واجبى.

وربما سأل سائل أليست هناك كتب عن تاريخ مصر فى العهد الفرعونى باللغة العربية ، وإذا كان هناك شيء منها فما الذى دعا إلى كتابة مؤلف جديد ؟ .. وجوابى على ذلك أن هناك أكثر من كتاب واحد ، كتبها أصحابها مشكورين أو قاموا بترجمتها عن اللغات الأجنبية مشكورين أيضاً . ولكن القارىء العربى مازال فى حاجة إلى كتب أخرى كثيرة تتناول مختلف نواحى الحضارة المصرية وتقدم نتائج أحدث الاكتشافات والأبحاث ، وتجلى بعض النقاط الغامضة فى التاريخ المصرى قدر المستطاع .

ويعلم كل مشتغل بالتاريخ أن كتابة تاريخ مطول وجمع كل الوثائق ووضعها فى صلب الكتاب ، أسهل كثيراً من كتابة تاريخ مختصر يحوى خلاصة تلك الوثائق ويحسن استخدامها . وكان الهدف هو كتابة مؤلف لا يزيد فى حجمه عن أربعمائة صفحة من القطع المتوسط يجمع بين دفتيه أهم حوادث التاريخ ويسردها متمشياً مع العصور ، وفى الوقت ذاته لا يغفل ذكر الآثار المهمة أو مظاهر الحضارة فى مصر . وإنى أعترف أن ذلك لم يكن سهلاً علىّ ، كما أعترف أيضاً بأننى ضحيت بذكر الكثير من المعلومات طالما أنها لم تكن ذات أثر جوهرى على سير الحضارة أو التاريخ.

إنى مدين ، دون شك ، لأساتذتى الذين درست عليهم ومدين لمئات من علماء الآثار من جميع الجنسيات الذين نشروا آلاف الكتب والأبحاث فى المائة والخمسين سنة الأخيرة ، ومدين لزملائى الذين أمدونى بنصائحهم ، ولكنى مدين أيضاً ، ولأبعد الحدود ، لتلاميذى الذين سعدت بإلقاء محاضراتى عليهم ، فإن مناقشاتهم لى ، وفى بعض الأحيان اعتراضاتهم أو إقبالهم على معرفة المزيد من بعض النقط، كانت دائماً خير عون لى ، فإليهم جميعاً أقدم الشكر والاعتراف بالجميل. وإذا كان قارىء هذا الكتاب لا يجد بين دفتيه كل ما يريد الوقوف عليه والإلمام به فأرجوه ألا ينسى أن لكل كتاب هدفاً ، وأن جوانب الحضارة المصرية متعددة ، وعسى أن يجد ما يبغيه فى

المؤلفات الأخرى التى أشرت إليها أو فى المراجع المهمة التى ذكرتها .

وهناك كلمة أخيرة . إن تاريخ مصر طويل ومتشعب ، وكتب فيه الكثيرون ، وبخاصة من غير المصريين ، وكان كل كاتب ينظر إليه من زاوية خاصة متأثراً بثقافته الخاصة ، وشعوره الشخصى . وكثيراً ما نجد فى كتابات بعض المؤرخين تحاملاً ليس له ما يبرره على شعوب الشرق وحضارتها ، ومن بينها مصر ، ويذهبون إلى القول بأن تلك الحضارات القديمة قد ، تحجرت ، وانتهت أيامها منذ آلاف السنين، وأن تلك الأمم قد ضعفت وفقدت استقلالها منذ أن فقدت تلك الحضارات قواها الدافعة، وأصبحت من نصيب الغزاة الأجانب ، بل يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فيشكك فى أن ساكنى هذه البلاد فى الوقت الحالى لا ينتمون بأى صلة إلى القدماء . ولست أريد أن أرميهم كلهم بسوء القصد أو التعصب الأعمى ، والتمهيد للاستعمار بإضعاف الروح القومية بين تلك الشعوب ، فربما كان بعضهم مقلداً لغيره دون وعى أو قصد ، ولكن الحقيقة هى غير ما يقولون . وقد آن الأوان لكتابة تاريخ مصر من زاوية أخرى تتفق مع الحق وتتفق مع وجهة النظر المصرية ويجب أن يعرف أبناؤنا تاريخ بلادهم على حقيقته ، ولكن دون تنميق رخيص أو اندفاع مع الشعور .

لقد كانت لمصر حضارة ومدنية منذ فجر التاريخ ، وكان لغيرها من شعوب الشرق حضارات ومدنيات ، وكما أعطت مصر لغيرها أخذت منهم أيضاً ، ولكن بقى لمصر دائماً طابعها الشخصى وبقيت لها مميزاتها لأنها نشأت وترعرعت فى ثرى هذا الوادى الكريم ، وكان لنيلها الفضل الأول عليها . والمصريون اليوم ، وإن اختلفت لغتهم وديانتهم عن لغة وديانة أجدادهم الذين عاشوا فى أيام الفراعنة ، أو وفدت عليهم شعوب أخرى امتزجت بهم وتمصرت وأصبحت جزءاً من سكان البلاد ، مازالوا يعيشون حيث عاش أجدادهم وما زالت تجرى فى عروقهم دماء الأقدمين .

إن روح مصر لم تمت فى يوم من الأيام ، وإن خبت شعلتها يوماً فقد كانت تعود ساطعة مضيئة يوماً آخر .

لقد أثبت المصريون فى كل زمان أنهم يدركون قدر أنفسهم ويدركون التبعات التى ألقاها على كاهلهم مركزهم الجغرافى فى هذا الجزء من العالم ، وسيرى قارىء هذا الكتاب قصة تاريخ هذا الشعب منذ أقدم عصوره ، وسيدرك من تلقاء نفسه أن مصر لم تخضع يوماً من الأيام لغزو أو استعمار أجنبى وترتضيه ، وإن غلبت على أمرها يوماً من الأيام فلا تلبث إلا حيناً حتى تجد الزعيم الوطنى المخلص الذى يدعوها إلى العمل ويتقدم الصفوف ، فتلبى دعوته وتبدأ عهداً من عهودها

الزاهرة .

وسيرى القارىء أيضاً أنه مهما تقلبت على مصر الأحداث ، أو تعرضت لحلو الأيام ومرها فقد ظلت دائماً سليمة العنصر ، وبقى شعبها حياً لأنه جدير بالحياة .

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق ،،

أحمد فخرى
أستاذ تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم
كلية الآداب - جامعة القاهرة

القاهرة فى ١٤ من سبتمبر سنة ١٩٥٧

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله والحمد لله وبعد . فهذه هى الطبعة الثانية من كتاب « مصر الفرعونية » إذ نفذت نسخ الطبعة الأولى منذ عام – أو يزيد – وإنى إذ أقدم لهذه الطبعة الجديدة أرى واجباً على أن أسدى الشكر للكثيرين من تلاميذى الذين أسدوا إلى أياد كثيرة فى نقد بعض ما فيه أو الاستفسار عن نقطة غمض عليهم فهمها أو تنبيهى إلى خطأ مطبعى . لقد أفادنى هؤلاء جميعاً فغيرت فى بعض المواضع بالزيادة أو بالحذف كما أضفت بعض المراجع الجديدة والخرائط ، ولكنى أبقيت على أصل الكتاب واتجاهه فى تفسير الحوادث السياسية التى مرت على البلاد دون الدخول فى تفصيلات مطولة عن الآثار أو عن الحضارة فلهذه مؤلفاتها الخاصة بها ، كما انتهزت هذه الفرصة فعدلت فى تاريخ بعض الملوك والأسرات حسب ما ظهر من أبحاث جديدة .

وإنى أحمد الله وأشكره على حسن استقبال القراء لهذا الكتاب وأسأله جل شأنه أن يعيننى على القيام بواجبى نحو تاريخ بلادى ، فهو نعم المولى ونعم النصير ،،

القاهرة فى ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٦٠

أحمد فخرى
أستاذ تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم
كلية الآداب – جامعة القاهرة

الأسـرات المـصرية

عـصر الأسـرات المبكـر أو الـعـصر الـعـتيـق :
٣٢٠٠ - ٢٧٨٠ ق.م.

الأسرة الأولى : ٣٢٠٠ - ٢٩٨٠ ق.م.

(الملك) منا - (حورس) نعرمر .
(الملك) إتى الأول - (حورس) عحا .
(الملك) إتى الثانى - (حورس) چر - أكثر من ١٩ سنة .
(الملك) إتى الثالث - (حورس) واچيت .
(الملك خا ستى) - (حورس) دن .
(الملك) مربى با - (حورس) عچ - إب - أكثر من ٢٠ سنة .
(الملك) إرى - نتر - (حورس) سمرخت - ٩ سنوات .
(الملك) قاع سنى - (حورس) قا - ع .

الأسرة الثانية : ٢٩٨٠ - ٢٨٨٠ ق.م.

(الملك) حوتپ - (حورس) حتپ - سخموى .
(الملك) نوب - نفر - (حورس) رع . نب .
(الملك) نى - نتر - (حورس) نى - نتر أكثر من ٢٢ سنة
(الملك) ونج ١٩ سنة .
(الملك) پرى - إب - سن (ست) پرى - إب - سن
(حورس) خع سخم.
(الملك) حتپ - نبوى - إمف (حورس وست) خع سخموى .
١٧ سنة .

الدولة القديمة : (الأسرات ٣ - ٦)
٢٧٨٠ - ٢٢٨٠ ق.م.

الأسرة الثالثة : ٢٧٨٠ – ٢٦٨٠ ق.م.

(الملك) زوسر الأول – (حورس) إرى خت نتر – ١٩ سنة .

(حورس) سخم خت .

(الملك) زوسر الثانى – (حورس) سانخت .

(الملك) تتى (؟) – (حورس) خع با .

(الملك) نب كاوو

(الملك) حونى — حكم ٢٤ سنة

الأسرة الرابعة : ٢٦٨٠ – ٢٦٥٠ ق.م.

سنفرو	حكم ٢٤ سنة
خوفو ، خنوم خوفو ى (كيوبس) ٢٣ سنة .	
چدف – رع	٨ سنوات .
خفرع (خفرن)	٢٥ – ٢٩ سنة .
..... (حور ددف ؟)	١ – ٥ سنوات .
..... (با – أف – رع ؟)	١ – ٥ سنوات .
منكاورع	٢١ – ٢٨ سنة .
شپسكاف	٤ سنوات
..... (چدف – بتاح ؟)	سنتان (؟)

الأسرة الخامسة : ٢٥٦٠ – ٢٤٢٠ ق.م.

أوسركاف	٧ سنوات .
ساحو رع	١٤ سنة .
نفر إر كارع	١٢ (؟) سنة .
شپسسكارع	٧ سنوات .
نفرف – رع	٤ (؟) سنوات
نى – وسر – رع	أكثر من ٣٠ سنة – ٣٢ (؟)

منكاو حور	٨ سنوات .
چد كارع (إسيسى)	٢٨ سنة .
أوناس (ون – إس)	٣٠ سنة .

الأسرة السادسة : ٢٤٢٠ – ٢٢٨٠ ق.م.

تتى ١٢ (؟) سنة .

أوسر كارع ٤ (؟) سنوات .

ببى الأول ٢٥ سنة .

مرنرع (مرى – إن – رع) الأول	١٠ سنوات .
ببى الثانى	٩٤ سنة .
مرنرع الثانى	سنة واحدة .
منكاورع – نيت إقرتى (نيتو كريس)	سنتان .

عصر الفترة الأولى : (الأسرات ٧ – ١٠) :
٢٢٨٠ – ٢٠٥٢ ق.م.

الأسرة السابعة : ٢٢٨٠ ق.م. سبعون ملكاً حكموا سبعين يوماً حسب رواية مانيتون .

الأسرة الثامنة : ٢٢٨٠ – ٢٢٤٢ ق.م. (حسب ترتيب هيز لملوك هذه الأسرة)

نفر كارع (الأصغر)	٤ سنوات وشهران
نفر كارع – نبى	
چد كارع – شماى	
نفر كارع – خندو	
مرى – ان – حور	
نفر – كا – مين	سنتان وشهر
نى – كا – رع	
نفر – كا – رع – تررو	

نفر – كا – حور

نفر كارع – ببى سنب

نفر – كا – مين – عنو

قا كارع – إبى سنة وثمانية شهور

واچ – كا – رع أكثر من ٤ سنوات

نفر كا حور (حورس) نترى – باوو

نفر إر كا رع (حورس) دمچ – إب – تاوى

الأسرة التاسعة : ٢٢٤٢ – ٢١٣٣ ق.م.

أختوى الأول – مرى – إب – رع

....

نفر كا رع

أختوى الثانى

ستوت

أختوى الثالث

مرى ....

شد ....

حـ ....

....

الأسرة العاشرة : ٢١٣٣ – ٢٠٥٢ ق.م.

مرى حتحور (؟)

نفر كا رع

أختوى الرابع – واح كا رع

مرى كا رع

أختوى الخامس – نب كا رع

وهناك أربعة ملوك آخرون لا يمكن التأكد من مكان أى واحد منهم فى أى أسرة من هذه الأسرات الثلاث وهم ، إتى ، وقد عثر على نقش له فى وادى الحمامات و ، إيمحوتب ، وعثر على اسمه فى وادى الحمامات أيضاً و ، سخم كارع ، وقد ورد اسمه فى بردية عثر عليها فى ألفنتين وملك رابع وهو چسر – نوب (؟) وقد ورد اسمه فى نقش من عصر الرعامسة عثر عليه فى سقارة .

الدولة الوسطى – (الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة)
٢١٣٤ – ١٧٧٨ ق.م.

الأسرة الحادية عشرة : ٢١٣٤ – ١٩٩١ ق.م.

إنيوتف (أنتف) الأول (سهر تاوى)	(٢١٣٤ – ٢١٣١) .
إنيوتف الثانى (واح – عنخ)	(٢١٣١ – ٢٠٨٢) .
إنيوتف الثالث (نخت نب تپى نفر)	(٢٠٨٢ – ٢٠٧٩) .
مونتوحوتپ الأول (سعنخ – إب – تاوى)	(٢٠٧٩ – ٢٠٦١) .
مونتوحوتپ الثانى (نب – حپت – رع)	(٢٠٦١ – ٢٠١٠) .
مونتوحوتپ الثالث (سعنخ – كارع)	(٢٠١٠ – ١٩٩٨) .
سنوسرت وآخرون	(١٩٩٨ – ١٩٩٣) .
مونتوحوتپ الرابع	(١٩٩٣ – ١٩٩١) .

الأسرة الثانية عشرة : ١٩٩١ – ١٧٧٨ ق.م.

أمنمحات الأول (سحتپ – إب – رع)	(١٩٩١ – ١٩٦٢) .
سنوسرت الأول (خپر – كا – رع	(١٩٧٢ – ١٩٢٨)

(منها ١٠ سنوات حكمها شريكاً فى الملك مع أبيه) .

أمنمحات الثانى (نوب – كارع)	(١٩٣٠ – ١٨٩٥)
سنوسرت الثانى (خع – خپر – رع)	(١٨٩٨ – ١٨٧٩)
سنوسرت الثالث (خع – كا – رع)	(١٨٧٩ – ١٨٤١)
أمنمحات الثالث (نى – ماعت – رع)	(١٨٤١ – ١٧٩٢)
أمنمحات الرابع (ماعت – خرو – رع)	(١٧٩٢ – ١٧٨٢)
سوبك نفرو (سوبك – كا – رع)	(١٧٨٢ – ١٧٧٨)

عصر الفترة الثانية – (الأسرات ١٣ – ١٧)
١٧٧٨ – ١٥٧٠ ق.م.

الأسرة الثالثة عشرة : ١٧٧٨ – ١٦٢٥ ق.م. عاصمتها طيبة ويعرف من أسماء ملوكها ما يقرب من ستين ملكاً اختار منهم هيز الملوك الآتية أسماؤهم من حكم منهم:

(١) سوبك حوتپ الأول (سخم – رع ، خوتاوى أمنمحات)

وقد حكم أكثر من خمس سنوات .

(٢) أمنمحات سنبف (سخم كارع) حكم أكثر من ٣ سنوات .

(٤) أمنمحات (سحتب إب رع) سنة واحدة .

(٦) أمنمحات (سعنخ إب – رع ، أمونى إنيوتف) .

(١١) سوبك حوتب الثانى بن منتوحوتپ أكثر من سنتين .

(١٣) حور (إوا – إب – رع) ٩ شهور .

(١٤) أمنمحات (سچفا – كا – رع – كاى) .

(١٥) وجاف (خو – تاوى – رع) سنتان وأربعة شهور .

سنوسرت الرابع (سنفر – إب – رع) .

(١٦) خنچر الأول (وسر – كا – رع) أكثر من ٤ سنوات .

(١٧) سمنخ كارع أكثر من ٣ سنوات .

(١٨) نقر كارع

(١٩) ؟ خنجر الثانى (نى خع نى ماعت رع) .

(٢٠) سويك حوتب الثالث (سخم - رع - سواز - تاوى)

٣ سنــوات وشهريــن .

(٢١) نفر حوتب (خع - سخم - رع) ١١ سنة .

(حوالى ١٧٤٠ - ١٧٢٩ ق.م.) .

(٢٣) سويك حوتب الرابع (خع - نفر - رع) .

(٢٤) سويك حوتب الخامس (خع - حوتب - رع) ٥ سنوات وتسعة شهور .

(٢٥) أيع - إيى (واح - إب - رع) ١٠ سنوات وتسعة شهور .

(٢٦) إيى (مر - نفر - رع) ١٣ سنـة وتسعـة شهـور .

(٣٦) دودى - مس الأول (چد - نفر - رع) حــوالى عام ١٦٧٥ ق.م.

نب چد رع

نفر عنخ رع

نفر خپر رع

(٥٢) نحسى

(٥٤) نب - فاو - رع سنة وخمسة شهور .

الأسرة الرابعة عشرة : (عاصمتـها فى سخـا) ١٧٧٨ - ١٩٥٤ ق.م. وعدد ملوكـها ٧٦ ملكاً حكموا ١٨٤ سنة كـما ذكـر الأفريقى فـيمـا نقله عن تاريخ مانيتون وذكرت بردية تورين ٧٢ من أسمائهم .

الأسرة الخامسة عشرة : ١٦٧٥ - ١٥٦٧ ق.م. الهكسوس

ششى (مع - إب - رع) ٣ سنوات .

يعقوب - هر (مر - وسر - رع) ٨ سنوات .

خيان (سا - أوسر - ان - رع) .

إپيپى الأول ، أپو فيس ، (عا - أوسر - رع) أكثر من أربعين سنة .

إپيپى الثانى (عا - قنن - رع) .

خامودى (عا – سح – رع) .

الأسرة السادسة عشرة : ١٦٧٠ (؟) – ١٥٦٧ ق.م. الهكسوس .

عنت – هر

سمقن

خع – أوسر – رع

عا – حوتپ – رع

سخع – أن – رع

عامو

إيپيى الثالث (؟) (نب – خبش – رع) .

الأسرة السابعة عشرة : ١٦٦٠ (؟) ١٩٥٧ ق.م. الأسرة الطيبية

رع – حوتپ (سخم رع – واح – خاعو) .

إنيوتف الخامس (سخم رع – وپ – ماعت) ٣ سنوات .

إنيوتف السادس (سخم رع – حرو – حر – ماعت) أقل من سنة .

سوبك أم ساف الثانى (سخم رع – شد تاوى) ١٦ سنة .

تحوتى (سخم رع – سمن – تاوى) سنة واحدة .

مونتوحوتپ الخامس (سعنخ – إن – رع) سنة واحدة .

نب – إرى – إر – أوت الأول (سواچ – إن – رع) ٦ سنوات .

نب – إرى – إر – أوت الثانى (نفر كارع) (؟) أقل من سنة .

سمن – نفر – رع

سا – أوسر – إن – رع ١٢ سنة .

شد واست (سخم رع)

(ربما كان حكمهم بين ١٦١٠ – ١٥٦٧ ق.م.) .

إنيوتف السابع أكثر من ٣ سنوات .

سنخت – إن – رع

سقننرع (تاعا الأول – « الأكبر »)
سقننرع (تاعا الثانى – « الشجاع »)
كامس (واچ – خپر – رع)

الدولة الحديثة : (الأسرات ١٨ – ٢٠)
١٥٧٠ – ١٠٨٠ ق.م.

الأسرة الثامنة عشرة : ١٥٧٠ – ١٣٠٤ ق.م.

أحمس الأول (نب – پحتى – رع)	(١٥٧٠ – ١٥٤٦)
أمنحوتب الأول (چسر – كا – رع)	(١٥٤٦ – ١٥٢٥)
تحوتمس الأول (عا – خپر – كا – رع)	(١٥٢٥ – ١٤٩٥)
تحوتمس الثانى (عا – خپر – إن – رع)	(١٤٩٥ – ١٤٩٠)
حتشپسوت (ماعت – كا – رع)	(١٤٩٠ – ١٤٦٩)
تحوتمس الثالث (من – خپر – رع)	(١٤٩٠ – ١٤٣٦)
أمنحوتپ الثانى (عا – خپرو – رع)	(١٤٣٦ – ١٤١١)
تحوتمس الرابع (من – خپرو – رع)	(١٤١١ – ١٣٩٧)
أمنحوتپ الثالث (نب – ماعت – رع)	(١٣٩٧ – ١٣٦٠)
أمنحوتب الرابع – إخناتون (نفر – خپرو – رع)	(١٣٧٠ – ١٣٤٩)
سمنخ كارع (عنخ – خپرو – رع)	(١٣٥١ – ١٣٤٨)
توت عنخ أمون (نب – خپرو – رع)	(١٣٤٨ – ١٣٣٧)
آى (خپر – خپرو – رع)	(١٣٣٧ – ١٣٣٤)
حور محب (چسر – خپرو – رع)	(١٣٣٤ – ١٣٠٤)

الأسرة التاسعة عشرة : ١٣٠٤ – ١٣٠٣ ق.م.

رمسيس الأول (من – پحتى – رع)	(١٣٠٤ – ١٣٠٣)

سبتى الأول (من – ماعت – رع) (١٣٠٣ – ١٢٩٠)

رمسيس الثانى (أوسر – ماعت – رع) (١٢٩٠ – ١٢٢٣)

منفتاح ، مرى – إن – پتاح ، (با – إن – رع) (١٢٢٣ – ١٢١١)

أمون مس – سى (من – مى – رع) (١٢١١ – ١٢٠٧)

سبتى الثانى (أوسر خپرو – رع) (١٢٠٧ – ١٢٠٢)

تا – وسرت (سبت – رع ، مريت – أمون) (١٢٠٢ – ١١٩٥)

سى – پتاح (آخ – ان – رع ، مرى – إن پتاح) (١٢٠٢ – ١١٩٥)

الأسرة العشرون : ١١٩٥ – ١٠٨٠ ق.م.

ست نخت (أوسر – خعو – رع) (١١٩٥ – ١١٩٢)

رمسيس الثالث (أوسر – ماعت – رع : مرى – أمون)
(١٩٩٢ – ١١٦٠)

رمسيس الرابع (خف – ماعت – رع) (١١٦٠ – ١١٤٥)

رمسيس الخامس (أوسر – ماعت – رع : سخپر – إن – رع)
(١١٥٤ – ١١٥٠)

رمسيس السادس (نب – ماعت – رع) (١١٥٠ – ١١٤٥)

رمسيس السابع (أوسر – ماعت – رع : آخ – إن – أمون)
(١١٤٥ – ١١٤٤)

رمسيس الثامن (أوسر – ماعت – رع : مرى – أمون)
(١١٤٤ – ١١٣٧)

رمسيس التاسع (نفر – كا – رع) (١١٣٧ – ١١١٨)

رمسيس العاشر (خپر – ماعت – رع) (١١١٨ – ١١١٠)

رمسيس الحادى عشر (من – ماعت – رع : ستپ – ان – پتاح)
(١١١٠ – ١٠٨٠)

العصر المتأخر : (الأسرات ٢١ - ٣٠)
١٠٨٥ - ٣٣٢ق.م.

الأسرة الواحدة والعشرون : ١٠٨٥ - ٩٥٠ ق.م.

سمندس (نسو بانب چدت) فى تانيس حريحور ..... فى طيبة (١٠٨٥ - ١٠٥٤)

بسوسينيس (پاسبا خع ان نيوت) فى تانيس پينزم .... فى طيبة (١٠٥٤ - ١٠٠٩)

أمنمأوبت (فى تانيس) (١٠٠٩ - ١٠٠٠)

س - أمون (فى تانيس) (١٠٠٠ - ٩٨٤)

پسوسينيس الثانى (فى تانيس) (٩٨٤ - ٩٥٠)

الأسرة الثانية والعشرون : ٩٥٠ - ٧٣٠ ق.م.

شاشانق الأول (٩٥٠ - ٩٢٩)

أوسوركون الأول (٩٢٩ - ٨٩٣)

تكلوت الأول (٨٩٣ - ٨٧٠)

أوسوركون الثانى (٨٧٠ - ٨٤١)

شاشانق الثانى (٨٤٧)

شاشانق الثالث (٨٢٣ - ٧٧٢)

پامو (٧٧٢ - ٧٦٧)

شاشانق الخامس (٧٦٧ - ٧٣٠)

الأسرة الثالثة والعشرون : ٨١٧ (؟) - ٧٣٠ ق.م. (تل بسطة)

پدى باست ٨١٧ (؟) - ٨٦٣ (؟)

شاشانق الرابع ٧٦٣ (؟) - ٧٥٧ (؟)

أوسوركون الثالث ٧٥٧ (؟) - ٧٤٨ (؟)

تكلوت الثالث (٧٤٨ (؟) - ٧٣٠)

أمون رود	(٧٤٨ (؟) – ٧٣٠)
أوسوركون الرابع	(٧٤٨ (؟) – ٧٣٠)

الأسرة الرابعة والعشرون : ٧٣٠ – ٧١٥ ق.م. (صا الحجر)

تف نخت	(٧٣٠ – ٧٢٠)
بكوريس (باك إن رنف)	(٧٢٠ – ٧١٥)

الأسرة الخامسة والعشرون : ٧٥١ – ٦٥٦ ق.م. (الأسرة الكوشية)

بعنخى	(٧٥١ – ٧١٦)
شاباكا	(٧١٦ – ٧٠١)
طهرقا	(٦٨٩ – ٦٦٣)
شبتاكا	(٧٠١ – ٦٨٩)
تانوت أمانى	(٦٦٣ – ٦٥٦)

الأسرة السادسة والعشرون : ٦٥٦ – ٥٢٥ ق.م.

بسمتك الأول	(٦٦٣ – ٦٠٩)
نكاو	(٦٠٩ – ٥٩٤)
بسمتك الثانى	(٥٩٤ – ٥٨٨)
پوريس (واح إب رع)	(٥٨٨ – ٥٦٨)
أحمس الثانى (أمازيس)	(٥٦٨ – ٥٢٦)
بسمتك الثالث	(٥٢٦ – ٥٢٥)

الأسرة السابعة والعشرون : ٥٢٥ – ٤٠٤ ق.م.

قمبيز	(٥٢٥ – ٥٢٢)
دارا الأول (داريوس)	(٥٢٢ – ٤٨٥)
خشيارشا (كسركسيس)	(٤٨٥ – ٤٦٤)
أرتخشاشا (ارتكسركسيس)	(٤٦٤ – ٤٢٤)
دارا الثانى	(٤٢٤ – ٤٠٤)

الأسرة الثامنة والعشرون : ٤٠٤ – ٣٩٨ ق.م.

أمون حر (أميرتايوس) (٤٠٤ – ٣٩٨)

الأسرة التاسعة والعشرون : ٣٩٨ – ٣٧٨ ق.م.

نفريتس الأول (نايف عاو رود) (٣٩٨ – ٣٩٢)

هكر (أكوريس) (٣٩٢ – ٣٨٠)

پى ساموت (پساموتيس) (٣٨٠ – ٣٧٩)

نفريتس الثانى (نايف عاو رود) (٣٧٩ – ٣٧٨)

الأسرة الثلاثون : ٣٧٨ – ٣٤١ ق.م.

نختنبو الثانى (نخت حر حب) (٣٥٩ – ٣٤١)

الغزو الفارسى الثانى : ٣٤١ – ٣٣٢ ق.م.

(ويطلق بعض المؤرخين على هذه الفترة اسم الأسرة الحادية والثلاثين)

أرتخشاشا (أرتكسركسيس) الثالث ، أوخوس ، (٣٤١ – ٣٣٨)

أرسيس (٣٣٥ – ٣٣٨)

دارا الثالث فى مصر (٣٣٥ – ٣٣٢)

الإسكندر الأكبر فى مصر : ٣٣٢

العصر البطلمى : ٣٣٢ – ٣٠ ق.م.

العصر الرومانى : ٣٠ ق.م. – ٣٩٥ ميلادية

العصر البيزنطى : ٣٩٥ – ٦٣٨ ميلادية

الفتح العربى : ٦٤٠ ميلادية

*** الفصل الأول ***

مولد الحضارة ونشأتها

طبيعة أرض مصر - أقدم العصور والحضارات - أهم المصادر لدراسة تاريخ مصر الفرعونية

(منذ أقدم العصور حتى بدء الأسرة الأولى حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م.)

عند ملتقى آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وحيث يتصل البحران الأبيض والأحمر يجرى نهر النيل ، ذلك النهر الكريم الوهاب ، وعلى شاطئيه يعيش المصريون منذ آلاف السنين يزرعون الأرض الخصبة المباركة .

ومن آلاف السنين أيضاً بدأ المصريون يخطون نحو المدنية ، وكانت خطاهم وئيدة فى البداية ، ثم أخذوا يسرعون فى تلك الخطى وكونوا حضارة هى ما نسميه الحضارة المصرية التى نشأت وترعرعت فى وادى النيل ، ولم يقتصر خيرها على المصريين وحدهم بل كان لها فضل غير قليل على من اتصل بالمصريين من الشعوب. ومن الخطأ أن يعتقد إنسان أن المصريين عاشوا فى وحدة ولم يتصلوا بغيرهم ، أو أنهم لم يتأثروا بمن كان يعيش فى ذلك الحين من شعوب الشرق القديم ، ولكن ذلك الاتصال كان محدود الأثر . ويمكننا أن نتتبع تطور تلك الحضارة على مدى الأجيال ، ولكن قبل أن نتكلم عن تاريخ مصر الفرعونية وحضارة المصريين القدماء منذ أقدم العصور يحسن بنا أن نقف قليلاً لنلم ببعض ما يجب الإلمام به عن طبيعة وادى النيل ، وبخاصة الجزء الأسفل منه ، وهو ما يسمى بأرض مصر .

طبيعة أرض مصر :

يرتبط تاريخ أى شعب إرتباطاً كبيراً بطبيعة أرضه ، ولهذا وجب علينا أن نلقى نظرة على طبيعة الأرض المصرية لنعرف مدى أثرها على حضارة تلك البلاد ، إذ أن لطبيعة الأرض أثراً عظيماً على تطور حضارتها ، بل أن هذا الأثر ما زال مستمراً إلى يومنا هذا ، وله وزن كبير فى تطور أحداثها التاريخية .

وإذا ألقينا نظرة على خريطة الإقليم المصرى فى الجمهورية العربية المتحدة لوجدنا أن مصر تتكون من سبع مناطق جغرافية وهى [1] :

---

(١) كان تأليف هذا الكتاب فى فترة قيام الجمهورية العربية المتحدة وهذه البيانات تعبر عن هذه الفترة .

١ – وادى النيل ، بما فيه الدلتا والصعيد .

٢ – محافظة الفيوم .
٣ – منطقة قنال السويس .
٤ – الصحراء الغربية
٥ – الصحراء الشرقية .
٦ – شبه جزيرة سيناء
٧ – جزر البحر الأحمر .

ومجموع مساحتها كلها حوالى مليون كيلو متر مربع ، منها ٣٧,٠٠٠ كيلو متر مربع تقريباً ، هى الوادى الآهل بالسكان ، أما الباقى فهو صحارى ، وبعبارة أخرى لا تزيد مساحة الجزء العامر من الأراضى المصرية عن ٤ ٪ من مساحة مصر ، أما الباقى فهو صحارى تكاد تكون خالية من الزراعة .

ويسكن ٩٩ ٪ من المصريين الذين يبلغ عددهم زهاء خمسة وعشرين مليوناً فى هذا الجزء البسيط من الجمهورية أى بمعدل أكثر من ٧٠٠ شخص للكيلو متر المربع الواحد بينما لا يسكن فى الجزء الباقى وهو ٩٦ ٪ من مجموعة المساحة أكثر من ١٣٠,٠٠٠ أى أن متوسط السكان فى الصحراء هو أكثر من سبعة كيلو مترات مربعة للشخص الواحد .

ولهذا يسهل علينا أن نفهم قيمة نهر النيل لمصر ، إذ لولا وجوده لكانت تلك الأراضى المزروعة التى يعيش فيها أكثر السكان ، صحراء مثل تلك التى على يمينها وعلى يسارها ، والتى تمتد من المحيط الأطلسى حتى بلاد العرب ؛ لأن هذه المنطقة أصبحت الآن (أى خلال الستة آلاف سنة الأخيرة) قليلة الأمطار ولا يزيد متوسط كمية الأمطار فى بعض جهات شاطىء البحر الأبيض عن ٢٠ سنتيمتراً فى السنة ، وفى القاهرة ٣ سم وفى أسيوط نصف سنتيمتر ، أى أنه لا يمكن أن تكفى لزراعة أى محصول بعيداً عن الشاطىء ، إذا كان الاعتماد على المطر وحده .

وطول الإقليم المصرى من الشمال إلى الجنوب ١٠٧٣ كيلو مترا ، وعرضه ١٢٢٦ كيلو مترا ، أى أن مساحة مصر تزيد على مساحة أى دولة فى أوربا ما عدا الاتحاد السوفيتى ، ولكن الصحراء تكون الجزء الأكبر منها كما سبق القول .

ويشق النيل طريقه فى واديه ، فيسير بين هضبتين يختلف اتساع الوادى بينهما من آن لآخر (طول وادى النيل بأكمله ٦٦٧١ كيلو مترا منها ١٥٣٠ فى الأراضى المصرية) ، وهذا الوادى ضيق جداً بين الشلال الثانى وأسوان وعلى جانبيه بعض الصخور الجرانيتية ، ولكنه يبدأ فى الاتساع بعد ذلك . ويضيق أحياناً أخرى ، هو فى المتوسط ١٠ كيلو مترات منها ٣/٤ كيلو متر للنيل نفسه ، أما الدلتا فهى مكونة من

طمى النيل ، وتخلو من الجبال ومسطحها نحو ٢٢,٠٠٠ كيلو متر مربع ولا تزيد مساحة المزروع منها عن النصف إلا قليلا .

العصور الجيولوجية :

ومرت على مصر عصور جيولوجية متعددة قبل أن تصبح آهلة بسكانها . ففى عصر الإيوسين (Eocene) كانت تصل مياه البحر الأبيض المتوسط إلى جنوبى إسنا، ثم حدث ارتفاع فى الأراضى فى عصر الأوليجوسين (Oligocene) أدى الى ظهور أكثر القطر المصرى .

وفى عصر الميوسين (Miocene) كان النيل قد إتخذ مجراه الحالى تقريبا واتصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ، ولكن لم يأت آخر هذا العصر حتى انفصل البحران مرة أخرى عن بعضهما .

كان اتصال النيل بالبحر الأبيض المتوسط عند موقع القاهرة تقريبا ، وكانت له عدة روافد فى الصحراء الشرقية لم يبق منها غير أثر مجاريها فى الوديان هناك .

وفى عصر البليوسين (Pliocene) حدثت هزةأرضية كبرى أعادت اتصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض . ولكن هذا الاتصال كان بوساطة جزء ضيق وهو الذى بقى منه فى العصور التاريخية خليج السويس . وبعض البحيرات .

وأخذ النيل يلقى برواسبه فى الفجوة التى كان يصب فيها ، وكون لنفسه فى تلك الأراضى الجديدة نحو عشرة فروع .

لم يأت العصر الباليوليتى على مصر (Paleolithic) حتى كانت روافد النيل فى الصحراء الشرقية قد جفت ، وانفصم خليج السويس عن البحر الأبيض وانكمش خليج العقبة إلى ما يقرب من شكله الحالى ، مع أن نهايته كانت عند منخفض البحر الميت فى فلسطين ، وظهرت أيضاً محافظة الفيوم إذ سار فرع من النيل إلى ذلك المنخفض الشبيه بالواحة ، وعادت عوامل الطبيعة فجففت فرعا للنيل كان يسير فى الصحراء الغربية منذ عصر الميوسين وبقى حتى نهاية عصر البليوسين .

أما النيلمنفسه ، فكان فى البداية سريع المجرى ويملأ الوادى أثناء الفيضان ولكنه أخذ يعمق مجراه مع مرور الزمن ، كما أخذت تقل كمية الأمطار ، فأخذ عرضه يقل تبعا لذلك وكون مدرجات على مدى العصور . وعاش الإنسان القديم فوق تلك المدرجات ، وترك بعض أدواته الظرانية (الصوانية) فوق الهضاب ثم أخذ ينزل تدريجياً ليكون على مقربة من النهر كلما تقدم به الزمن وعمق النهر مجراه .

عصر ما قبل التاريخ :

كان السكان الذين يعيشون على مقربة من نهر النيل يعتمدون على الصيد ، وكذلك فعل الذين كانوا يعيشون فى الصحراء معتمدين على نزول الأمطار التى كانت تملأ بعض المنخفضات فتحيلها إلى بحيرات ، تنبت حولها الأشجار والأحراش ، وتغذيها مياه الأمطار التى تنزل فيها ومجارى الوديان المختلفة التى تصب فى تلك المنخفضات .

وكثيراً ما يعثر الباحثون على أدوات ظرانية وأخشاب متحجرة داخل الصحراء، ولكن لم يصل إلى أيدى العلماء حتى الآن أى عظام أو بقايا أخرى من ذلك الإنسان الذى عاش فى العصر الحجرى فى تلك المناطق أو على جانبى النيل . ولهذا نعتمد فقط على تلك الأدوات الحجرية عند الكتابة عن هؤلاء السكان ومقارنة حضارتهم بحضارة غيرهم من الشعوب .

كان المصرى فى ذلك الوقت جامعاً للقوت يحصل على حاجته مما يجده من ثمارالأشجار ومما يستطيع أن يصطاده من أسماك النهر والبحيرات ، أو من الطيور وصغار الحيوانات . ومثل هذه الحياة تستلزم التنقل الدائم ، ولا تحتاج إلى ضرورة إقامة العائلات على مقربة من بعضها ، كما أنها لا تحتاج إلى أثاث ثقيل يحمله الإنسان معه .

وجاء اليوم الذى عرف فيه الإنسان أنه يستطيع أن يستنبت بعض حبوب النباتات البرية ويحصل منها على كميات كبيرة بعد زرعها ، وبعبارة أخرى أخذ المصرى يتحول تدريجياً من جامع للقوت إلى منتج له ، فأجبرته الزراعة على الإقامة فى مكان معين ليرعى حقله وليحصل على ثماره ، كما بدأ الإنسان يستأنس الحيوانات أيضاً ، ويبنى له مستقرا يأوى إليه ويضع فيه محصوله ، كما بدأ أيضا يصنع من بعض النباتات ومن الطين أوان لحفظ حاجياته . وعندما وصل الإنسان إلى هذه المرحلة ، أى بعد ترك اعتماده على حياة الصيد وجمع القوت اعتمادا كاملا ، أخذ يودع حياة العصر الحجرى القديم ، وأخذ يبدأ العصر الحجرى المتوسط الذى حسن فيه الإنسان بعض أدواته وأخذ يرتقى قليلا قليلا فى مدارج المدنية ، وبدأ يتحلى ببعض أدوات الزينة ، وما جاء العصر النيوليتى أو العصر الحجرى الحديث حتى كان هذا الإنسان يعيش فى قرى صغيرة ، وعرف الملابس وبدأ يدفن موتاه فى قبور ، وبدأ يصنع بعض التماثيل وأدوات الزينة .

ومن بين أقدم الحضارات التى عثر عليها العلماء فى وادى النيل بوجه عام

حضارة الخرطوم التى يرجع تاريخها إلى ما بين عامى ٥٠٠٠ ، ٤٧٠٠ ق.م. وقد ظهرت بقاياها أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهى حضارة لا شك فى صلتها بحضارة شمال الوادى ولكنها كانت متأثرة بطابع محلى أملته صلة السكان بغيرهم ممن كانوا يعيشون إلى الجنوب منهم . وكان سكان الخرطوم القدماء على درجة من التقدم جعلتهم يصنعون أدوات مختلفة من الحجر ومن العظم ، ويتحلون بالخرز والعقود المصنوعة من بيض النعام . وعرفوا صناعة الفخار وزخرفته بوساطة أجزاء من السلسلة الفقرية لبعض الأسماك تشبه المشط يديرونه حول الإناء قبل أن يجف ، كما كانوا يزخرفون الأوانى بوساطة الحبال أو أصابع اليد ، وكان هؤلاء السكان يعيشون على مرتفع غير بعيد من النهر يقضون فيه جزءاً من السنة فقط .

وليس لدينا دليل قاطع على أنهم مارسوا الزراعة رغم معرفتهم للفخار الذى يلازم الناس عندما يتحولون إلى الزراعة ويصبحون منتجين للقوت .

وهناك وجوه شبه عدة بين فخار الخرطوم وفخار البدارى وما عثر عليه المنقبون فى النوبة وفى غربى السودان مما يدل على انتشار ثقافة واحدة فى جزء كبير من هذا الجزء من العالم فى ذلك العهد . (١)

وتسمى الفترة بين بداية العصر النيوليتى (أى العصر الحجرى الحديث) وبين ظهور الأسرات فى مصر ، وتقرب من ألفى سنة ، العصر الحجرى النحاسى (Chal-colithic Period) أحياناً ، ويعنينا منها فى هذه المرحلة ما كان فى مصر قبل عام ٤٠٠٠ ق.م ونستطيع أن نقول إنه كان لكل من حضارتى الدلتا والصعيد مميزات خاصة ، ففى الدلتا تأثرت الحضارة بما كان فى شرقى مصر وغربيها لاتصالها بأهل فلسطين وسورية وجزر البحر الأبيض المتوسط من ناحية وبشمالى إفريقيا من ناحية أخرى . أما فى الصعيد فقد اتصلت عن طريق الشرق أى عن طريق البحر الأحمر ببعض الثقافات الأخرى الحامية والسامية كما اتصلت أيضا بالشعوب التى كانت إلى جنوبى مصر .

وأقدم حضارات الشمال (أى الدلتا) هى حضارة الفيوم التى كانت لقوم ربما نزحوا من الغرب واستقروا على حافة البحيرة ، ثم تليها حضارة مرمدة وكلاهما كان قبل عام ٤٠٠٠ ق.م. ثم تلتها بعد ذلك حضارة جرزة ثم المعادى ، أما الصعيد فإن

---

(١) ARKELL. Early Khartoum (Oxford, 1919)
وانظر أيضاً تلخيصاً ونقداً لهذا المؤلف نشره مؤلف هذا الكتاب فى المجلة التاريخية المصرية عدد مايو ١٩٤٩ ص ٢٠٧ – ٢١٥ .

أقدم الحضارات هى حضارة تاسا ثم البدارى وبعدها حضارة العمرة [١] . ويكفينا أن نتكلم على مميزات حضارتى مرمدة فى غربى الدلتا والبدارى فى محافظة أسيوط لأنهما تمثلان بوجه عام مصر وجنوبيها .

حضارة مرمدة :

عثر الأستاذ هرمان يونكر على هذه الحضارة فى عام ١٩٢٨ ، ولم ينشر حتى الآن مؤلفه الكامل عنها ، وكل ما نعرفه مستمد من تقاريره السنوية التى نشرها بين أعوام ١٩٢٩ ، ١٩٤٠ وهذه المنطقة هى بقايا قرية نيوليتية على حافة الدلتا الغربية ، لا يزيد حجمها على ستة أفدنة (٦٠٠ × ٤٠٠ متر) ، شيد أهلها أكواخهم المبنية بالطين على جانبى طريق رئيسى مستقيم .

وقد ثبت أن سكان مرمدة كانوا يعرفون الزراعة وكانوا متعاونين فيما بينهم ويخزنون غلاتهم فى صوامع مشتركة لهم جميعاً ، وكان لديهم قطعان من الماشية والخنازير وقليل من الماعز والخراف .

واستعملوا فى الزراعة شرشرة مستقيمة من الخشب ثبتوا فى حافتها قطعاً من الظران ليقطعوا بها أعواد القمح التى كانوا يخزنونها فى صوامعهم التى صنعوها من الخوص ، وكانوا يضعونها فى حفر عميقة تحت مستوى سطح الأرض . وعرف أهل مرمدة فأس القتال كما عرفوا استعمال السهام وكان لديهم دبابيس للحرب وسكاكين من الظران .

ولا يخالجنا شك فى أن سكان مرمدة كانوا يلبسون الكتان بعد غزله ، وأن نساءهم كن يتحلين بعقود من المحار أو أسنان الخنزير البرى ، وبخواتم من العظم وحلقان من العاج . وكان لكل امرأة لوح من حجر الإردواز تصحن عليه التوتية الخضراء لتكحيل عينيها لأجل التجمل ولوقايتها من أشعة الشمس ، وربما أيضاً ضد بعض أمراض العيون . وفخارهم أسود خشن ، وشكله على هيئة قرب الماء ، ومنه بعض أنواع ذات قواعد ، وأوان صغيرة على شكل فناجين ذات أرجل ، وأحياناً يتصل اثنان منها ببعضهما . وكان لديهم أوان طويلة العنق تشبه القلة الحديثة ، كما صنعوا أيضاً صوان صغيرة من الفخار . ولم يزخرف سكان مرمدة أوانيهم ولم يصنعوا لها أيادٍ على جانبيها ولكنهم كانوا يعملون ثقوباً فى جوانبها لتعليقها .

(١) هذا هو الترتيب الذى إتفق عليه أكثر العلماء حديثاً ، أما قبل الآن فكانوا يضعون حضارة نقادة الأولى فى العصر الذى تشغله العمرة ، ونقادة ثانية فى العصر الذى تشغله حضارة جرزة أى حوالى عام ٣٥٠٠ ق.م. انظر
FRANKFORT, The Birth of Cyilization in near East p.42 Footnotes, 3 and 5.

ومن أهم ما عثر عليه يونكر فى منازل تلك القرية وجود أعمدة فى بعض المنازل لحمل السقف . أقاموها فى وسط الحجرة . كما عثر فى ركن إحدى الحجرات على عظمة كبيرة من عظام فرس البحر كانت مثبتة لاستعمالها سلماً للصعود إلى السطح . وكانوا يدفنون موتاهم تحت أرضية أكواخهم كما فعل كثيرون من سكان الشرق القديم دون أن يضعوا معهم أوان أو أسلحة .

وقد ثبت من فحص بقايا الهياكل العظمية لهؤلاء السكان أنهم كانوا فرعاً من جنس سكان البحر الأبيض المتوسط ذوى رؤوس تميل الى الاستطالة وجباههم عريضة ، وهم فرع من حضارة انتشرت على شاطىء إفريقيا الشمالى ووصلت إلى أوروبا حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م.

ولم تتصل حضارة مرمدة بحضارة البدارى إتصالاً مباشراً أو كان لها أثر مهم عليها ، بل إستمرت فى الدلتا .

حضارة البداري :

لم يكن سكان الصعيد ، فى ذلك الوقت ، قد إستقروا فى مدن أو قرى كبيرة ثابتة ، بل كانوا يسكنون فى محلات أو نجوع متنقلة ، ولكنهم إختاروا أماكن يدفنون فيها موتاهم وهى الجبانات . وإذا درسنا حضارة البدارى لرأينا فيها شبها كبيراً بحضارة سكان الصحراء الغربية القدماء وبخاصة أهل العوينات ولرأينا أنها لم تخل من التأثر بالحاميين . ولسنا نعرف حتى الآن أى مكان شمالى محافظة أسيوط تأثر بهذه الحضارة ، بل كان إنتشارها إلى الجنوب ، ونراها فى بلاد النوبة أيضاً بل وأبعد من ذلك .

كان الجو فى ذلك العهد أكثر أمطاراً ودفئاً عما هو عليه الآن ، وكان السكان يعيشون فوق المرتفعات التى تشرف على المساحات الواسعة من الأحراش والمستنقعات الملأى بالنباتات المختلفة وبخاصة نبات البردى . ولم يبق إلا القليل من القرية أو القرى التى عاشوا فيها ، وأكثر ما وصلنا من معلومات عن أهلها إنما جاء من حفائر الجبانات الكثيرة . وكان البداريون أقرب إلى القصر منهم إلى الطول إذ لم يزيدوا فى المتوسط عن ١٦٠ سنتيمتراً . وكانوا نحاف الجسم ، وتقطايع وجوههم دقيقة ، وشعرهم متموج أسود ، وفى بعض الحالات القليلة كان لون شعورهم كستنائياً . وكان الرجال يرسلون شعورهم على أكتافهم ، بينما كان شعر النساء أقصر من شعر الرجال ولم يزد طول شعر امرأة فيهم عن ٢٠ سنتيمترا يضفرنه فى غدائر ، وكان رجال البدارى يعنون بمظهرهم الخارجى ، فيحلقون لحاهم ، ويضعون طاقية فوق رؤوسهم . وعرف

البداريون الملابس الكتانية ، كانوا يلبسونها رجالاً ونساء وأطفالا ، وعند اشتداد البرد كانوا يلبسون الجلود وصوفها إلى الداخل ، كما عرفوا أيضاً دبغ الجلود .

وكانوا يحلون أعناقهم وأذرعهم بالعقود والأساور المصنوعة غالباً من حبات مزججة ، وكانوا يزينون شعورهم بوضع الريش فيها ، وأحياناً بوضع أمشاط طويلة من العاج زينت رؤوسها بأشكال الحيوانات ، كما كان يضع بعضهم حول شعورهم عصابات زاهية اللون محلاة بأصداف البحر الأحمر .

ومن أهم ما عثر عليه فى مقابرهم بعض حبات من النحاس المطروق ، كما إستخدموا فى حليهم حبات من الفيروز والعقيق والكوارتز ، وحبات مصنوعة من قشر بيض النعام . وكان بعض النساء يحلين أنوفهم بوضع زر صغير ، يثبتون نتوءاً صغيراً فى أحد طرفيه فى ثقب داخل الأنف ، وعرفت النساء إستعمال الكحل للعيون واللون الأحمر للشفاه .

أما مساكنهم فكانت بسيطة بدائية ، وضعوا فيها الأثاث البسيط ، منها أسرة خشبية قليلة الارتفاع ، كما كانوا يستعملون وسادات من الجلد أو الكتان المحشو بالتبن.

ومن بين أدواتهم عثر على عصى للرماية وشصوص لصيد السمك ، والحراب والسهام ، كما عثر أيضاً على نماذج للقوارب .

ووضعوا موتاهم فى قبورهم أحياناً فوق الأسرة ، أو ملفوفة فى حصير ، ولم يقتصر الدفن على البشر بل أن بعضهم دفن معه غزلانا وقططا ، وكانوا يضعون رؤوس الموتى فوق وسائد ، ويحرصون على أن تكون وجوهها نحو مطلع الشمس مهما كان مكان القبر أو اتجاهه فى الجبانة .

ويمتاز فخار البدارى بإتقانه وجمال زخارفه وصلابة مادته ، ورقة جدران أوانيه ، ولا شك أن البداريين آمنوا بالبعث ، وكانوا يضعون معهم فى قبورهم بعض تماثيل قليلة للحيوانات وبخاصة فرس النهر ، وهناك تماثيل أخرى للنساء وللطيور ، ولكن ذلك لا يعنى أنهم كانوا حتما يعبدون تلك الحيوانات .

ولو أمعنا النظر فى هذه الحضارات لوجدنا أنها تشبه فى كثير من مظاهرها حياة بعض سكان شرقى إفريقيا اليوم وبخاصة قبائل البشارية والهادندوة وبعض قبائل الصومال وكلهم من الجنس الحامى الأصل .

ولا تقتصر المقارنة على إفريقيا فقط بل إنها تمتد إلى جنوبى الجزيرة العربية ، ومتى أمكننا دراسة تلك الشعوب المختلفة دراسة كاملة أمكننا أن نحدد ما يربطها

بالمصريين القدماء من صلات ، ولكن هذه الدراسات ما زالت في بدايتها حتى الآن (١) .

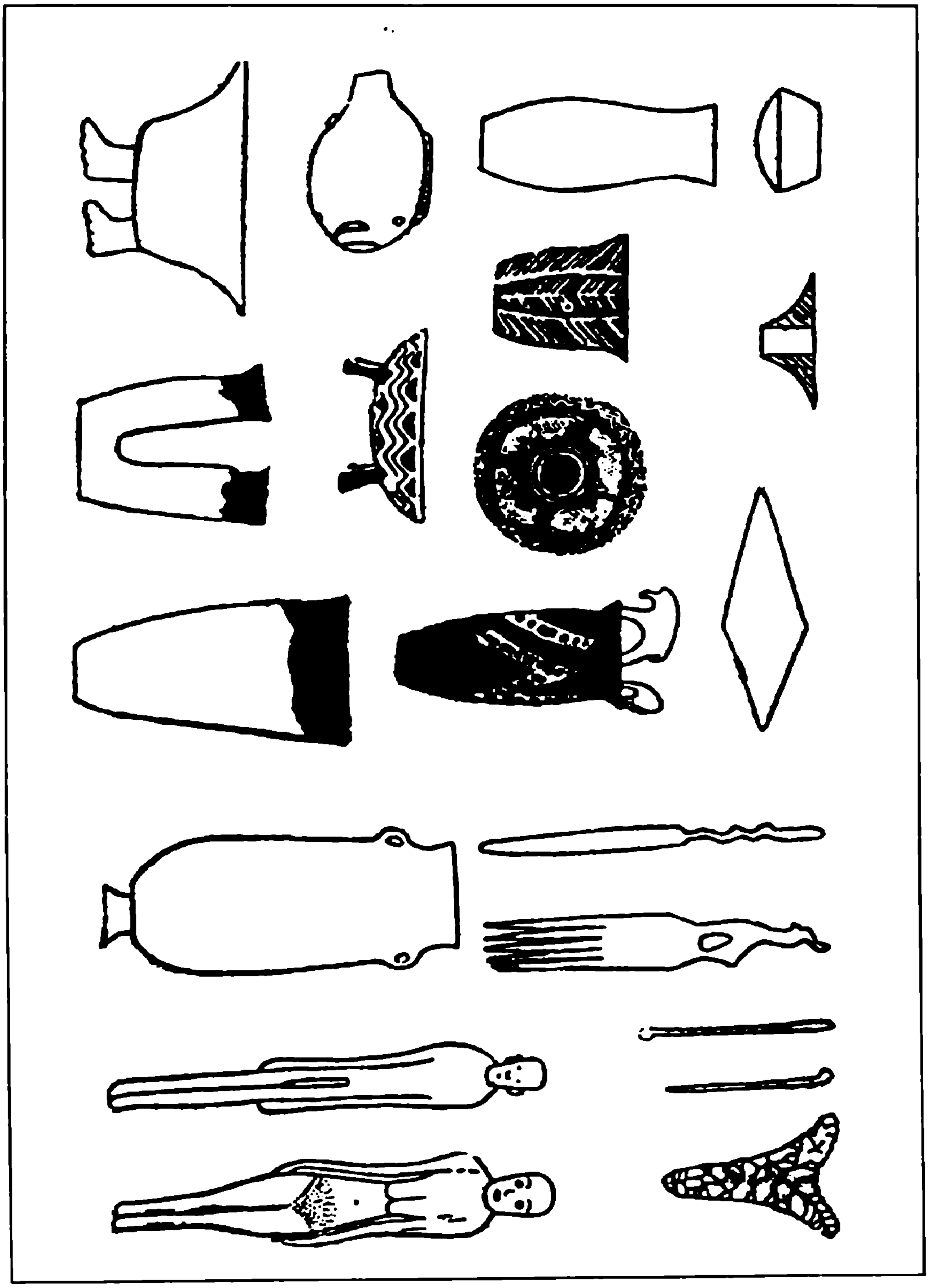
نظرة عامة في عصر ما قبل الأسرات

والآن وقد عرفنا شيئا عن حضارتي مرمدة والبداري ، كلاهما يرجع تاريخه إلى حوالي عام ٤٤٠٠ ق.م. يمكننا أن نلخص حياة المصريين القدماء في ذلك العهد بأنهم كانوا قد عرفوا الزراعة واستخدام معدن النحاس ، ولو في نطاق ضيق ، كما بدأوا حياة متحضرة بعض الشيء . وتقدمت الأيام ، وتقدم معها إرتقاء السكان ، واضطرتهم حياة الاستقرار إلى التعاون فيما بينهم ، فقد كان لزاماً عليهم أن يشقوا القنوات ليوصلوا مياه النيل إلى الأماكن البعيدة عن النهر ، كما اضطروا أيضاً إلى تجفيف بعض المستنقعات وإخلائها من الأشجار ، كما اضطروا للتعاون على حماية أنفسهم وقراهم ومحاصيلهم من أخطار فيضان النيل . كانت هذه الأعمال جميعاً تستلزم تعاون عدد كبير من الناس ، وتستلزم أيضاً وجود زعيم يحترم الجميع أوامره فينفذوها ويخاف الناس عقابه إذا لزم الأمر . وفرضت طبيعة أرض مصر أن يتجمع عدد كبير من السكان في قرى قريبة من بعضها في الأماكن التي يتسع فيها الوادي ، فلم يمض وقت طويل حتى تكونت وحدات إقليمية كان لكل منها زعيم له السلطة على من حوله .

وحدث مثل ذلك في الدلتا أيضاً ، وكان العامل الأساسي في تحديد أقاليمها المختلفة هو مجاري الأنهار . أو بعض المظاهر الجغرافية الأخرى ، وانتهى الأمر بتقسيم كل من الدلتا والصعيد إلى أقاليم محددة لكل منها اسم يطلق عليه ، ولكن حدود هذا التقسيم لم تكن ثابتة على الدوام . فمن حين لآخر كان يظهر زعيم قوي في أحد الأقاليم يضم إليه شيئاً مما جاوره ، وأخيراً تجمعت أقاليم الدلتا تحت سلطة حاكم واحد وحدث الشيء نفسه في أقاليم الصعيد ، وأصبح هناك ملكان أحدهما للشمال وكان يتخذ النحلة شعاراً له ويلبس تاجاً أحمر اللون ، والآخر للجنوب ويتخذ نباتا يسمى ، سوت ، شعاراً له ويلبس تاجاً أبيض اللون .

وفي وقت من الأوقات ، وربما كان ذلك حوالي عام ٣٤٠٠ ق.م. ، تغلبت الدلتا على الصعيد وتوحدت مصر تحت حكم الشمال ، ولكن لم يستمر هذا الاتحاد الأول ، وعاد كل من الشمال والجنوب إلى استقلاله . وحوالي عام ٣٢٠٠ ق.م. تقريبا أغار ملك الصعيد فأخضع الدلتا ووحد البلاد وأسس الأسرة الأولى المصرية . ولكن

(١) اقرأ عن هذا الموضوع ما كتبته في كتابي ، اليمن ، ماضيها وحاضرها ، . (القاهرة ١٩٥٧ – مطبوعات المعهد العالي للدراسات العربية) ص – ٦٣ وما بعدها .



أوانى وأدوات مختلفة من عصر ماقبل الأسرات المبكر

هناك رأى آخر وهو أن الاتحاد الأول قد استمر إلى قبيل ظهور الأسرة الأولى وأن أهل الصعيد ثاروا وأرادوا الإستقلال بإقليمهم فحاربوا وانتصروا وقضوا على سلطان الشماليين وأصبحوا هم سادة البلاد كلها وكونوا الاتحاد الثانى .

كانت القرون القليلة السابقة على الأسرة الأولى ، هى الفترة التى وضعت فيها مصر أسس حضارتها التى ظلت بعد ذلك آلاف السنين ، ووضعت فيها أصول دياناتها، ووضعت أسس نظمها المحلية ، ووضعت تقاليد الملكية ، وتفاعلت فيها الثقافات المختلفة . ولم تكن عزلة مصر الجغرافية مانعة لها من الاتصال بغيرها من أمم الشرق القديم وبخاصة بلاد الرافدين ، لأن تلك الفترة من تاريخ العالم القديم كانت فترة إتصالات تجارية واسعة ، ولم تر مصر غضاضة فى أن تنقل من حضارة بلاد الرافدين بعض مظاهرها ، وموضوعات الفن السومرى وبخاصة فى رسم الحيوانات.

ولا شك أن تلك المؤثرات وصلت عن طريق التجارة فى البحر الأحمر وجاءت إلى الصعيد عن طريق وادى الحمامات ، ولهذا نجد أثرها واضحاً هناك وقد أمدتنا جبانات الصعيد بأكثر معلوماتنا عن ذلك العصر مما احتفظت به آلاف القبور التى كشفت عنها الحفائر فى محافظتى قنا وجرجا ؛ لأن تلك القبور كانت فى جبانات أحتاط القدماء فى اختيار أمكنتها وجعلوها على حافة الصحراء فوق أعلى ما يمكن أن تصل إليه مياه الفيضان ، وكانوا يختارون أمكنتها بعيدة عن الأراضى المزروعة فلا تصل إليها الرطوبة . وساعد جفاف الجو وندرة نزول الأمطار على بقائها سليمة حتى الآن ، وكانت الرمال الجافة خير حام لها خلال تلك الآلاف من السنين .

أما آثار ذلك العصر فى مدن الدلتا ، وهى دون شك لا تقل فى أهميتها عن آثار الصعيد ، فقد غطاها الطمى منذ زمن بعيد وأصبحت الآن تحت مستوى الزراعة اللهم إلا ما كان منها على حافة الدلتا أو فى أماكن مرتفعة فى وسطها ، ولهذا أثرت فيها الرطوبة ولم يعد لنا أمل كبير فى العثور على شىء فى حالة جيدة تحت الأراضى المزروعة اللهم إلا إذا كان من الفخار أو من بعض أنواع الحجر التى لا تتأثر كثيراً بالرطوبة ، أو من معدن الذهب .

ولا شك أن فقد آثار الدلتا التى كانت متصلة بالبلاد التى على الناحيتين الشرقية والغربية من مصر ، ومتصلة كذلك بالبحر الأبيض قد تسبب فى ضياع كثير مما يهمنا الوقوف عليه سواء عن صلة مصر بغيرها من الشعوب أو عن أصل الحضارة المصرية نفسها .

د:

ولهذا لم يبق لدينا إلا آثار الصعيد فقط لنتحدث عنها كآثار مصر بصفة عامة فى ذلك العصر ، ونعمم ما وقفنا عليه من مظاهر الحضارة فى الصعيد كأنه يمثل حضارة مصر كلها وهو أمر لا شك فى أنه عرضة للنقد . وقد سبق أن رأينا وجوه الاختلاف الجوهرية بين حضارتى مرمدة والبدارى ، ولا جدال فى أنه كانت هناك اختلافات جوهرية بين مظاهر حضارتى الشمال والجنوب فيما تلا ذلك من عصور قبل أن تزداد الصلة بينهما ، وتعم البلاد كلها حضارة ذات طابع عام بعد إتحاد الشمال والجنوب ، ذلك الاتحاد السياسي والاجتماعى تحت حكم ملك واحد فى عصر الأسرات.

وعثر الباحثون على مئات الآلاف من الأوانى والآثار الصغيرة المختلفة وأكثرها فى قبور الجبانات وقليل منها فى منازل بعض القرى مثل قرية العمرى التى كانت على مقربة من حلوان والمعادى والهمامية والمحاسنة ، وهى كلها منازل بسيطة أقرب إلى الأكواخ ، بعضها مستدير أو بيضاوى وجدرانها من أعواد بعض النباتات بعد ضمها لبعضها وتثبيتها ثم لطسها بالطين ، أما السقف فكان أيضاً من أعواد النباتات الجافة ومغطى بالقش .

ولدينا فى المعادى خير الأمثلة على منازل ذلك العصر ، فقد عثرت بعثة جامعة القاهرة التى بدأت حفائرها فى تلك المنطقة عام ١٩٢٨ ، وما زالت تعمل حتى الآن ، على آثار من أهم ما وصل إلى أيدينا حتى الآن ، وألقت ضوءاً كبيراً على حضارة مصر فى الوقت الذى أخذت تودع فيه عصر ما قبل الأسرات القديم والمتوسط وتدخل فيما نسميه عصر قبيل الأسرات .

عثر الحفارون هناك على قرية كبيرة فيها المنازل التى سكنها هؤلاء القوم ، ويمكننا أن نقول إنه يمكن تمييز نوعين من المنازل ، أقدمها كان مستديراً أو بيضاوياً ، وكانت له قوائم مغروسة فى الأرض ، يملأون المسافات التى بينها بأغصان مضفورة ويلطسونها بعد ذلك بالطين . وفى داخل تلك المنازل البسيطة ، التى كانت على الأرجح غير مسقوفة ، كانوا يضعون المصطلى الذى يطهون فيه طعامهم ويمدهم بالدفء إذا ما اشتد عليهم البرد .

أما النوع الآخر من المنازل ، وهو أحدث عهداً من النوع السابق ، فكان مستطيلاً ، وكان مشيداً بطريقة القوائم المغروسة كالنوع الأقدم ، أما بابه فكان يفتح فى منتصف الواجهة التى كانت فى إحدى الجهات الطولية ، وقد زادوا على هذا النوع

من المنازل جداراً أمام المدخل يحمى من فى داخل المنزل من الريح ومن نظرات المارين فى الطريق .

وليست بقايا منازل القرى ، وهى لا تزيد فى الغالب عن الأساسات التى لا تعطينا أكثر من رسمها التخطيطى العام ، هى كل مصدرنا عن معرفة منازل ذلك العهد ، فلدينا مصدران آخران وهما بعض نماذج المنازل المصنوعة من الطين أو الفخار ورسوم بعضها على أيادى السكاكين كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ولا يستطيع إنسان أن يضع تواريخا ثابتة معروفة لما نعثر عليه من آثار عصر ما قبل الأسرات ، ولكنا نعرف على وجه تقريبى أن بعضها أقدم من البعض الآخر ، ولكن لا يمكن أن نقول شيئا محدداً أو على وجه الدقة عن الفرق فى التاريخ بين الاثنين .

وأكثر العلماء نشاطا فى حفائر ذلك العصر كان فلندرز بترى الذى حفر جبانات متعددة تعد بالآلاف فى ، نقادة ، وفى ، هو ، (وكلاهما فى محافظة قنا) وغيرهما ووضع لها ترتيبا لم يبدؤه من ١ بل من رقم ٣٠ لعله تظهر حضارات أقدم مما عثر عليه . وانتهى عند ٨٠ ، وجعل بترى ظهور الملك ، منا ، عند رقم ٧٧ ولكن الأبحاث الحديثة تميل الآن إلى جعل بداية الأسرة الأولى عند رقم ٦٠ فقط .

فلما عثر برنتون على حضارة البدارى وضعها بين ٢٠ ، ٢٩ إذ يبدأ عصر ما قبل الأسرات بحضارة العمرة برقم ٣٠ .

وعلى أى حال فهناك مآخذ كثيرة على هذا الترتيب ، ولكنه مهما قيل فيه فإنه خير من لا شيء ، ولم يقم أحد بعد بترى بوضع نظام آخر يحل مكانه إذا قررنا إهماله وعدم الأخذ به .

وأحدث الأبحاث تفضل التواريخ الآتية :

حضارة حلوان (العمرى)	حوالى	٥٠٠٠ ق.م
حضارة تاسا	حوالى	٤٨٠٠ ق.م
حضارة البدارى	حوالى	٤٥٠٠ ق.م
حضارة مرمدة	حوالى	٤٤٠٠ ق.م
حضارة العمرة	بين ٤٤٠٠ ، ٣٩٥٠ ق.م	
حضارة جرزة وهى معاصرة تقريبا للمعادى	بين ٣٩٥٠ ، ٣٤٠٠ ق.م	

بدء الأسرة الأولى حوالى ٣٢٠٠ ق.م (١)

ويكفينا هذا القدر من الحديث على الحضارات القديمة فى عصر ما قبل الأسرات ولننتقل الآن الى قبيل عصر الأسرات أو عصر ما قبل الأسرات المتأخر الذى هيأ مصر لبدء عصرها التاريخى.

قبيل الأسرات

حوالى عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد كانت الحضارة المصرية قد وصلت إلى درجة متقدمة إلى حد ما ، وقد أشرنا إلى هذا التقدم وأشرنا إلى الأوانى الفخارية المزخرفة ذات الأشكال المتعددة التى ظهرت قبل ذلك الوقت ، كما أشرنا أيضاً إلى وجود بعض تماثيل إنسانية وبخاصة للنساء وبعض أدوات الزينة وأهمها أمشاط الشعر المصنوعة من العاج والتى صنعوا الجزء الأعلى منها على هيئة حيوانات مختلفة ، كما أشرنا أيضاً إلى الألواح المصنوعة من الإردواز على هيئة الحيوانات أيضاً ، والتى كانت تستخدم لصحن الكحل . والمفهوم أن الدلتا فى ذلك الوقت البعيد كانت أكثر تقدماً من الصعيد ، وأن مصر كانت قد وصلت إلى تكوين مجموعتين من الأقاليم إحداهما فى الشمال وأصبح لها ملك ، وأخرى فى الجنوب وكانت أيضا تحت حكم ملك آخر .

وكان لملك الدلتا تاج خاص به ذو لون أحمر وربما كان مضفورا من بعض النباتات ، ولملك الصعيد تاج مختلف قمعى الشكل تقريبا وربما كان من الجلد أو اللباد . وكان مركز عبادة الإله حورس (الصقر) فى أول الأمر فى غربى الدلتا ، وكان هناك إله آخر فى شرقى الدلتا وهو الإله ، عنجتى ، ولكن لم يلبث حورس حتى تغلب عليه وأصبح إلها للدلتا كلها عند توحيدها . أما فى الصعيد فكان الإله ، ست ، هو الإله الذى يتغلب نفوذه على ما عداه من الآلهة ، وكان مركز عبادته فى مدينة ، نوبت ، فى محافظة قنا عند بلدة طوخ الحالية شمالى نقادة .

وفى وقت من الأوقات تغلبت الدلتا على الصعيد وكونت مملكة واحدة وأصبح للإله ، حورس ، مركز أهم من مركز ، ست ، وأصبحت مدينة ، هيراقونبوليس ،

(١) هناك إختلاف بين علماء الدراسات المصرية القديمة فى تحديد بدء الأسرة الأولى ، وإنى شخصياً أفضل عام ٣٢٠٠ ق.م. ولو أن بعض الزملاء يفضل تاريخاً آخر . فقد كان بورخارت يعتقد أن ذلك يقع بين عامى ٤٠٥٠ ، ٣٨٥٠ ق.م. ، وما زالت مرجريت مرى تؤمن برأى بترى فى أن الأسرة الأولى تبدأ عام ٤٧٧٧ ق.م. ، ولكن أبحاث إدوارد ماير نزلت بهذه التواريخ المرتفعة وتبعه فى ذلك أكثر العلماء . وما زلنا حتى الآن نرى بعض الباحثين يميلون إلى تواريخ أخرى مثل ٣٤٠٠ ، ٣٣١٥ ، ٣١٨٠ ، ٣١٠٠ ، ٣٠٠٠٠ بل أن بعض المؤرخين قد نزل ببدء الأسرة الأولى إلى عام ٢٨٥٠ ق.م.

ومكانها الآن الكوم الأحمر (وكانت تسمى نخن) شمالى إدفو مركزا رئيسيا لعبادته فى العصر الذى نسميه أواخر عصر ما قبل الأسرات أو قبيل عصر الأسرات .

ولم يعد أمر الاتحاد الأول فى مصر فرضا من الفروض كما كان من قبل ، بل أصبح الآن حقيقة مقررة بعد دراسة حجرپالرمو وبخاصة إحدى قطعه الموجودة الآن فى متحف القاهرة وغيره من آثار ذلك العهد . وليس لدينا أى معلومات مؤكدة عن مكان عاصمة تلك المملكة الموحدة وإن كانت هليوبوليس (على مقربة من القاهرة الحالية) هى المدينة التى يكاد يجمع الباحثون على أنها كانت عاصمة تلك المملكة.

ولكن قبل ذلك الاتحاد كانت مدينة « بوتو » فى غرب الدلتا (ومكانها الآن تل الفراعين) ، هى عاصمة مملكة الدلتا وكانت الهتها تسمى « واچيت » ، ويرمز لها بثعبان الكوبرا ، وكان ملكها يلبس التاج الأحمر وهو الذى كان فى أصله رمزا للإلهة « نيت » إلهة مدينة سا (سايس – صا الحجر) ، واتخذ له شعارا نبات البردى وكان ملكه يشمل الدلتا وجزءا قليلا من مدخل الصعيد ، أما ملك الصعيد فقد كانت عاصمته فى الكاب وهى أمام الكوم الأحمر (نخن – هيراقونپوليس) التى كانت قبل ذلك مقر عبادة الإلهة « نخبت » ويرمز له بالرحمة ويلبس ملكها التاج الأبيض واتخذ شعارا له نباتا آخر يسمى « سوت » (١) ووصلت حدود هذه المملكة جنوبا الى الشلال.

وأصبح الإله حورس هو الإله الرئيسى فى كل من المملكتين ، بل أصبح الملك فى كل منهما هو الممثل لحورس على الأرض أثناء حياته ، وكانوا يعطون للملك اسما آخر الى جانب اسمه الأصلى عند توليه العرش وهذا الاسم الجديد يسمى الاسم الحورى وكان يكتب فى مستطيل يعلوه الإله حورس ، وكان يستخدم كلا الاسمين أو واحدا منهم ، فلما توحد الشمال والجنوب كان الملك يلبس تاجا يجمع بين التاجين وهو التاج المزدوج واحتفظ بلقب حورس كما كان يفعل الملوك من قبل (٢).

ولا شك أن حضارة الدلتا خلفت وراءها آثارا ، وبخاصة فى العاصمة وفى المدن الرئيسية ، ولكن تلك المدن أصبحت الآن تحت مستوى الأراضى المزروعة كما قلنا ، ولم تقم أى حفائر على نطاق واسع فى مدن الدلتا حتى الآن ، ولهذا لم يكد يصل إلى أيدينا شيء من آثار ذلك العصر بينما وصلت إلى أيدينا آثار كثيرة من

(١) إختلفت الآراء فى هذا النبات ففى رأى البعض أنه فى الأصل نبات الحلفا وفى رأى البعض الأخر نبات الزنبق .
(٢) كان المصريون فيما بعد يشيرون إلى هؤلاء الملوك سواء الذين حكموا فى الدلتا أو حكموا فى الصعيد بأنهم أتباع أو عبدة حورس وكانوا ينظرون إليهم نظرة تقديس خاصة .

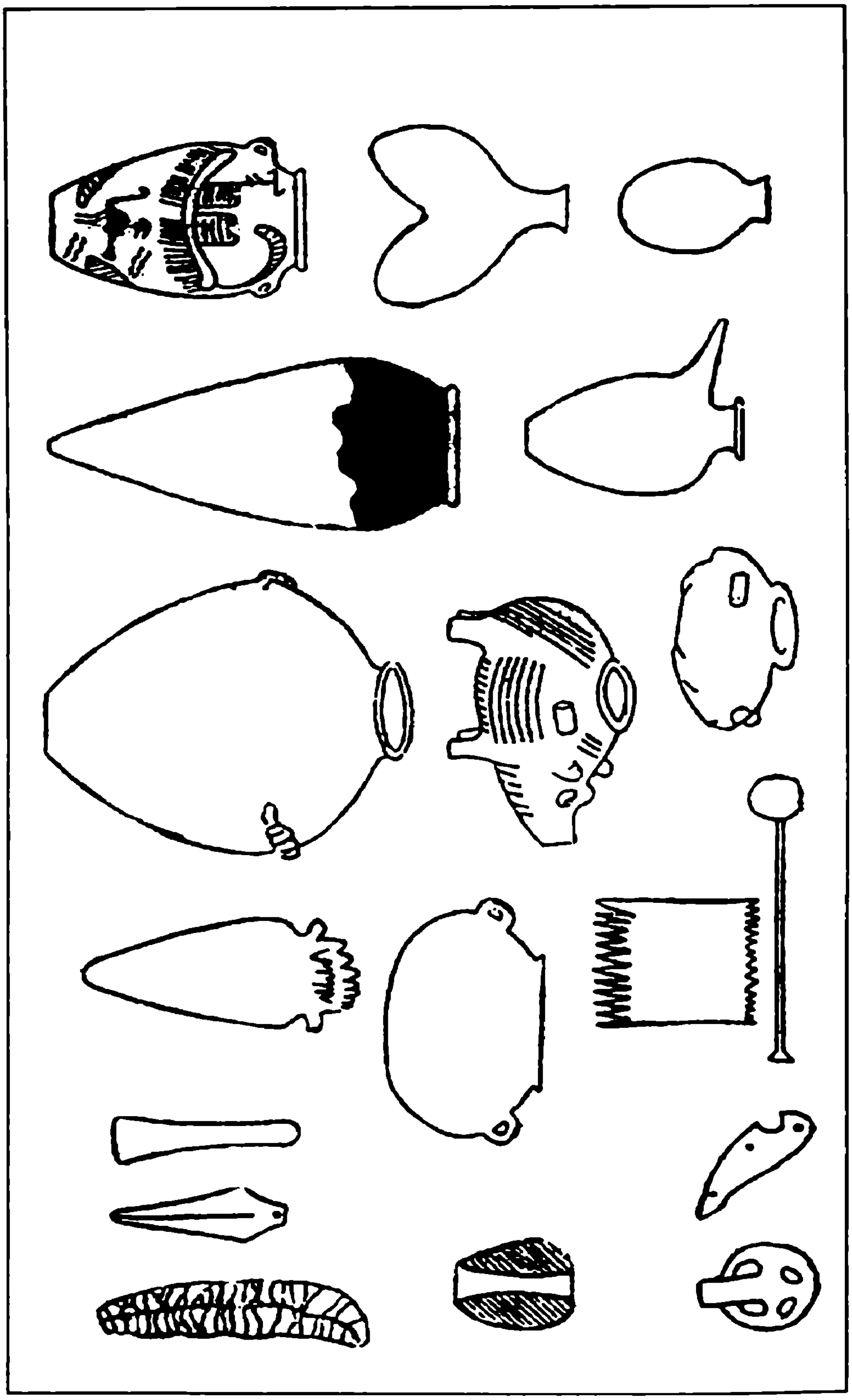
الصعيد وبخاصة حول العاصمة القديمة في هيراقونپوليس وفي بعض المناطق الأخرى .

ولا تقتصر آثار تلك الفترة على الأشياء التي عرفناها من قبل مثل الفخار وأدوات الزينة بل نرى تطوراً ظاهراً ، فلم تعد الأجزاء العليا من الأمشاط العاجية على هيئة حيوانات بل أصبحت تزخرف على وجهيها برسوم مختلفة لحيوانات متعددة ترسم صفوفاً تحت بعضها البعض ، نعرف من بينها الفيل الإفريقي والبجع والزرافة والأسد والضبع والغزال والثور الافريقي والخنزير البري ، كما نرى أيضا أياداً للسكاكين الظرانية صنعت هي الأخرى من العاج أو صفائح الذهب وزخرفوا وجهيها إما برسوم حيوانات تشير إلى حوادث معينة وبخاصة ما يتعلق بالإنتصار على الأعداء.

أما ألواح الإردواز التي تستخدم لصحن الكحل فقد تطورت هي الأخرى وأصبحت الألواح التي تصنع للملوك تزخرف برسوم حيوانات مختلفة ، بعضها في صفوف متراصة والبعض الآخر يمثلها أثناء الصيد ، وصارت ألواح الملوك أكبر حجما وعلى صورة درع الحرب . وعثر أيضا على عدد غير قليل من دبابيس القتال وهي مزخرفة بمناظر تمثل الحروف التي انتصر فيها أصحابها على أعدائهم ، ويظهر فيها الملك على هيئة ثور يقضي على أعدائه أو كأسد ينهش أجسادهم . وكثيرا ما نرى الأسرى مكبلين بالأغلال ، أو نرى الحصون التي إستولوا عليها وقد كتبت أسماؤهم في داخلها . وهناك أيضاً تماثيل وأدوات منزلية ، بعضها من العاج ، ونماذج من الطين أو العاج لبعض الزوارق أو المنازل .

وإذا أمعنا النظر في هذه الآثار المختلفة نرى أن المصريين بدأوا في ذلك العهد البعيد يستقرون على الأوضاع الفنية الخاصة بهم في الرسم وفي عمل التماثيل ، ونرى تقدما كبيرا في جميع النواحي . ولا شك أيضا أن تلك النهضة جاءت على أثر التقدم في الزراعة وعناية الناس بحفر القنوات والترع إذ قلما نجد أثرا ملكيا دون أن نرى عليه صورة الملك وهو يقوم بالتقليد المعروف وهو إمساكه بالفأس يضرب به الأرض إيذانا بالبدء في مثل ذلك العمل ، كما نرى أيضا على بعض أيادي السكاكين رسوما تمثل قصورا أو منازل مرتفعة ذات طابقين على الأقل .

ولم تكن مصر بمعزل عن غيرها من الأمم فقد وصلتها أيضا في تلك الفترة المهمة في تاريخها مؤثرات من بلاد الرافدين ومن الفن السومري كما سبق القول ، ولكنها لم تلبث حتى تركت ذلك وعادت إلى فنها الأصيل في زخرفة الأشياء .. وربما



أوانى وأدوات مختلفة من عصر ما قبل الأسرات المتأخر

كان أهم تأثيرين جاءا إلى مصر من حضارة سومر هما بعض مظاهر البناء بالطوب واستخدام الأختام الاسطوانية لأنهما كانا قبل ذلك العهد مستخدمين فى سومر وتطورت صناعاتهما هناك بينما ظهرا فى مصر فجأة وقد استكملا تطورهما .

ووصلت مصر فى ذلك العهد إلى اختراع مهم أحدث تطورا كبيرا فى حضارتها وذلك هو اختراع الكتابة واستخدامها على بعض الآثار . حقيقة أن بلاد سومر كانت هى الأخرى قد وصلت إلى ذلك الإختراع آنذاك ، ولكن مصر لم تتأثر ببلاد الرافدين فى هذا الأمر ، ووجدت طريقتها الخاصة دون موثر خارجي بل أن النهضة الشاملة لجميع مرافق الحياة فى تلك الفترة جعلتها تصل فى وقت سريع إلى استكمال هذا الاختراع وذلك بما كان كامنا فيها من قوة وفتوة (١) .

توصلت مصر إلى الكتابة فى فترة قبيل عصر الأسرات وأدى استخدامها إلى معرفتنا الآن لبعض الحوادث التى جرت قبل الأسرة الأولى .

لقد أشرنا قبل الآن إلى انفصام عرى الاتحاد الأول واستقلال كل من الدلتا والصعيد عن بعضهما ولكن إتصالهما ببعضهما لم يتأثر كثيراً بذلك إذ كان النيل يسهل التجارة بين البلاد وكانت التجارة بدورها تساعد على نشر الثقافة ، ولكن لا نملك من الوثائق التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ما يمكننا من تحديد تلك الروابط أو تحديد أثر ذلك التبادل .

ويظهر أن الصعيد بدأ يرمى بناظريه نحو الشمال وأخذ حكامه يحاولون الاستيلاء على الدلتا ، ومن العبث أن نقول إن الاتحاد الذى تم عند ظهور الأسرة الأولى كان من تفكير أو عمل ملك واحد بل من المرجح جدا أن يكون غيره قد سبقه ممهدا لذلك ، كما تدلنا مناظر الحروب الكثيرة على آثار ذلك العهد (٢) .

ولسنا نعرف أسماء أولئك الملوك المحاربين على وجه التحديد ولكن واحدا منهم وهو الملك « العقرب » - ربما كان آخر الملوك قبل الملك (نعرمر - منا) مؤسس

---

(١) عن الصلة بين حضارتى مصر والعراق وأيهما أقدم ، أنظر مقالا للمؤلف عنوانه « الإتجاهات الحديثة فى المباحث التاريخية والأثرية الخاصة بالشرق القديم ، فى المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث العدد الثانى فى أكتوبر ١٩٥٠ ص ٦ - ١١ من ذلك البحث ، وما ذكره من مراجع .

(٢) نستطيع أن نقرأ عن حوادث الحروب فى تلك الفترة فيما بقى من أناشيد عن ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة بتسجيلها ضمن نصوص الأهرام ، وفى بعضها إشارات إلى تلك الحروب وإلى سكان الوجه البحرى وإلى ملوكهم الذين قاوموا ذلك الغزو ، وكان ينعتهم الجنوبيون بألفاظ قاسية .

الأسرة الأولى – خلف لنا بعض آثاره فى هيراقونپوليس ، عثر عليها فى عام ١٨٩٨ ونرى فيها هذا الملك (١) مرسوما على دبوس للقتال وهو يمسك الفأس يضرب بها الأرض وذلك إما قياما بأحد المراسيم الدينية الخاصة بأحد الأعياد الزراعية أو تسجيلاً لشق ترعة من الترع . ونرى فى أعلى الدبوس أعلاما تقف فوقها رموز بعض أقاليم الوجه القبلى تتدلى من بعضها طيور الزقزاق ، ويتدلى من البعض الآخر أقواس وهذا تعبير عن إنتصاره على أهل الدلتا وعلى بدو الصحراء . وعثر أيضا على أثر آخر لهذا الملك وهو إناء من الحجر الجيرى ، عثر عليه فى هيراقونپوليس كما عثر أيضا على آثار باسمه فى أبيدوس ، كما وجد اسمه مكتوبا على جزء من إناء من الفخار فى منطقة طرة على مقربة من القاهرة .

ونصل الآن إلى نقطة مهمة . هل كانت حروب الملك العقرب ومن سبقه من الملوك ضد الدلتا عندما كان الصعيد خاضعا للشمال فأرادوا التخلص من نيره فحاربوا وانتصروا واستقلوا بالصعيد كله ، أم أن الاتحاد الأول الذى تم حوالى عام ٣٤٠٠ قبل الميلاد لم يدم طويلا وسرعان ما تفكك وعاد كل من شقى الوادى إلى استقلاله حتى بدأ ملوك الصعيد فى غزو الشمال وإخضاعه ؟ والجواب على هذا التساؤل لا يمكن إلا أن يكون اجتهادياً إذ لا يوجد دليل قاطع تحت أيدينا يساعدنا على إعطاء الجواب الحقيقى الذى لا يقبل الشك .

على أى حال فإن هذا الموضوع لا يغير من حقيقة الأمر شيئا كبيرا ، ولدينا الآن من الأدلة ما يكفى للقول بأن أقاليم الصعيد بدأت حوالى ٣٢٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب تكون بينها اتحاداً ، وأنها كانت تحارب وكانت تستولى على مدن وحصون وأن آخر ملك من هؤلاء الملوك كان نشيطاً وتمكن من إخضاع بعض سكان الدلتا وأهل الصحراء لسلطانه كما ذكر على دبوس قتاله . وهنا نقف قليلاً لنتساءل عن الدور الذى لعبه هذا الملك فى إخضاع الدلتا ، فهل نعتبره ، كما أراد أن يثبت بعض الأثريين (٢) ، إنه هو الذى تمكن من إخضاع الدلتا قبل « نعرمر – منا » وأنه هو صاحب الفضل فى توحيد مصر ؟ والجواب على ذلك هو أن هناك أكثر من عقبة واحدة تحول دون قبول مثل هذا الرأى قبولا نهائياً . فربما انتصر الملك العقرب على

(١) يسمى هذا الملك « العقرب » لأننا غير متأكدين من نطق إسمه الحورى الذى كان يكتب برسم هذه الحشرة فقط . أما إسمه الشخصى فقد وجد مسطراً على قطعة من إناء وينطق « پى » .
(٢) VANDIER. Manuel d'Archeologie. T. I. (1952) p. 600
وكذلك SCHOTT. Hieroglyphen (1952) p. 14 .

جزء من الدلتا فقط ، وربما انتصر أيضاً على بعض قبائل البدو فى الصحراء ، إنما النصر الكامل جاء على يد « نعرمر » ، الذى سمته النصوص المصرية فيما بعد باسم « منا » ، والذى اعتبرته المصادر المصرية القديمة أيضا مؤسس الأسرة الأولى المصرية، التى يبدأ بها عصر الأسرات المصرى أو عصرها التاريخى كما يسميه بعض الأثريين ؛ لأن مصر كانت قد عرفت الكتابة وأخذت تسجل حوادثها المختلفة على آثارها ، وأصبح اعتمادنا الأكبر منذ ذلك الوقت على ما خلفه المصريون أنفسهم مسطراً على آثارهم .

ولكن قبل أن نتحدث عن الأسرة الأولى يحسن بنا أن نلقى نظرة عابرة على أهم مصادر التاريخ المصرى التى نستمد منها معلوماتنا التى تكونت منها عناصر التاريخ الفرعونى منذ بدايته .

أهم مصادر التاريخ المصرى القديم

استكملت مصر إلى حد كبير ، كثيرا من مقومات حضارتها قبل ظهور الأسرة الأولى إذ كانت قد تقدمت فى أساليب الزراعة وعرفت الكثير من نظم الرى ، وبخاصة فى شق الترع ، وانتصرت على الصحراء والمستنقعات فاستقطعت الكثير منها وحولته إلى أرض زراعية .

وعرفت أيضاً استخراج بعض المعادن وبخاصة الذهب والنحاس من مناجم الصحراء الشرقية وأتقنت الإتقان كله قطع الأحجار الصلبة وصنعت منها الأوانى والقدور ، وعرفت صناعة التماثيل منذ عصر البدارى . وكانت التجارة رائجة ليس بين المدن والأقاليم المصرية بواسطة النيل فحسب ، ولكنها عرفت أيضا التجارة مع آسيا بواسطة السفن التى كانت تسير على مقربة من الساحل فتصل إلى موانيء الشاطيء الفينيقى وبخاصة ميناء جبيل ، كما كانت هناك أيضاً حركة ملاحية فى البحر الأحمر ، وكانت القوافل البرية تحمل منها وإليها السلع التجارية من جميع البلاد المجاورة حتى إيران والأناضول .

وأهم من هذا كله كانت قد توصلت إلى نظام إدارى مناسب وحددت اختصاصات بعض الوظائف وكبار الموظفين وكانت لها بعض تقاليد خاصة فى الفن وفى الدين .

ولا شك فى أن مصر بلد حبته الطبيعة بشبه عزلة عما جاوره من البلاد ، فالبحر فى شماله ، وإلى الشرق والغرب منه صحراء موحشة ، أما فى الجنوب فهناك شلالات فى النهر ، ولم تكن هناك ، أى فى الجنوب ، دولة قوية تخشى منها على نفسها ، ولكن رغم ذلك كله اتصلت تجارتها بما جاورها من بلاد كما كانت دروب الصحراء تحمل إليها كثيراً من المهاجرين الذين يأتون فرادى أو جماعات ليستقروا فيها .

وإذا أردنا التدقيق فى معرفة أصل المصريين أو أصل حضارتهم لما أمكننا الوصول إلا إلى نتيجة واحدة ، وهى أنها حضارة أصيلة دخلت عليها مؤثرات من الساميين الذين فى الشرق والحاميين الذين فى الغرب والجنوب الشرقى ، كما دخلت عليها أيضاً مؤثرات إفريقية من الجنوب . لقد أشرنا قبل الآن إلى حضارة بلاد الرافدين ورأينا أنه جاءت إلى مصر بعض مظاهرها فى العصر السابق للأسرة الأولى

مباشرة ، ولكن كل هذه المؤثرات كانت تنصهر فى بوتقة التجربة فى مصر فى ذلك العهد ، وسرعان ما يأخذ منها السكان ما يوافق حضارتهم فيمزجونه بما لديهم من ثقافة أو يعرضون عنه بعد حين لعدم ملاءمته لذوقهم . كانت لمصر فى ذلك العهد - أى عهد ما قبل الأسرات - تقاليد وطنية خاصة فى إختيار ملوكها كما كانت قد انتهت من وضع الأسس المختلفة فى الديانة وفى الإدارة ، ودانت بعقيدة ألوهية الجالس على عرشها ، ولكنها كانت قد توصلت أيضا إلى معرفة اختراع عظيم لا يمكن أن تتقدم الحضارة بدونه ، وهو اختراع الكتابة .

كان المصريون يعيشون آنذاك فى منازل مبنية بالطين أو من أغصان الأشجار أو النباتات كما عرفوا استخدام الحجر وإن لم يستعملوه على نطاق واسع ، وتقدموا فى كثير من نواحى الفن وأتقنوا حسن استخدام مياه النيل وعمل الجسور التى تحميهم من عدوانه ، واستأنسوا بعض الحيوانات النافعة لهم ، وبعبارة أخرى كانت الحضارة المصرية قد استكملت كل ما يلزمها ولم يكن ينقصها غير القوة الدافعة فتتقدم وتسير نحو الأمام ، وتحققت هذه الأمنية عندما ظهر زعيم قوى فى جنوبى مصر ، زعيم إقيم « ثنى » بين جرجا والبلينا الذى وحد البلاد كلها وأصبح أول ملوك مصر فى عهد الاتحاد الثانى ومؤسس الأسرة الأولى .

المصادر

يمكننا القول بوجه عام إن اعتمادنا الأساسى لدراسة تاريخ مصر وحضارتها على المصادر الثلاثة الآتية :

١ - الآثار المصرية وما تمدنا به من معلومات ، ويستوى فى ذلك ما هو مسطر على جدران المعابد والمقابر أو على التماثيل ولوحات القبور ، أو على قراطيس البردى أو التوابيت أو أى نوع من أنواع الآثار الأخرى سواء أكانت صغيرة أو كبيرة ، مكتوبة أو غير مكتوبة ، أى كل ما خلفه المصريون من معلومات ويشمل ذلك أيضاً ما كتبه المؤرخ المصرى مانيتون .

٢ - ما ورد فى بعض المصادر الأجنبية المعاصرة لفترات من الحضارة المصرية مثل ما جاء فى بعض المصادر البابلية أو الحيثية (الخيتية) أو الأشورية وغيرها .

٣ - ما كتبه رحالة اليونان والرومان الذين زاروا مصر ، وكتبوا وصفا لها وضمنوا كتاباتهم شيئاً من تاريخها .

ولكن كلا من هذه المصادر الثلاثة فى حاجة إلى كثير من التحليل والتدقيق قبل الاعتماد عليها أو اتخاذ ما جاء بها كحقيقة تاريخية . ففى النوع الأول من المصادر ، وهو المصادر المصرية الواردة على الآثار وهى أهم المصادر ، كثير من الأمور التى لا يمكن الاعتماد عليها كوقائع ثابتة لأنها كتبت لغرض معين وفى وقت معين ، وإذا لم تويدها مصادر أخرى لا يمكننا أن نقبلها إلا كقرينة من القرائن أو كمادة علمية تدخل فى مناقشة الموضوع .

لم يكتب قدماء المصريين قبل عهد مانيتون بقصد تسجيل الحوادث التاريخية كما نفهم التاريخ الآن ، ولكنهم كتبوا ما كتبوه لغرض آخر وهو تسجيل حوادث معينة لغرض خاص ، وسنعود إلى هذا الموضوع بعد قليل عند الحديث على إثبات أسماء الملوك .

أما ثانى المصادر وهو ما نجده فى المصادر الأجنبية المعاصرة ، فإنه بدوره يمثل وجهة نظر معينة وبخاصة إذا كان ذلك تسجيلا لنتائج معارك حربية على آثار أقامها أولئك الملوك . فمثل هذه النقوش سواء فى مصر أو فى غيرها تقام للإعلاء من شأن الملوك فتخفى الهزائم أو تحيلها إلى نصر ، وتبالغ فى نصر ضئيل فتجعل منه عملا عظيما جبارا ، ولهذا يجب أن نحتاط الحيطة التامة فى اعتمادنا عليها ، ويجب أن نقابلها ونقارنها بما جاء فى المصادر التى كتبها الجانب الآخر ، وعلى المؤرخ أن يوازن بين هذا وذاك ويحاول الوصول إلى ما عساه أن يكون أقرب إلى الحق . فقد جرت العادة مثلا فى بعض الممالك مثل الصين إلى ما قبل عصرنا الحاضر بقليل ، وفى أوائل هذا القرن ، على اعتبار ما يأتى إليهم من هدايا من أى مملكة أخرى أنه جزية يرسلها ذلك الشعب ، واعتبار أى خطاب من خطابات المودة التى يرسلها رؤساء الدولة الأخرى أنه تقديم للطاعة والخضوع .

أما ثالث المصادر وهو ما كتبه رحالة اليونان والرومان فيجب ألا نثق فيه الثقة كلها لأن الغالبية العظمى من هؤلاء لم يزوروا مصر إلا وهى فى أيام ضعفها . وكانوا يحكمون على ما يرونه أو ما يسمعونه من وجهة نظرهم هم ، وحسب عقليتهم وإدراكهم ، وتأثرهم بعادات بلادهم وديانتها ، فضلا عن أنهم لم يعرفوا اللغة المصرية ونقلوا ما سمعوه من أفواه محدثيهم وبعضهم من صغار الكهنة أو عامة الناس الذين يقبلون على مرافقة الزوار الأجانب كمحترفين أو متطوعين .

ولا شك أن كثيرا منهم تحروا الصدق فيما قالوا أنهم رأوه بأنفسهم مثل المؤرخ هيرودوت ، ولكن هناك أيضا كثيرين أساءوا فهم ما رأوه أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب فى تفسير أو تعليل ما سمعوه أو وقعت عليه أبصارهم .

وعلى من يريد الاعتماد على ما جاء فى بعض تلك المصادر خاصاً بمصر ، أن يضع فى ذهنه أن بعضهم كتب ما كتبه من وجهة النظر اليونانية ، وكثيراً ما كانت كتاباتهم فى أوقات اختلفت فيها مصالح بلادهم مع مصالح مصر أو كانت الثورات أو أسباب العداوة بين المصريين وغيرهم موغرة لصدور هؤلاء الناس ، فضلا عن أن بعض هؤلاء الكتاب نقل ما كتبه عن غيره ممن كانوا فى مصر أو ادعوا زيارتها . ولهذا يتحتم على المؤرخ ألا يقبل ما فيها من معلومات إلا بعد الحيطة الشديدة ليستخدمها قرينة أو قرائن عن حوادث معينة . وسيأتى ذكر هذه المصادر المختلفة فى كثير من المواضع عند الحديث على بعض حوادث التاريخ .

ويجب علينا أن نوضح فى هذه المرحلة من البحث أن مصدرنا الأكبر فى كتابة تاريخ مصر هو ما خلفه المصريون أنفسهم ، وإذا كانت بعض الوثائق ناقصة أو غير وافية فعلينا أن نسعى لإكمالها سواء من الوثائق الأخرى أو مما يستطيع المؤرخ أن يتصوره بعد دراساته المستفيضة لكل ما لديه من وثائق ومصادر ومعلومات تجعله يحس بإحساس العصر الذى جرت فيه تلك الحوادث .

وربما سأل سائل هل عرف قدماء المصريين فكرة التاريخ ، وهل خلفوا لنا وراءهم وثائق دونوا فيها تاريخهم الصحيح ؟ والجواب على الشطر الأول من السؤال أن المصريين كغيرهم من شعوب العالم لم يفهموا التاريخ كما نفهمه الآن أو حتى كما فهمه اليونان ، وإذا كانت فكرة التاريخ كما نعرفها الآن لم يكن لها وجود فى تلك العصور القديمة فلا شك أنه كان لديهم ما يمكن أن نسميه إحساسا بالتاريخ فإنهم لم يفهموا حاضرهم إلا فى ضوء ماضيهم كما انتشرت بينهم فكرة عامة وهى الإعلاء من شأن ما مضى من أيام واستلهام حضارتهم منها ومحاولة إحياء تقاليدها من آن لآخر .

وجوابنا على الشطر الثانى من السؤال أنهم خلفوا وراءهم وثائق بتاريخهم كما كانوا يتصورون التاريخ . فمنذ الأسرة الأولى نرى آثاراً يسجلون عليها بعض أعمال الملوك كما تركوا لنا أيضاً أكثر من وثيقة واحدة عليها إثبات بأسماء الملوك مرتبة ترتيباً زمنيا ، ووصلت بهم الدقة فى بعضها أنهم لم يرتبوا الملوك فحسب بل ذكروا مدة حكمهم بالسنة والشهر واليوم .

ولنذكر الآن أهم المصادر المصرية عن أسماء الملوك وترتيبهم :

١ – **حجر پالرمو** : فى أواخر أيام الأسرة الخامسة المصرية أو ربما فى أوائل الأسرة

السادسة (١) ، كان يقوم فى معبد من معابد العاصمة فى منف حجر لا يقل طوله عن مترين ويزيد ارتفاعه عن سبعين سنتيمترا نقش وجهاه بنقوش فى سطور رأسية كتبت فيها أسماء جميع من حكموا مصر منذ أيام ما قبل الأسرة الأولى ، مع مدة حكم كل منهم، مقسما إلى سنوات وأهم ما حدث فى كل سنة . ولأمر ما حطم هذا الحجر إلى قطع صغيرة عثر حتى الآن على ست منها أكبرها وأهمها موجودة فى صقلية منذ ١٨٥٩ ونقلت إلى متحف مدينة پالرمو فى عام ١٨٧٧ وما زالت هناك حتى الآن (انظر شكل رقم ١٢) . ويوجد فى المتحف المصرى بالقاهرة أربع قطع صغيرة اشترت مصلحة الآثار ثلاثاً منها فى عام ١٩١٠ وعثر أحد خفراء المصلحة فيما بعد على القطعة الرابعة ملقاة بين الخرائب فى منف ، أما القطعة السادسة فقد اشتراها العالم الأثرى فلندرز پترى من أحد تجار الآثار فى القاهرة حوالى عام ١٩١٠ أيضاً وهى الآن فى لندن فى متحف الجامعة . وسواء أكانت هذه القطع الست من حجر واحد ، أو أنها من أكثر من حجر واحد – إذا كانت هناك حقيقة بضع نسخ متماثلة من حجر الديوريت أقيم كل منها فى أحد المعابد المهمة – فإن هذا الأثر كان يحوى أسماء الملوك مبتدئا فى الصف الأعلى بجدول أسماء الملوك الذين كانوا يحكمون كلا من شطرى مصر أى الدلتا والصعيد ، وتحت كل منهم رسم ملك جالس وعلى رأسه تاج أحد البلدين ، وربما كان فى هذا الصف ١٤٠ منهم أو أكثر من ذلك(٢) . وآخر اسم

(١) تقسيم التاريخ المصرى إلى أسرات ليس من عمل المؤرخين المحدثين بل يرجع إلى العصور القديمة وربما كان متداولا بين المصريين أنفسهم قبل عهد الكاهن المصرى مانيتون الذى كتب تاريخا لمصر فى عهد بطليموس الثانى فى القرن الثالث قبل الميلاد وذكر فيه تلك الأسرات وملوكها وأهم أعمالهم . ومما يؤسف له أن النص الأصلى لتاريخه الذى كتب باليونانية فقد فى حريق الإسكندرية ولم يبق منه إلا ما نقله بعض الكتاب القدماء سواء من اليونان أو من اليهود . بالرغم من أن بعض المؤرخين المحدثين ينقدون تقسيم مانيتون فى بعض المواضع إلا أن تقسيم الأسرات صالح بوجه عام وأصبح متأصلاً فى الدراسات كلها منذ كتب مانيتون كتابه ولا يوجد تقسيم آخر أصلح منه .

(٢) كان حجر پالرمو الأصلى مقسما إلى صفوف ونرى فى القطع المحفوظة أن عصر كل ملك كان يقسم إلى سنوات ويكتب فى خانة كل سنة أهم ما حدث فيها سواء من الحروب أو إقامة المعابد أو الأعياد الدينية أو التعداد أو عمل بعض الأشياء الهامة مثل بناء السفن أوإقامة التماثيل الكبيرة ذات الأهمية الخاصة . وأهم مؤلف عن القطعة الكبيرة الهامة فى پالرمو هو بحث شيفر H. SCHAEFER Ein Bruchstuck all`agyptischer Annaten (Anh. d. Kgl. preuss. Akad. der Wissenschten. 1902) . ونشر جوتييه القطع الأربع التى فى متحف القاهرة H. GAUIHIER. Quaters nouveaux fragments de la pi´erre de pa-lerme-Musee Egyptien 111. p. +29-35PI.24-31 أما مجلة لندن فقد نشرها پترى فى مجلة Ancient Egypt. 1916 p. 114 ff.

محفوظ على تلك القطع هو إسم الملك « نفر إر كارع » من الأسرة الخامسة . ونرى على إحدى القطع التى فى متحف القاهرة أن بعضهم يضع التاج المزدوج فوق رأسه مما جعل الباحثين فى التاريخ المصرى يؤمنون الآن بأنه كانت هناك مملكتا الدلتا والصعيد ، عاشتا مستقلتين فترة طويلة من الزمن إلى أن تمكن أحد ملوك الدلتا من إخضاع الصعيد وتوحيد مصر ، ولكن هذا الإتحاد وهو الإتحاد الأول أصابه الوهن وإستقل كل بنفسه ، أو ربما كان الملك الذى عرف فيما بعد باسم « منا » حاكما لأحد أقاليم الصعيد وثار على الدلتا وحاربها وإستقل بالصعيد ثم هجم على الدلتا فيما بعد وأصبح أول ملك لمصر الموحدة فى عهدها الجديد وهو الإتحاد الثانى . ولكن ليس لدينا ما يثبت هذا أو ذاك ، وعلينا أن ننتظر حتى تصل إلينا معلومات أخرى . وعلى أى حال فإن المصريين إعتبروا أن أولئك الذين حكموا قبل الأسرة الأولى أنصاف آلهة ، وأتباع حورس [١] وأحيانا يسميهم المصريون « المبجلون » كما جاء فى بردية تورين أو أنصاف الآلهة كما سماهم مانيتون ، وقد سبقهم حكم الآلهة على الأرض .

٢ – **بردية تورين** : حصل على هذه البردية الرحالة الإيطالى دروڤتى Drovetti فى أوائل القرن التاسع عشر وقيل إنه عثر عليها فى منف . وكانت البردية فى حالة جيدة عندما تسلمها دروڤتى ولكنها تهشمت بعد ذلك [٢] ونقلت إلى إيطاليا عقب الحصول عليها ووضعت فى متحف تورين منذ ذلك الوقت.

وكانت تحتوى هذه البردية على أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء الملوك وتحت اسم كل منهم عدد سنوات حكمه . وهى تبدأ بالآلهة الذين حكموا مصر وتستمر حتى نهاية عصر الفترة الثانية بما فى ذلك ملوك الهكسوس ، وتنتهى أسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشرة . وقد نشرت محتويات هذه البردية أكثر من مرة ولكن تعديلات كثيرة فى ترتيب أجزائها جاءت عقب ترميمها بواسطة الدكتور « إبشر » مرمم متحف برلين ، ونشرها الأثرى فارينا بعد الترميم عام ١٩٣٨ ولكن الأثريين جاردنر (A. H. Gardiner) وشرنى (Jaroslav Cerny) راجعا الأصل وأصلحا بعض قراءات فارينا ونشرا نتيجة أبحاثهما فى

(١) نشر فرنر كيزر بحثا عن الشمس وحور جمع فيه آراء من سبقوه وتطور معنى أتباع حورس على ممر العصور ، WERNER KAISER, Einige Bemerkungen Zur. Egyptischen Fruhzeit : Zu der Smsw Hrln ZAS, 84 (1959) p. 119 ff.

(٢) ينكر الإثرى الإيطالى فارينا قصة تهشيم هذه البردية بعد حصول دروفتى عليها وتحطيمها إلى قطع صغيرها عند ركوبه إلى القاهرة ويدعى أنها كانت مهشمة عند حصوله عليها .

نشرة خاصة وزعاها على بعض المتاحف والمكتبات والعلماء (١) . وهذه البردية هى دون شك من خير المصادر وأدقها ويعتمد عليها المؤرخون كثيراً فى ترتيب أسماء الملوك وعدد سنوات حكمهم ، وقد كتبت فى عهد الأسرة التاسعة عشرة وإن كان لا يمكننا معرفة السبب الحقيقى الذى دعا إلى كتابتها .

٣ - **تاريخ مانيتون** : وإذا كنا لا نستطيع أن نذكر السبب فى إعداد كل من حجر پالرمو وبردية تورين أو وقت كتابتها بالضبط فإن هنا مصدرا آخر فى المرتبة الأولى من الأهمية نعرف إسم مؤلفه واسم الملك الذى طلب منه كتابته والسبب فى ذلك. كان مانيتون (وورد إسمه فى إحدى البرديات مانيثوس) كاهنا مصريا فى معبد فى سمنود فى محافظة الغربية واشتهر بعلمه ومعرفته لتاريخ مصر ولغتها . وأراد بطليموس الثانى (حوالى ٢٨٠ ق.م.) أن يستفيد من علمه وذلك بتكليفه بكتابة تاريخ لمصر إستقى مصادره مما كان فى المعابد ومكاتب الحكومة من وثائق . ومما يبعث على الحزن أن تاريخ مانيتون الأصلى فقد فى حريق مكتبة الإسكندرية ولم يعثر حتى الآن على أى نسخة كاملة أو ناقصة منه ، وكل ما وصل إلى أيدينا ليس إلا مقتطفات من ذلك التاريخ نقلها المؤرخ اليهودى يوسيفوس فى كتابه الذى سماه الرد على إيپون (Aginst Apion) مدافعاً فيه عن اليهود ضد ما كتبه إيپون الكاتب الإسكندرى ، والذى رمى فيه اليهود بكل شائنة ونقيصة ، فحاول يوسيفوس أن يمجد بنى جنسه فقال إن الهكسوس هم اليهود ونقل كثيراً من كتاب مانيتون مما إعتقد أنه يؤيد حجته .

ووصل إلينا أيضاً من تاريخ مانيتون جداول بأسماء الأسرات والملوك وعدد سنوات حكمهم فى مؤلفات بعض الكتاب المسيحيين وخاصة چوليوس الإفريقى Juluis Africanus (٢١٧ ميلادية) الذى نقل عنه الكاتب يوسيبيوس (٣٢٧ ميلادية) ، ولكن أفضل النصوص وأدقها هو ما جاء فى الكتاب المسمى Chron-ographia الذى قام بجمعه جيورجيوس سينكلوس Georgius Syncellus . وبالرغم من جميع الأخطاء التى حدثت فى النقل وما أصاب أسماء الملوك من تحريف ، وما سقط دون شك من بعض النصوص ، فإن ما وصل إلينا من تاريخ مانيتون مصدر من أهم المصادر لتاريخ مصر ولا يمكن الاستغناء عنه .

(١) كتاب فارينا هو G. FARINA. Il papiro del re restaurato. publicazioni egittologiche del R. Museo di Torino. Roma

أما ما نشره جاردنر وشرنى فى مطبعة فوتوستات خاصة وزعاها على بعض الزملاء والمكتبات تحت عنوان The Turin Canon of kings. 1952

وهناك عدة مؤلفات عن تاريخ مانيتون وأحدثها هو مؤلف
W.G. WADDELL. Manetho (The Loeb Classical Library, Cambridge Mass. 1940)

٤ – ثبت الكرنك : ولا تقتصر معلوماتنا عن ترتيب ملوك مصر على حجر بالرمو وبردية تورين وتاريخ مانيتون ، بل لدينا أربعة أثبات مختلفة أولاها ثبت الكرنك الذى أقامه تحوتمس الثالث فى إحدى الحجرات الصغيرة إلى جانب بهو الأعياد فى معبد الكرنك ويوجد الآن فى متحف اللوڤر ، نقله إلى فرنسا الأثرى الفرنسى بريس دافن Prisse d'Avennes عام ١٨٤٤ . وليس هذا الثبت جامعاً لأسماء جميع الملوك بل يحوى مجموعة مختارة منهم عددهم ٦١ ملكا . وقد تحطم أول اسم فى الثبت ولكن الاسم الذى يليه هو إسم الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ثم يليه بعض ملوك هذه الأسرة ثم الأسرات الخامسة والسادسة ، ثم أسقط الكاتب الأصلى ملوك عصر الفترة الأولى وعاد إلى ذكر بعض ملوك الأسرات الحادية عشرة ثم الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة ثم السابعة عشرة .

ولسنا نعرف السبب المقصود من إقامة هذا الثبت . فإن تحوتمس الثالث أقامه دون شك لغرض خاص ولهذا لم يذكر ، أو لم يذكر الكهنة الذين أقاموه باسمه ، ملوك الأسرات الثلاث الأولى ، وأغضى عن ذكر ملوك عصر الفترة الأولى وملوك الهكسوس ، ولكنه ذكر بالتفصيل إثنى عشر اسماً من ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ممن لم يشتهر إسمهم فى التاريخ . ومن المحتمل أن يكون للملوك المذكورين فى هذا الثبت دون سواهم صلة مباشرة بتحوتمس الثالث ، وربما كانوا من أجداده الذين تنتسب إليهم عائلته (١) .

٥ – ثبت أبيدوس : وإذا كان ثبت الكرنك غير كامل وفيه بعض الاضطراب فإن هناك ثبتا ملكياً آخر فى معبد أبيدوس يزيد كثيراً فى أهميته عن ثبت الكرنك . فعلى أحد جدران معبد الملك سيتى الأول فى أبيدوس (حوالى عام ١٣٠٠ ق.م) . نرى هذا الثبت وقد وقف أمامه الملك رمسيس الثانى يقدم القرابين للملوك المذكورة أسماؤهم عليه وعددهم ستة وسبعون ملكاً .

وتبدأ الأسماء بملوك الأسرة الأولى فتذكر ثمانية ، ويتلوهم سبعة من الملوك الثمانية المعروفين لنا من الأسرة الثانية . فإذا ما وصلنا إلى الأسرة الثالثة نراه

(١) يسمى هذا الثبت أحيانا « حجرة الأجداد » وقد نشر عدة مرات . نشره لبسيوس ونشره بريس دافن ولكن أفضل النصوص هو ما نشره زيته K. SETHE. Urkunden IV. 608 - 610

يذكر خمسة من ملوكها ثم يذكر بعد ذلك ستة من الملوك المعروفين فى الأسرة الرابعة ، ثم ثمانية من الملوك التسعة المعروفين فى الأسرة الخامسة ، ويليهم ملوك الأسرة السادسة . ولم يفعل الملك رمسيس الثانى ما فعله تحوتمس الثالث الذى أسقف ملوك الأسرتين السابعة والثامنة بل نرى أسماء خمسة عشر ملكا منهم ، لم ترد أسماء بعضهم على أى أثر آخر ، ولكنه أهمل ملوك إهناسيا (الأسرتين التاسعة والعاشرة) ولم يذكر إلا ملكين فقط من ملوك الأسرة الحادية عشرة ، ولكنه ذكر جميع ملوك الأسرة الثانية عشرة وما عدا الملكة « سوبك - نفرو » آخر حكام هذه الأسرة .

ولم يذكر ثبت أبيدوس أى ملك من ملوك عصر الفترة الثانية بما فى ذلك ملوك الهكسوس الذين كانوا فى نظر ملوك مصر أجانب مغتصبين لحرية البلاد ، وبالتالى أنجاساً غير شرعيين . ويبدأ بعد ذلك بملوك الأسرة الثامنة عشرة فيسميهم جميعاً إلى أن يصل إلى الملك أمنحوتب الثالث فيتبعه بحور محب آخر ملوك الأسرة وأسقط « إخناتون » و « سمنخ كارع » و « توت عنخ آمون » و «آى» ؛ لأنهم كانوا فى رأيه ملوكا مارقين وخارجين على ديانة أمون ، وكذلك فعل بالملكة « حتشبسوت » ، إذ أسقط اسمها هى الأخرى لأن خروجها على التقاليد وأغتصابها العرش لنفسها جعلها ملكة غير شرعية فى نظر الأجيال التالية . ولم تقف أسماء الملوك عند حور محب بل ذكرت أيضاً الملكين اللذين سبقا سيتى الأول فى الأسرة التاسعة عشرة ، وينتهى الثبت باسم سيتى نفسه (١) .

٦ - ثبت سقارة : عثر على هذا الثبت فى مقبرة أحد الكهنة فى سقارة وإسمه «تنرى» الذى عاش فى أيام رمسيس الثانى ، وهو الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة .

وهذا الثبت مكتوب على الجانبين وكان عليه أسماء ثمانية وخمسين ملكا يبدأون بالملك « مر - بى - با » سادس ملوك الأسرة الأولى وينتهون بالملك رمسيس الثانى.

(١) هذا الثبت منشور فى مؤلفات عدة ويمكن فحص أسماء الملوك فى بحث MEYER. Aegyptische Chronologie. 1904 وأنظر أهم المؤلفات عنه فى كتاب PORTERMOSS. Biliography. Vol. VI. p. 25 وكان هناك ثبت آخر بأسماء الملوك فى معبد الملك رمسيس الثانى فى أبيدوس أيضاً ولكنه تحطم وتوجد أجزاء منه الآن فى المتحف البريطانى . أنظر كتاب بورتر - موس السالف الذكر صفحة ٣٥ حيث تذكر مؤلفتا الكتاب جميع المراجع التى بحثت هذا الموضوع.

فسر بعض الباحثين وجود هذا الثبت وترتيب أسمائه على أساس صلة أصحابها بمدينة منف وأنهم الملوك الذين شيدوا فى معابد تلك العاصمة أو قدموا هبات لآلهتها . وربما كان الملك « مر – پى – با » هو أول ملوك الأسرة الأولى الذين أقاموا فى العاصمة الجديدة . وعلى أى حال فقد ورد اسم ملكين آخرين من ملوك الأسرة الأولى وثمانية من ملوك الأسرة الثانية وأربعة من الملوك الخمسة الذين حكموا فى الأسرة الثالثة . ومما يسترعى النظر أنه من المرجح جداً أنه كان مذكوراً على هذا الثبت تسعة ملوك للأسرة الرابعة ولكن مما يدعو إلى الأسف أن الأربعة الأخيرة قد تحطمت أسماؤهم . فإذا ما وصلنا إلى الأسرة الخامسة نرى أسماء ثمانية من ملوكها التسعة ولكنا لا نرى إلا أربعة فقط من ملوك الأسرة السادسة .

ولا يوجد على هذا الثبت أثر لملوك الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة، ولا نجد فيه من ملوك الأسرة الحادية عشرة إلا إسمى الملكين اللذين وردا فى ثبت أبيدوس ، ولكنا نرى أسماء ملوك الأسرة الثانية عشرة كاملة بما فى ذلك الملكة التى حكمت فى آخر الأسرة ، وقد كتبوها هنا باسم العرش الخاص بها وهو « سوبك – كا – رع » .

ولا شك أن الشخص الذى اختار أسماء ملوك هذا الثبت كان متأثراً بما تأثر به زميله الذى إختار أسماء ثبت أبيدوس فإنهما معاصران لبعضهما .

ولهذا نجد أنهم أسقطوا جميع ملوك عصر الفترة الثانية كما أسقطوا إسم حتشپسوت وإخناتون ومن تلاه من عائلته ، وينتهى الثبت بأسماء الملوك الثلاثة الأول من الأسرة التاسعة عشرة وهم رمسيس الأول وسيتى الأول ورمسيس الثانى(١) .

٧ – **نصوص الأنساب** : وكثيراً ما تساعدنا النصوص التى يكتبها بعض الأفراد عن تاريخ حياتهم فى معرفة تتابع بعض الملوك فى العصور المختلفة ، ولكن هناك نوعا خاصا من النصوص أخذ يظهر فى العصر المتأخر من التاريخ المصرى .

ولدينا عدد غير قليل من هذه النصوص ولها كلها شيء من الأهمية ولكن أهمها جميعاً ذلك النص الذى خلفه وراءه الكاهن « عنخف – إن – سخمت » الذى

(١) نشر دى روجيه هذه اللوحة أو الثبت فى مؤلفه DEROUGE, Recherches sur les monuments des six premiéres dynasucs de Manethon, Pl, 11.
وهى منشورة أيضاً فى كتاب MEYER, Aegyptische Chronologie. Pl. 1. وفى كثير من المؤلفات

كان كاهنا لكل من الإله بتاح وزوجته الإلهة صخمت فى الأسرة الثانية والعشرين أى حوالى عام ٧٥٠ قبل الميلاد .

كتب هذا الكاهن نسبا طويلا لعائلته على لوح من الحجر الجيرى كان فى متحف برلين (رقم ٢٣٦٧٣) ذكر عليه ستين جداً له ، وكتب أمام الكثيرين منهم أسماء الملوك الذين عاشوا فى أيامهم، وقد ثبتت صحة وجود الكثيرين منهم من مصادر أخرى . عاش ذلك الكاهن حوالى عام ٧٥٠ قبل الميلاد ولكنه رجع بأجداده إلى الأسرة الحادية عشرة حوالى عام ٢١٠٠ قبل الميلاد أى خلال فترة لا تقل عن ١٣٥٠ سنة . وقد فقد اسما أقدم جدين لهذا الكاهن مع النقوش الأخرى الخاصة بهما ، ولكن إسم الجد الثالث محفوظ وعاش فى عهد الملك منتوحوتپ الثانى من الأسرة الحادية عشرة . وتستمر الأجيال واحداً بعد آخر ، ويذكر بعض أسماء ملوك الهكسوس ولم يحذف عصر العمارنة الذى قامت فيه ثورة دينية على عبادة أمون وغيره من الآلهة إذ عاش له جدان فى عهد « أمنحوتپ الثالث » وثلاهم آخر فى عهد الملك « آى » الذى عبر صاحب النص عن عدم رضاه عنه بكتابة إسمه دون وضعه فى خانة ملكية . إذ جرت العادة منذ الدولة الحديثة على حذف إخناتون ومن جاء بعده من العائلة بما فيهم الملك آى نفسه من الأثبات الملكية لأنهم إعتبروهم مارقين عن دين البلاد .

ولا يخلو هذا النص من كثير من المآخذ . فقد أخطأ صاحبه فى أكثر من وضع كما ترك فجوات كثيرة فى بعض العصور ، ولكن ذلك كله لا يقلل من أهميته كمصدر تاريخى مهم هو وغيره من نصوص الأنساب (١) .

تلك هى أهم المصادر المصرية لدراسة تتابع الملوك على العرش خلال آلاف السنين التى جمعها قدماء المصريين فى صورة إثبات بأسمائهم ، ولكن الآثار المختلفة التى أقامها الملوك والأفراد الذين عاشوا فى أيامهم ، تمدنا بالكثير من المعلومات عن تعاقب الملوك وسنى حكمهم وصلة بعضهم ببعض .

ولا شك فى أهمية جميع هذه المصادر لدراسة التاريخ السياسى للبلاد ولكنها قلما تساعدنا على معرفة ما كان عليه الشعب أو ما كان يحدث من تطورات فى المجتمع أو فى الفنون المختلفة ، أو فى المظاهر الثقافية والدينية بوجه عام ، وهى كلها على أكبر جانب من الأهمية لفهم الحضارة المصرية . ولدينا ولله الحمد مصادر

---

(١) جمع بورخارت عددا من هذه النصوص ونشرها فى كتابه LUDWIG BORCHARDT, Mittel Zur Zeitlichen Festlegung von punkten der aegyptischen geschichte and ihre Anwendung (Cairo) 1935 . pp. 92 - 114 .

لا حصر لها تساعدنا فى تلك الدراسة وتمدنا بالكثير من المعلومات . فالمتحف فى جميع أرجاء العالم ملأى بما خلفته الحضارة المصرية في جميع العصور من تماثيل ، ولوحات ، وتوابيت ، وحلى ، وأوان ، وأدوات منزلية ، وأدوات الصناع وذوى الحرف المختلفة . ولدينا التمائم والتعاويذ وقراطيس البردى وغيرها وعليها الكتابات المختلفة ، بعضها قطع أدبية والبعض الآخر نصوص دينية أو سحرية ، وبعضها يحتوى على نصوص طبية أو رياضية .. إلخ .

ولم يقف الأمر عند ذلك بل أن المصريين ، فى جميع العصور ، أبوا إلا أن يسجلوا مظاهر حياتهم على جدران قبورهم أيضا . فأينما ذهب الإنسان فى مصر سواء على مقربة من العاصمة القديمة منف ، أى فى سقارة والجيزة وما جاورهما ، أو ذهب إلى بلاد مصر الوسطى أو فى الصعيد ، وبخاصة فى طيبة عاصمة مصر فى عهد الإمبراطورية ، وجد مقابر عنى المصريون بتغطية جدرانها بمناظر الحياة اليومية حينا والحياة الأخرى حينا آخر ولم يقتصر الأمر على مصر وحدها بل كثيراً ما نرى فى تلك المقابر أو على جدران المعابد مناظر أو نصوصا تتعلق بشعوب البلاد الأجنبية الذين إتصلت بهم مصر فنرى أصحابها يلبسون ملابسهم الوطنية ، وقد رسمت فى أيديهم أو على مقربة منهم مصنوعات بلادهم المختلفة مما كانوا يحضرونه إلى مصر كجزية أو هدية يقدمونها إلى الجالس على العرش أو للإتجار بها مع أفراد الشعب .

وهذه الملايين من الآثار الصغيرة ومئات الآلاف من التماثيل واللوحات والتوابيت وقراطيس البردى والأوستراكا (اللخاف) وآلاف المقابر من جميع العصور هى مصادرنا الأصلية لدراسة الحضارة المصرية . وقد إهتمت المتاحف المختلفة بنشر المهم من مجموعاتها كما إستطاع العلماء ترجمة أكثر النقوش المعروفة وأصبح كل ذلك تحت تصرف الباحثين فى تاريخ المصريين وحضارتهم (١) .

ومهما قيل عن نتائج الحفائر وما ظهر منها حتى الآن فلا يزال أمامنا الكثير من المناطق الأثرية لم يكد يمسه أحد وبخاصة فى الدلتا وفى الصحراء ، كما أن أكثر المناطق الأثرية فى مصر الوسطى ما زالت تحتفظ بأكثر ما أبقى عليه الزمن من مخلفاتها ، حتى طيبة نفسها عاصمة الإمبراطورية فإنه لم يتم حفرها أو بحثها البحث العلمى الكافى ، ولهذا يمكننا القول بأنه ما زال أمام علم الآثار المصرية وقت طويل ربما إمتد إلى أكثر من بضع قرون قبل أن يستطيع علماء الآثار أن يقولوا بأنه لم يعد

---

(١) أنظر المؤلفات والمراجع المذكورة فى آخر الكتاب .

هناك مزيد من البحث ، وقبل أن يقول المؤرخون إنهم قد قالوا كلمتهم النهائية فى تاريخ مصر ، وأنه لم تعد هناك فجوات فى ذلك التاريخ .

يكفينا هذا القدر من الإشارة إلى مصادر التاريخ السياسى للعصر الفرعونى ، ومصادر التاريخ والحضارة بوجه عام ، ولننتقل الآن للحديث عن أقدم العصور التاريخية فى مصر وهو عصر الأسرات المبكر أو العصر العتيق .

*** الفصل الثانى ***

عصــر الأســرات المبــكر
أو العـصـر العـتيق

الأسـرتان الأولى والثانية (٣٢٠٠ - ٢٧٨٠ قبل الميلاد)

لم تمدنا الوثائق المصرية حتى الآن بما يكفى من أدلة لمعرفة ما حدث فى تلك الحـروب التى كانت بين الجنوب والشمال وأدت إلى إعادة توحيد مصر ، فإن كل معلوماتنا مستمدة فقط من تلك الآثار القليلة للملك العقرب وما ماثلها من آثار ذلك العصر.

وكان المصريون منذ أيام الدولة الحديثة يذكرون على آثارهم اسم ملك يسمى « منا » كأول ملوكهم ، وذكروا ذلك أيضا لهيرودوت ونص عليه مانيتون فى تاريخه ، كما كان المصريون أيضا يكتبون أسمه على جعارينهم تيمناً به ، ولكننا لم نعثر على مثل هذا الإسم على آثار الملوك الأوائل [١] ؛ وكل ما يمكننا تقديمه من فروض هو أنه ربما كان إسما آخر للملك المعروف لنا باسم « نعرمر » [٢] الذى عثر له على بعض الآثار المهمة فى هيراقونبوليس (الكوم الأحمر شمال أدفو) وفى أبيدوس ، وأشهرها لوحته الشهيرة التى توجد الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة . ويكاد يتفق جميع المؤرخين الآن على إعتبار « نعرمر » أول ملك فى الأسرة الأولى ، وأن « منا » ليس إلا إسما آخر لم نعثر عليه حتى الآن . ونرى على وجهى لوحته منظرين يختلفان فى تفصيلهما ولكنهما يتفقان فى الهدف ، وهو تسجيل إنتصار هذا الملك على أعدائه . ففى أعلى اللوحة - فى كل من الوجهين - نرى إسمه « نعرمر » مكتوبا داخل

---

(١) ظن واحد من الأثريين فى وقت من الأوقات أنه عثر على إسم « من » على إحدث اللوحات العاجية الصغيرة الخاصة بالملك « عجا » ثانى ملوك الأسرة الأولى ، ولكن إعادة فحص هذه اللوحة أثبت أن تلك القراءة لا تخلو مما يدعو إلى الاعتراض ، وأن تلك العلامة التى قرئت كاسم الملك « منا » ليست إلا رسم قاعدة التتويج فى أحد الاحتفالات المعروفة أنظر VIKEN-TIEV, Annales du Service, XXXIII (1933), p. 208-234, XXXIV (1934), p. 28-35.

(٢) ورد إسمه على بعض آثاره مكتوباً « نعر » فقط ولهذا يتردد بعض المؤرخين فى نطق اسمه، هل ينطقونه « نعر » فقط أم يتبعون النطق الأكمل والأشهر - وأيضاً الأصح - « نعرمر » .

مستطيل يمثل واجهة القصر وعلى يمين الاسم ويساره رسم لرأس المعبودة حتحور بوجه إنسانى وأذنى وقرنى البقرة . وعلى أحد الوجهين ، وهو الخلفى منهما ، نرى الملك واقفا وعلى رأسه تاج الجنوب يقبض على ناصية عدو راكع أمامه إسمه « واع – شى » ، وقد رفع فى يده اليمنى دبوس قتاله ليهوى به على رأسه . وأمام الملك ، نرى المعبود حورس على شكل صقر يقبض بيده على حبل يجر به رأس عدو له يعلوه ستة أعواد من نبات البردى يمثل كل منها عدد ألف أى أن المعبود حورس مكنه من أعدائه وسلم إليه ستة آلاف أسير من بينهم . ويمشى خلف « نعرمر » أحد أتباعه وقد حمل فى يده اليمنى إناء ، وفى يده اليسرى يحمل خفى الملك . وفى أسفل اللوحة نرى اثنين من أعدائه وفوق كل منهما إسمه . أما الوجه الآخر فيختلف إذ يحتل الجزء الأوسط منه رسم حيوانين إستطالت أعناقهما وإلتفت حول بعضهما فتركت دائرة بينهما ، وقد أمسك بمقود كلا من الحيوانين أحد الأتباع ليجذبه بعيداً عن الآخر . وفى الجزء الأسفل من اللوحة نرى ثوراً – وهو تمثيل أيضا للملك – يحطم بقرنيه أحد الحصون وقد إرتمى شخص يمثل أصحاب هذا الحصن تحت قدمى الثور . أما الثلث الأعلى من اللوحة فيملأ فراغه منظر آخر نرى فيه نعرمر وقد إرتدى تاج الشمال ويمشى وراءه ذات الموظف الذى نراه على الوجه الآخر ، ونرى موظفا ثانيا يسير أمامه وقد تقدمه أربعة من الأتباع يحملون أعلام أربعة من الآلهة ، وأمام تلك الأعلام خمسة صفوف فى كل واحد منها جثتان لشخصين قطعت رؤوسهما .

ولا شك فى أن المناظر التى على هذه اللوحة تسجل إنتصار « نعرمر » فى الحرب ، وتسجل أيضا إحتفاله بذلك النصر وقد وضع على رأسه تاج الشمال . وبالرغم من أن إسمه مكتوب فى أعلى هذا الوجه فإن الفنان أراد أن يؤكد لنا مرة أخرى أن ذلك الذى يلبس تاج الشمال ليس إلا « نعرمر » فكتب أسمه مرة أخرى أمام وجهه .

لقد أشرنا إلى المناظر التى على رأس دبوس الملك العقرب ، وهى تسجل أيضا إنتصاره فى حرب ضد أهل الدلتا وسكان الصحراء ، ولكنا رأيناه يلبس تاج الصعيد فقط ، فلعل « نعرمر » هو الذى أتم ما بدأه غيره من جهد وأنه أخضع الدلتا إخضاعا تاما ، وكان بذلك أول من توج من ملوك الصعيد ملكا أيضا على الدلتا ، ومما يرجح هذا الفرض أن الرسوم التى على دبوس قتاله ، الذى عثر عليه أيضا فى هيراقونبوليس، ترينا مناظر الإحتفال بتتويجه ملكا على الدلتا إذ نراه يلبس تاج الشمال ويجلس على العرش وقد اصطف وراءه كبار الموظفين ، وتحلق فوق رأسه الرخمة وهى إلهة الكاب لحمايته ، ووقف أمامه حملة أعلام الآلهة الأربعة كما نقرأ أيضا

أعداد مئات الآلاف التى استولى عليها من الماشية والماعز ، وكذلك الأسرى من الناس .

وعثر على آثار أخرى لهذا الملك عند حفر مقابر أبيدوس فى أواخر القرن الماضى ، ويثير هذا الأمر نقطة مهمة فى التاريخ المصرى . فليس قبر نعرمر هو القبر الأوحد فى أبيدوس ، بل هناك مقابر أخرى لملوك الأسرة الأولى وبعض ملوك الأسرة الثانية مما يثبت لنا أن تلك العائلة التى نشأ منها ، نعرمر ، إتخذت عاصمة لها على مقربة من ذلك المكان ، وأن العاصمة القديمة ، نخن ، (الكوم الأحمر شمالى أدفو) أصبحت عاصمة دينية فقط . كانت العاصمة الجديدة على مقربة من أبيدوس وتسمى ، ثنى ، ومكانها يجب ألا يكون بعيداً عن الجبانة الملكية ولكنا لا نعرفه على وجه التحقيق حتى الآن (١) .

كانت ، ثنى ، هى أول العواصم المصرية فى عهدها الجديد ، وظلت طيلة أيام الأسرتين الأولى والثانية عاصمة للبلاد والمقر الرسمى للملوك ولو أن ملوك هاتين الأسرتين كانوا يقيمون من آن لآخر فى الشمال ، فى مدينة كانت تسمى ، القلعة البيضاء ، نسبوا إنشاءها فيما بعد إلى الملك ، منا ، وهى التى سماها المصريون فيما بعد مدينة ، منف ، .

وسواء أكانت تلك المدينة الشمالية قد أنشئت حقا فى عهد ، منا ، أو أنها أنشئت فى عهد أحد خلفائه ، وسواء أصح ما زعمه المتأخرون من أن منا حول مجرى لنيل لينشىء هذه العاصمة الجديدة أو أن الأمر لم يعد حفر ترعة أو عمل مشروع صغير من مشروعات الرى ، فإن إختيار الموقع كان ذا أهمية كبرى لحكم الشمال والجنوب إذ أن المكان الطبيعى لعاصمة مصر يجب أن يكون على مقربة من المكان الذى تلتقى فيه الدلتا بالصعيد ، وهو موقع أكثر عواصم مصر المهمة فى جميع العصور منذ عهد ، منا ، حتى الآن .

ومنذ حفر أميلينو (Amélineau) وبترى (Petrie) فى أبيدوس فى أواخر القرن الماضى ووجدوا فى مقابرها كثيراً من الآثار المهمة تحمل أسماء ملوك الأسرة الأولى

(١) أراد بعض الأثريين منذ زمن بعيد أن يرى مكانها حيث توجد الآن قرية الطينة على مقربة من برديس ، ولكن هذا الرأى لم يلق قبولا من الأثريين الذين يميلون إلى الأخذ بما قاله دارسى DARRESS. Recuil من أن مكانها يجب أن يكون فى مكان القرية المعروفة باسم البريا الآن des Trav. XVI (1894) p. 124 ولكن مكان البريا بعيد نسبيا عن أبيدوس ولم يعثر فيها على آثار هامة تؤيد مثل هذا الرأى ، وهناك أيضاً رأى آخر يفضل وضع مكان تلك العاصمة القديمة قريباً من مدينة جرجا الحالية .

كان الاعتقاد السائد حتى عام ١٩٢١ أن مقابر أولئك الملوك كانت هناك . ولكن حدث بعد ذلك أن عثر الأثريون على أسماء بعض أولئك الملوك أيضا فى مقابر فى طرخان (جنوبى كفر عمار) وفى سقارة ، ثم أخذت مصلحة الآثار منذ عام ١٩٣٠ تحفر بانتظام فى المنطقة البحرية من سقارة فوجد فيرث (W.C.Firth) بعض المقابر ثم تولى إمرى (W.B.Emery) إتمام حفر تلك المنطقة منذ عام ١٩٣٥ حتى نشوب الحرب العالمية الثانية ووجد عددا من مقابر الأسرة الأولى هناك ، وعثر فيها على أسماء جميع ملوك الأسرة إبتداء من « عحا » ما عدا مقابر « جت » و « قا - ع » و « سمرخت » ، كما عثر على مقابر بعض كبار الموظفين مثل « حما كا » . وهنا ظهرت المشكلة الرئيسية التي لم نصل إلى حل لها حتى الآن . لم يعثر بترى أو أميلينو على أى شيء فى أبيدوس يثبت أن ملوك الأسرة الأولى دفنوا حقا فى تلك المقابر كما اتضح أيضا أن مقابر سقارة أكبر وأفخم من مقابر أبيدوس ، ففى أى المنطقتين دفن هؤلاء الملوك إن كانت مقابر سقارة قد أقيمت حقا لأولئك الملوك وليس لوزرائهم الذين كانوا يقيمون فى العاصمة الجديدة فى الشمال ؟ .

وأراد كثير من الأثريين وعلى رأسهم إمرى أن يرى فى مقابر سقارة المدافن الحقيقية لأولئك الملوك وأن مقابر أبيدوس لم تكن إلا أضرحة أو نوعا من المدافن التى تقام لتخليد الذكرى فقط فى جبانة عاصمة إقليمهم الذى نشأوا فيه .

وعاد إمرى مرة ثانية لاستئناف حفائره فى عام ١٩٥٣ وعثر على مقبرتين ملكيتين إحداهما فيها أشياء كثيرة من عصر الملك « جت » والأخرى فيها أشياء أخرى من عهد الملك « قا - ع » وكلاهما أكبر كثيراً من مقبرتيهما فى أبيدوس .

واستمرت حفائر إمرى حتى عام ١٩٥٥ وأمدتنا بالكثير من آثار الأسرة الأولى، وألقت كثيراً من الضوء على تاريخ ذلك العصر وحضاراته ، وجلت كثيراً من النقط الغامضة ، ولكن رغم كل هذا فإن إمرى لم يجد سواء فى حفائره قبل عام ١٩٣٩ أو بين ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ أى دليل قاطع على أن ملوك الأسرة الأولى كانوا يدفنون فى سقارة ، وفى بحث ظهر له فى عام ١٩٥٥ نراه يفضل ترك الباب مفتوحا ويختم مقاله بقوله « ولكنا لم نجد حتى الآن الدليل النهائى على أنها (أى المقابر) هى المدافن الحقيقية للملوك ولابد من عمل حفائر أخرى قبل أن نتمكن من الوصول إلى التأكد الكامل » (١) .

(١) بحثه الذى نشره فى كتاب Les grandes découvertes archéologiques de 1954 الذى نشرته مجلة Revue du Caire عام ١٩٥٥ . ولكنه عاد فى عام ١٩٥٨ فأكد أن بعض مقابر -

وقبل أن نتحدث على ما ظهر من آثار لملوك الأسرتين الأولى والثانية وما وصلت إليه حضارة مصر فى ذلك العهد البعيد يحسن بنا أن نلقى نظرة عابرة على أهم ما نعرفه عنهم . فقد كان « نعرمر – منا » أول ملوك هذه الأسرة ، وقد عثر على قبر له فى أبيدوس ، وجاءت أهم آثاره من معبد نخن فى هيراقونپوليس (الكوم الأحمر) كما ذكرنا ثم تلاه على العرش الملك « عحا » (معناها المحارب) ، وقد عثر له على قبر فى أبيدوس وعلى آثار باسمه فى قبر آخر أكبر منه فى سقارة ونرى على آثاره إشارات كثيرة إلى حروب ضد الليبيين والنوبيين ، وإلى احتفالات دينية وبخاصة ما يتعلق منها بمراسيم تتويجه ، وتشير كذلك إلى تشييد بعض المعابد للمعبودات وبخاصة للمعبودة « نيت » التى كان مقر عيادتها فى مدينة صا الحجر فى غربى الدلتا ، وكانت زوجته تسمى « نيت – حتپ » وربما كانت من أهل تلك المدينة .

وجاء من بعد « عحا » ملك آخر وهو الملك « چر » وتمتاز آثاره بكثير من التقدم الفنى ، ولأمر ما اعتقد المصريون القدماء فى العصور التالية أن قبره فى أبيدوس هو قبر المعبود أوزيريس وكانوا يحجون إليه ويقدمون القرابين له حتى كشفت عن حقيقته حفائر أميلينو فى أواخر القرن الماضى .

ويظهر أن « چر » لم يكن أقل من سلفه « عحا » فى نشاطه الحربى ، فقد عثر فى عام ١٩٤٩ على إسمه مكتوباً على صخور جبل الشيخ سليمان على مقربة من بوهن أمام وادى حلفا وهو يسجل هناك انتصاره على أهل النوبة ، ويدل ذلك على اهتمام ملوك الأسرة الأولى بتأمين حدود مصر الجنوبية وفتحهم المنطقة الواقعة جنوبى الشلال الأول لأجل التجارة مع السودان (١) .

وفى عهد خلفه الملك « واچيت » أو « چت » نرى أن سياسة التوسع التجارى ، وربما أيضاً استغلال المناجم لم تقل ، وأن أولئك الملوك اهتموا بدروب الصحراء وتأمين التجارة فيها إذ عثر على إسم هذا الملك مكتوباً على صخور أحد تلك الدروب

– مقابر سقارة هى مقابر لبعض ملوك الأسرة الأولى وإعترف بأنه لم يكن على صواب فى تردده – أنظر كتابه W.B. EMERY. Great tombs of the First Dynasty (London 1957. p.4)

(1) AJ. ARKELL. Varia Sudanica in JEA. Vol 36 (1950), p.27-30 .

(2) JJ. CLERE. Un Graffito du roi djet dans le désert arabique. Annales du Service. XXXVIII. p. 85-94 .

التى كانت تربط بين إدفو والبحر الأحمر [٢] وهو الدرب المار بوادى مياه ، والذى ظل مستخدماً فى جميع العصور سواء للتجارة أو الحصول على بعض معادن تلك المنطقة وبخاصة الذهب .

كانت مصر قد وصلت إلى حد غير قليل فى مضمار التقدم فى عهد الملك «جت» ، ولو دققنا فى فحص مخلفات عصره نرى أن كثيراً منها قد بلغ فيه الإتقان حداً يجعل منها تحفاً فنية مثل لوحته التى توجد الآن فى متحف اللوڤر . وقد عثر على قبر له فى أبيدوس وعلى قبر آخر فى سقارة ، أما المقبرة التى عثر عليها فى نزلة البطران على مقربة من أهرام الجيزة والتى ظهر فيها إسمه مكتوباً على بعض مافيها من قطع أثرية فربما كانت لأحد أفراد عائلته أو كبار موظفيه .

أما خامس الملوك وهو الملك «دن» [١] قد عرفنا عنه الكثير ، ليس من مقابره أو مقابر معاصريه فحسب بل من حجر پالرمو أيضاً ، ونرى أنه قد اتخذ لنفسه لقباً جديداً باستخدام نبات السبوت رمزاً للصعيد والنحلة رمزاً للدلتا . كما نعرف أيضاً أنه حارب البدو الذين فى شرقى مصر ، كما نرى بعض تفاصيل احتفاله بعيد يسمى عيد «السد» أو الاحتفال الثلاثينى الذى لعب دوراً كبيراً فى حياة الملوك المصريين ، وعقيدة الألوهية الملكية .

كان هذا الاحتفال معروفاً فى مصر دون شك قبل الأسرة بزمن كبير ، ويرجع أصله إلى عادة ما زالت تمارسها بعض الشعوب الإفريقية حتى الآن ، وهى تحديد ثلاثين سنة لحكم أى زعيم ؛ لأن رخاء الناس يتوقف على قوة ذلك الزعيم . فإذا امتد عمره أكثر من ذلك قضوا عليه فى حفل دينى . وما زلنا نرى حتى اليوم بعض القبائل الإفريقية تضع حداً لحياة زعمائها ، كما تقدم البعض الآخر فى تفكيره وقبل من الزعيم أن يثبت قوته باصطياد أسد أو قتل عدو فيشترى بذلك سنوات أخرى من الحياة . وتقدم آخرون أكثر من ذلك فجعلوا الزعيم يحصل على سنوات أخرى باسترضائه للإله بتشييد معبد جديد ، أو تقديم قرابين خاصة فى حفل خاص يثبت

---

(١) كان إسمه ينطق دن ثم أراد العالم زيتة الأثرى الكبير أن ينطق «أوديمو» وظل هذا النطق الثانى معترفاً به أكثر من عشرين عاما إلى أن ظهرت أبحاث جديدة تفضل العودة إلى النطق القديم.

(٢) كتب سيلجمان عدة أبحاث عن مشاهداته بين القبائل الإفريقية لبعض العادات التى كانت معروفة فى مصر القديمة فى أقدم عهودها ، ويوجد له بحث خاص بنتيجة تلك المشاهدات وهو:
C.G. SELIGMAN, Egypt and Negro Africa (1934) .

فيها هذا الزعيم استمتاعه بالصحة الوفيرة (٢) .

ويظهر أن هذه العادة كانت معروفة ومتبعه فى مصر فى وقت مبكر قبل عصر الأسرات ، ووصلت إلى مرحلتها الأخيرة وهى تجديد الحق فى البقاء فى الحكم قبل أن تنتهى فترة الثلاثين سنة ويكون ذلك فى احتفال وفق مراسيم خاصة يثبت فيها الزعيم قوته ، ويشيد لهذه المناسبة بعض المبانى الخاصة ويقيم لبعض المعبودات معابد أو هياكل . وظل ملوك مصرة منذ الأسرة الأولى حتى آخر آيام حضارتها مخلصين لهذا التقليد وكثيراً ما نرى الإشارة إليه ، ونرى بعض مناظر طقوسه ، على جدران المعابد فى جميع العصور حتى ما شيد منها فى أيام الرومان .

وأهم الآثار من عهد الملك « دن » هى مقبرة « حماكا » فى سقارة ومقبرة زوجته « مريت – نيت » فى أبيدوس . وخلفه على العرش إبنه « عج – إب » الذى احتفظ لنا حجر پالرمو بالشيء الكثير عن حوادث عصره ومنها حروبه وأحتفاله بعيد « السد » ثم أمره بعمل إحصاء شامل فى البلاد كان يتكرر كل عامين .

ونعرف أيضاً من حجر پالرمو ومن الآثار الأخرى شيئاً غير قليل عن « سمرخت » ، وأهم شيء يتصل باسم هذا الملك هو بدء المنازعات واغتصاب العرش بين أفراد البيت المالك مما كان سبباً لقرب إنتهاء حكم هذه العائلة ، والأمر الثانى هو ترديد إسمه فى المؤلفات الأثرية على أنه صاحب النقش الكبير فى وادى المغارة بسيناء (١) . ولكنى أعتقد أن ذلك النقش لا يمكن أن يكون من عهد الأسرة الأولى وإنما هو للملك « سخم – خت » الذى تولى الملك بعد زوسر فى الأسرة الثالثة والذى أراد تشييد هرم مدرج آخر فى سقارة عثر عليه عام ١٩٥٤ .

وآخر ملوك هذه الأسرة هو الملك « قا – ع » وقد عثر له أيضاً على آثار فى قبر أبيدوس ، وكذلك فى مقبرة كبيرة فى سقارة كتب اسمه على كثير مما بقى من محتوياتها ، وتمدنا تلك الآثار بعدد وافر من أسماء موظفيه والوظائف التى كانوا يتولونها ، ونعرف من هذه الوظائف شيئاً غير قليل عن تنظيم إدارة البلاد فى ذلك العهد إذ كان بعض أولئك الموظفين مشرفا على أعمال الرى أو جباية الضرائب أو حفظ السجلات وغير ذلك .

---

(١) هناك إحتمال كبير بأن هذا النقش وبعض نقوش شرابيط الخادم فى سيناء قد قطعت من أماكنها أثناء العدوان على شبه جزيرة سيناء فى شهر نوفمبر ١٩٥٦ .

ملوك الأسرة الثانية - (٢٩٨٠ - ٢٧٨٠ ق. م .)

ونحن نجهل تماماً الأسباب التى دعت إلى تغيير هذه العائلة أو الحوادث التى جرت فى أيام « قا - ع » وانتهت باعتلاء أسرة أخرى على العرش ، كما نجهل أيضاً الصلة بين العائلتين إذا كان هناك حقيقة انتقال للملك من عائلة إلى إخرى ، ونحن نتبع مانيتون فى تقسيمه للأسرات ، ولا ريب أنه كانت لديه الوثائق الكافية التى تبرر ذلك التقسيم .

وفى الواقع لا نرى أى تغيير ، ولا نحس بأى أثر لانتقال فجائى ، فإن كل شيء استمر فى سيره الطبيعى سواء من ناحية التطور الفنى أو فى تنظيم الحكومة بوجه عام .

وهناك اختلاف كبير بين المصادر القديمة فى ترتيب ملوك هذه الأسرة ، كما أن الأسماء التى وردت نقلا عن مانيتون فى صيغها المكتوبة باليونانية يصعب إرجاع بعضها إلى أصله المصرى .

وعلى أى حال فلم يعثر أحد فى أبيدوس على مقابر بعض ملوك تلك الأسرة مما يرجح أنهم كانوا يفضلون العاصمة الشمالية الجديدة ، وهى القلعة البيضاء ، لتكون مقاما لهم أثناء حياتهم ، وفضلوا أيضاً تشييد مقابرهم على مقربة منها وربما عثر عليها فى سقارة فى المستقبل .

ونرى فيما تركه أولئك الملوك إشارات لقصور يشيدها الملوك بعد العام الرابع من حكمهم ، ومعابد يقيمونها للمعبودات المختلفة وبخاصة « سوكر » وهو من أعظم معبودات العاصمة الجديدة شأناً ، كما نرى أيضاً من أختام موظفيهم إطراد تقدم التنظيم الحكومى ووجود الإدارات المختلفة . ونرى من دراسة جداول أسماء الملوك أننا نعرف منهم ثمانية على الأقل ، ولا شك فى ترتيب الثلاثة الأول منهم وهم «حتب سخموى » و « رع نب » و « نى نتر » كما أننا متأكدون من ترتيب آخر ثلاثة منهم وهم « پرى إب سن » و « خع سخم » و « خع سخموى » . ونعرف أيضاً أن الأمور فى تلك الأسرة لم تسر فى يسر وهدوء وإنما كانت مقترنة بالكثير من المتاعب ولكنا لا نستطيع تحديد تلك المتاعب أو أن نذكر أشياء معينة اللهم إلا عندما وصلت الأمور إلى درجة محاولة التغيير فى نظام الدولة العام ، والثورة على عبادة حورس .

فقد سبق أن أشرنا إلى أنه كان للمعبود « ست » مركز رئيسى فى الصعيد ولكن انتشار عبادة حورس كادت تطيح به وبنفوذ كهنته ، وبخاصة عندما أصبح الملوك قبل بداية الأسرة الأولى يمثلون حورس ويعيشون فى ظله، وأصبح كل منهم ينسب نفسه

إليه . وزاد الطين بلة - بالنسبة للصعيد - أن الملوك فضلوا العاصمة الجديدة عند ملتقى الدلتا بالصعيد ، ومن المحتمل أيضاً أنهم أخذوا يتأثرون بثقافة أهل الشمال ويظهرون الاهتمام بمعبوداتهم .

وفى كل زمان توجد فئة من المحافظين الذين يتطلعون إلى القديم ويرون فيه المثل الأعلى ، وفى كل زمان أيضا يوجد الرجعيون الذين يعز عليهم إدخال أى تغيير طالما يؤثر ذلك على مصالحهم الشخصية ، ويوجد كذلك فى كل زمان ومكان بعض رجال الدين الذين يأبون أن يروا انصراف الناس عنهم ويحاولون استثارة كامن العواطف بين مختلف طوائف الشعب ليبقى لهم نفوذهم وثراؤهم وسيطرتهم .

ومهما قلت معلوماتنا عن النصف الثانى من الأسرة الثانية فإننا نجزم بحدوث رد فعل شديد ضد المعبود حورس وضد نفوذ العاصمة الجديدة. ونرى الملك ، پرى - إب - سن ، يعلنها حربا صريحة على حورس فيحذف اسمه من ألقابه ويضع بدلا منه منافسه القديم المعبود ، ست ، . بل يذهب إلى أبعد من ذلك ويفعل ما لم يفعله أحد من قبله أو من بعده وهو وضع رمز ، ست ، فوق اسمه المكتوب داخل رسم يمثل واجهة القصر ويعلن أنه هو رمزه وأنه تمثل فيه ويذكر فى بعض آثاره أن ست معبود نوبت (مدينة أومبوس فى محافظة قنا) هو الذى سلم إليه البلاد .

ولم يقف ، پرى - إب - سن ، عند ذلك الحد بل عاد مرة أخرى إلى الصعيد، وأبى إلا أن يعود إلى التقليد القديم وهو تشييد قبره فى أبيدوس ، وليس فى سقارة . ومن الأسف أننا لا نعرف رد الفعل الذى حدث فى الشمال فإن ذلك العمل كان خروجاً قوياً على ما سارت عليه مصر من تقاليد منذ بداية الأسرة الأولى على الأقل ، فإن تمثيل الملك بحورس أصبح متأصلاً منذ أجيال ، خصوصاً وأن حجر الزاوية فى استمرار الحضارة المصرية كان قائماً على ألوهية الملك الذى أصبح منذ توليه أمر البلد هو حورس ، وكان يعبد من شعبه على هذا الأساس ، وأصبح واحداً من الآلهة لا يختلف عن غيره من إخوانه ، بل ويمتاز عليهم بأنه كان يحكم الناس على الأرض ويقوم بحفظ النظام وإقامة العدل ويساعد الناس فى مصر على قيامهم بواجبهم لعبادته وعبادة إخوانه من المعبودات .

ثار ، پرى - إب - سن ، على حورس وعلى القلعة البيضاء ، وما من شك فى أن الكثيرين من أهل الصعيد ، وكهنة ست خاصة ، رحبوا بهذا التغيير ولكنا لا ندرى شيئاً عن حرب أو ثورة ضد ذلك الملك ، بل إن ما وصل من آثاره إلى أيدينا لا يكاد يوضح لنا شيئاً اللهم إلا حذف اسمه من بعض أثبات أسماء الملوك باعتباره خارجاً

على عبادة حورس ، كما فعل الكهنة بعد ذلك بمدة تزيد على ألف وثلاثمائة عام باخناتون ومن حكم بعده من أهله لمحاولته تغيير عبادة أمون فى البلاد ، وتمجيد أتون بدلا منه ومن المعبودات الأخرى .

ولسنا نعرف أيضاً على وجه اليقين كم بقى من سنين على العرش ، وكيف انتهت أيامه ، ولكنا نعرف أن ذلك التغيير لم يدم بعد وفاته وأن الملك الذى خلفه على العرش وهو ، خع سخم ، عاد إلى عبادة حورس وتمجيده ، وعاد أيضاً إلى النشاط المعتاد وذلك بالقيام بحملات لإخماد ما عساه أن يكون قد قام من فتن فى الشمال لأننا نقرأ على قاعدة كل من تمثاليه فى متحفى القاهرة وأوكسفورد نقشاً ينبئنا فيه عن انتصاره على أعدائه وقتله ٤٧٢٠٩ من الأعداء الشماليين الذين ربما يكونون قد هجموا على الصعيد ، كما نعرف من النقوش التى على بعض أوانيه .

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك كله عن صلة ، خع سخم ، بالملك ، برى – إب – سن ، وهل كان ابنه أو أنه كان أميراً من الأمراء أو كان زعيماً من الزعماء ، اضطر لمواجهة ثورة عاتية فى الشمال ضد ما قام به ، برى – إب – سن ، ؟ والجواب على هذه الأسئلة لا يعدو حد التخمين ؛ لأن ما لدينا من وثائق من ذلك العصر لا يساعدنا مطلقاً على الإجابة ، وإذا رجعنا إلى مانيتون لا نجد فيه إلا قبساً ضئيلاً ، فإذا صح أن ، خع سخم ، هو الذى سماه مانيتون ، سيسو خريس ، فإنه كان فارع الطول إلى حد كبير (١) ، وربما كان طول قامته مصحوباً بقوة بدنية ، ساعدته فى زعامته وفى حروبه التى شنها لإعادة النظام إلى البلاد ، وحربه ضد سكان ليبيا إلى الغرب من مصر.

ومن الجائز أن ما قام به من أعمال أحدث رد فعل جديد ، وشاءت الظروف أن يلى عرش مصر بعد ، خع – سخم ، ملك قوى حازم أراد أن يرضى كلا من الشمال والجنوب ويضع حداً لتلك الفتنة فاتخذ لنفسه شعاراً ، المعبودين حورس وست مجتمعين ، وكان يضعهما سويا فوق اسمه ، ذلك هو الملك ، خع سخموى ، الذى تقدمت مصر فى عهده تقديم كبيرا زاد فيه استعمال الحجر فى المبانى ، وأستقرت

---

(١) ذكر مانيتون أن طوله كان خمسة أقدام مصرية وثلاثة قبضات ، فلو كان القدم فى ذلك العهد ٤٣ سنتيمترا فقط لكان طول ، خع سخم ، أكثر من مترين وربع ، والقدم المصرى المعتاد هو ٥٢ سنتيمترا وكان يقسم إلى سبع قبضات وكل قبضة إلى أربع أصابع ، ولكن كان هناك أيضا قدم آخر أصغر منه استخدمه المصريون بكثرة فى أوائل أيام حضارتهم ، وربما كان هو المذكور فى الوثائق القديمة التى كانت تحت يدى مانيتون .

مصر على أوضاعها الفنية الخاصة بها ، واستكملت أكثر مقوماتها .

امتاز عهده بالهدوء والتقدم في جميع مرافق الحياة وكانت زوجته تسمى « نى – ماعت – حب » وهي أم الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، ولكن قبل أن ننتقل إلى زوسر وإلى الأسرة الثالثة يحسن بنا أن نقف قليلا لنعرف مدى ما أحرزته مصر فى ذلك العهد من تقدم ، وإلى أى حد وصلت .

كشفت حفائر أبدوس وهيراقونپوليس وسقارة وحلوان وطرخان وغيرها ،[١] عن كثير من آثار ذلك العهد ولهذا لا تعوزنا الآن المادة العلمية اللازمة لدراسة مدى تقدم فنون المصريين وصناعاتهم فى تلك الأيام ، كما وصلت الينا أيضاً بعض الآثار التى تحوى كتابات ، وأكثرها أختام أسطوانية أو طبعات أختام فوق سدادات الأوانى المصنوعة من الطين ، وهى لا تحتوى عادة إلا على أسماء أصحابها ووظائفهم ، وفى حالات قليلة تشير إلى بعض الضياع أو المبانى ، وغير ذلك من الأعمال التى تتصل بأعمال الموظفين أصحاب تلك الأختام . وهناك أيضاً كمية كبرى من النقوش على تلك اللوحات الصغيرة المصنوعة من العاج والتى توجد إلى جانب بعض الأوانى فى مقابر الأسرة الأولى سواء فى أبيدوس أو فى سقارة ، وكذلك بعض الألواح الأردوازية الكبيرة ورؤوس الدبابيس الخاصة بهؤلاء الملوك ، وكذلك بعض الأوانى الحجرية وما هو مسطر على حجر پالرمو من معلومات عما أبقى عليه الزمن من أسماء هؤلاء الملوك .

ويمكننا من دراسة تلك الأشياء معرفة أسماء الملوك وأسماء بعض موظفيهم ووظائفهم ، ويمكننا أيضاً معرفة أسماء بعض القصور والمعابد والآلهة الذين شيدت لأجلهم ، ومعرفة ما قام به بعض الملوك من أعمال خاصة مثل شق الترع أو إنشاء السفن أو الاستيلاء على بعض المدن ، والإحتفال ببعض الأعياد . كما نرى فيها أيضاً رسم بعض المعابد أو الهياكل التى أقامها الملوك فى ذلك العهد المبكر . وإذا أردنا الوقوف على مظاهر الفن أو الحضارة فى مصر ، أو أردنا الإلمام ببعض نواحى الحياة بين الشعب ، فإن هناك من القطع الأثرية مما ظهر فى حفائر حلوان وسقارة وأبيدوس ما يكفى لإعطاء صورة عن مدى التقدم الذى أحرزه الفنان المصرى منذ الأيام السابقة على ظهور الأسرة الأولى . فتلك الحلى وتلك الأوانى الجميلة الصنع ، وتلك الأدوات المنزلية المصنوعة من العاج أو قطع ألعاب التسلية أو الصناديق المزخرفة ، تثبت كلها ذلك التقدم فى الفن وفى مظاهر الحياة الخاصة .

(١) أنظر المراجع العلمية الخاصة بهذا الفصل فى آخر الكتاب .

وإذا درسنا مخلفات ذلك العصر نستطيع أن نعرف شيئاً غير قليل عن بعض أعيادهم وطقوسهم فى بعض الاحتفالات ، كما نستطيع أن نعرف أيضاً ، ولو إلى مدى محدود ، شيئاً عن دياناتهم . ونعرف أيضاً الكثير عن تنظيم إدارات الحكومة ، وإذا درسنا بعض المصادر التى كتبت فى عصور متأخرة نرى قدماء المصريين يشيرون إلى بعض ملوك الأسرتين الأولى والثانية ويربطون بين أسمائهم وبين القيام بكتابة بعض البرديات المهمة فى الطب أو فى الحكمة .

كانت الأجيال القليلة السابقة على بدء الأسرة الأولى ، وتلك القرون الأربعة التى حكم أثناءها ملوك الأسرتين الأولى والثانية هى الفترة التى تفاعلت فيها جميع عناصر الحضارة فى مصر ، كانت هى فترة التجارب والمحاولات التى قضاها شعب فتى فى مستهل أيام حضارته حتى استقر أخيراً على أوضاع خاصة ارتضاها لنفسه ووجد أنها تعبر تمام التعبير عما يريده ، سواء فى الدين أو فى الفن أو فى الحياة بوجه عام ، فاستمسك بها وحافظ عليها ؛ لأن أساسها كان قويا متينا ثابت الأركان . فلما تقدمت به مدنيته استطاع أن يرتفع بالبناء فوق ذلك الأساس فلم يخب ظنه فيه ، وعندما اتصل بغيره من الحضارات فيما بعد لم يجد من بينها ما يلائم حياته أو ذوقه خيراً مما كان لديه فزاده ذلك استمساكاً به .

*** الفصل الثالث ***

الدولـــــــة القديمـــــــة

من الأسرة الثالثة حتى نهاية الأسرة السادسة

(٢٧٨٠ – ٢٢٨٠ ق.م.)

كان لإضطراب الأمور فى النصف الثانى من أيام الأسرة الثانية أثر مباشر على مستقبل مصر . فلا جدال فى أن ثورة « يرى إب سن » على عبادة حورس أثرت على سير الأمور ، ولا جدال أيضاً فى أن ما تبع ذلك من تطاحن فى البلاد كان ذا أثر سيىء على تقدمها ، ولكن لم يمض إلا وقت قليل بعد أن انكشفت تلك الغمة حتى نرى مصر وقد بدأت تعوض ما فاتها ، وكأنما كان ذلك التطاحن وعدم الاستقرار دافعاً لها فيما بعد ، فتقدمت فى شتى النواحى واستكملت مقومات مدينتها التى أصبحت مميزاً لها على مر العصور ، كما أوضحنا فى نهاية الفصل السابق .

وفى هذا الوقت الحاسم فى التاريخ الحضارى للبلاد ، ذلك الوقت الذى كانت فيه مصر تتدفق شباباً وحيوية ، جلس على عرشها ملك قوى حازم ، فكان ذلك إيذاناً ببدء عصر جديد .

الأسـرة الثالثـة

(٢٧٨٠ – ٢٩٨٠ ق.م.)

وبالرغم من أن أول ملوك هذه الأسرة وهو الملك زوسر كان على الأرجح ابنا لآخر ملوك الأسرة الثانية فقد اعتبره القدماء مؤسسا لأسرة مالكة جديدة .

بدأ زوسر (١) حياته كغيره ممن سبقه من الملوك وبنى لنفسه مثلهم قبراً على شكل مصطبة كبيرة من الطوب اللبن (٩٥ متراً فى الطول × ٥٠ متراً فى العرض ، وارتفاع ١٠ أمتار) ، ولكنه لم يشيدها فى أبيدوس بل شيدها فى المنطقة المعروفة الآن باسم بيت خلاف جنوبى قنا ، عثر فيها على كثير من الأوانى وعليها أختام تحمل إسم الملك وتحمل أسماء بعض موظفيه والإدارات المختلفة التى كانوا يتولون شئونها (٢) .

---

(١) لم يرد اسم « زوسر » على أى أثر لهذا الملك قبل الأسرة الثانية عشرة ، أما اسمه المذكور داخل هرمه وعلى آثاره المعاصرة الأخرى مثل تماثيله ونقوشه ، فهو اسمه الآخر « إرى خت نثر » .

(٢) ربما كان هذا القبر هو القبر الأول لزوسر ، وربما كان أيضا قبرا لزوجته أو غيرها من أهله .

وشاء حسن حظ مصر أن يظهر فيها فى ذلك الوقت أحد النوابغ الذين تركوا أثراً واضحاً فى تاريخ البشرية ، وقضت عناية الله أن يكون على عرشها ملك حصيف الرأى عرف قيمة نبوغ ذلك الشخص فمد له يد العون ومكنه من تحقيق آرائه ، فخلد إسم الملك زوسر وخلدت أعماله ، وتقدمت مصر فى عهده تقدماً كبيراً فى جميع النواحى .

إيمحوتب : لسنا نعرف على وجه اليقين إن كان ، إيمحوتب ، بدأ حياته فى عهد الملك ، خع سخموى ، وكان من بين موظفيه ، أو أنه ظهر فقط فى أيام زوسر ، وعلى أى حال فان اسمه قد ارتبط باسم ذلك الملك الأخير وحده ، سواء أثناء حياته أو فيما تلا ذلك من أجيال ، فإن المصريين خلدوا اسميهما معا وظل الناس يذكرونهما حتى آخر أيام التاريخ المصرى . واعتبر الكتاب المصريون فى الدولة الحديثة ، إيمحوتب ، إماما وحامياً لهم ، وكان يحرص كل كاتب قبل بدء عمله على إراقة بضع قطرات من الماء قربانا له .

كان الملوك حتى ذلك العهد يدفنون فى قبور على هيئة مصاطب لا تمتاز فى شكلها العام عن قبور رعاياهم إلا بعظم حجمها وفخامتها ، وكانت تبنى من الطوب اللبن ، وإن كانت بعض أجزائها الداخلية ، وعلى الأخص حجرة الدفن ، تبنى من الحجر .

وبنى زوسر قبره الملكى فى الجنوب على نمط من سبقه من الملوك، إن صحت نسبة قبر بيت خلاف إليه ، ولكن إيمحوتب فكر فى تشييد قبر آخر لسيده فى جبانة العاصمة الشمالية ، ووضع تصميمه ليكون أفخم من أى قبر شيد قبل ذلك الوقت لأى ملك قبله ، وكانت الفكرة الجريئة الأولى فى تشييد ذلك القبر هى أن يكون مبنيا بكتل من الحجر بدلا من الطوب اللبن فشيد مصطبة كبيرة من الحجر الجيرى الذى قطعه من المحاجر القريبة ثم كسا جدرانه الخارجية بأحجار جيرية من النوع الأبيض الممتاز الذى كانوا يحصلون عليه من محاجر طرة فى الناحية الشرقية من النيل .

كانت تلك المصطبة دون شك أفخم وأعظم من أى قبر ملكى آخر فى المنطقة ، وقطع تحت تلك المصطبة ممرات وحجرات جانبية تتوسطها حجرة كبيرة استخدم فى تشييدها أحجار الجرانيت لتكون حجرة دفن الملك .

ولم يقنع إيمحوتب بذلك ، فعدل فى تصميمه الأول وفكر فى شىء جديد . إن سيده زوسر إله معبود من شعبه فيجب أن يمتاز قبره عن غيره ، ويجب أن يرتفع ويعلو ، ولهذا أخذ يبنى مصطبة فوق أخرى ، وكل منها يقل فى الحجم عما تحتها

حتى أصبح الشكل النهائى لقبر زوسر هرما مدرجا ذا ست درجات ، كانت كلها مكسوة من الخارج بالحجر الجيرى الأبيض ، وبذلك كان إيمحوتب أول مهندس معمارى فى تاريخ مصر شيد قبرا يشبه الهرم فى شكله العام . ولم يكتف بذلك بل أحاط الهرم بسور كبير مشيد كله من الحجر الجيرى المقطوع من طره ارتفاعه عشرة أمتار وشيد داخل هذا السور مبان عدة كان بعضها لأجل إقامة العيد الثلاثينى والبعض الآخر كان قبرا رمزيا فى الناحية الجنوبية أو معابد تتصل أيضا بالأعياد كما شيد فى الناحية الشمالية من الهرم معبدا قامت فيه تماثيل للملك .

وليس من شأن مثل هذا الكتاب أن يصف تلك المبانى أو يسهب فى الحديث عنها ، ويكفينا أن نذكر أن مجموعة الهرم المدرج تعتبر من أهم ما أبقت عليه الأيام من آثار مصر ، نرى فى مبانيه الخطوات الأولى للمصريين عندما انتقلوا من البناء بالطوب إلى البناء بالحجر . فكثيرا ما نرى المهندس القديم يبذل جهده ليجعل مبانيه شبيهة بمبانى الطوب مثل حجم الأحجار (٥٢ سم فى الطول مثل حجم الطوب فى ذلك العهد ، وهو الذراع المصرى) أو فى تشكيل السقف الحجرى ليكون شبيها بالسقف الذى كانوا يستخدمون فيه فروع الأشجار ، ومثل الأبواب التى تظهر كأنها نصف مفتوحة والأعمدة الحجرية التى تمثل تلك الأعمدة التى كانت تصنع من أعواد النباتات وقد ضمت إلى بعضها .

ويميل أكثر الأثريين إلى قبول الرأى القائل بأن السور الخارجى الكبير الذى رسموا فى جوانبه شكل البوابات الثلاث عشرة فى جهاته الأربع ليس إلا صورة من السور الذى كان حول قصر الملك فى الوادى على مقربة من العاصمة وأن المدخل الرئيسى فى الركن الشرقى الجنوبى (البوابة الرابعة عشرة) شبيه بمدخل القصر الملكى بأعمدته وأماكن حراسه ، وأن تلك المبانى المشيدة بالحجر قد أقيمت بمناسبة الاحتفال بالعيد الثلاثينى للملك زوسر ، إذ أن هذا الملك قد نقل عاصمة الملك بصفة نهائية إلى الشمال . فى تلك المدينة التى أصبحت تسمى منف فيما بعد (١) . ودفن زوسر فى هرمه هذا ، وفى الممرات المحيطة بحجرة الدفن كدسوا آلافاً من الأوانى المصنوعة من المرمر وبعضها من الديوريت أو البرشيا أو الجرانيت أو البازلت وغير ذلك من الأحجار ، وبعضها صغير والبعض الآخر يزيد ارتفاعه عن متر ، وقد أمكن حتى الآن

---

(١) أصبح إسمها منف فى الأسرة السادسة عندما شيد فيها الملك (بى – من نفر) حيا أطلقوا إسمه عليه فأصبح إسم ذلك : الحى (من نفر) مع مرور الزمن يطلق على المدينة بأكملها وصار إسمها فى اليونانية ، ممفيس ، وذكرها العرب فى كتاباتهم باسم منف .

استخراج عدد من تلك الأوانى لا يقل عن عشرين ألفا ، وما زال الكثير منها باقيا فى الممرات وقد حطمه إلى أجزاء صغيرة سقوط الصخر فوقه .

عرف زوسر قدر مهندسه فكرمه وأراد أن يخلده معه فسمح بأن يكتب اسمه على تماثيله وهذا تقدير كريم لم نعرف له شبيها؛ لأن الملك كان إلها معبودا من شعبه ، وأراد أن يخلد معه إيمحوتب الذى عرف له مكانه فى دنيا النبوغ . ونعرف من ألقابه أنه كان يتولى وظائف عدة فقد كان مشرفا على الأعمال الإنشائية للملك ، وكان مشرفا أيضاً على إدارة قصره وكان حائزا على لقب رئيس المثالين ، ولكن أهم من ذلك كله فقد كان من ألقابه أنه الرجل الأول بعد الملك أى أنه كان حاكما لأحد الأقاليم وكان كبيرا لكهنة الشمس فى مدينة إيون « هليو - بوليس » . وربما تولى فيما بعد (أي بعد عمل تلك التماثيل) وظيفة الوزير لأنها أصبحت لقبه الرئيسى فى العصور التالية (١) .

وقد ذكر المؤرخ المصرى مانيتون أ زوسر حكم تسعة وعشرين عاما ولكن بعض المصادر الأخرى تكتفى بتسعة عشر عاما فقط . أضاف على ذلك قوله « عاش فى أيام حكمه (أى إيمحوتب) الذى يعتقد الإغريق أنه اسكليبوس (إله الطب) وذلك لمهارته فى الطب . وقد اكتشف هذا الشخص فن البناء والأحجار المنحوتة وكان يقبل إقبالاً كبيراً وبحماس شديد على التأليف .

كان إيمحوتب واحدا من أولئك النوابغ الذين تظهر عبقريتهم فى أكثر من ميدان واحد فلم يقتصر نبوغه على فن العمارة والنحت فأحدث التطور الأكبر فى الفن المصرى بل نبغ أيضاً فى الطب وألف فيه ، كما ألف فى الحكمة . وألهه المصريون بعد وفاته وعبدوه وشيدوا له المعابد فى أواخر أيام حضارتهم وبخاصة فى العصر الفارسى أى فى القرن السادس قبل الميلاد وفى أيام البطالمة بعد ذلك) ، وأطلقوا عليه « ابن الإله پتاح » (٢) . ومن المحتمل أن يكون المصريون قد ألهوا إيمحوتب فى عصر

---

(١) من المرجح إن وظيفة الوزير عرفت منذ الأسرة الأولى على الأقل وأن أحد الموظفين اللذين يلازمان نعرمر على لوحته كان وزيرا له وكان اسم الوظيفة يكتب « تت » فى ذلك الوقت ولكنا فقط في عهد سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة نرى أول وزير يحمل اللقب المعروف « ناتى » وكان الأمير نفر ماعت .

(٢) هناك أبحاث كثيرة عن إيمحوتب ولكن أهمها هو البحث الذى كتبه زيته SETHE, Imho-tep,in Untersuchungen, IV وباللغة الإنجليزية إقرأ J.B. HURRY, Imhotep, The Vizier and Physician of King Zoser (Oxford, 1926) أما عن وصف مجموعة الهرم المدرج فقد كتب عنها فيرث وكويبل ولاور وريكه وغيرهم أنظر المراجع المهمة فى آخر هذا الكتاب .

مبكر (١) ولكنهم لم يشيدوا له المعابد الكثيرة فى جميع أرجاء البلاد إلا فى العصر المتأخر عندما رأى المصريون أن حضارات أخرى مثل حضارات الإغريق والفرس أخذت تغزو البلاد وتبهر أنظهار بعض أبنائها فكان ردهم على ذلك شدة استمساكهم بحضارتهم القديمة التى كانت أصل المدنيات جميعا ، وأنهم كانوا المعلمين الأول للبشرية .

كان المتبع فى مصر حتى ذلك العهد ، وبعد ذلك العهد أيضاً حتى الأسرة الخامسة ، أن جميع الوظائف الكبرى لا يتولى أمورها فى أكثر الحالات إلا أفراد من البيت المالك وبخاصة أولاد الملك نفسه ، فهل كان إيمحوتب ممن لهم صلة بذلك البيت حتى وصل إلى ما وصل إليه ، وما الذى جعل الملك يكتب اسمه على تمثاله وهو تكريم لم ينله أحد من أفراد الشعب قبله أو بعده فى وقت سطوة ملوك الدولة القديمة ؟ لم يكن إيمحوتب إلا فرداً من أبناء الشعب وكان مولده على الأرجح فى بلدة الجبلين بين الأقصر وإسنا فى مديرية قنا ، أما أبوه فكان مثل ابنه مشرفاً على الأعمال ويسمى « كانفر » (٢) وإنما الذى أوصله إلى ذلك المركز العظيم مواهبه وحسن استعداده .

لقد أطلت فى حديثى عن « إيمحوتب » حتى كدنا ننسى الملك « زوسر » ، ولكن الرجل يستحق أكثر من ذلك فقد كان المحرك للنهضة التى شملت مصر كلها . ولكن مهما قلنا عن نبوغه وعبقريته ، فيجب ألا ننسى أنه لولا أنه وجد من يقدره ويشد أزره ويدفع به إلى الأمام لضاع ذلك النبوغ سدى ، إذ كثيراً ما ييأس النابغون عندما يهملهم الناس أو يحاربونهم أو ينسبون إليهم الجنون . فلو لم يكن زوسر عظيما واسع التفكير لما تمكن إيمحوتب من تحقيق كل ما حققه .

وحكم زوسر أعواما طويلة رأت فيها البلاد نهضة عامة ، ولم تقتصر آثاره على سقارة فقط بل شيد معابد أخرى عثر على بقايا من واحد منها كان على مقربة من هربيط فى مديرية الشرقية ، كما نعرف أنه أرسل حملة لتأديب بعض بدو شبه جزيرة

(١) جاء فى بعض النصوص المتأخرة أن الملك منكاورع من ملوك الأسرة الرابعة بنى معابد باسمه وأوقف عليها أرضا ، ولكنا لم نعثر فى الوثائق المعاصرة على ما يؤيد ذلك .

(٢) عرفنا إسم أبيه وكذلك إسم أمه « خردوعنخ » واسم زوجته « نفر رنبت » من نقش على صخور وادى الحمامات كتبه مدير الأعمال (حوالى ٤٩٥ – ٤٩١ ق.م.) إسمه « خنوم اب رع » عندما كان مكلفا بقطع أحجار من ذلك الوادى وذكر فيه خمسة وعشرين جدا له عاشوا فى عصور مصر المختلفة ، وأقدمهم جميعا « كانفر » وكان التالى له « إيمحوتب نفسه » الذى كان حفيده يعتز بالانتساب إليه .

سينا الذين كانوا يتعرضون للحملات التى كان يرسلها ملوك مصر لإحضار النحاس من المناجم التى على مقربة من جبل المغارة هناك :

خلفاء زوسر :

كانت فترة حكم زوسر لمصر فترة زاهرة ولكن منذ وفاته حتى آخر أيام الأسرة لم يخلفه على العرش من نستطيع أن نقارنه به .

ويذكر مانيتون أسماء ثمانية ملوك حكموا فى هذه الأسرة بينما لا نجد فى ثبت أبيدوس إلا أسماء ستة ملوك فقط ، أما بردية تورين المهشمة فلم تحفظ لنا غير خمسة أسماء .

وجاء بعد زوسر ابنه وكان اسمه ينطق حتى عهد قريب « سمرخت » ولكن بعد اكتشاف هرمه المدرج فى سقارة فى صيف عام ١٩٥٤ صار نطقه « سخم خت » أكثر احتمالا ويسمى أحياناً زوسر الثانى .

أراد « سخم خت » أن يشيد بناء شبيهاً ببناء أبيه فاختار له مكاناً قريباً منه ، ولكنه مات دون أن يتمه ، وبدلا من أن نرى تقدماً فى العمارة عما بدأه إيمحوتب نرى أنهم كانوا يقلدون ماشيده تقليداً أعمى، ونرى أيضاً من الشواهد ما يدل على أن خزانة الملك لم تعد تحتمل الإنفاق الكثير . لم يتم ذلك الملك هرمه لا فى تشييد المصاطب التى فوق بعضها ولا فى داخل الهرم ، كما عثر على تابوته فارغاً عند الكشف عنه ، ولكن مهما كانت نتيجة الحفائر حتى الآن فإن هذا الهرم أضاف إلى معلوماتنا شيئاً غير قليل عن طريق تشييد الهرم ، وتأكد لدينا الآن كيف كان المصريون منذ ذلك العهد البعيد يشيدون أهرامهم بواسطة عمل طريق صاعد طويل يجرون فوقه الأحجار اللازمة للبناء وأن ذلك الطريق الصاعد كان يطول ويرتفع كلما تقدم البناء ، فإذا ما تم كل شئ أزالوه من مكانه .

وبالرغم من أنه لم يعثر على جثة مشيدة فى التابوت فإن الأمل مازال باقياً فى العثور عليه فى المستقبل ، ومع ذلك فقد عثر على عدد كبير من الأوانى الحجرية بعضها قد تم صنعه وأكثره لم يتم ، كما عثر أيضاً على بعض الحلى الذهبية القليلة التى ربما كانت من الأسرة الثالثة (١) .

(١) يمكن الرجوع إلى ما كتبه المرحوم الأستاذ محمد زكريا غنيم فى بعض الصحف أو المجلات وبخاصة مقاله La Nouvelle Pyramide a Degres a Sappara المنشور فى مجلة Reveue du Caire. Febr. 1955 ص ١٨ – ٣١ : وما كتبه بالإنجليزية «الهرم الناقص» . وقد صدر الجزء الأول عنه نتيجة هذه الحفائر
Mohamad Zakaria Ghoneim Sekhem Khet Vol. 1 (1957) .

لم يحكم « سخم خت » إلا سنوات قليلة ، وربما كان أهم أثر معروف له قبل العثور على هرمه فى سقارة هو ذلك النقش الذى تركه فى وادى المغارة على مقربة من نقش أبيه زوسر والذى كان يعتقد بعض الأثريين خطأ أن صاحبه هو الملك «سمرخت» من ملوك الأسرة الأولى .

ونعرف من أسماء الملوك الذين حكموا فى الإسرة الثالثة اسم حورس « سانخت » وحورس « خع با » واسم الملك « نب كاوو » أو « نب كاوو رع » وثانيهما مشيد الهرم المعروف باسم الهرم ذى الطبقات فى منطقة زاوية العريان بين أهرام الجيزة وأبو صير ، أما ثالثهما فقد أراد أن يشيد هرما على مقربة من هرم من سبقه أى فى منطقة زاوية العريان أيضاً ولكن العمل لم يتقدم أكثر من الإنتهاء من الجزء الأسفل المحفور فى الصخر تحت الأرض ، وفيه التابوت المنحوت من الجرانيت .

وآخر ملوك تلك الأسرة هو الملك « حونى » (وينطقه بعض الأثريين « حو » فقط) الذى حكم أربعة وعشرين عاماً وقد تكرر ذكر اسمه فى أثبات أسماء الملوك ونعرف من إحدى البرديات التى كتبت فى الدولة الوسطى أنه جاء إلى العرش بعد الملك « نب كاوو » وأن الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة قد تولى الحكم بعده .

وربما كان الملك « حونى » هو الذى بدأ هرم ميدوم ، ولكنه مات دون أن يتمه فأتمه الملك سنفرو بعد ذلك ، وربما كان ذلك أيضاً هو السبب فى صلة اسم سنفرو بذلك الهرم ، والذى جعل كثيراً من المصريين القدماء فى أيام الدولة الحديثة ينسبون هذا الهرم إليه فى كتاباتهم التى دونوها على أحجاره عندما كانوا يأتون لزيارته .

ومن الشخصيات المهمة التى عاشت فى أيام الأسرة الثالثة وأمتد به العمر إلى أوائل أيام الأسرة الرابعة أحد كبار الموظفين ويسمى « متن » ومن نقوش مقبرته التى نقلت بأكملها إلى متحف برلين نعرف الشيء الكثير عن التنظيم الإدارى للبلاد فى ذلك العهد ، والوظائف التى تدرج فيها والأقاليم المختلفة التى كان يشرف على إدارتها.

من القصور والمعابد التى أقامها فى البلاد ، كما نعرف أيضاً أنه أرسل أسطولا بحرياً مكوناً من أربعين سفينة لإحضار كتل من أخشاب شجر الأرز من جبال لبنان ، قد بقى حتى الآن كثير من تلك الأخشاب داخل هرمه القبلى فى دهشور (انظر شكل رقم ٦) ، ومازالت تلك الأخشاب فى حالة جيدة حتى الآن ، ومازالت تؤدى المهمة التى أقيمت من أجلها مثل تثبيت بعض الأحجار أو سندها فى أماكنها رغم مضى أكثر من أربعة آلاف وستمائة سنة .

ويشتهر سنفرو أيضاً بحملته التى أرسلها إلى بلاد النوبة فى الجنوب ليعيد الأمن والطمأنينة إلى حدود مصر الجنوبية ، وقد عاد جيشه بسبعة آلاف من الأسرى ومائتى ألف رأس من الثيران والأغنام .

ولم يقف نشاطه عند ذلك الحد بل نراه أيضاً يرسل حملات التعدين إلى شبه جزيرة سينا وقد خلف رجاله ذكرى تلك الحملات على صخور جبل المغارة على مقربة من مناجم النحاس والفيروز فى تلك المنطقة . وبالرغم من أن سنفرو لم يكن أول ملك استغل مناجم سينا أو أرسل حملات لتأديب الخارجين على القانون من البدو ، فإن الأجيال التالية اعتبرته إلها حامياً للمنطقة إلى جانب المعبودين «حتحور» والإله «سويد» ؛ لأن أعماله فى تأمين حدود مصر الشرقية وما قام به من تحصينات هناك أصبح المثل الذى يحتذى به . وفى أحد النصوص التى كتبت هناك بعد وفاته بما يقرب من ألف سنة يفتخر أحد الملوك بأعماله هناك ويؤكد لنا بأنه لم يقم أحد بمثل ما قام به منذ أيام سنفرو .

وسرعان ما أتت سياسته فى التوسع التجارى مع الشاطىء السورى والنوبة واستغلال المعادن مع تنظيم الأمور الداخلية فى البلاد بأحسن النتائج وبدأت فى مصر نهضة عامة كان أوضحها أثراً ذلك التقدم الذى نراه ظاهرا فى الحياة الاجتماعية للشعب بوجه عام وفى الفنون بوجه خاص ومن بينها فن العمارة .

هرما سنفرو فى دهشور :

شيد هذا الملك قبره الملكى على مقربة من العاصمة ، وأراد المشرفون على بناء ذلك القبر أن يجعلوه هرما كاملا ، وأن يكون أعظم من أى أثر آخر بنى فى مصر قبل أيامه سواء فى حجم الجزء الظاهر للناس أو فى ممراته الداخلية وردهاته .

وبدأوا بناء الجزء الأسفل من الهرم ، وأتموا تشييد جميع ممراته الداخلية ، وجعلوا له مدخلا فى منتصف الواجهة الشمالية كغيره من الأهرام المدرجة التى بنيت قبله ، ويؤدى هذا المدخل إلى دهليز طويل ينحدر إلى أسفل ثم ينتهى بدهليز آخر ثم

حجرة للدفن . وقد تم الكشف فى عام ١٩٥١ أثناء أبحاثى داخل هذا الهرم عن مدخل آخر فى الناحية الغربية وبذلك يتميز هذا الهرم بأنه وحده من بين أهرام مصر جميعاً له مدخلان فى واجهتين مختلفتين له . وارتفع بناء الهرم بزاوية تزيد قليلا عن أربعة وخمسين درجة حتى وصل ارتفاع البناء إلى ٤٨,٠٧ متراً ، وعند ذلك تغير التصميم الأصلى فنراهم يغيرون زاوية البناء إلى ثلاث وأربعين درجة وواحد وعشرين دقيقة فقط ، فلما تم البناء أصبح شكله غير منتظم لتغيير الزاوية وكأنه هرم كامل فوق هرم ناقص ، إرتفاعه الكلى ١٠١,١٥ متراً أما طول ضلع قاعدته المربعة فهو ١٨٨,٦٠ متراً .

وإذا أردنا البحث عن تفسير عملى معقول لتغيير زاوية بناء هذا الهرم لما وجدنا إلا تفسيراً واحداً ، وهو أن زاوية ٥٤ درجة كانت كبيرة جداً وقدر المهندسون المعماريون ان ارتفاع الهرم سيكون كبيراً وربما سبب ذلك ما يؤثر على سلامة البناء ، خصوصاً وأنه قد بدأت تظهر بعض تشققات عالجوها بملئها بالجبس . كانت هذه المحاولة أولى تجارب المصريين فى بناء الهرم الحقيقى كما نعرفه ، وكان هرم دهشور القبلى ، المدرسة التى درسوا فيها هندسة تشييد هرم آخر لسنفرو على بعد يقل من كيلو مترين إلى الشمال منه ، وجعلوا زاوية ميله مماثلة تقريباً لزاوية ميل الجزء العلوى من الهرم القبلى أى ثلاثة وأربعين درجة ثانية . وأدخلوا أيضاً تحسيناً آخر إذ اقتصروا على المدخل الذى فى الناحية الشمالية فقط ، وبدلا من أن يؤدى إلى حجرة واحدة نراه يؤدى إلى حجرات ثلاث واحدة بعد الأخرى . وارتفاع الهرم البحرى وهو أول هرم حقيقى فى تاريخ العمارة المصرية ٩٩ متراً وطول كل ضلع من قاعدته المربعة ٢٢٠ متراً أى لا يقل إلا نحو عشرة أمتار عن ضلع هرم الجيزة الأكبر .

وهنا يجدر بنا أن نقف لنتساءل فى أى الهرمين دفن الملك سنفرو وأصبح المقر الأبدى لجثمانه ؟ . ولست أريد هنا الدخول فى مناقشة تفصيلية ولكنى أعتقد أنه دفن فى الهرم القبلى إذ نراهم قد أتموا جميع الأجزاء المتممة له ، فبنوا فى الناحية الجنوبية منه ذلك الهرم الصغير الذى أراد أن يسميه بعض الأثريين هرم الروح أو هرم الطقوس، ولكنا لا نعرف تماماً ماذا كانت وظيفته ولسنا متأكدين من شيء يختص به إلا من أنه لم يستخدم للدفن بل ربما كان مقاماً للقيام بشعائر خاصة متصلة بتقديم القرابين . وأقاموا حول الهرم سوراً كبيراً من الحجر وبنوا فى الناحية الشرقية منه معبداً جنازياً صغيراً شبيهاً بمعبد هرم ميدوم ، كما بنوا طريقاً يوصل من الناحية الشمالية من السور إلى الوادى وانحرفوا به نحو الشرق حيث شيدوا هناك معبداً كبيراً على مسافة تزيد على سبعمائة متر من الهرم غطوا جزءاً كبيراً من جدرانه بنقوش

تمثل الملك سنفرو وهو يقوم ببعض الطقوس الدينية المعروفة وأهمها مناظر من العيد الثلاثينى ، ومناظر تمثل زيارته للهياكل فى عاصمتى الشمال والجنوب (بوتو ونخن) ، كما نرى فيه أيضاً مناظر تمثل أقاليم مصر وأهم بلادها فى ذلك الوقت التى كان يمتلك فيها سنفرو ضيعة من ضياعه ورمزوا لكل منها بسيدة تحمل القرابين وكتبوا أمامها إسم البلد أو الإقليم مرتبة ترتيباً طوبوغرافياً من الجنوب للشمال مما ساعد على تحديد أمكنتها الحالية . وظهرت فى حفائر ذلك المعبد بين أعوام ١٩٥١ ، ١٩٥٣ بعض تماثيل مهشمة للملك سنفرو وعدد كبير من تماثيل كهنة المعبد فى أيام الدولتين القديمة والوسطى إذ كان هذا المعبد قائما ولم تمتد إليه يد التخريب إلا فى الدولة الحديثة .

وإلى الشرق من الهرم البحرى انتشرت مقابر عائلة سنفرو ، ومن بينهم بعض أبنائه وبناته وهى معروفة منذ أكثر من ستين سنة ، كما انتشرت أيضاً مقابر كثيرين من كهنته وموظفيه ، سواء فى أيامه أو فيما تلا ذلك من عصور . وما زال عدد كبير من تلك المصاطب والجبانات ينتظر الحفر . ولم نتمكن حتى الآن من حفر المنطقة الواقعة حول الهرم البحرى حتى نستطيع القول إن كان له هو الآخر معبد جنازى إلى الشرق منه ومعبد فى الوادى أو أن المصريين القدماء اقتصروا على معبدى الهرم القبلى .

على أى حال فهناك حقيقة مهمة وهى أن النصوص القديمة تذكر دائماً هرمى سنفرو (١) ، وتذكر المدينة التى كانت مركزاً لإدارة ممتلكات هذين الهرمين ، كما نعرف أيضاً أن المصريين فى الأسرة الثانية عشرة الهوا سنفروا فأصبح واحداً من الآلهة يذكرونه ويقدمون له القرابين جنباً إلى جنب مع الآلهة الأخرى مثل أوزيريس ورع وسوكر وبتاح وغيرهم .

وقبل أن أعود إلى الحديث عن سنفرو أحب أن أذكر شيئاً قليلا عما بلغه الفن فى أيامه ، إذ يكفى أن يلقى الإنسان نظرة على نقوش معبده أو على نقوش المقابر التى شيدت فى عصره سواء فى منطقة دهشور أو فى ميدوم ليدرك مدى ما بلغه فن النحت سواء فى النقوش البارزة أو فى الرسم بالألوان ، إذ وصل الفنان المصرى فى عهد سنفرو إلى حد لم يستطع أن يتفوق عليه فى العصور التالية إلا فى حالات قليلة .

---

(١) لم يعد هناك مجال للقول بأن هرمى سنفرو كان أحدهما فى ميدوم والثانى فى دهشور فقد ثبت الآن بشكل قاطع أن الهرمين اللذين كان يشار إليهما فى الوثائق والنصوص القديمة هما هرما دهشور أما هرم ميدوم فله شأن آخر .

الملكة حتپ حرس :

ويقف زائر المتحـــف المصرى مذهولاً أمام بعض آثار ميدوم مثل تمثال نفرت (انظر شكل رقم ٧) وزوجها رع حوتپ الذى كان أحد أبناء سنفرو ، أو أمام بعض رسوم مقبرة نفر ماعت وخاصة رسم أوز ميدوم ، ولكن إعجابه يتضاعف عندما يقف فى القاعة التى صفت فيها محتويات مقبرة الملكة حتپ حرس زوجة سنفرو فى المتحف المصرى ، ويرى فى تلك القاعة حليها وسريرها المصفح بالذهب وكرسيها الكبير وخيمتها المتنقلة ذات الأعمدة المصفحة بالذهب ، ويرى محفتها كما يرى أيضاً بعض أدوات زينتها المصنوعة من الذهب أو النحاس . يقف الزائر حائراً موزع الإحساس ، لا يدرى بأيهما يعجب أكثر من الآخر هل يعجب بما وصل إليه المصريون القدماء من حضارة ورفاهيه فى حياتهم الشخصية قبل ٤٦٠٠ عام ، أم يعجب بالصانع المصرى وتفوقه فى ذلك العهد البعيد .

ولمحتويات مقبرة « حتپ حرس » قصة لا تخلو من الطرافة . ففى عام ١٩٢٦ عثرت بعثة هارڤارد - بوسطون الأمريكية على فوهة بئر أثناء حفائرها شرقى الهرم الأكبر فى الجيزة ولم يكن لهذا البئر أى هيكل مشيد فوقه ، وكان مملوءاً بالأحجار المرصوصة . فلما وصل المكتشفون إلى نهايته وجدوا مدخل الحجرة الجانبى مسدوداً بالأحجار المبنية وخلفه كدست محتويات المقبرة فوق بعضها ، وكان فيها تابوت من المرمر وضع غطاؤه فوق صندوقه .

كان اسم الملكة حتپ حرس واسم زوجها سنفرو مكتوباً على الأثاث ولهذا توقع المكتشفون أن يكون جثمانها داخل التابوت ، فلما رفعوا غطاءه لم يجدوا فيه شيئاً . كان داخل الحجرة يدل على أن وضع محتويات القبر تم فى سرعة ودون ترتيب ، بل أن بعض الأشياء كان يرمى رمياً فوق البعض الآخر ، وها هو التابوت خال من الجثة ، وزيادة على ذلك فأين هيكل المقبرة العلوى إن كان هذا المكان قد أعد ليكون المثوى الأبدى لزوجة سنفرو وأم خوفو ؟ ولم يعد هناك شك فى أن سراً قديماً يختفى وراء ذلك ، وتقدم « ريزنر » رئيس تلك البعثة بتفسير مقبول .

كانت حتپ حرس مدفونة فى دهشور على مقربة من هرم زوجها بالرغم من أنها عاشت إلى أيام ابنها خوفو الذى اختار منطقة الجيزة لتكون جبانة ملكية له ، فقلت العناية بمنطقة دهشور . وبعد دفنها بقليل تمكن بعض اللصوص من الوصول إلى المقبرة وأخذوا ما استطاعوا أخذه من الحلى إن كان هناك شىء آخر غير ما عثر عليه المكتشفون فى أحد الصناديق . وحملوا معهم جثة الملكة بما عليها من حلى أخرى كما

جرت العادة . فلما اكتشف الحراس حقيقة ما حدث رأى المسئولون ألا يتركوا القبر فى مكانه بعد ذلك ونقلوا كل شيء إلى الجيزة وقطعوا إلى جانب طريق المعبد الجنازى الذى كانوا يعملون فيه إذ ذاك ذلك البئر العميق وكدسوا فيه ما بقى من محتويات المقبرة .

ويعتقد مكتشفو المقبرة أن نقل التابوت ووضع غطائه فوقه دليل على أنهم أخفوا على « خوفو » حقيقة ما حدث من أخذ اللصوص لجثتها (١) . ولم يعثر حتى الآن فى دهشور أو فى ميدوم أو فى الجيزة على أى قبر أو بقايا من قبر يمكن أن ننسبه إلى هذه الملكة حتى نقول ونحن واثقون إنها كانت مدفونة فيه .

ذكرى سنفرو :

لم يكن سنفرو ملكا عظيما محباً للبناء فحسب ، بل كان شخصاً محبوباً ممن حوله ، عادلاً بين رعيته ، وقد رأينا كيف آلهه المصريون بعد وفاته بأكثر من ستمائة عام ، ونعرف أيضاً أن بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة اختاروا منطقة دهشور بالذات ليشيدوا فيها أهرامهم ليكونوا على مقربة منه ، تيمناً بقداسة المنطقة .

ولكن الأمر الذى يستلفت النظر هو ما كانت تكتبه الأجيال التالية عنه ، إذ قلما كان يرد إسمه فى أحد النصوص إلا وكانوا يشفعونه بعض الأوصاف التى لم يكن يستخدمونها عند الإشارة إلى أى ملك أخر من ملوك الدولة القديمة مثل قولهم عنه « الرحيم ، الملك المحسن المحبوب » .

ونقرأ عنه فى بردية وستكار التى كتبت بعدما يقرب من سبعمائة سنة بعد وفاته قصة حرص فيها كاتبها على إظهار وداعة أخلاقه وحلمه وعطفه على من حوله ، واستخدامه أرق الألفاظ عند الحديث معهم (٢) .

---

(١) نشر ريزنر (G. REISNER) أكثر من تقرير عند العثور على هذه المقبرة فى عام ١٩٢٦ ؛ ونظرا لوفاة ريزنر فى أوائل سنى الحرب العالمية الثانية فقد أقام مساعده وأتم ستيفنسون سميث عمله ونشر التقرير النهائى الكامل فى عام ١٩٥٥
George Andrew Reisner, The Tomb of hetep heres, Mother of Cheops (1955)

(٢) وردت هذه البردية وستكار ، ويسميها بعض الكتاب قصة خوفو والسحرة ، بين بعض القصص الشعبية التى كان يتداولها المصريون فى أيام الدولة الوسطى أى فى القرن العشرين قبل الميلاد ، وسنعود إلى ذكر هذه القصة مرة أخرى عند الحديث عن الأسرة الخامسة ، وهى تتلخص فى أن الملك خوفو طلب من أولاده أن يقص عليه كل منهم قصة كل ملك من الملوك إبتداء من الملك زوسر فذكروا بعده « نبكا » ثم « سنفرو » وأخيراً جاءوا إلى خوفو بساحر كان يعيش فى أيامه فأتى أمامه ببعض المعجزات ثم تنبأ له بما سيحدث فى المستقبل . أنظر ترجمتها العربية الكاملة فى كتاب سليم حسن : الأدب المصرى القديم الجزء الأول ص ٧٤ – ٨٧ .

وحكم سنفرو أربعة وعشرين عاما ، وكان أبناؤه يتولون جميع المناصب الهامة فى البلاد ، سواء فى العاصمة أو فى الأقاليم ، فلما جاء اليوم الذى ترك فيه أمور مصر إلى إبنه خوفو ، ترك له عرشا ثابت الأركان ، وبلداً غنياً منظم الإدارة وترك له أيضا موظفين مدربين ، وفنانين اكتملت خبرتهم .

خوفو : (٢٦٥٦ - ٢٦٣٣ ق.م.)

لم يعد لدينا الآن أى شك فى أن خوفو كان أحد أبناء سنفرو من زوجته الأولى الملكة « حتپ حرس » وبالرغم من ذلك فما زال بعض المشتغلين بالتاريخ يرددون ما كتبه برستد منذ أكثر من خمسين سنة عن اعتقاده بأن خوفو كان زعيماً من إقليم المنيا استناداً إلى وجود بلد باسم « منعت خوفو » أى مربية خوفو ، ولكن الحقيقة الثابتة الآن فى ضوء ما جد لدينا من معلومات أن « منعت خوفو » ليست إلا إحدى الضياع التى ورثها عن أبيه وكانت تسمى « منعت سنفرو » فغير إسمها إلى « معت خوفو » [١] أما عن اسمه فقد فضلت اتباع النطق القديم بالرغم من أن نطقه الأصح هو « خوفو وى » وهو اختصار لاسمه الكامل « خنوم خوفو وى » وذلك لاعتياد قراء العربية عليه منذ أجيال كثيرة .

تولى خولو عرش مصر وجنى ثمار إصلاحات أبيه ، وإذا ألقينا نظرة عن أعماله المختلفة لأدركنا أن السياسة الإنشائية التى وضع سنفرو أساسها قد استمرت ، فقد عثر على اسمه فى كثير من بلاد مصر سواء فى الدلتا أو فى الصعيد ، كما أرسل أيضا حملات إلى جبل المغارة لإحضار الفيروز وربما النحاس من هناك .

وكانت تجارة مصر الخارجية ، وبخاصة مع الشاطىء الفينيقى مزدهرة ، ومن المرجح جداً أنه كانت تقيم فى مدينة جبيل (إلى الشمال من بيروت الحالية) جالية مصر للتجارة منذ أيام الأسرة الثانية ، واهتم سنفرو بتشييد سفنه من أخشاب الـ «مرو» ومن خشب الأرز ، واستخدمه فى مبانيه ولكن منذ عهد خوفو على الأقل قام فى وسط « جبيل » معبد مصرى أضاف إليه من جاء بعهد ، حيث عثر على أحجار منه تحمل اسمه وأسماءهم .

ولكن هذه الأعمال المختلفة لم تكن هى السبب فى تخليد اسمه فى التاريخ على مدى الأجيال بل كان السبب فى ذلك هرمه الذى شيده على هضبة الجيزة ، وهو المعروف باسم الهرم الأكبر ، والذى ما زال شامخاً سليم البنيان يتحدى الزمن ويغالبه،

(١) وردت بين بلاد الإقليم السادس عشر من أقاليم الصعيد فى جدول الأقاليم والمدن فى معبد الوادى فى دهشور الذى تم الكشف عنه فى عام ١٩٥١ .

ينتزع إعجابنا اليوم كما انتزع إعجاب الشعوب القديمة جميعا . ويعترف الناس اليوم كما اعترفوا بالأمس بأنه ليس واحداً من عجائب الدنيا السبع وحسب بل هو عجيبة العجائب؛ لأنها زالت وبقى وحده على مر الأجيال (١) .

هرم الجيزة الأكبر :

قضى مهندسو « سنفرو» ما يقرب من ربع قرن فى تشييد أهرامه ومقابر أسرته وكبار موظفيه ، استكملوا خلالها خبرتهم العظيمة فى تشييد الأهرام . فلما جاء اليوم الذى بدأوا فيه فى تشييد هرم ابنه « خوفو » أرادوا أن يجعلوه أعظم من أهرام أبيه ليس فى الحجم فقط بل وفى التصميم ، والنسبة بين أجزائه ، وفى الإتقان الكامل لفن البناء.

وإذا أردنا وصف الهرم لطال بنا الأمر ، ويكفى أن نذكر أنه يشغل مساحة لا تقل عن ثلاثة عشر فدانا وأنهم قد استخدموا فى بنائه عدداً لا يقل عن ٢,٣٠٠,٠٠٠ كتلة من الحجر قطعوها من محاجر فى الهضبة نفسها ، ويزيد وزن بعضها عن ثمانية أطنان ويقل وزن البعض الآخر (الجزء الأعلى من الهرم) عن طن واحد . وقد حسب أحد الرياضيين أنه لو تيسر تقطيع الكتلة الكاملة للهرم الأكبر إلى أحجار صغيرة كل منها قدم مكعب واحد ووضعنا هذه الأحجار إلى جانب بعضها لأصبح طول ذلك الخط ثلثى محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء ، كما قدر البعض الآخر أنه لو استخدمت أحجار الهرم فى عمل سور حول فرنسا ارتفاعه ثلاثة أمتار وعرضه متر واحد لكفت .

وارتفاع الهرم ١٤٦ متراً وطول ضلع قاعدته ٢٣٠ متراً ولكن هذا كله يتضاءل أمام إعجابنا بدقة المصريين فى ذلك العهد البعيد وتفوقهم فى فن البناء ووصولها إلى حد الإعجاز فى ضبط الزوايا والأبعاد . وسيزداد الزائر إعجاباً إذا زار داخله واتخذ طريقه فى تلك الطرقات القليلة الارتفاع ثم وجد نفسه فى تلك الردهة المرتفعة ووقف أخيراً يتطلع إلى تابوت الملك خوفو فى حجرة الدفن

---

(١) يرجع ذكر عجائب الدنيا السبع التى إشتهرت عند اليونانيين إلى القرن الثانى قبل الميلاد ذكرها « إنتيبايتر الصيداوى » فى كتاباته ، وقد حدث فيها بعض التغيير الطفيف فيما بعد ، وها هى حسب أهميتها كما ذكرها « فيلو البيزنطى » :
١ – أهرام مصر .
٢ – حدائق سيميراميس فى بابل .
٣ – تمثال الإله زيوس فى أوليمبيا
٤ – معبد الآلهة أرتيمس فى أفسوس .
٥ – ضريح هاليكارناس
٦ – التمثال الكبير فى رودس .
٧ – منارة الإسكندرية .

وعندما بدأ مهندسو خوفو فى تشييد هذا الهرم لم يكن التصميم الأصلى هو البناء الحالى الذى نراه أمامنا بل كان يقل عنه . ولم تكن حجرة دفنه فى داخل البناء بل كانت مقطوعة فى الصخر ويؤدى إليها ممر منحدر فى جوف الأرض وأثناء العمل غيروا التصميم وزادوا من البناء وأصبحت حجرة الدفن فى داخل البناء نفسه ، وهى المعروفة الآن خطأ باسم حجرة الملكة ، وللمرة الثانية غيروا التصميم وقام المهندسون بعمل الردهة الكبرى الصاعدة التى توصل إلى حجرة الدفن .

وكان الهرم بأكمله مكسواً من الخارج بكساء من الحجر الجيرى الأبيض الذى قطعوه من محاجر طرة فى الشاطىء الشرقى للنيل ، وكان له معبد جنازى كبير فى الناحية الشرقية منه ما زالت بقاياه موجودة ، وعلى الأخص أرضيته من حجر الدلوريت الأسود المقطوعة من محاجر فى شمال بحيرة قارون بالفيوم .

وكانت بعض جدران هذا المعبد منقوشة وقد عثر على بعضها فى حفائر مصلحة الآثار عام ١٩٣٨ ، وفى الناحية الشرقية من المعبد بنوا جسراً ضخما نزل من حافة الهضبة إلى الوادى ، واستخدموا هذا الجسر ليكون الطريق الموصل إلى معبد الوادى الذى لم يكتشف مكانه حتى الآن ، وإن كان من المؤكد أنه تحت منازل بلدة نزلة السمان الحالية .

وكان هناك هرم صغير فى الناحية الجنوبية من هرم خوفو هدم وزالت أحجاره منذ عهد بعيد ، كما قطعوا فى الصخر أماكن كبيرة الحجم كانوا يضعون فيها سفنا كبيرة من الخشب لتكون تحت تصرف الملك عندما يقوم برحلتى النهار والليل مع إله الشمس رع وفى مختلف الأغراض عند عبور الأنهار والبحيرات فى العالم الآخر . وقد كشفت الحفائر منذ وقت بعيد عن ثلاثة من تلك الأماكن المعدة للمراكب فى الناحية الشرقية من الهرم ، كما عثر فى صيف عام ١٩٥٤ على أماكن اثنتين أخريين فى الناحية الجنوبية ، وقد رفعت الأحجار الضخمة التى سقفوا بها مكان واحد منها فكشفت عن أجراء مركب كبير من خشب الأرز فى حالة جيدة ومعه جميع معداته من مجاديف وحبال ومقصورة للجلوس . ونعرف الآن أن طول هذ المركب ثلاثة وأربعون متراً ونصف وأن ارتفاع مقدمتها خمسة أمتار وارتفاع مؤخرتها سبعة أمتار . وليس هذا المركب أكبر ما كان يصنعه المصريون القدماء بل كان هناك ما هو أكبر منها طولا إذ ورد فى حجر بالرمو من عهد سنفرو نفسه ذكر بناء كثير من السفن التى كان طول كل منها مائة ذراع مصرى أى أكثر من اثنين وخمسين متراً .

لم تكن فكرة وجود مراكب على مقربة من الأهرام جديدة على الأثريين فقد

كان معروفا لخوفو ، كما قلنا ثلاثة منها من قبل (إثنتين فى الناحية الشرقية والثالثة إلى جانب الطريق الموصل إلى معبد الوادى) . ونعرف أيضاً أمكنة خمسة على الأقل على مقربة من هرم ابنه خفرع . وقد عثر على بعض مراكب خشبية على مقربة من سنوسرت الثالث فى دهشور إثنتان منها فى المتحف المصرى بالقاهرة وثالثة فى أحد متاحف شيكاجو بالولايات المتحدة الأمريكية ولكنها أقل كثيراً فى الحجم وجودة الصناعة ، كما أن مراكب خوفو ليست أقدم ما نعرفه إذ نعرف وجود هذا النوع من المراكب إلى جوار مقابر الأسرة الأولى فى سقارة وحلوان .

ولكن بالرغم من أن الفكرة لم تكن جديدة على الأثريين فإن الاكتشاف الجديدة ذو أهمية لا يمكن التقليل منها ، ولن يزيد هذا الاكتشاف من معلوماتنا عن صناعة السفن والنجارة فى ذلك العهد البعيد فحسب بل ستزداد معلوماتنا كثيراً من دراسة المواد المختلفة التى عثر عليها فى المكان واستخدموها مع السفينة (١) . وكثيراً ما تذكر هذه السفينة على أنها مركب الشمس أو سفينة الشمس ، ولكن يجب الاحتراس من هذه التسمية ؛ لأنه ليس لدينا على الإطلاق ما يثبت أنها كانت إحدى سفينتى رحلة الشمس بل هناك أكثر من قرينة تدل على عكس ذلك القول وأنها كانت واحدة من السفن السبع أو الثمانى التى وردت فى نصوص الأهرام مقترنة برحلة الملك بعد وفاته فى العالم الآخر ، وذلك لأن مخصص سفن الشمس كان ذا شكل خاص كما كان يحتوى على رموز دينية خاصة مقامة فيها وذلك كله لم يتوفر فى السفينة المكتشفة .

أما عن الوقت الذى استغرقه بناء هذا الهرم فنحن لا نعرف إلا ما ذكره المؤرخ اليونانى هيرودوت وقال بأنه سمعه من الكهنة المصريين وهو أن بناء الأجزاء السفلى والممرات الصاعدة قد استغرق عشر سنوات ، وأن بناء الهرم نفسه استغرق عشرين عاما ، وكان عدد العمال مائة ألف يعملون ثلاثة أشهر فى السنة . وللمؤرخين العذر إذا شكوا فى صحة الرواية ؛ لأن هيرودوت لم يسمعها إلا بعد مضى أكثر من ألفى سنة بعد بناء الهرم ولم يكن محدثوه إلا من صغار الكهنة ، وهم لا يزيدون فى معلوماتهم عن الأدلاء الحاليين الذين نراهم حول الهرم إن لم يقلوا عنهم فى المعرفة . وقد ذكر الكهنة له ما كان يردده الشعب من قصص ، وبعضها لا يمكن أن يصدقه العقل ،

(١) لم ينشر عن هذا الإكتشاف حتى الآن أى تقرير علمى كامل وكل ما لدينا هى أقوال الصحف عند الإكتشاف وما كتبه الأستاذ كمال الملاخ والأستاذ محمد زكى نور فى مجلة Revue de Cairo عدد فبراير سنة ١٩٥٥ . والتقارير التى نشرها كل من محمد زكى نور وزكى إسكندر ومحمد صلاح عثمان وأحمد يوسف مصطفى فى كتاب
The Cheops Boats, part I (Cairo, 1960) .

ولكن بالرغم من ذلك فقد درس المهندسون المعماريون هذا الموضوع وهم مقتنعون بأن بناء الهرم يحتاج على الأقل إلى مثل ذلك الوقت . أما الرقم الذى ذكره عن عدد العمال فربما كان صحيحاً وأنهم كانوا يأتون بهم فى وقت الفيضان بينما كان المختصون من عمال المحاجر والنحاتين يعملون طول العام . وذكر لنا هيرودوت أيضاً أن خوفو كان قاسياً على شعبه وأنه كان يسخر الناس دون رحمة ولهذا كرهوه وحقدوا عليه ، وسواء أكان ذلك صحيحاً أو غير صحيح فإننا لم نعثر فيما كشفت عنه الحفائر من نصوص ما يثبت ذلك . وكثيراً ما نقرأ لبعض الكتاب نقدا لاذعا من أعمال السحرة أو الرق فى تشييد الهرم ، وعن الحكام الذين يستنزفون دماء الشعب فى سبيل تحقيق أشياء لا فائدة منها للناس بل كل فائدتها تعود إلى الحاكم نفسه ليتباهى بها . وأراد البعض الآخر أن يدافع عن قدماء المصريين فقال بأن خوفو وغيره من الملوك كانوا يشيدون الأهرام ليساعدوا المتعطلين عن العمل فى شهور الفيضان عندما تصبح الحقول مغطاة بالمياه ، فتقل فرص العمل ويندر وجود القوت للفقير الذى لم يستعد لتلك الأيام ، فكان تشييد الأهرام عملا إنسانياً ؛ لأنه يضمن لهم الطعام والشراب .

وكلا الرأيين بعيد عن الصواب لأننا لا يمكن أن نحكم على الماضى بمنطق العصر الحاضر ، أو بتعاليمه وآرائه . كان الملك فى مصر إلها معبودا من شعبه ، إلها كغيره من الآلهة الذين فى السماء ، ولكنه رضى أن يعيش على الأرض لكى يحكمها ويسعد الناس بوجوده بينهم . فإذا وضعنا ذلك فى أذهاننا لأدركنا أنه كان يسر الكثير من الناس وبخاصة الذين يعيشون فى القرى النائية بعيدا عن المدن أن تتاح لهم فرصة فى أيام الفيضان ، وأيام الضيق المادى فى الوقت ذاته ، ليزوروا العاصمة التى طالما سمعوا عن عجائبها والطرف بالنظر إلى معابد الآلهة وقصور العظماء ، وكان يسرهم دون شك أن يساهموا فى عمل شيء لإلههم عسى أن يكون فيه قربى ورحمة لهم ، وكان يسر الفقراء من عامة الشعب أن يضمنوا عدم الحاجة طيلة أيام إقامتهم فى العاصمة .

وربما صعب فهم ذلك على الغربيين الذين طغت على أذهانهم فلسفة المادية ومنطقها ، وربما صعب فهم ذلك أيضاً على بعض أبناء المدن الكبيرة فى الشرق ممن تنقصهم تجارب الحياة ، ولكن ليذهب هذا أو ذاك إلى إحدى القرى الصغيرة فى ريف مصر أو غير مصر ، ويرى الناس وهم يعملون عندما يستقر رأيهم على بناء مسجد صغير أو ضريح لأحد الأولياء ، فيرى أهل القرية جميعا ، بل وبعض جيرانهم من القرى الأخرى وهم يعملون دون أجر ، ويرى القادرين من بينهم يتنافسون فى تقديم

الطعام لغير القادرين من العاملين ، والنساء يعملن طول اليوم فى حمل الماء اللازم للبناء ، بل ويطغى الحماس على أغنياء القرية فيأبون إلا أن يعملوا بأيديهم مع غيرهم راجين المغفرة والثواب . فليذهب إليهم ويرى البشر يعلو وجوههم وهم يعملون طول اليوم تحت وهج الشمس ، وليتحدث بعد ذلك عن السخرة أو غير السخرة .

وقبل أن أترك موضوع هرم خوفو إلى نقطة أخرى أحب أن أشير إلى ما تطلع به علينا بعض الصحف من أن بعض الباحثين استطاعوا أن يتنبأوا بحوادث مقبلة من دراساتهم لمقاييس الردهات والحجرات الداخلية فى الهرم الأكبر ، ولست أدرى لماذا يختصون الهرم الأكبر من بين جميع أهرام مصر فيقولون بأن حكماء المصريين القدماء أو من بنوه هم من بنى إسرائيل كما يقولون – وقد تم تشييد الهرم قبل أن يظهر اسمهم فى التاريخ بقرون طويلة – جعلوه مستودعا لكل تلك الأسرار . ولقد قرأت بعض كتبهم وأكثرها منشور فى انجلترا ، أو فى أمريكا فى المدة الأخيرة ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن جميع تلك الآراء قائمة على فروض خاطئة ومعلومات مغرضة غير صحيحة ، وأن مقاييسهم التى يبنون عليها نظرياتهم مقاييس أكثرها لا صحة له ، ويكفى أن يتذكر القارىء ما سبق أن ذكرته وهو حدوث تعديلات جوهرية فى تصميم الهرم أثناء تشييده . كما أرجو ألا ننسى أنه لم يقصد من الهرم عند بنائه إلا أن يكون قبرا ومنزلا أبديا لصاحبه وكان المفروض فيه أن يظل إلى الأبد مغلقا لا يدخله أحد من الناس .

جبانة الهرم الأكبر :

وسمح خوفو بأن تشيد مقابر المقربين من أهله ورجال بلاطه وكبار موظفيه على مقربة من هرمه ليكونوا حوله فى الحياة الأخرى، كما كانوا حوله فى دنياهم ، وبذلك يضمنون لأنفسهم الحياة الخالدة السعيدة . وخصصوا الناحية الشرقية من الهرم لأفراد عائلته فترى فى أول صف قريب من ضلعه الشرقى ثلاثة أهرام صغيرة لثلاثة من زوجاته ثم نرى مقابر أبنائه وإخوته وغيرهم من عائلته فى صفوف متراصة حتى تصل المقابر إلى حافة الهضبة . وكان بعض إخوته (مثل « حم إيون » ، وهو ابن لسنفرو وكان مشرفا على تشييد هرم خوفو فى فترة من فترات تشييده – انظر شكل رقم ٨) وغيره مع عدد كبير من رجال البلاط والموظفين مدفونين فى الناحية الغربية من الهرم فى صفوف بينها طرقات مستقيمة . وقد تم فحص الجزء الأكبر من الجبانتين الشرقية والغربية على يدى أعضاء بعثة هارڤاردو بوسطون وبعثة أكاديمية العلوم فى ڤينا ، وجاءت تلك الحفائر بنتائج علمية كبيرة جلت لنا كثيراً من النقط

الغامضة فى تاريخ وحضارة هذه الفترة المهمة فى التاريخ المصرى . وقد سطا اللصوص على أكثر هذه المقابر فى العصور القديمة والحديثة ولكن بقى رغم ذلك الكثير من الآثار الهامة وبخاصة النقوش والتماثيل وغيرها . وهناك ما يدل على أن الهرم نفسه قد تعرض لما تعرضت له الجبانة كلها فقتح ونهب فى فترة الضعف الذى أصاب مصر فى عصر الفترة الأولى ، أى فى أعقاب الدولة القديمة .

النزاع بين أفراد العائلة المالكة :

ونرى فى كل من الجبانتين وبخاصة الشرقية أثر النزاع المرير بين أبناء خوفو، وبينها مقابر كثيرة لم يتم بناؤها أو لم يتم نقش جدرانها وبينها نقوش محيت أسماء أصحابها وصورهم . ويتلخص النزاع فى أن خوفو تزوج أكثر من زوجة وولد له أبناء من كل منها ، وظهر الصراع بين الأبناء تساندهم أمهاتهم وبعض رجال البلاط لتولى العرش . ومن إحدى مقابر الجبانة الشرقية ، وهى مقبرة الملكة ، مر سعنخ الثالثة ، نستطيع أن نلم ببعض نواحى تلك المأساة .

نرى مر سعنخ ووالدتها تلبسان فى رسوم هذه المقبرة ملابس تختلف عن ملابس المصريات كما يختلف أيضا لون شعرها إذ هو أشقر فيه شىء من الحمرة وعيونها زرقاء ، ولهذا أراد ريزنر أن يرى فيها دما شماليا أى أنها ربما كانت سليلة أحد البيوت التى استقرت على الشاطىء الإفريقى الشمالى فى ذلك العهد (قبائل التمحو) وكانت قد هاجرت إلى هناك من مواطنها الأصلية فى شمال أوروبا .

وسواء أكان ذلك صحيحاً ، أى أن تلك الملكة كانت من نسل ليبى عن طريق أمها أو لم تكن ، فإنا نعرف أن أمها الأميرة حتپ حرس الثانية كانت زوجة لولى العهد الأمير ، كا وعب ، الذى دبر أخ له يسمى ، چدف رع ، أمر قتله ليتولى العرش . وكان ، چدف رع ، ابنا لزوجة ثانوية (ربما كانت من أصل ليبى من الفرع نفسه الذى ولدت فيه حتپ حرس الثانية وابنتها) . ونجح فى مؤامرته وتولى العرش واتخذ حتپ حرس الثانية زوجة ، كا وعب ، لتكون إحدى زوجاته .

ولم تلد حتپ حرس ولدا للملك الجديد بينما ولد هذا الولد من زوجة أخرى فارتفع شأنها وأصبحت حتپ حرس الثانية واحدة من الزوجات الثانويات .

ولم يكن باقى العائلة راضين عما حدث ، وكانت المؤامرات تحاك حول الملك الجديد ، وأخيرا وبعد مضى سنوات ثمانية يختفى ، جدف رع ، من مسرح الحوادث ويتولى عرش مصر أخ له يسمى ، خفرع ، كان قد تزوج من إبنة ، كاوعب ، و ،حتپ حرس الثانية ، وهى مرسعنخ الثالثة .

ولكن النزاع بين فرعى العائلة لم ينته عند ذلك الحد إذ ندرك من دراسة بردية تورين ومن تاريخ مانيتون أو ذلك الفرع الآخر تمكن مرتين على الأقل من الإستيلاء على العرش فترة قصيرة إحداها بعد موت خفرع وقبل أن يتمكن إبنه من كاو رع من استعادة عرش أبيه ، والمرة الثانية فى أواخر أيام الأسرة بعد وفاة شبسسكاف آخر ملوكها المعترف بهم إذ أن أكثر نصوص تلك الأسرة والوثائق التى كتبت فى العصور التالية اعتبرت أولئك الملوك الذين ينتمون إلى الفرع الآخر مغتصبين للعرش فلم تذكر أسماءهم ، واقتصرت فقط على ذكر أسماء خفرع ومنكاورع وشبسسكاف .

وفى عام ١٩٥٠ اكتشف أحد المشتغلين بالآثار على أحد الصخور فى وادى الحمامات نقشا فيه بيان بأسماء بعض ملوك الأسرة الرابعة وقد وضع اسم كل منهم فى خانة ملكية . وبالرغم من أن تاريخ كتابة هذا النقش لا يمكن أن يكون قبل الأسرة الثانية عشرة فإنه يصور لنا على الأقل ما كان معروفاً من معلومات عن تتابع ملوك الأسرة الرابعة فى أيام الدولة الوسطى .

وترتيب أولئك الملوك فى نقش وادى الحمامات كما يأتى : خوفو ، رع ددف ، خفرع ، حور ددف ، وأخيرا با – اف – رع (١) . أى أنه فى الفترة بعد موت خفرع لم يتول العرش شخص واحد بل اثنان نعرف أولهما وهو حور ددف من كثير من الوثائق إذ كان ابنا لخوفو وكان مشهورا بحكمته وله مقبرة فى الجيزة ، أما الثانى فليست له مقبرة معروفة فى الجيزة . وهناك احتمال بأن يكون قد غير اسم الإله رع فى تركيب اسمه إذ نعرف اثنين من أبناء خوفو أحدهما يسمى با – اف – خنوم (والإله خنوم شديد الصلة بهذه العائلة واسم خوفو الكامل هو خنوم – خوف – وى كما ذكرنا) والثانى يسمى ، با – اف – حور ، . ونعرف من بردية وستكار (وهى من الدولة الوسطى مثل نقش الحمامات أن ابن خوفو الذى قص على أبيه قصة كبير المرتلين زازا – إم – عنخ مع الملك سنفرو كان اسمه ، باو فرع ، وكان ترتيبه فى قص القصة بعد خفرع وقبل حور ددف .

يكفينا هذا القدر من قصة النزاع بين أمراء هذه العائلة ، ويكفى أن نعرف أن الملك ، رع ددف ، حكم ثمانى سنوات فقط وأنه لم يكن قد انتهى من تشييد هرمه

---

(١) DEBONO. Expedition archéologique Royale au Desert Orientale Annals du Survice. Vol. Li (1951) p. 89 .
إقرأ أيضاً عن النزاع بين أمراء العائلة المالكة ما كتبه ريزنر فى Mycerinus ص ٢٤٦ وما كتبه فدرن
WALTER FEDERN Zur Familiengeschichte der Dynastie Agyptens, in Wiener Zeitschr. d. More XI III.

عند وفاته . ولم يبن ، رع ددف ، هرمه على مقربة من هرم أبيه بل اختار له بقعة إلى الشمال من هضبة الجيزة فى موقع ممتاز يشرف على الوادى على مقربة من قرية أبو رواش الحالية ، ولم يكن هرمه أول قبر يبنى هناك بل كانت المنطقة معروفة منذ أيام الأسرة الأولى وفيها جبانات عدة من الأسرتين الأولى والثانية .

وعلى مقربة من مبنى الهرم الذى لم يتم حفره حفرا علميا كاملا حتى الآن قطعت بعض المقابر فى الصخر كما بنى البعض الآخر لعدد من موظفيه .

خفرع وهرمه :

وليس فى استطاعتنا أن نقول ما إذا كان ، رع – ددف ، قد مات ميتة طبيعية أو أنه كان ضحية مؤامرة من المؤامرات . وتلاه على العرش أخوه خفرع الذى طال حكمه فزاد عن حكم أبيه إذ من الثابت أنه لم يقل عن خمسة وعشرين عاما بل ربما وصل إلى تسعة وعشرين . واختار خفرع لبناء هرمه ربوة خلف هرم أبيه ، ولا شك فى أن مجموعة خفرع الهرمية من أعظم ما تم عمله من مبان فى الدولة القديمة ، ولكنا نلاحظ أن مهندسيه وصناعه لم يصلوا إلى ما وصل إليه زملاؤهم فى عهد خوفو من إتقان .

وهو لا يقل فى ارتفاعه إلا أمتارا قليلة عن هرم أبيه إذ كان ارتفاعه الأصلى ١٤٣,٥ متر وطول ضلع قاعدته المربعة ٢١٥,٥ متر أما داخله فبسيط إذا قيس بالهرم الأكبر ، وله مدخلان من الناحية الشمالية .

وكان هذا الهرم كغيره من الأهرام مكسوا من الخارج بأحجار جيرية من النوع الممتاز نزعت منه ومن غيره فى العصور الوسطى ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى لاستخدامها هى وغيرها مما بقى من أحجار المقابر والمعابد فى الجيزة وهليوبوليس ومنف ، وجبانتها وغيرها من الآثار ، لبناء أسوار القاهرة وبعض مساجدها ومنازل عظمائها ، بل إن أخذ الأحجار من الأهرام والمعابد لأجل البناء كان مستمرا حتى القرن التاسع عشر (١) .

(١) كان عمال محمد بك الدفتردار صهر الوالى محمد على باشا يحطمون كساء الهرم القبلى لسنفرو فى دهشور ومعبد الوادى هناك للحصول على الأحجار اللازمة لبناء قصره فى القاهرة ، بل ومن المعروف أيضاً أنه كانت هناك فكرة فى عهد محمد على لهدم الهرم الأكبر واستخدام أحجاره فى بناء القناطر الخيرية لولا أنهم وجدوا أن ذلك يكلف حكومة مصر إذ ذاك أكثر من قطع الأحجار اللازمة من محاجرها .

ولم يبق من الكساء الخارجى إلا جزء بسيط فى أعلى الهرم ، أما باقى المجموعة الهرمية فهى لحسن الحظ فى حالة أفضل من مثيلتها فى هرم خوفو ويستطيع زائر المنطقة أن يرى بقايا معبده الجنازى ، ومعبد الوادى ، وبقايا الطريق الصاعد الموصل بين الإثنين كما يستطيع أن يرى حول الهرم الأماكن التى كانت توضع فيها المراكب اللازمة لرحلة الشمس ، وقد عثر منها على خمسة على الأقل ، كما يستطيع أيضا أن يرى بقايا مدينة العمال فى الجهة الغربية منه وهى مقسمة إلى ١١٠ قاعات وتتسع لإيواء عدد يتراوح بين ٣٥٠٠ ، ٤٠٠٠ عامل .

ويعطينا المعبد الجنازى لهذا الهرم فكرة عما وصلت إليه هندسة بناء المعابد بوجه عام فى ذلك الوقت كما يعطينا أيضا فكرة عما كان عليه قصر الملك أو غيره من الأثرياء القادرين .

يدخل الزائر من بابه الشرقى عند اخر الطريق الصاعد ، فيمر فى دهليز ضيق يؤدى إلى بهوين كبيرين كان يحمل سقف كل منهما أعمدة من الجرانيت ثم يرى بعد ذلك بهوا كبيرا لاسقف له وعلى جوانبه بواكي محملة على أعمدة كبيرة الحجم ، ويلى ذلك خمس حجرات صغيرة يرجح أن كل واحدة منها أقيمت لأجل اسم من أسماء الملوك الخمسة ، وأن جدرانها كانت مزخرفة برسوم للملك .

ويأتى بعد ذلك جزء خاص من المعبد كان لا يسمح بزيارته إلا للكهنة القائمين على خدمته ، وكان فيه الهيكل والمخازن التى كانوا يضعون فيها الأدوات التى تلزمهم فى تقديم القرابين أو أداء الصلوات للملك – الإله .

وكان الطريق الموصل بين هذا المعبد ومعبد الوادى مسقوفا ،(١) ونرى بعض بقايا جدرانه عند معبد الوادى الذى شيدوا جدرانه وأعمدته من جرانيت أسوان وبنوا بعض حجراته وأرضيته من كتل المرمر التى أتوا بها من محاجر حتنوب فى الجبل الشرقى خلف تل العمارنة .

وكان هذا المعبد يستخدم فى بعض الطقوس الدينية الخاصة بغسل الجثة وتطهيرها ثم تحنيطها وكان فى الوقت ذاته مدخلا للمجموعة الهرمية . وله بابان يوصلان إلى بهو مستطيل ثم إلى قاعة محمولة على أعمدة جرانيتية مربعة تمتد فى

---

(١) أثبتت حفائر هولشر فى هذه المنطقة قبيل الحرب العالمية الأولى أن هذا الممر كان مسقوفاً، ولكن طريق هرم ميدوم وطريق هرم سنفرو القبلى كانا غير مسقوفين ، أما طريق هرم خوفو فيرجح أنه كان مسقوفا ؛ لأن هيرودت ذكر عند وصف له أن جدرانه كانت مغطاة بالنقوش .

وسطها فتكون بهوا آخر (الاثنان يكونان شكل حرف T) كان يقوم إلى جانب كل عمود في الجزء المستطيل تمثال للملك .

وكانت تماثيل خفرع منتشرة في أرجاء هذا المعبد وبعضها من حجر الديوريت، ومن بينها ذلك التمثال الشهير الذي يعتبر آية من آيات الفن المصرى ويمثل صاحبه وقد جلس على عرشه ووقف الإله حورس على شكل صقر خلف رأسه ليحميه ، وقد نجا هذا التمثال وغيره من تماثيل هذا الملك ؛ لأن كهنة المعبد حفروا في وقت من الأوقات حفرة عميقة في البهو الشرقي المستطيل أودعوها تلك التماثيل التي بقيت في ذلك المكان حتى عثر عليها عند تنظيف مصلحة الآثار لذلك المعبد في القرن الماضي .

وصل فن النحت إلى قمته في عهد خفرع وأصبح في استطاعة الفنان المصرى أن يسيطر سيطرة تامة على أقسى أنواع الحجر ، ويكفى أن يقف الإنسان أمام هذا التمثال المصنوع من الديوريت وهى مادة أصلب من الجرانيت والبازلت [١] ويرى نجاح الفنان في التعبيرات التي ظهرت على وجهه ودقته في إظهار عضلات الجسم ، ومظهره بوجه عام ، ليدرك مدى تقدم الفنان المصرى في فنه ، ذلك التقدم الذي لم يتفوق عليه هو نفسه في العصور التالية .

تمثال أبو الهول :

ولا يمكن أن يذكر الإنسان منطقة أهرام الجيزة إلا ويجد نفسه مضطرا لذكر « أبو الهول » التمثال الضخم الرابض على حافة الصحراء والذي احتل مكانة كبرى في آداب العالم ، وكتب عنه الكتاب منذ أيام الرومان كثيرا من القصائد وحاكوا حوله الأساطير ، وطالما تساءلوا عما يخفيه من أسرار .

والحقيقة أنه لم يعد هناك سر يخفيه . فقد كشفت حفائر مصلحة الآثار في عام ١٩٢٦ ، ومرة أخرى في عام ١٩٣٦ ، عن كل ما هناك وأصبحنا متأكدين الآن أن هذا التمثال الكبير المقطوع في صخر الجبل على هيئة أسد رابض وله رأس إنسان ليس إلا تمثالا للملك خفرع باني الهرم الثاني ، وأن الصخرة التي هيأوها كانت جزءاً في

(١) كان ملوك الدولة القديمة إبتداء من أيام خوفو يجلبون كتل الديوريت من أحد المحاجز في الصحراء الغربية على مسافة ٤٠ كيلو متراً من النيل جنوب غربي أبو سمبل في النوبة ؛ وكان هناك طريق خاص بين تلك المحاجر وبين النيل عند بلدة توشكة وكانوا يحضرون حجر المرمر من أيام خوفو أيضاً من محاجر حتنوب في قلب الصحراء الشرقية خلف تل العمارنة ، أما حجر الجرانيت فكانوا يأتون به من محاجر أسوان في أغلب الحالات .

محجر من المحاجر التى أخذ منها عمال خوفو بعض الأحجار اللازمة لبناء الهرم الأكبر وتركوا هذه الصخرة لأنها ليست من الحجر الجيد اللهم إلا فى طبقتها العليا .

فلما استقر رأى خفرع على تشييد هرمه على مقربة من هرم أبيه اضطر للانحراف بالطريق الموصل بين المعبدين ليتفادى هذا المحجر وجعل طريقه يسير على حافته وانتهى أخيرا بمعبد الوادى الذى أشرنا إليه .

ولا شك أن وجود تلك الصخرة كان يشوه المكان ، ولهذا رأى المشرف على العمل أن يستفيد منها لعمل تمثال لسيده الملك ، جسده على صورة أسد وهو أقوى الحيوانات ورأسه على صورة لرأس خفرع نفسه أى أنه كان جامعاً للقوة والعقل ، ثم أصلح أنحاء المحجر وبنى معبداً أمامه (١) .

منكاورع :

استطاع الحزب المعارض فى الأسرة المالكة أن يستولى على السلطة بعد وفاة خفرع وقد تحدثنا عن ذلك النزاع فيما قبل ، ولا تساعدنا معلوماتنا القليلة على الخوض فى هذا الموضوع أو معرفة المدة التى استغرقتها فترة عدم الإستقرار أو القول عن يقين إن كان قد حكم بين خفرع ومنكاورع ملك واحد من إخوة خفرع أو حكم ملكان .

ونرى بعد ذلك ، وقد عادت البلاد إلى حالتها الطبيعية أن الملك منكاورع أخذ يشيد هرمه على مقربة من هرمى أبيه وجده وقد وضع المهندسون تصميمه على أن يكون أقل منهما كثيراً فى الحجم (ارتفاعه ٦٦,٥ متر وطول ضلع قاعدته ١٠٨,٥ متر) ولو أنهم كانوا يقصدون أن يكسوه كله من حجر الجرانيت بدلا من الحجر الجيرى الأبيض ، ولكن لم يتمموا إلا نصفه فقط .

وقد ذكر الكهنة لهيرودوت الشيء الكثير عن ظلم كل من خوفو وخفرع للشعب

(١) لم يعتبر المصريون هذا التمثال للإله ، حور إم أخت ، (حور ماخيس) إلا فى الأسرة الثامنة عشرة أى بعد عصر خفرع بأكثر من ألف ومائة سنة . غير أن الإهتمام بأبو الهول زاد فى العصور المتأخرة جداً من التاريخ المصرى وكان يقام له فى العهد الرومانى أعياد كانت تمتاز بما يجرى فيها من الرقص والغناء والموسيقى ومواكب السرور ، ويحمل فيها الناس الأزهار وجريد النخل وأمام صدر أبو الهول نرى حتى الآن لوحة تحوتمس الرابع المعروفة باسم لوحة الحلم ، كما ظهر فى الحفائر فى عام ١٩٣٦ عدد كبير جداً من اللوحات الصغيرة ، وكانوا يشيرون إلى أبو الهول كإله معبود يسمونه ، بو حول ، وهو على الأرجح أصل الإسم الحالى . كما كانت تقيم على مقربة من المكان فى أيام الدولة الحديثة جاليات أسيوية من أسرى الحروب كانت تقدم له العبادة ، وتقدم له اللوحات قرباناً له ، مثل المصريين .

وكيف كرههما الناس ومقتوهما ، ويذكر أيضاً كيف خالف منكاورع أساليب من سبقه وأبطال الظلم وفتح المعابد فأحبه الناس .

وربما كانت هذه القصة تحمل بين ثناياها شيئا من الصدق ، فلا شك أن تشييد المجموعتين الهرميتين لخوفو وخفرع ومقابر موظفيهما كان عبئا كبيرا على كاهل البلاد والخزانة ، زاد من شدته ذلك التناحر بين فرعى البيت المالك الذى لم تستطع الأيام أن تخفف من حدته .

وبالرغم من أن منكاورع حكم أكثر من واحد وعشرين عاما (وربما امتد حكمه إلى ثمانية وعشرين عاما) فإنه لم يستطع أن يتمم تشييد هرمه الصغير أو معبده الجنازى أو معبد الوادى لهذا الهرم مشيد من الطوب اللبن وليس فيه شيء مشيد بالحجر إلا بعض الأرضيات والأعمدة وعتبات الحجرات ، وقد عثر ريزنر فى هذا المعبد عند حفره له على عدد من مجموعات التماثيل المصنوعة من حجر الشست (نوع من الإردواز) يمثل كل منها الملك منكاورع مع رمز لإقليم من الأقاليم وأحد المعبودات المهمة .

وقد نهب هذا الهرم كما نهب غيره فى عصر الفترة الأولى ولكن اللصوص تركوا الكثير مما لم يكونوا فى حاجة إليه ، وقد عثر پرنج (Perring) عندما فتح هذا الهرم عام ١٨٣٩ على بعض أجزاء من مومياء لرجل وعلى تابوت خشبى مكسور ربما كانا باقيين من الأثاث الجنازى للهرم (١) ، كما عثر أيضاً على تابوت للملك من حجر البازلت زخرفت جوانبه بالكوات الداخلية والخارجية التى تمثل واجهة القصر ، ولكن هذا التابوت غرق مع السفينة التى كانت تحمله إلى انجلترا عندما هبت عليها عاصفة شديدة أمام شواطىء أسبانيا .

(١) بقايا التابوت الخشبى المكتوب وأجزاء المومياء محفوظة فى المتحف البريطانى وإذا كان العلماء لا يرون ما يحول دون إعتقادهم بأنه من المعقول أن تكون أجزاء المومياء للملك منكاورع فإن هناك شكا غير قليل فى موضوع التابوت الخشبى إذ ربما كان من عصر بعد عصر منكاورع عندما أعاد الكهنة إغلاق الهرم بعد سرقته ، وربما أمكن تحقيق هذا الموضوع عند فحص كل من بقايا المومياء والتابوت بطريقة « راديو كاربون ١٤ » التى تستطيع أن تحدد لنا كم من السنين قد مرت على العينات التى من مادة عضوية على أساس ما تفقده من إشعاع كلما مر عليه الزمن . وقد نجحت هذه الطريقة فى فحص كثير من الآثار الموثوق من تاريخها وأعطت أرقاما قريبة من الصحة وذلك خلال الإثنى عشر عاماً الأخيرة ، وستكون هذه الطريقة عاملاً مهماً فى فحص كثير من الآثار المشكوك فيها وتقدير تاريخها ، ولو مع خطأ قليل نسبياً إذ كانت تلك العينات قد تلوثت من اتصالها بغيرها من المواد العضوية الأخرى ؛ وتأثرت من إشعاعها .

السنوات الأخيرة من حكم الأسرة الرابعة :

وتولى « شبسسكاف » الحكم بعد أبيه ولكنه لم يعش أكثر من أربع سنوات ، وقد امتازت هذه المدة القصيرة بحادث مهم كان مقدمة لحوادث أخرى ذات أثر كبير .

أخذ نفوذ كهنة الشمس يعظم ويزداد منذ قيام الأسرة الرابعة ، ولكن هذا النفوذ لم يكن ذا خطر فى أيام سنفرو أو خوفو ولكنه أصبح قوياً منذ عهد خفرع ، ولم يصبح إسم الإله رع جزءا من أسماء بعض الملوك وأمراء البيت المالك للتيمن به فحسب ، بل أخذ الاسم الخامس للملوك وهو اسم « ابن رع » ، يظهر أيضا ابتداء من عهد الملك خفرع.

ورأى «شبسسكاف أن يضع حدا لهذا النفوذ والسطوة للكهنة فترك بناء قبره على شكل هرم لصلة ذلك بعبادة الشمس ، وأراد إهماله فبنى قبره على شكل تابوت كبير (١٠٠ متر × ٧٢ مترا وارتفاع ١٨ مترا) وهو المعروف باسم « مصطبة فرعون » فى سقارة القبلية وبنى فى جهته الشرقية معبده الجنازى كالمعتاد ، وأقام أيضا معبد الوادى والطريق الموصل بينهما ، إلا أن البناء لم يتم وربما لم يقدر لشبسسكاف أن يدفن فيه .

كانت هناك دون شك حركة ضد كهنة رع ، ولكن شبسسكاف لم يعمر طويلا ليحقق ما كان يهدف إليه وسرعان ما عاد التنازع فى البيت المالك إلى الظهور وقام واحد منهم (وربما كان اسمه جاف بتاح) واستولى على العرش وحكم نحو عامين.

وفى هذه الظروف المضطربة والفترة الدقيقة من تاريخ الأسرة تظهر سيدة من العائلة المالكة اسمها « خنتكاوس » فتكون الحلقة بين الأسرتين الرابعة والخامسة .

خنتكاوس :

فى شتاء عام ١٩٣١ – ١٩٣٢ كشفت حفائر جامعة القاهرة فى منطقة أهرام الجيزة عن حقيقة البناء الذى كان يطلق عليه « ليسيوس ١٠٠ » الذى كان يظن البعض أنه هرم لم يكمل بناؤه ، فاتضح أنه شبيه فى تصميمه بقبر الملك شبسسكاف أى على شكل تابوت كبير مشيد فوق صخرة فى المكان ، وأنه لم يكن لملك من الملوك وإنما كان لإحدى الملكات واسمها « خنتكاوس » . ومنذ هذا الاكتشاف حاول كثير من الأثريين تحديد مركز هذه السيدة من العائلة . وقد اختلفت الآراء فى بعض التفاصيل ولكن المرجح الآن هو أنها ابنة للملك منكاورع وإن كانت لم تذكر ذلك على آثارها ، وأنها تزوجت « شبسسكاف » وإن لم تذكر ذلك أيضاً ، وأنها عاشت خلال السنتين

اللتين حكمهما « ددف بتاح » ، ويظن أنها تزوجت من « وسر كاف » الذى أسس الأسرة الخامسة وأصبحت أما لابنيه اللذين حكما من بعده واحدا بعد الآخر . وهما « ساحورع » و « نفر إر كارع » أى أنها أصبحت أما لأسرة الخامسة .

ويلوح أن هذه الملكة كانت أصل الأساطير التى كان يرويها المصريون فى أواخر أيام حضارتهم ، فقد ردد هيرودوت ما سمعه فى مصر من أن الذى بنى الهرم الثالث كان امرأة تسمى « رودوبيس » ولكنه كان متأكدا من أن بانيه كان منكاورع وأن رودوبيس لم تكن إلا إحدى المحظيات غير المصريات اللاتى اشتهرن بجمالهن فى القرن السادس قبل الميلاد وكانت لها مغامرات غرامية اشتهر أمرها بين اليونانيين . وقد ذكر مانيتون أن الذى بنى الهرم الثالث ملكة تسمى نيتو كريس وأنها كانت أقوى وأجمل امرأة فى زمانها .

ولكن معنى كلمة رودوبيس هو « وردية الخدين » ، وربما كانت الأسطورتان تشيران إلى خنتكاوس التى ربما كانت كبعض نساء أسرتها بيضاء البشرة شقراء الشعر فتحدث بجمالها الناس وأعجبوا بدورها الذى قامت به عندما استعرت نار الفتنة فى أواخر أيام الأسرة الرابعة ثم أصبحت أما لملكين جلسا على العرش .

ولكن كل هذه الآراء تفتقر إلى البرهان والدليل . وكل ما نستطيع أن نقوله هو إن خنتكاوس لم تجلس على العرش وأنها لم تدفن فى هرم وإنما دفنت فى قبر على شكل تابوت ، وأن هذا القبر كان يختلف سواء فى تصميمه أن فى عظمته عن قبور الملكات الآخريات اللاتى عشن فى تلك الأيام .

لقد عجلت ثورة شبسسكاف على كهنة رع بنهاية أيام تلك الأسرة التى تطاحن أفرادها منذ وفاة خوفو ، وأخيرا حوالى عام ٢٥٦٠ ق . م. انتهى عهد الأسرة التى أسسها سنفرو وحلت مكانها أسرة أخرى من كهنة الشمس .

الأسرة الخامسة
(٢٥٦٠ - ٢٤٢٠ ق.م.)

نجح كهنة الشمس فى الإستيلاء على الملك وانتهى ذلك الصراع بزوال الأسرة الرابعة وانتقال العرش إلى بيت حاكم آخر .

وفى حقيقة الأمر لا تمدنا الآثار بمعلومات كافية عن هذا التغيير فنرى أن «وسر كاف» أول ملوك هذه الأسرة قد ترك منطقة أبو صير وذهب إلى منطقة سقارة وإختار مكانا قريبا من الهرم المدرج ولكن مجموعته الهرمية وما عثر عليه من نقوش معبده لا تختلف عن أهرام ونقوش الأسرة الرابعة (١) فى شيء ذى أهمية .

ولسنا نعرف شيئا عن أصل « أوسر كاف » أو صلته بكهنة الشمس وإن كان من المحتمل أنه كان يتولى منصباً كبيراً فى معبد الشمس واستطاع بمعونة الكهنة أن يصل إلى العرش ويتزوج « خنتكاوس » ليصبح جلوسه على العرش شرعيا فى نظر الشعب .

وسواء أكان ذلك صحيحاً أو كان رجما بالغيب فإن الحقيقة التى لا يمكن التشكك فيها هو أن « خنتكاوس » كانت أما لملكين حكم كل منها عرش البلاد واحد بعد الآخر ، وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على الرأى القائل بأنهما الملكان اللذان جاءا بعد (أوسر كاف) وهما « ساحورع » و « نفر ار كارع » .

لم يكن انتقال الملك على هذه الصورة أمراً سهلاً لا يترك أثراً بين المصريين ، بل سببت تلك الحوادث هزة كبرى لم يكن لمصر عهد بها من قبل . إذ كانت بداية لزعزعة سلطة الجالس على العرش ومن السهل علينا أن نتصور أن تلك الحوادث جرت انقساما فى الآراء ، وأن كلا من الحزبين المتنازعين أخذ يبذل كل ما فى جهده لتأييد وجهة نظره والتغلب على حجج غيره .

وفى هذه الفترة المضطربة روج كهنة الشمس بين الناس قصة طويلة وصلت إلينا فى أحد قراطيس البردى التى كتبت فى الدولة الوسطى ، ألفوها ونسبوا حوادثها إلى عصر خوفو وجعلوها تتضمن أسماء بعض الملوك السابقين الذين لم يكن لهم

---

(١) هرم « أوسر كاف » فى سقارة هو الهرم المعروف باسم الهرم المخربش وقد فحص عام ١٩٢٨ ، وقد اضطرتهم طبيعة الأرض فى تلك المنطقة وعدم وجود المكان الكافى لإقامة معبد جنازى فى الناحية الشرقية إلى الاكتفاء ببناء هيكل صغير فى هذه الجهة وبنوا المعبد الكامل فى الجهة الجنوبية من الهرم .

الشعب احتراما وتقديرا ، مثل زوسر وسنفرو وخوفو ، ليعطوها أهمية خاصة .

تتلخص قصة خوفو والسحرة (أو بردية وستكار) فى أن الملك خوفو جمع يوما من الأيام أولاده وطلب من كل منهم أن يقص عليه قصة عما يستطيع السحرة أن يأتوه من معجزات ، وبدأن أولهم بقصة عن زوسر (لم يحفظ منها إلا كلمات من خاتمتها) وتلاه آخر بقصة من عهد الملك نبكا وثالث بقصة عن الملك سنفرو . لم تكن تلك القصص إلا مقدمات أو تمهيدا فقط لما سيأتى بعد ذلك ، إذ يقول أحد أبناء خوفو لأبيه إنه يعيش فى أيامه ساحر عظيم يستطيع أن يأتى بالمعجزات ، فيرسله أبوه ليأتى من بلده ويقوم الساحر ببعض المعجزات أمام الملك ومنها إعادة الحياة لبعض الحيوانات بعد ذبحها وفصل رأسها عن جسدها . ثم يطلب خوفو من ذلك الساحر أمرا فيرد عليه بأنه لا يستطيع ولكن الذى يمكنه القيام بذلك هو أكبر أطفال ثلاثة فى بطن زوجة لكاهن حملت بهن من الإله رع نفس وأن الإله رع أخبرها بأنهم سيتولون عرش البلاد وأن أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم فى مدينة ، إيون ، أى هليوبوليس . ويضطرب خوفو ولكن الساحر يطمئنه بأن ذلك لن يكون قريبا وأنه لن يحدث فى عهده ، وأن إبنه سيحكم من بعده ثم يحكم ابن ابنه ، ثم يأتى بعد ذلك واحد منهم . وتستمر القصة فتذكر حمل زوجة الكاهن وما تلا ذلك من ظهور عجائب ومعجزات وكيف حضرت آلهات الولادة مولدهن إلى آخر القصة .

وليس فى استطاعتنا أن نقول ما إذا كان النص الذى وصل إلينا ، وهو من عهد الدولة الوسطى ، هو صورة منقولة عن النص القديم الذى وضع فى عهد الأسرة الخامسة كدعاية سياسية لتلك الأسرة ، أم دخل عليه شىء من التغيير مع مرور الزمن، إذ أننا لم نعثر حتى الآن على أى أثر من عهد الأسرة الخامسة عليه رسم أو كتابة تشير إليها (١) . أما الهدف الذى كان يرمى إليه واضع القصة فهو إقناع الناس بأن استيلاء كهنة الشمس على عرش البلاد إنما كان شيئا مقدرا منذ عهد بعيد وأن هؤلاء الذين جلسوا على العرش ولم يكن يجرى فيهم الدم الإلهى الملكى ، إنما كانوا خيرا ممن سبقهم من الملوك ؛ لأنهم كانوا أبناء الإله رع من صلبه .

(١) مثلما فعلت الملكة حتشبسوت فى الدولة الحديثة عندما رسمت على جدران معبدها فى الدير البحرى قصة زيارة الإله أمون رع لأمها فى مخدعها وحملها منه ثم ولادتها وكما نرى أيضاً فى معبد الأقصر إذ قص أمنحوتب الثالث قصة شبيهة بقصة حتشبسوت .

أوسر كاف :

ومما يؤثر عن عهد « أوسر كاف » ما ذكره حجر بالرمو من تشييده المعابد فى مختلف بلاد مصر مثل بوتو فى الدلتا لأجل عبادة الإلهة حاتحور وما أوقفه من أرض على معبد الإله رع .

وفى مقابر طهنا الجبل فى محافظة المنيا نرى أسمه فى مقبرة « نى – كا – عنخ » الذى كان كاهنا للإلهة حاتحور إذ أو كل إليه هذا الملك حق الإشراف على وقف شخص يدعى « خنوكا » مساحة أراضيه ١٢٠ ستاتاً (الستات مساحته نحو ٣/٢ أفدنة على وجه التقريب) وقد ترك « مى كاعنخ » وصيته مكتوبة على جدران قبره مقسما هذه المنح الملكية بين أفراد عائلته على أن يقوموا بجميع ما تتطلبه أعمال الإشراف على إدارة الأوقاف والقيام بخدمة معبد حاتحور سيدة مدينة القوصية ، إذ أن عمل « نى كاعنخ » الرئيسى كان فى ذلك البلد الواقع فى محافظة أسيوط ولكنه دفن فى قبره الذى أعده على مقربة من بلدة الأصلى فى طهنا .

أما عن هرم أوسر كاف فهو فى سقارة كما قلنا وقد عثر فى معبده على رأس لتمثال ضخم كبير من الجرانيت لهذا الملك . ونعرف من مصادر كثيرة أنه أول من بنى معبداً للشمس فى أبو صير ، ومن المرجح جداً أن يكون هو المعبد الذى حفرته بعثة المعهد السويسرى لدراسة العمارة المصرية القديمة بالقاهرة فى السنوات الأخيرة، وعثرت فيه فى آخر مواسم الحفر عام ١٩٥٧ على رأس من حجر الشست كانت لتمثال وهى على درجة كبيرة من الإتقان تمثل ملكا يحمل التاج على رأسه ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن تخريب المعبد كان كاملا ولم يعثر فيه على أى نقوش أو يعثر فيه على اسم صاحبه مكتوبا على أى أثر حتى يمكن نسبة هذا المعبد وهذا الرأس إلى أوسر كاف دون تردد أو شك .

ساحورع : (٢٥٥٣ – ٢٥٣٩ ق.م.)

حكم أوسر كاف سبع سنوات فقط ثم تلاه على العرش ساحورع الذى حكم أربعة عشر عاما ، وكان أول ملوك الأسرة الخامسة الذين اختاروا منطقة أبو صير ليبنوا فيها أهرامهم (١) وعلى مسافة غير كبيرة من معبد أوسر كاف بنى ساحورع

(١) ملوك الأسرة الخامسة تسعة وهم ١ – « أوسركاف» ومدة حكمه ٧ سنوات ٢ – «ساحورع» ومدة حكمه ١٤ عاما ، ٣ – « نفر أر كارع » وربما كانت مدة حكمه ١٢ عاما ، ٤ – «سبسس كارع» ومدة حكمه ٧ سنوات ، ثم ٥ – « نفر إف رع » ولم تزد مدة حكمه عن أربع سنوات ، ٦ – ثم الملك «نى وسر رع» وقد حكم أكثر من إثنين وثلاثين عاما ، ٧ – ويأتى بعد ذلك الملك « منكاوو حور» وقد حكم ثمانى سنوات ، ٨ – ثم يأتى بعد ذلك الملك « جد كارع إسيسى » الذى حكم ٢٨ عاما ، وآخر ملوك الأسرة هو ، ٩ – أوناس (وينطق أحيانا ونيس) وقد حكم ٣٠ عاما، أى أن مجموع سنى حكم ملوك هذه الأسرة ١٤٠ عاما .

هرمه على هضبة أبو صير بين أهرام الجيزة وسقارة وتبعه أربعة مما جاءوا بعده وهم « نفر إر كارع » و « شبسسكارع » و « نفرف رع » و « نى وسررع » فبنوا أهرامهم أيضا هناك وشيد أثنان منهم على الأقل معابد للشمس على مقربة من أهرامهم .

ولم يعتن ساحورع بتشييد هرمه إذ نراه فقير البناء صغير الحجم إذا قيس بأهرام الأسرة السابقة ، ولكنه استعاض عن ذلك بتشييد معبد فخم استخدم فى بنائه أثمن المواد المعمارية وعنى بتزيين قاعاته وأبهائه المحمولة على أعمدة الجرانيت ذى التيجان النخلية (على هيئة جريد النحل فى حزمة مربوطة) . وبلغ من عناية معماريى الأسرة الخامسة بعمارة هذا المعبد وغيره من المعابد حداً كبيراً لم نعرفه من قبل إذا لم يهملوا فى شىء واحتاطوا لدرء كل ما عساه أن يؤثر على سلامة البناء فلم يسقطوا المطر من حسابهم وجعلوه ينساب من مزاريب كل منها على هيئة رأس أسد تسقط المياه من أفواهها إلى قنوات صغيرة عمقوها قليلا فى الأرضية ، ثم تسير المياه منحدرة إلى الخارج . أما المياه التى كانت تستخدم داخل حجرات المعبد فى أجزائه المختلفة فكانت تسير من مواسير تحت أرضية المعبد ، وكانت هذه المواسير مصنوعة من النحاس وملحومة إلى بعضها بالرصاص ، وتسير إلى خارج المعبد حيث تصب فى أحد الأماكن المنخفضة فى مكان بعيد عن الأنظار .

ولا جدال فى أن فن عمارة المعابد وتشييدها قد تقدم كثيراً فى عهد الأسرة الخامسة كما زادت النقوش التى على جدران تلك المعابد وتنوعت ، و هذا يعوضنا دون شك على انصرافهم عن الاهتمام بالأهرام .

ونعرف من بقايا النقوش التى كانت تغطى جدران معبدى ساحورع والطريق الموصل بينهما كثيراً من نشاط هذا الملك وبخاصة فى ميدان الحرب إذ تعرضت مصر فى أيامه إلى غزو من ناحية الغرب عندما جاءت بعض القبائل الليبية ومعها زعماؤها ونساؤهم وحيواناتهم ليهاجموا الدلتا ويستقروا فى وادى النيل فهزمهم ساحورع .

ونعرف أيضاً من نقوش معبده فى أبو صير أنه أرسل أسطولاً إلى شواطىء فينيقيا ، ولكنا نرى أكثر من إقلاع ذلك الأسطول ثم عوته واستقبال الملك له يحف به كبار موظفيه مما حدا ببعض الباحثين فى التاريخ المصرى إلى الاعتقاد بأن ذلك الأسطول لم يرسل للحرب أو للتجارة وإنما كان فى رحلة ودية وربما عاد بأميرة من أميرات تلك البلاد لتصبح زوجة من زوجات ساحورع .

ولم يقتصر نشاطه على غربى مصر وعلى الساحل الفينيقى بل أرسل أيضاً حملة أخرى نحو الجنوب إذ ترك رئيسها اسم ملكة منقوشاً على أحد الصخور التى

على مقربة من شاطىء النيل عند توماس فى بلاد النوبة ، كما نعرف من حجر بالرمو أنه أرسل حملة إلى بلاد بونت ، وهى المنطقة التى حول بوغاز باب المندب وتشمل الشاطئين الإفريقى والأسيوى أى الصومال واريتريا فى ناحية وجنوبى بلاد العرب فى الناحية الأخرى . وأن تلك البعثة عادت ومعها مقابر كثيرة من البخور والذهب وعدداً غير قليل من أعواد من الأخشاب التى كان المصريون يهتمون بالحصول عليها ، وربما كان بعضها أو أكثرها من الأبنوس .

وهكذا نرى مصر وقد بدأت صفحة جديدة فى حياتها وأخذت تخرج من عزلتها فتتطلع بعينها نحو الجنوب ونحو الشرق وتعيد إرسال أسطولها التجارى إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتفتح عينيها فلا تسمح لبدو الصحراء الغربية بغزو الدلتا ، بل ربما كانت مناظر مهاجمة أحد حصون جنوبى فلسطين الذى تراه مرسوماً فى أحد مقابر دشاشة فى محافظة بنى سويف ترجع أيضاً إلى ذلك العهد الذى أرادت فيه مصر أن تمهد الطريق لإنشاء صلات تجارية مع جيرانها فى الجنوب وفى الشرق براً وبحراً (١) .

نفر إر كارع : (٢٥٢٩ – ٢٥٢٧ ق. م.)

ولم يكن الملك ، نفر إر كارع ، أقل طموحا من أخيه ، وقد فكر فى تشييد هرم أكبر من هرم ساحورع ، ولكنه مات قبل أن يتم جميع أجزاء مجموعته الهرمية . ولم يكن هذا الملك يشبه من سبقه على العرش فى نشاطه الحربى بل كان شخصاً طيب القلب محباً لتقديم الهبات للمعابد ، وفى نفسه شعور أصيل بحب من حوله والاعتراف بخطئه إذا أخطأ .

فأما عن حبه للكهنة والمعابد فيكفى أن نلقى نظرة على أعماله المسجلة فى حجر بالرمو فنرى أكثرها فى السنة الأولى من حكمه لا يعدو منح الأوقاف للآلهة يمنحها مرة للناس ومرة أخرى لأرواح هليوبوليس . أو نراه يقدم مذبحاً للإله رع ومذبحاً آخر للإلهة حتحور ، كما نراه أيضاً يقدم للفلاحين الذين يعملون فى الأراضى التى تملكها المعابد ، بل ويقدم تمثالا من خليط من معدنى الذهب والفضة .

ومن سوء الحظ أن الجزء المحفوظ من حجر بالرمو ينتهى عند ذلك فلا نعرف ماذا قدمه للكهنة والآلهة فى السنوات التالية ، ولكن هذه البداية كافية لتجعلنا ندرك أن عصر هذا الملك كان بدء ظهور سلطة الكهنة ظهوراً تاما واستغلالهم لطيبة نفسه للحصول على كل ما يريدون ، ولا نعجب بعد ذلك إذا رأيناه يصدر فى عهده مرسوماً

(١) هناك رأى أخر يفضل القول بأنها من عهد بيى الأول من الأسرة السادسة .

ملكياً (١) يسجل معافاة رجال الدين وفلاحى المعابد من القيام بأى عمل آخر تتطلبه مشاريع الإصلاح فى أى إقليم من الأقاليم ، ويهدد كل من يخالف ذلك من موظفى الحكومة فساعد « نفر إر كارع » بهذا العمل على تقوية الكهنة وإثرائهم . فإذا وضعنا فى أذهاننا أن المتربعين فى زعامة مراتب الكهنوت كانوا هم فى الوقت ذاته كبار الموظفين فى البلاد فإنا ندرك بسهولة لماذا أخذت سلطة الملك تضعف مع مرور الزمن ولماذا بدأت السلطة المركزية للحكومة فى التفكك ، ولماذا أخذ شأن كبار الموظفين وحكام الأقاليم يعلو ويزداد . ولنترك الآن هذه النقطة المهمة لنعود إليها مرة أخرى ونذكر بعض ما حفظه لنا تاريخ ذلك العصر عن طيبة قلب ذلك الملك .

كان لهذا الملك وزير يسمى « واش پتاح » كان يشغل فى الوقت ذاته وظيفة كبيرة القضاء ، والمشرف على جميع الأعمال الإنشائية للملك . وذهب الملك مع أبنائه ليشاهد العمل فى إحدى المنشآت الملكية فى يوم من الأيام وكان وزيره يسير إلى جواره ويشرح له ما تقع عليه عيناه . وسر الملك ومن معه مما رأوا وأثنى عليه كثيرا ، وبينما كان الملك يتحدث إليه سقط « واش پتاح » مغميا عليه . وعندما رأى أولاد الملك وأفراد عائلته ما حدث أصابهم الهلع وأمر « نفر إر كارع » أن ينقلوه فى الحال إلى القصر وأخرج جلالته صندوقاً مملوءاً بالقراطيس الطبية لعله يجد فيها علاجا له ، ولكنه لم يستطع مساعدته واعتكف فى مقصورته ليصلى لأجله ، وعندما أعلنوا للملك وفاته حزن وعاد إلى حجرته ليرفع صلواته إلى الإله رع ثم أمر بأن يصنع له تابوتاً من خشب الأبنوس المطعم كما أمر أن يكون تحنيطه أمامه وقد ذكر ابنه الأكبر ، الذى غمره الملك بإحسانه وأسند إليه بعض الوظائف الكبرى ، تفاصيل هذه القصة على لوحة أقامها فى القبر الذى شيده له فى سقارة .

وهناك قصة أخرى عرفت وقائعها فى عام ١٩٢٩ عندما كانت حفائر جامعة القاهرة تكشف عن آثار المنطقة الواقعة إلى الجنوب من الطريق الموصل بين معبدى خفرع فى منطقة أهرام الجيزة .

لقد كشفت تلك الحفائر عن مقبرة أحد كبار موظفى ذلك الملك ويسمى « رع ور » وكان يحمل بين ألقابه الكثيرة لقب مدير القصر الملكى ، وكاتم أسرار الملك . وكان فى الوقت ذاته كاهن آلهة الوجه القبلى وكاهن آلهة الوجه البحرى . وحدث لهذا الموظف حادث بسيط مع الملك . كان « رع وربسير » إلى جوار سيده فى يوم احتفال رسمى بافتتاح عيد خاص وحدث أن الملك كان يحرك عصاه فضربت

(١) أول مرسوم ملكى عرفناه فى الدولة القديمة يرجع إلى أواخر أيام الأسرة الرابعة من عهد الملك شبسسكاف .

دون قصد منه ساق « رع ور » فلما أدرك ما فعله استاء استياء شديداً وقال بأنه أحب شخص لديه واعتذر عما بدر منه ، ولم يكتف الملك بذلك بل أراد أن يجعل هذه الحقيقة معروفة للناس جميعاً وأن تنقش على لوحة حجرية ، وقد عثر على هذه اللوحة فى قبر ذلك الموظف .

وعلى ذكر قبر « رع ور » يكفينا أن نذكر أن عدد حجراته وأبهائه وممراته لا يقل عن خمسين ، ولو عددنا ما بقى من أجزاء تماثيله لتأكدنا أنه كان منها أكثر من مائة فى هذه المقبرة ، ولو ألقينا نظرة على الأحجار التى شيدت بها جدرانها ، وعلى الأخص أحجار الواجهة لأدركنا ثراء الكهنة الذى لم يكن يضارعهم فيه إلا الملوك ولو قارنا قبر « رع ور » بقبور أبناء سنفرو أو خوفو لرأيناه يفوقها فى عدد الحجرات أو الردهات وفخامة المبانى .

وليس قبر « رع ور » هو القبر الوحيد الذى نلمح فيه ثراء كبار الكهنة والموظفين بل نجد أمثلة كثيرة بين مقابر أبو صير والجيزة وسقارة . ولقد أصبح كبار الكهنة والموظفين على شيء كبير من الثراء والنفوذ ، وأصبحوا يبنون لأنفسهم مقابر تزيدفى حجمها وفخامتها أضعاف ما كانت عليه مقابر أبناء الملوك فى الأسرة الرابعة .

نى وسر رع (٢٥١٦ – ٢٤٨٤ ق. م.)

وهناك ملكان آخران حكما بعد « نفر إر كارع » وهما « شبسس كارع » و «نفرف رع» ولكنهما لم يتركا آثاراً مهمة ، وإن كان قد بدأ ثانيهما على الأقل فى تشييد هرم له فى منطقة أبو صير . ولم يظل حكمهما طويلا إذ حكم أولهما سبع سنوات والثانى أربع سنوات ، ثم جاء إلى العرش ملك آخر وهو « نى وسر رع » الذى طالت أيام جلوسه على العرش فزادت عن اثنين وثلاثين عاما وبنى له هرما فى أبو صير ، كما بنى معبدا للشمس فى المنطقة نفسها وحلى جدرانه بمناظر كثيرة ربما كان أهمها تلك المناظر التى تعطينا أهم ما وصل إلى أيدينا من تفاصيل مراسيم العيد الثلاثينى ، ونرى أيضاً بين المناظر التى كانت فى معبده ما يدل على حروب قام بها فى سوريا وحروب أخرى ضد الليبيين ، ولو أن هناك بعض الشك فى أنه لم يقم بمثل تلك الحروب وإنما كان الفنانون يقلدون مناظر معبد ساحورع الذى كان على مقربة منه . وقد عثر على مقابر مهمة كثيرة من عهد هذا الملك ، ربما كانت أهمها جميعا مقبرة «تى » فى سقارة التى قلما لا يذهب لزيارتها شخص يزور تلك المنطقة وهى تعطى بحق فكرة صادقة عن الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد .

جد كارع - إسيسى : (٢٤٧٦ - ٢٤٤٨ ق . م .)

وجاء بعد « نى وسررع » ملك يسمى « منكاوو حور » حكم نحو ثمانية أعوام ولا نعرف عنه إلا القليل (١) . ثم حكم بعد ذلك ملك قوى وهو « جد كارع - إسيسى » الذى حكم عهداً طويلا لم يقل عن ثمانية وعشرين عاما .

اهتم هذا الملك بتأمين حدوده واستغلال المناجم والمحاجر فأرسل حملة إلى بلاد النوبة وأخرى إلى وادى الحمامات وحملة أو أكثر إلى جبل المغارة فى سيناء حيث تركت أربعة نقوش باسمه .

وقد عرفنا من تاريخ حياة الرحالة « حر خوف » الذى قام برحلات عدة إلى جنوبى مصر فى الأسرة السادسة أنه عاش فى عهد الملك إسيسى أحد قادة السفن ويسمى « باوردد » استطاع أن يحصل على قزم حى فكافأه الملك وأغدق عليه من الهدايا الشيء الكثير ، ومعنى ذلك أن السياسة التى بدأها ساحورع فى أوائل أيام الأسرة الخامسة وهى الاتصال بالجنوب وفتح الطرق التجارية إليه والحصول على خيرات السودان وبلاد بونت ، لم يهمل أمرها من جاءوا بعده ، بل استمر عليها باقى الملوك وسنرى أنها ستزداد فى الأسرة السادسة .

كان اسم « إسيسى » دائما من الأسماء الشهيرة فى تاريخ الأسرة الخامسة واقترن اسمه بأسماء الكثيرين من كبار الموظفين الذين عثر على مقابرهم ، ومن بينهم الحكيم الشهير « بتاح حتب » الذى كان مشرفا على تربيته . والذى ترك مجموعة نصائحه وإرشاداته ، وهى ذخيرة من الحكمة والإرشاد إلى حسن السلوك اعتز بها المصريون فى جميع عصورهم .

وفى عام ١٩٤٨ كشفت مصلحة الآثار عن المنطقة الواقعة حول هرم يسمى الهرم الشواف فى منطقة سقارة فوق الهضبة التى بنيت أمامها فى الوادى منازل بلدة سقارة ، وظهر فى ذلك المعبد كثير من النقوش الهامة فأصبحنا نعرف الآن أين هرمه وأين معبده ، كما كشفت مصلحة الآثار أيضا فى عام ١٩٥٢ - ١٩٥٣ عن هرم ومعبد آخرين لزوجته فى المنطقة نفسها .

---

(١) أرسل هذا الملك حملة إلى سيناء تركت نقشاً بين النقوش التى تركتها الحملات فى تلك المنطقة. وقد أقام منكاوو حور لنفسه هرما لم يعثر عليه حتى الآن وربما كان فى منطقة سقارة إلى الجنوب من مكاتب مصلحة الآثار ، وإلى الشرق من هرم تبتى ، رأيت فى عام ١٩٣٦ فى مخازن المصلحة كثيراً من سدادات الأوانى المختومة باسم هذا الملك قال لى عنها العمال إنهم عثروا عليها أثناء مجسات قام بها « فيرث » فى ذلك المكان .

ولم يعثر داخل هرم إسيسى على أى نقوش، أما المعبد فلم يكن يقل عن أى معبد آخر من معابد الأسرة الخامسة فى فخامته وجمال نقوشه ، وظهرت فيه بعض عناصر معمارية لم يكن لنا بها عهد من قبل مثل تزيين بعض المداخل بأعمدة فى شكل علامة « جد » وهى شديدة الصلة بعبادة الإله أوزيريس ، كما ظهر أيضا فى حفائر المعبد تماثيل لأسود وثيران وتماثيل لبعض الأسرى من الأجانب (١) .

أونـاس :

وآخر ملك فى الأسرة الخامسة هو الملك أوناس (أو « ونيس ») الذى يميل بعض المؤرخين الآن إلى اعتباره أول ملوك الأسرة السادسة ؛ لأن حكمه قد ارتبط ببعض التغييرات الجوهرية ، يضاف إلى ذلك ما نعرفه عن وفاء الملك تتى أول ملوك الأسرة السادسة له وإتمام ما لم يتمه من آثاره . ولكن ذلك لا يكفى لتغيير التقسيم القديم الذى أورده مانيتون ، وإذا كان « تتى الأول » قد أتم معبد أوناس فإن اسم أوناس نفسه قد عثر عليه فى معبد زوجة إسيسى ، كما نعرف أيضا أن سنفرو وهو مؤسس الأسرة الرابعة قد أتم تشييد هرم آخر ملوك الأسرة الثالثة . وترجع شهرة أوناس إلى ذلك التجديد الذى أحدثه إذ أن مجموعة النصوص الدينية الشهيرة باسم « نصوص الأهرام » لم تكتب على جدران الحجرات الداخلية للأهرام قبل عصر أوناس وأصبحت منذ عهده تكتب داخل أهرام الملوك بل وبعض الملكات ، وقد أمدتنا بالكثير من المعلومات الهامة عن عقائد المصريين القدماء (٢) .

---

(١) كان أول من قام باكتشاف ذلك المعبد هو المرحوم المهندس عبد السلام محمد حسين بين أعوام ١٩٤٦ ، ١٩٤٩ ، وقد قمت باتمام حفر الجزء الأمامي من المعبد فى موسم عام ١٩٥٢ – ١٩٥٣ . وعثرت أثناء ذلك على بعض النقوش وعلى مقابر ملونة من أواخر الأسرة السادسة أو بعد ذلك بقليل ، كما كشفت على هرم ومعبد فى الجهة الشمالية الشرقية من معبد إسيسى ، من المرجح جداً أنهما لزوجته وبالرغم من تأكدنا من أن صاحبته كانت إحدى الملكات ، إلا أن إسمها لم يرد على ما بقى من النقوش التى عثرنا عليها . ولم ينشر التقرير العلمى عن حفائر المرحوم عبد السلام أو عن حفائر حتى الان وأرجو أن يتم ذلك فى عام ١٩٦٢ بمشيئة الله .

(٢) كان أول إكتشاف لنصوص الأهرام داخل هرم أوناس عام ١٨٨٠ وقد عثر بعد ذلك على كثير من تلك النصوص فى أهرام ملوك الأسرة السادسة فى سقارة بل وفى بعض أهرام ملكاتها وليست هذه النصوص إلا مجموعة من تعاويذ مختلفة ، تحتوى على صلوات وبعض طقوس دينية وغيرها ويرجع تاريخ بعضها إلى ما قبل أيام الأسرة الأولي ، بل ونجد فيها إشارات إلى تلك الحروب التى استعر أوارها فى مصر فى أوائل أيامها مشاراً إليها كحروب بين الآلهة المختلفة الذين كانوا معبودين فى ذلك الوقت.

وليست النصوص الواردة فى داخل كل هرم مطابقة لما فى الهرم الآخر بل أن الكهنة الذين أشرفوا على إختيارها لكل ملك كانوا يختارون البعض ويتركون البعض الاخر وقد أمكن جمعها ودراستها ومقارنة ببعضها ببعض ومجموعها ٧١٤ تعويذة ، وخير ترجمة لها مع التعقيب والشرح هى ترجمة زيته باللغة الألمانية (أنظر المراجع الهامة) وقد ظهرت منذ سنوات قليلة ترجمة بالإنجليزية للعالم الأثرى مرسر وهى تعتمد إعتماداً كاملاً على ترجمة زيته ولكن قد تسرب إليها لسوء الحظ بعض الأخطاء القليلة . وتمتاز هذه الترجمة الأخيرة بالفصول القيمة التى كتبها فى الجزء الرابع مجموعة من العلماء تناولت كثير من نواحى الموضوع وفسرته وقربته إلى الأذهان وهذه الترجمة هى :

S.A.B. MERCER, The Pyramid Texts, in Translation and Commentary, 1952

ويرتبط اسم أوناس وهرمه بشيء آخر . فقد أشرنا أكثر من مرة إلى تلك الطرق أو الممرات التى كانت توصل بين معبدى الهرم أو بين الوادى والمعبد الجنازى المشيد فى الناحية الشرقية من الهرم وقلنا إن تلك الطرق كانت مفتوحة للسماء فى أول عهدها وربما أصبحت مسقوفة منذ عهد خوفو ونقشوا جدرانها الداخلية . وقد عثر على بعض المناظر التى كانت فى يوم من الأيام على جدران طرق خوفو وغيره من الملوك مستخدمة فى تشييد هرم أمنمحات الأول فى اللشت كما عثر أيضا على بعض مناظر تلك الطرق فى منطقة أبو صير ، ولكن لم يحدث من قبل أن وجد جزء كبير من ذلك الطريق محفوظا ومرسوما كما ظهر فى طريق أوناس عام ١٩٣٨ . كان هذا الطريق مسقوفا بالأحجار وسقفه ملون كأنه سماء زرقاء زينتها النجوم ، ويدخل إليه الضوء من كوات فى السقف .

وتجمع نقوش جدرانه بين موضوعات مختلفة . فنرى بينها مناظر تمثل أوناس يؤدى بعض الطقوس الدينية ، بينما نرى مناظر أخرى تمثله وهو يقضى على أعدائه . ومن بين تلك المناظر ما يمثل الزراعة والحصاد فى الفصول المختلفة ، ومن بينهما مناظر الصيد فى الصحراء أو فى الماء أو فى الحقول ، كما نرى فيها أيضاً مناظر تمثل بعض أعمدة المعبد وأعتابه المصنوعة من الجرانيت ، وهى تنقل فوق سفن على صفحة النيل .

ولم تقتصر تلك المناظر على ذلك بل أن من بينها ما يمثل بعض الأجانب الذين جاءوا إلى مصر ، وبعض الذين أضرت بهم المجاعة وكادوا يهلكون جوعا ، وفى تفاصيل المناظر كثير من المعلومات التى أضافت الكثير على ما نعرفه عن مصر فى ذلك العهد ، ونرجو أن يتم حفره وأن ينشر نشراً علمياً كاملاً فى وقت قريب (١).

وبالرغم من أننا نعرف الشيء الكثير عن أيام حكم ، إسيسى ، وعن حكم ، أوناس ، الذى بلغ ثلاثين عاما ونعرف أيضا الكثير عن حكم الملك ، تتى الأول ، فإنا لا نجد فى تاريخ تلك الحقبة ما يمكن أن نقول عنه إنه كان سببا لتغيير الأسرة ، وربما كان المستقبل كفيلا بإظهار ذلك .

وهناك رأى نادى به بعض المشتغلين بالآثار وهو أن ، أوناس ، لم يكن آخر ملوك الأسرة الخامسة ولكنه مؤسس الأسرة السادسة وأول ملوكها .

(١) عادت مصلحة الآثار لإتمام حفر هذا الطريق وكشفت عن جزء آخر منه فى عام ١٩٤٣ ولكن العمل لم يستمر ؛ ثم عملت مرة أخرى لفترة قليلة فى عام ١٩٥٠ ؛ وأخيراً إستأنفت كشفه فى موسم ١٩٥٧/٥٦ ونرجو أن يتم فى هذه المرة الكشف عن باقى ويظهر التقرير العلمى الكامل عن جميع تلك الحفائر .

وما من شك فى أن مدة حكم أوناس امتازت بكثير من التغييرات فى أكثر من ناحية ولكن ذلك كله لا يكفى لإثبات أنه كان مؤسس الأسرة السادسة ، بل من الأفضل اعتباره من الأسرة الخامسة .

تولت الأسرة الخامسة عرش البلاد بعد فترة اضطراب وصراع بين أفراد البيت المالك فى الأسرة الرابعة من ناحية ، وبين ملوك هذه الأسرة فى النصف الثانى من حكمها وبين كهنة رع من ناحية أخرى ، أولئك الكهنة الذين أخذ نفوذهم يزداد وأصبحوا خطرا على سلطة الملك .

وانتهى ذلك الصراع بتأسيس أسرة مالكة جديدة وثيقة الصلة بكهنة الشمس فشيدت المعابد المختلفة لرع والآلهة المتصلين به ، وأغدقوا العطايا والهبات والأوقاف والامتيازات على المعابد وكهنتها فماذا كانت النتيجة ؟ لقد ازداد الكهنة نفوذا وقوة ولم يعد للملك ما كان له من سلطان ونفوذ وأخذ كبار الموظفين يزدادون ثراء فهل تأصلت عبادة الشمس فى نفوس الناس وأصبحت وحدها فى البلاد ؟ والجواب على ذلك واضح صريح فقد ضعف نفوذ الملك ، وإن ظلت عبادة الشمس كما هى أى الديانة الرسمية للبيت المالك ، إلا أننا نلاحظ أنه أخذت تظهر عليها عقيدة أخرى ، وهى عقيدة أوزيريس التى كانت قريبة من مدارك الناس .

كان المستقبل السعيد فى الحياة الأخرى ، حسب عقيدة الشمس ، يتوقف على الثراء والنفوذ . فكان الملك المتوفى يدفن فى قبر فخم ويبنى المعابد ، وكان يركب سفينته ليسير وراء سفينة الشمس فى الليل والنهار وينعم بالنور والضياء . وكان عليه أن يحفظ الكثير من التعاويذ التى كان فى حاجة إليها إذا أراد السلامة والاهتداء فى العالم الآخر . وكان المحيطون بالملك يرجون أن يكونوا معه يخدمونه فى الآخرة كما خدموه فى الدنيا وكانوا يبنون المقابر الفخمة ويحبسون عليها الأرض للإنفاق عليه وتقديم القرابين ، ولكن ما هو مصير العامة والفقراء من الناس – وهم الغالبية العظمى للشعب – الذين لم تكن تربطهم بالملك ورجال بلاطه والأثرياء من الحكام رابطة مباشرة ؟ . كان الأغنياء واثقين من نهايتهم السعيدة ؛ لأنهم كانوا أثرياء وفى صحبة الملك ويستطيعون أيضاً الاتفاق مع الكهنة للصلاة على أرواحهم وتقديم القرابين لهم فى أوقات معينة ، ولكن ماذا يفعل الفقراء ؟ كان الناس فى حاجة إلى دين يقول بمكافأة المحسن الطيب القلب الذى لا يفعل السوء دون نظر إلى فقره أو غناه ، وقد وجدوا ذلك فى تلك العقيدة القديمة التى عرفها المصريون منذ أيام الأسرة الأولى بل وقبل ذلك ولكن لم يكن لها النصر والانتشار إلا فى أيام الأسرة الخامسة .

كان أوزير (أو أوزيريس) يمثل الحاكم العادل الذى صرعته عوامل الشر والحسد ممثلة فى أخيه « ست » ولكن وفاء زوجته إيزيس التى خرجت تبحث عن جثته تارة وتجمع أشلاءه تارة أخرى ، وبكاءها عليه واستدرار عطف الآلهة جعل منه ملكا للأموات . وقامت إيزيس مرة أخرى تطالب بحق ابنها « حورس » الذى حملت به من روح أوزيريس بعد موته ، فلقيت ما لقيت من « ست » واتهامه لها ، ثم برأتها الآلهة التى كانت تعرف الحقيقة ، ومع ذلك فقد قامت الحرب بين ست وحورس حتى انتصر ابن أوزيريس وجلس على عرش أبيه وبذلك انتصر الحق على الباطل .

ولم يكن أوزيريس العادل الرحيم وهو ملك فى دنيا الأموات يأبه إلا بالحق والعدل ولا ينعم بجنته إلا من تطهر قلبه وحسنت سريرته ونواياه وابتعد عن أذى الناس ، لا يفرق بين غنى وفقير . كان كل إنسان يلاقى ما فعله حاضراً ، وكانت الجنة لمن أحسن واتقى ولم يظلم الناس أو يأتى بخائنة ، والعذاب والجحيم لمن سولت له نفسه عمل السوء لا تشفع له أمواله أو صلوات كاهن ، أو قرابين يقدمها أهله وذووه .

لقد وجد الناس فى تلك العقيدة صدى لما فى النفس البشرية فأقبلوا عليها ، بل أن الملوك أنفسهم منذ أيام الأسرة الخامسة كانوا يلقبون أنفسهم باسم أوزيريس ثم أصبح استخدام إسم أوزيريس عاما لكل فرد قبل أن يمضى وقت طويل ، ولكن هذا النصر لأوزيريس لم ينل كثيراً من عقيدة الشمس فى مظهر الدولة إذ ظل لقب « ابن الشمس » الذى استخدمه بعض ملوك الأسرة الرابعة وأصبح عاما منذ الأسرة الخامسة لقباً أساسياً حتى آخر أيام التاريخ المصرى ، كما ظلوا ينظرون إلى الجالس على عرش مصر إلها تجسد فيه حورس . وكان الكهنة المصريون كعادتهم حصيفين ، فإذا رأوه إلها من الآلهة يعلو نجمه لسبب من الأسباب ، أسرعوا فى وضع القصص والأساطير التى يربطون فيها بين ذلك الإله وبين الآلهة المختلفة ، وبخاصة الآلهة الرئيسية ، ولهذا لا يدهشنا إذا رأيناهم يضعون قصصاً يربطون فيها بين رع وبين حورس وبين أوزيريس وغيرهم من الآلهة ، ولم تجد طبيعة التسامح المتأصلة فى طبيعة النفس المصرية ما ينفر المصريين من قبول ذلك .

كانت أيام الأسرة الخامسة من الأيام الحاسمة فى التاريخ المصرى ، شهدت تطوراً كبيراً فى العقيدة كما شهدت تطوراً فى مركز الملكية وبدأ يعظم فيها نفوذ أعيان البلاد ويزداد ، حتى أصبحوا لا يخشون الجالس على العرش . ورأينا فيها ازدياد شأن عقيدة أوزيريس التى كان يتساوى فيها الناس ولا تفرق بينهم ثروة أو فوارق اجتماعية .

وعلى جدران مقابر تلك الأسرة وأوائل الأسرة السادسة نستطيع أن نرى الكثير من المناظر التى تمثل حياة الشعب ، نرى فيها صاحب القبر يشرف أحيانا على حقوله التى يعمل فيها رجاله ومرة نراه يجلس بين أسرته وأصدقائه يستمع إلى عزف الموسيقى وغناء المغنين ويمتع طرفه برقص الراقصات ، ونرى الصناع وهم يعملون فى الحرف المختلفة فهنا النجارون وهناك الصياغ وعلى مقربة منهم صانعو الأوانى ، وعلى مسافة قريبة نرى بنائى السفن ، وغيرهم .

ونرى الأتباع وهم يحضرون الأزهار والهدايا المختلفة ، ونرى الكهنة وهم يقومون ببعض الطقوس الدينية ، ننظر إليها كلها فنحس كأننا نعيش بين القدماء ننظر إلى ملابسهم وحليهم ونتأمل فى محصولات حقولهم وحدائقهم ، ننظر إلى الطيور والحيوانات التى كانوا يربونها ، ونقف طويلا أمام الأسماك السابحة فى المياه وإلى حيوانات الصحراء التى خرجوا لصيدها ، نراها كلها وقد أبدع الفنان المصرى فى رسمها فإن أصحابها أرادوا تصويرها على مقابرهم لتأنس أرواحهم بما كانوا يرونه فى دنياهم وما أرادوا أيضا أن يكون لهم فى آخرتهم. وقد أحسنوا صنعا ، فلولاها لما عرفنا الحياة فى مصر القديمة كما نعرفها الآن . ولم يترك المصريون تلك المناظر دون شرح قليل فنراهم قد كتبوا إلى جانبها ما يفسرها لنا ، وكثيرا ما نقرأ النكات التى كان يتبادلها الصناع أو العاملون فى الحقل وكلها تنبىء عن ميل أصيل للمرح ، وحب الفكاهة .

الأسرة السادسة
(٢٤٢٠ - ٢٢٨٠ ق.م.)

ذكر مانيتون عن هذه الأسرة أن أصلها من منف ، وهذا محتمل جدا إذ كلما تقدمت الأبحاث الأثرية كلما ازددنا اقتناعا به ؛ لأننا نلاحظ فى أعمال مؤسسها اتجاها صريحا نحو الإعلاء من شأن پتاح إله مدينة منف وتقريب كهنته والانصراف عن كهنة الشمس ، فهل قامت فى مصر فى عهد آخر ملوك الأسرة الخامسة حركة ضد نفوذ كهنة الشمس ، وكان القائمون بها من أهل منف الذين أخذ نجم إلههم يعلو مع ازدياد قوتهم السياسية ووصولهم إلى العرش ؟

ولن نستطيع الإجابة برأى قاطع على هذا التساؤل طالما لا تظهر فى الاكتشافات الأثرية وثائق جديدة تنير أمامنا الطريق أكثر مما لدينا الآن .

كان مقر حكم هذه الأسرة كمن سبقها من الأسرات منذ الأسرة الثالثة على الأقل فى العاصمة أى فى منف ، وكان أول ملوكها « تتى » ، وقد دفن فى هرمه الذى شيده فى سقارة . ويذكر لنا مانيتون أنه لم يمت ميتة طبيعية بل قتله حراسه ، وربما كان ذلك صحيحاً ؛ لأن مؤسسى الحكم الجديد يكونون معرضين دائما لإنتقام من نحوهم عن السلطان وأبعدوهم عن مكان الصدارة ، ويعززه أن من جاء بعده على العرش وهو الملك « أوسر كارع » (١) لم يبق فى الحكم إلا سنوات قليلة ولم يكد يخلف وراءه آثاراً فى البلاد . ولأمر ما أسقطته النقوش القديمة التى تلت هذه الفترة ، إذ ربما كان من البيت المالك القديم ، استعاد عرش أسرته ولكنه غلب بعد ذلك على أمره فلما استتب الأمر للملك « پپى الأول » لم يجرؤ الموظفون على ذكره إذ اعتبروه مغتصبا خارجا على السلطة الشرعية ، ففى تاريخ حياة « ونى » أعظم شخصيات ذلك العهد نراه يذكره كيف بدأ حياته فى عهد « تتى » عندما كان طفلاً صغيراً يتمنطق بحزامه ويذكر الوظائف التى تولاها فى شبابه ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى عهد « ببى الأول » الذى عاصر كل سنى حكمه ثم امتد به العمر بعد ذلك . نرى « ونى » ينتقل مباشرة

(١) عدد ملوك هذه الأسرة سبعة مجموع حكمهم ١٤٠ سنة وقد حكموا حسب الترتيب الآتى:
١ - تتى ١٢ سنة ٢- وسر كارع ٤ سنوات ٣ - ببى الأول ٢٥ سنة
٤ - مرى إن رع الأول (عنتى إم ساف) ١٠ سنوات ٥ - ببى الثانى ٩٤ سنة .
٦ - مرى إن رع الثانى (عنتى إم ساف الثانى) سنة واحدة .
٧ - الملكة نيتو كريس (منكاورع نيت إفرتى) سنتان .

إلى عهد پپى دون إشارة إلى حكم من جلس قبله على العرش ، ولم يكن يجرؤ على إسقاط ذلك الملك لو لم يكن متأكداً أن فى ذلك إرضاء للعائلة الذى حاز على ثقة ملوكها وربى فى نعمائهم .

ببى الأول : (٢٤٠٢ - ٢٣٧٧ ق.م.)

انتشل ببى الأول بلاده مما كانت فيه وتمتعت مصر خلال الخمسة وعشرين عاما التى حكمها بعصر زاهر ، ارتقت فيه الفنون وعادت مصر مرة ثانية إلى صلتها بمن جاورها من الأمم ، ويكفى الإنسان أن يرى تمثاله الكبير المصنوع من النحاس فى متحف القاهرة أو تماثيله الأخرى فى غيره من المتاحف وبخاصة تلك التماثيل المصنوعة من المرمر فى متحف بروكلين فى نيويورك أو يزور معبده فى سقارة القبلية على مقربة من مصطبة فرعون ، ويمتع طرفه بجمال نقوشه ليدرك أن المستوى العظيم الذى وصلت إليه النقوش بين أيام إسيسى فى الأسرة الخامسة والملك تتى فى الأسرة السادسة ظل عالياً .

ولسنا نعرف حتى الآن الصلة الحقة التى تربط بين هذا الملك وبين « تتى » مؤسس الأسرة ، ولكنا نعرف أن حياته العائلية لم تكن فى مستهل حياته خالية من المؤامرات إذ يذكر لنا « ونى » الذى أشرنا إليه أن هذا الملك عينه ليكون بين المحققين مع زوجته لثقته فيه ، ولكنا لا نعرف على وجه التحديد ما هى المؤامرة التى حوكمت هذه الملكة من أجلها .

على أى حال فبعد محاكمة الملكة « إمتس » أراد أن يوطد مركزه فى البلاد فالتجأ إلى سياسة جديدة وهى مصاهرته لإحدى العائلات القوية فى الصعيد فاتخذ ابنة أمير منطقة أبيدوس ونجع حمادى زوجة له وأصبحت أما لابنه « مرى إن رع » الذى تولى الحكم من بعده ، ثم تزوج أيضاً من أخت لها ورزق منها بابن آخر تولى الملك وهو طفل بعد موت أخيه .

وكان من بين الأعمال التى سجلها « ونى » فى تاريخ حياته فى عهد ببى الأول تلك الحملات التى جمع « ونى » رجالها من جميع أنحاء الصعيد ، وقبائل النوبة وفى إحداها تعاون الأسطول مع الجيش على قهر أولئك الذين هددوا مصالح مصر فى فلسطين فى ذلك العهد .

خلفاء ببى الأول :

كان « مرنرع » (مرى إن رع) طفلا صغيرا عندما مات أبوه ، إذ أنه بالرغم

من جلوسه على العرش نحو عشر سنوات فقد كان عند وفاته شابا يافعا لم يبلغ الحلم إذ كانت تتدلى خصلة من الشعر على جانب رأس موميائه التى عثر عليها فى هرمه . وتكاد معلوماتنا عن عصر هذا الملك تنحصر فيما أمدتنا به لوحة « ونى » التى ذكرت الأعمال التى كلفه بها وكان آخر عمل قام به هو حفر لخمس قنوات فى صخور الشلال عند أسوان لتسهيل الاتصال بين مصر والبلاد الواقعة إلى الجنوب منها ، إذ أصبحت سياسة الأسرة السادسة هى الاتصال بالجنوب وإرسال قواد الحملات لاستكشاف تلك البلاد وإحضار خيراتها وسنتكلم عن ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد .

وبعد وفاة « مرنرع » الأول تولى الملك أخوه الطفل « پيى الثانى » وقد ذكر مانيتون أنه حكم أربعة وتسعين عاما وأنه جلس على العرش وعمره ٦ سنوات (١) . وكانت أمه منذ بداية حكمه وصية عليه ، وكان خاله الأمير « زاو » الذى أصبح وزيراً له ، صاحب النفوذ الأول فى البلاد . وقد أقامت هذه العائلة مقابرها منحوتة فى الصخر فى المنطقة المعروفة باسم القصر والصياد على مقربة من نجع حمادى فى محافظة قنا .

وربما كان أشهر ما تم من أعمال فى السنوات الأولى من حكم هذا الملك تلك الحملات التى كان يرسلها إلى الجنوب تحت إمرة حكام الفنتين.

لقد ضعفت سلطة الملوك بازدياد نفوذ حكام الأقاليم الذين أصبح كل منهم أميراً حاكما فى مقاطعته لا يكاد يربطه بالعرش إلا خيط واهن ضعيف من الولاء . وفى مثل تلك الظروف وعندما تتفكك عرى السلطة المركزية تزداد الأعباء على كاهل الحكومة فتتعطل المشروعات العامة ويحاول كل موظف من الموظفين أن يثرى ويجمع ما يستطيع جمعه من الثروة ، فتتكدس الأعباء والمظالم على كاهل الفلاح المسكين الذين يصبح فريسة لكل من هب ودب من الأغنياء أو من موظفى الحكومة.

ومن سوء الطالع أن العمر امتد بذلك الملك الضعيف فازداد انهيار البلاد واشتدت المظالم وعندما فاض الكيل شبت ثورة عاتية فى البلاد ، ثورة على العرش وعلى الحكام وعلى الآلهة . وتولى الحكم فى آخر أيام هذه الأسرة اثنان وكان أولهما يسمى « مرى إن رع الثانى » وقد حكم سنة واحدة ثم جلست على العرش امـــرأة

(١) لا شك فى أنه حكم ٩٤ عاما ولكن من المشكوك فيه أن يكون قد جاء إلى العرش وعمره ٦ سنوات اللهم إلا إذا كان ببى الأول قد أشرك معه إبنه مرنرع فى الحكم قبل موته ببضع سنوات، وهذا أمر غير محتمل الحدوث فى ذلك الوقت من تاريخ مصر ولم يقبل عليه المصريون إلا فى الأسرة الثانية عشرة .

وهى « نيت إقرت » التى ذكرها مانيتون باسم « نيتوكريس » فلم تبق إلا عامين ثم عمت الفوضى وانتهت أيام الأسرة السادسة وأيام الدولة القديمة .

ذلك هو مختصر التاريخ السياسى لهذه الأسرة ، ولن يكون عرضنا لتاريخ هذه الأسرة صحيحا إلا إذا تحدثنا بشىء من التفصيل عن ثلاثة مواضيع أولها تاريخ حياة القائد « ونى » ، وكثيرا ما يذكر فى بعض كتب التاريخ والآثار تحت اسم « أونى » وهو الأقدم والأكثر شهرة لهذا الاسم ، الذى لعب الدور الأكبر فى تاريخ البلاد فى أيامه وثانيها موضوع الرحالة الذين ذهبوا إلى السودان ، ثم الحديث عن تلك الثورة الاجتماعية التى هب فيها الشعب لينتقم لنفسه ممن ساموه الظلم والاضطهاد .

القائد « ونى » :

كان ضعف سلطة الملوك فى الأسرة الخامسة مشجعاً لبعض كبار الموظفين على أن يتباهوا فى مقابرهم بما فعلوه وبما رفع من قدرهم فى خدمة الملوك . وكلما مر الزمن كلما ازداد هذا التقليد فأكثروا منه ، وربما كان أهم نقش بل وأهم وثيقة تاريخية خلفتها لنا الأسرة السادسة ، وهى لوحة « ونى » الذى كان فى يوم من الأيام قائما فى قبره فى أبيدوس وهو الآن فى المتحف المصرى ، ويقص فيها علينا تاريخ حياته وأعماله المختلفة فى خدمة ملوك تلك الأسرة (١) .

ويذكر « ونى » أنه بدأ حياته فى الحكومة فى عهد الملك « تتى » أول ملوك هذه الأسرة وكان إذ ذاك فتى يافعا ثم رقى فى عهده إلى أن أصبح فى مركز كبير إذ كان مديرا لمكتب الزراعة كما كان فى الوقت ذاته مديرا لأراضى الملك . ويستمر « ونى » فى قصته ، وقد تعمد ألا يشير إلى من حكم بعد « تتى » كما قلنا ، ويذكر باقى تاريخ حياته فى عهد ببى الأول « فيذكر محبة الملك له وثقته فيه إذ أسند إليه أيضا وظيفة كبرى فى القضاء وهى وظيفة « قاضى نخن » وجعله رئيساً لمجلس الستة وبذلك كان من أهم شخصيات ذلك العهد ووصلت ثقة الملك فيه أنه كان يحقق فى قضايا الملك الخاصة بحريمه .

ويقص علينا « ونى » أيضا كيف أسند إليه مهمة تأليف جيش عدد رجاله « عشرات الآلاف » من جميع بلاد الوجه القبلى ، من الفنتين فى الجنوب حتى إطفيح

---

(١) لوحة « ونى » فى المتحف المصرى الآن ورقمها ١٤٣٥ وقد نشرت عدة مرات.
وأحدث نشر لنقوشها فى كتاب L. BORCHARDT. Denkmaler des alten Reiches (Cat Gen. Musee du Caire). 1937. Vol. 1. 115 ff. pls 29-30 .
وهى مترجمة فى كتاب BREASTED. Ancient Records. I p. 306-315 .

فى الشمال ، وكذلك من أفراد القبائل التى كانت تعيش فى ذلك الوقت فى بلاد النوبة مثل إرثت وإيام وواوات والمچا وغيرها ، وأسند إليه إمرة هذا الجيش الكبير . ويفخر القائد الشاب بأن النظام كان مستتبا بين جنوده وأن جميع رجال الجيش كانوا مثالا لما يجب أن يكون عليه الجندى فلم يتعرض واحد منهم لأى شخص فى أى بلد مروا به ولم يغتصب أحد منهم شيئا مهما قلت قيمته .

وأتم ما كلفه به سيده ، وبالرغم من أنه لم يذكر اسم مكان خاص بل كان يشير دائما إلى القاطنين فوق الرمال فإن هذه الحملة لم تكن ضد شبه جزيرة سينا بل كانت فى فلسطين ، إذ أنه يذكر فى شعره الذى تغنى فيه برجوع الجيش سالما ، أشجار التين وكروم العنب ويشير إلى بلاد آهلة بالسكان .

وأهم ما فى هذا النقش ما ذكره « ونى » بعد ذلك من أن ثورة أخرى قامت فى تلك البلاد فأرسله الملك لإخمادها ، فجهز جيشين أحدهما سار بطريق البر ، وسار هو مع الجيش الآخر بطريق البحر فنزل عند مكان من المحتمل جدا أن يكون قريبا من جبال الكرمل ، وسار بعد ذلك فى داخل البلاد وانتصر ، وقمع تلك الثورة (١) . كانت حملات « ونى » على فلسطين هى آخر أعماله الهامة فى عهد ببى الأول فلما تولى ابنه « مرى إن رع » حكم البلاد لم يفرط فيه بل زاد من قدره فعينه حاكما على الصعيد كله ، وكان يسند إليه من آن لآخر مهمة إحضار الجرانيت اللازم لهرمه ومعابده من منطقة أسوان وإحضار المرمر من محاجر حتنوب فى محافظة أسيوط . وكان آخر عمل كبير قام به فى عهد هذا الملك حفره لخمس قنوات فى صخور الشلال الأول لتسهيل سير السفن ، وقد أتم ذلك فى عام واحد ، وذهب « مرى إن رع » بنفسه ليرى العمل بعد إتمامه وليقدم له زعماء أسوان وقبائل النوبة ولاءهم ، ويقدم قرابينه للإله خنوم سيد منطقة الشلال . وينتهى « ونى » من قص تاريخ حياته عند إشارته إلى شق القنوات . ويذكر أن كل ما ناله من تكريم كان بسبب مزاياه وقيمته الشخصية وتفانيه فى تنفيذ أوامر الملك ، ويختم نقشه بقوله بأنه كان محبوبا من أبيه ممدوحا من أمه ، ويذكر اسمه مسبوقا بأعظم لقب ناله وهو لقب حاكم الوجه القبلى .

(١) بالرغم مما ذكره ونى عن الثورة والثائرين فمن المؤكد أن فلسطين لم تكن فى ذلك العهد بلدا تابعة لمصر أو تحت حكم ملك مصر وربما كانت هذه الثورة ليست إلا قيام بعض سكان تلك البلاد أو إحدى الشعوب التى وفدت إليها بتهديد طرق التجارة المصرية إذ أن ذلك كان كل ما يعنى مصر فى ذلك العهد .

الرحالة المصريون يرتادون الجنوب :

زاد اهتمام ملوك مصر بشئون الجنوب منذ أيام الأسرة الخامسة عندما كانوا يرسلون الحملات لإحضار خيرات السودان . وزاد هذا الاهتمام في الأسرة السادسة فأوكلوا إلى أمراء جزيرة الفنتين وتعرف الآن باسم جزيرة أسوان مهمة القيام بتلك الرحلات إذ كان أولئك الأمراء أعرف الناس بما يلي بلادهم ، وكانوا يشرفون على الحدود المصرية في الجنوب . وأثمرت سياسة ، وني ، وبخاصة منذ توليه أمر وظيفة حاكم الوجه القبلي ، فوطد صلته بزعماء النوبة وكان هؤلاء الزعماء وأتباعهم يتطوعون في الجيش المصرى عند قيامه بالحروب في فلسطين كما كانوا يختارون من بين أولئك النوبيين حراساً يسهرون على الأمن منذ أيام الأسرة السادسة في العاصمة وربما في غيرها من المدن أيضاً .

وعندما كان ، وني ، حاكما على الوجه القبلي ، وكان الرجل الذى يلي الوزير في الأهمية ، نراه يهتم بإرسال الرحالة نحو الجنوب فقام حر خوف بحملاته الثلاث الأولى – كما قص علينا في تاريخ حياته المسطر على واجهة قبره في أسوان [١] في عهد الملك ، مرى إن رع ، أما رحلته الرابعة فقد كانت في عهد الملك ببى الثاني .

كان حر خوف حاكما لإقليم إلفنتين ولكنه في الوقت ذاته كان كاهنا لبعض الآلهة أما لقبه الرئيسى الذى كان يعتز به أكثر من كل ما عداه فهو لقب ، رئيسى الحملة ، . كان حر خوف في حملته الأولى في صحبة أبيه وكان يمشى ، إرى ، إلى منطقة تسمى بلاد إيام لفتح الطريق إلى تلك البلاد ، وقد تمت الرحلة في سبعة شهور. ويستمر حر خوف في سرد قصته فيذكر أن ملكه أرسله وحده في المرة الثاني فخرج من ألفنتين ويذكر بعد ذلك البلاد التى مر بها واحدا بعد آخر ويفتخر بأن أحداً من الرحالة الذين سافروا قبله لم يتسن له ارتياد المناطق التى ارتادها أو يعود من رحلته بمثل ما عاد به من هدايا .

وفي رحلته الثالثة اتخذ طريقاً آخر ، إذ سافر على ، درب الواحات ، ووجد حر خوف أن حرباً قد استعرت بين زعيم قبيلة ، إيام ، وبين قبائل الـ ، تمحو ، الذين كانوا

(١) النصوص التاريخية في مقبرة حرخوف منشورة في SETHE, Unkunden I, 120-7 , 128-131. وقد نشر إرمان خطاب الملك نفر كارع في مقاله ERMAN, Der Brief des Konigs Nefer-ke-re in A. Z. XXXI, 62-70

وقد ترجمت هذه النصوص الخاصة بالرحلات مرات كثيرة ويجدها القارىء بين النصوص التاريخية التى ترجمها برستد إلى الأنجليزية في كتابه Ancient Records, Vol. I

يعيشون فى غربى مصر ، فأصلح بينهم وعاد من تلك الرحلة ومعه ثلاثمائة حمار محملة بالبخور والأبنوس والعطور وجلود الفهد وأنياب الفيلة وبذر السمسم وغير ذلك ، كما رافقه فى عودته بعض زعماء القبائل ليدلوه على الطريق .

ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث له فى رحلته الرابعة التى قام بها فى العام الثانى من حكم الملك ببى الثانى ؛ لأن حصوله على قزم من تلك الرحلة قد غطى على كل شىء آخر . ولو حللنا تفاصيل تلك الحملات وتتبعنا البلاد التى ذكرها لخرجنا بالنتائج الآتية :

(أ) كانت أولى رحلاته مع أبيه ، وقد وصل إلى بلاد « إيام » أى المنطقة الواقعة جنوبى وادى حلفا .

(ب) كانت رحلته الثانية فى مناطق لم يسبقه إلى اختراقها أحد من قبل . وقد كانت هاتان الرحلتان تبدآن بالنزول فى النيل إلى مكان معين قريب من وادى حلفا ثم يبدأ بعد ذلك سيره بالبر .

(جـ) أما الرحلة الثالثة فقد كانت فى طريق البر ، وسار فيها على درب الأربعين [١] . واتصل فيها بالتمحو ، ومن المحتمل جداً أن هدفه الذى حققه كان الوصول إلى دارفور .

(د) وربما شجعه نجاحه فى رحلته الثالثة على السفر مرة أخرى ، ولكن نجاحه فى الحصول على قزم جعله لا يذكر شيئاً آخر سواء عن الطريق الذى اتخذه أو الحاصلات والهدايا التى عاد بها ، أكثر من أنه كان قد وصل إلى المنطقة الواقعة إلى جنوبى وادى حلفا (إيام) . وأرسل حر خوف ينبىء الملك بحصوله على ذلك القزم فتلقى رسالة من الملك كتبها بخط يده ، وقد اعتز بها حر خوف ونقل نصها الحرفى على جانب مدخل قبره وإنى أقدمه هنا مترجماً ترجمة حرفية

---

(١) درب الأربعين هو الدرب الذى يربط بين وادى النيل وغربى السودان وكان مستخدما حتى القرن الماضى . يبدأ من أسيوط حتى يصل إلى الواحات الخارجة ثم يسير جنوبا مارا بواحة سليمة وبئر النطرون حتى يصل إلى الفاشر . كانت تقطعه القوافل فى شهرين ولكن عدد أيام السير بين الآبار كان أربعين يوما . وكان لهذا الدرب فروع مختلفة تصله بالواحات الأخرى وببعض بلاد شمال إفريقيا ، ولعب دورا هاما فى الصلات التجارية والثقافية بين بلاد هذا الجزء من إفريقيا آلاف السنين ولم يقلل من أهميته إلا تحول التجارة بعد مد السكك الحديدية فى السودان وإنشاء ميناء بور سودان .

لإعطاء فكرة عن صيغة خطابات ذلك العهد ، ولكن يجب ألا ننسى أنه خطاب من طفل صغير حديث السن :

« الختم الملكى نفسه ، فى السنة الثانية الشهر الثالث من فصل الصيف اليوم الخامس عشر » .

رسالة ملكية إلى الصديق الأوحد ، الكاهن المرتل ، ورئيس الحملة حر خوف : فهمت نص خطابك هذا الذى بعثت به إلى الملك فى القصر لتحيطه علما بأنك عدت سالما من بلاد إيام مع حملتى التى كانت معك ، وذكرت فى رسالتك أنك أحضرت جميع الهدايا الكثيرة الجميلة التى قدمتها الإلهة حتحور سيدة بلاد « إماوو » إلى ذات ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع (بيى الثانى) عاش خالدا إلى الأبد . وذكرت فى رسالتك هذه أنك أحضرت قزما لأجل رقصة الإله من أرض الأرواح ، وهو شبيه بالقزم الذى أحضره قائد السفينة « باور دد » من بلاد پونت ، فى عهد الملك « إسيسى » . وقلت لجلالتى : « لم يحدث أبدا أن جاء بمثله أى شخص آخر ذهب إلى بلاد إيام من قبل » . لقد أحسنت حقا بعمل ما يحبه سيدك ويشكرك عليه ، إنك تصبح وتمسى فى تحقيق كل ما يحبه ويريده ويأمر به مولاك ، وسيكافئك جلالته كثيرا وسيمنحك ما سيعتز به ابن ابنك إلى الأبد وسيقول كل من يسمع بما فعله جلالتى من أجلك : هل هناك مثيل لما عمل لأجل الصديق الأوحد حر خوف عندما سافر إلى بلاد إيام فأظهر يقظة فى تنفيذ ما يأمر به ويحبه ويمدحه مولاه ؟

تعال إلى الشمال . تعال سريعا إلى القصر ، وأحضر معك هذا القزم الذى جئت به من أرض الأرواح حيا سالما وفى صحة جيدة ليرقص للإله ، ويدخل السرور آلاف المرات على قلب ملك الوجهين القبلى والبحرى الملك نفر كارع عاش إلى الأبد .

فإذا ما نزل معك إلى السفينة فعين أشخاصا أذكياء على جانبها لملاحظته حتى لا يقع فى الماء . وإذا نام فى الليل فعين رجالاً أذكياء ليحرسوه فى حجرتــه ، وفتش (عليهم) عشر مرات كل ليلة ؛ لأن جلالتى يجب ن يرى هذا القزم أكثر من هدايا المناجم وهدايا بلاد پونت . فإذا وصلت إلى القصر ومعك هذا القزم حيا سالما وفى صحة جيدة فإن جلالتى سيعمل لأجلك أشياء كثيرة أكثر مما عمل لأجل قائد السفينة « باو دد » فى أيام الملك « إسيسى » ؛ لأن رغبة جلالتى هى رؤية هذا القزم .

وقد أعطيت الأوامر لحاكم المدينة الجديدة ، الرفيق المشرف على الكهنة ليأمر بإعداد ما يلزم من مأكل وشراب فى كل استراحة ملحقة بالمخازن وفى جميع المعابد بلا استثناء » .

ببى - نخت :

لم يستمر نشاط حر خوف فى قيامه بتلك الحملات أكثر من سبعة أعوام قام خلالها بالحملات الأربع ثم تلاه فى هذا العمل حاكم آخر امتاز بشدة اليأس وكان اسمه « ببى نخت » الذى يقص علينا فى تاريخه الذى كتبه فى قبره فى اسوان شيئا كثيرا عن نشاطه فى الجنوب .

كانت صلة مصر بقبائل النوبة فى أيام ونى وحر خوف صلة صداقة وتعاون ، ولسنا نعرف السبب الذى جعل بلاد إرثت (حول بلدة توماس فى النوبة) تتعرض لغضب الملك فيكلف « ببى نخت » بتأديبهم :

« أرسلنى جلالة مولاى لأؤدب بلاد إرثت فقمت بما جعل مولاى يثنى على وقتلت منهم عدداً كبيراً ، من بينهم أبناء الزعماء ورؤساء المحاربين ، وأحضرت منهم أسرى إلى القصر . كان عددهم عظيما ، لأنى كنت شجاعا ومعى جيش كبير من الجنود الأشداء » .

ويذكر هذا الشخص فى موضع آخر من نصه بأنه ذهب مرة أخرى إلى تلك البلاد لتهدئة الحالة فيها ، وأحضر معه عند عودته زعيمى الثوار ومعهما هدايا من الثيران والأبقار . من المحتمل أن هذه الحملة الثانية لم تكن حملة حربية وإنما كانت لإصلاح مع عساه أن يكون قد أفسدته الحملة الأولى .

ويقص علينا أيضا أن الملك ببى الثانى كان قد أمر أحد ضباطه ببناء سفينة كبيرة على ساحل البحر الأحمر للإبحار بها إلى بلاد بونت ، ولكن بدو الصحراء الشرقية هاجموه وقتلوه هو ومن كان معه . فلما علم الملك بذلك أمر ببى نخت بإعداد حملة وأن يذهب للثأر للضابط المقتول وإحضار جثته [١] ، وقد قام بذلك وقتل من أولئك البدو عددا عظيما . وترينا هذه القصة الأخيرة كيف أصبحت سلطة الملك محدودة وأنه كان يعتمد على ولاء حكام الأقاليم الأقوياء لتنفيذ ما يريده .

ميخو وسابنى :

ولم تحل أعمال ببى نخت فى بلاد النوبة دون استمرار حملات الاستكشاف والتجارة من آن لآخر ، ونعرف من مقابر أسوان أيضاً قصة اثنين من أولئك الرحالة وهما ميخو وابنه سابنى تركا لنا نقوشا فى مقبرتهما بأسوان عرفنا منها أن الأب دفع حياته ثمنا لتفانيه فى خدمة سيده الملك إذ قتله رجال إحدى القبائل النوبية عند عودته

(١) SETHE. Urkunden I. 131-5

من إحدى رحلاته (١) .

ويذكر سابنى أن أباه كان حاكما لإلفنتين وكان يحمل لقب رئيس الحملة كما كان يحمل عدة ألقاب كهنوتية ، وعينه الملك فى كل تلك الوظائف كما أسند إليه أيضا وظيفة حاكم الجنوب عندما نجح فى إحضار جثة أبيه والإنتقام ممن قتلوه . ويذكر لنا سابنى أن بعض الناجين ممن كانوا مع أبيه قصوا عليه ما حدث : « وعندئذ اصطحبت جنودا من رجالى ومائة حمار وأخذت معى عطورا وعسلا وزيتا وملابس لأقدمها هدايا فى تلك البلاد . واتجهت إلى النوبيين بعد أن بعثت بخطابات إلى الملك بأنى سافرت لإحضار الجثة من بلاد واوات وأرثت ولأهدىء الأمور فى تلك المناطق » . ويستمر فى قصته فيقول إنه عثر على جثة أبيه فى منطق نائية بعيدة فصنع لها تابوتاً حمله على ظهر حمار ثم سار مخترقا البلاد حتى رجع إلى واوات (منطقة كورسكو) وأرسل خطابا إلى الملك ينبئه بما حدث ، كما أرسل إليه ما أحضره معه من هدايا . وأراد الملك أن يظهر عطفه على كل من ميخو وابنه سابنى فأمر بإرسال المحنطين الملكيين من منف ومعهم كل ما يلزمهم لعملهم ، ودفنه دفنة تليق بأحد حكام الأقاليم الذين ضحوا بحياتهم فى خدمة ملكهم ، وأمر بأن يتولى سابنى وظائف أبيه وكتب له قائلا : « لقد فعلت كل هذه الأشياء العظيمة مكافأة لك على عملك الكبير ، لأنك أحضرت جثة أبيك » .

هذه بعض قصص الرحالة المصريين الذين ذهبوا لاكتشاف البلاد الواقعة إلى الجنوب وليفتحوا طرقاتها للتجارة . قام المصريون بتلك الرحلات فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ليكتشفوا قلب القارة الإفريقية قبل أن يولد ستانلى ولفنجستون وغيرهما من الرحالة الحديثين بأكثر من أربعة آلاف ومائتى عام.

كانوا يذهبون إلى الجنوب تنفيذا لسياسة أسسها ملوك الأسرة الخامسة وشجعها واهتم بها اهتماماً خاصاً ملوك الأسرة السادسة ، وقد كانت رحلات أولئك الرحالة وما أنشأوه من صلات مع زعماء القبائل ما حصلوا عليه من معلومات عن البلاد ، تمهيداً لصلات سياسية أقوى كما سنرى عند الحديث على الدولة الوسطى .

الثورة الإجتماعية :

وصلت حالة مصر إلى الحضيض فى أواخر أيام الأسرة السادسة وعمت

(١) نقوش مقبرة سيخو وسابنى منشورة فى كتاب SETHE, Urkunden, 1, 135-40 ومترجمة فى كتاب BREASTED, Ancient Records, 1, pp. 164-5 وهناك احتمال بأن حملة ببى نخت لتأديب بلاد إرثت كانت انتقاما لقتل ميخو .

الفوضى ، فلما طفح الكيل لم يجد الشعب أمامه طريقاً غير الثورة على تلك الأوضاع ، والإنتقام لنفسه ممن كانوا عليه سوط عذاب .

ومصادرنا عن تلك الثورة ووصف ما حدث في البلاد ، تنحصر فيما جاء في برديتين إحداهما تسمى بردية ، إيبو ور ، (١) والثانية تسمى بردية ، نفرتى ، (٢) وقد كتبت أولاهما وهى الأهم على لسان شخص حكيم استطاع أن يصل إلى مقر الملك الذى لم يذكر اسمه ويطلب منه العمل على إنقاذ البلاد مما تردت فيه ، ويصف له حالتها السيئة فى لغة بليغة .أما الثانية فقد كتبت بعد تلك الثورة ، كتبها كاتبها كدعاية سياسية للملك أمنمحات الأول (يسميه باسمه المختصر أمينى فى النص) وينسب أصل حوادثها إلى عهد الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة الذى طلب من رئيس الكهنة المرتلين فى معبد الآلهة ، باست ، ويسمى ، نفرتى ، أن يحدثه عن شيء سيحدث فى المستقبل فقص عليه ما سيحدث فى البلاد من فوضى ويطيل فى وصفها ثم يقول أخيراً أن الذى سينقذ مصر من تلك المحنة ملك اسمه أمينى يأتى من الجنوب وأمه نوبية ويولد فى الصعيد .

وليس فى استطاعتنا أن نقدم هنا نص هاتين البرديتين ، ويكفى أن نشير إلى بعض ما جاء فيهما (٣) .

---

(١) توجد هذه البردية الآن فى متحف ليدن بهولندا ، وقد نشرت عدة مرات ، ومنها ترجمة جاردنر A.H. GARDINER, The Admonitions of an Egyptian Sage (Leipzig 1909) التى يعتبرها الأثريون أوفى دراسة لها . وقد ترجمها إرمان فى كتابه عن أدب المصريين القدماء (فى الترجمة الإنجليزية لبلاكمان من ص ٩٢ – ١٠٨) وحللها برستد فى كتابه J.H. BREASTED. The Dawn of Conscience (1933). p. 193-200

والنص الحالى يرجع تاريخه إلى الأسرة التاسعة عشرة أو العشرين ولكنه منقول عن أصل لا يمكن أن يكون قد كتب إلا فى فترة الاضطرابات نفسها أى فى آخر الأسرة السادسة وذلك اعتماداً على لغة وأجرومية وبعض المميزات الأدبية فى كتابات ذلك العصر .

(٢) كانت تنطق إلى عهد قريب ، نفر – رهو) ، وهى محفوظة فى متحف لينتجراد فى الاتحاد السوفيتى وقد نشرها جولينشف عام ١٩١٣ وترجمها كل من جاردنر فى Journal of Egyptian Archeology. (1914). 100.6. وإرمان ERMAN. LEA. 110-115

أما عن تاريخ كتابتها فمن المرجح جداً إنها كتبت فى أوائل أيام الأسرة الثانية عشرة وربما فى عهد الملك أمنمحات الأول ، إذ يحاول الكاتب أن يدخل فى روع الناس أنه كانت هناك نبوءة منذ عهد الملك سنفرو فى الأسرة الرابعة بأن هذا الملك سينقذ البلاد من الفوضى . التى ستتعرض لها .

(٣) سأجتهد قدر الاستطاعة فى استخدام التعبيرات القديمة الواردة فى هذه البردية لوصف ما حدث فى البلاد .

لقد انقلبت البلاد إلى عصابات ، ولم يعد الناس يحرثون حقولهم ، وأضرب الناس عن دفع الضرائب ، وتوقفت التجارة الخارجية وهجم الناس على مخازن الحكومة فنهبوها وعلى مكاتب الدولة فبعثروا محتوياتها . بل أن الملوك المدفونين قد اعتدى عليهم أيضاً وبعثروا أشلاءهم وأصبحت أهرامهم خالية مما كان فيها . وصب الشعب انتقامه على الأغنياء فنهبوا القصور وحرقوها وصار أصحابها محزونين يبكون، بينما كان عامة الشعب يفرحون ويحتفلون . وأصبح الذين كانوا يملكون الرقيق يسيرون فى أسمال بالية . وأولئك الذين لم يملكوا شيئاً فى حياتهم يرفون فى ملابس من خير أنواع الكتان . ويسخر الكاتب مما كان يراه فيقول إن الأصلع الذى لم يكن يستخدم الزيت أصبح يمتلك الأوانى الملأى بخير أنواع العطور ، وأن الذى لم يمتلك صندوقاً صغيراً فى حياته أصبح مالكا لصندوق كبير ، والفتاة التى كانت تذهب إلى الماء لترى وجهها أصبحت مالكة لمرآة .

ويا ليت الأمر وقف عند ذلك الحد فقد صب الناس نقمتهم على أطفال الأغنياء فصاروا يقذفون بهم الجدران ، وترك الناس أطفالهم الذين طالما تمنوا ولادتهم ، ألقوا فى الطريق عساهم أن يجدوا من يمد إليهم يده .

حتى رجال الأمن الذين كان الناس ينتظرون منهم أن يوقفوا تلك الأحداث أصبحوا فى مقدمة الناهبين ، وإنهارت الحكومة المركزية وأصبح الأغنياء فى حزن وغم بينما كان الفقراء فرحين . وكانت كل مدينة تقول ، فلنطرد بعضنا منها ، ومما زاد الحالة سوءاً أن عصابات من البدو الذين كانوا يسكنون على حدود مصر فى الشرق وربما أيضا فى الغرب انتهزوا هذه الفرصة فأخذوا يتدفقون على قرى الدلتا وينهبون ما يجدونه مع الناس ، ولم يعد أخ يثق فى أخيه أو صديق فى صاحبه .

إذن لقد انتقم الشعب ، وثار الفلاح الصابر المطيع عندما وجد الظلم قد ازداد ، وأن الأغنياء قد سلبوه كل شيء ، ثار ثورته الجامحة فلم يبق على شيء ولم يفرق وهو فى ثورته بين معبد لإله أو ديوان للحكومة ، أو قصر لغنى ، أو مخزن للدولة ، أو قبر دفنوا فيه حليا مع صاحبه ، ولكن مثل هذه الحالة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد فلابد للناس من أن يعودوا إلى الهدوء بعد الثورة وأن يحاولوا خلق مجتمع ونظام جديدين . وإذا كانت الحقول قد تركت دون زراعة وتعكرت مياه النيل بلون الدم وملئت بجثث الموتى ، كان لابد للناس أن يهدأوا وأن ينتجوا ليعيشوا . ولم يعد الشعب يجد من يصب عليه مزيدا من غضبه أو شيئا يمكنه أن يغتصبه ممن كان يملكه ، فخلد إلى الهدوء

وتطلع إلى الذين احتلوا منه مكان الزعامة والمشورة ليخرجوه مما هو فيه ليبدأ حياة جديدة ، لأن الهدم سهل وميسور ولكن البناء شيء آخر يحتاج إلى خبرة ومران .

ومضت فترة طويلة قبل أن تعود مصر إلى ما كانت عليه ، وسنرى فى الفصل القادم ماذا حدث خلال عصر الفترة الأولى .

*** الفصل الرابع ***

عصر الفترة الأولى

الأسرتان السابعة والثامنة

(٢٢٨٠ - ٢٠٥٢ ق.م.)

صورت بردية « إيبو - ور » حالة مصر في آخر أيام الأسرة السادسة خير تمثيل . فقد انهارت السلطة المركزية في البلاد وأصبحت حدودها مفتوحة ، وما لبثت أن وفدت جماعات كبيرة من البدو المقيمين على الحدود وبخاصة من الشرق وأخذوا ينهبون الناس ويذيعون الذعر في النفوس . وبدلا من أن يقف رجال الأمن في وجه العابثين أصبحوا هم الآخرين ينهبون ويقتلون ، فلا عجب إذا قامت ثورة جارفة حطمت كل شيء ولم يسلم منها مدفن أو معبد أو ديوان حكومي ، وامتد غضب الشعب إلى الأثرياء فنهبوا بيوتهم وقتلوا من قتلوا وشردوا من شردوا وأصبحت الخادمات يجلسن في أماكن سيداتهن وأصبح السوقة والدهماء هم أهل الحل والعقد .

فإذا ما سألنا أنفسنا عن مصير البيت المالك فإننا لا نلبث أن نقف على الجواب مما خلفه لنا مانيتون من أخبار ، وما أبقى عليه الزمن من أسماء مدونة في بردية تورين وفي ثبت أسماء الملوك بأبيدوس وثبت سقارة وغيرها .

يذكر مانيتون أنه بعد سقوط الأسرة السادسة قامت الأسرة السابعة ، وحكم سبعون من ملوكها مدة سبعين يوما ، ومهما حاولنا تفسير ذلك لا يمكننا أن نجد ما نستطيع أن نسميه جوابا مقنعا ، وأقرب شيء إلى العقل هو أنه ربما اجتمع سبعون من كبار الموظفين وحكام الأقاليم وكونوا من أنفسهم هيئة حاكمة يطلق على كل واحد من أولئك السبعين لقب ملك أو حاكم ، ولكن هذا النظام . أو بعبارة أخرى هذا النوع من الحكم الذي لم يعتد عليه المصريون . لم يجد قبولا منهم فلم يستمر أكثر من سبعين يوما ، وعلى أي حال فإن أكثر المؤرخين الآن يميلون إلى القول بأن أيام هذه الأسرة انتهت في العام نفسه أي أن عام ٢٢٨٠ ق.م. هو آخر حكم الدولة القديمة (١) هو في

---

(١) يكاد يكون الأستاذ اسكندر شارف Scharff هو المؤرخ الوحيد الذي يصر على اعتبار الأسرتين السابعة والثامنة من الدولة القديمة . أنظر كتابه A. SCHARFF-A. MOORTGAT, Agypten and Vorderasien in Altertum (1950). ويرى أن عصر الفترة الأولى يقتصر على الأسرتين التاسعة والعاشرة ويتفق مع جمهرة المؤرخين والأثريين في اعتبار بدء الدولة الوسطى بالأسرة الحادية عشر في عام ٢٠٥٢ ويريد شارف بذلك أن يحيي فكرة واضع بردية تورين إذ أنه ذكر في الملخص بعد ذكره لملوك الأسرة الثامنة أنه قد مضى منذ جلوس منا على العرش حتى ذلك الوقت ٩٥٥ سنة و١٥ يوما أي أنه اعتبر الفترة من الأسرة الأولى حتى نهاية الثامنة وحدة قائمة بنفسها ويذكر بعد ذلك ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة . وهم مهشمون جدا لسوء الحظ ولكن مجموع عددهم وهو ١٨ مازال واضحا في البردية .

الوقت ذاته بداية الأسرة السابعة المنفية وعصر الفترة الأولى وأول سنى الأسرة الثامنة التى حكمت ٣٨ عاما فقط .

ولكن الأستاذ شتوك الذى كتب رسالة خاصة عن هذا العصر يرى أن عددا من الملوك قد تولوا الحكم فى الأسرة السابعة فى منف ويقدم ثبتا بأسمائهم . ولكن فى الوقت ذاته ، ومنذ عهد الملك الثالث منهم ، بدأت عائلة مالكة جديدة فى الصعيد (فى قفط أو فى أبيدوس) وهى الأسرة الثامنة ومؤسسها ، نتر - كا - رع ، وبدأت أيضا عائلة مالكة أخرى فى اهناسيا وهى الأسرة التاسعة ومؤسسها أختوى (أوخيتى) الأول [١] . ولكن الرأى الأرجح الذى يجد قبولا من الغالبية الكبرى من الباحثين هو أن الأسرة السابعة لم يزد حكمها فى منف عن عدة شهور ثم تلتها فى منف أسرة حاكمة جديدة من أحد فروع البيت المالك القديم حكموا أيضا فى منف وكان عدد ملوكها خمسة عشر ملكا وأنهم لم يحكموا فى قفط [٢] أو فى أبيدوس كما قال بعض الباحثين .

أما الأسماء التى ذكرها بترى وذكرها شتوك فإنها - أو العدد الأكبر منها - أسماء لملوك حكموا فى عصور تالية ، ولم يخلفوا وراءهم آثاراً إلا جعارين فى أكثر الحالات كتبت عليها أسماؤهم .

كانت البلاد مفككة العرى ، وكان الوجه البحرى بصفة خاصة تحت رحمة عصابات البدو التى أذاعت بين أهله الذعر والخوف ، والتى لم تجد من يقف فى وجهها . أما فى مصر الوسطى والصعيد فقد كانت الحالة أفضل نسبيا إذا استقل حاكم كل منطقة بها وفرض عليها سلطانه ، وفى مثل تلك الظروف يحاول كل حاكم قوى أن يضم إليه أملاك غيره من جيرانه ويخضعهم له فيظل الناس فى كرب مستمر بسبب الغارات التى يتعرضون لها وبسبب ما ينجم عن الحروب من قتل وتخريب ونهب أموال وشل للحياةالعامة . وفى غمرة هذه الحوادث أراد حاكم منف ، وربما كان من نسل ملوك الأسرة السادسة أن يعيد للبلاد وحدتها فأعلن نفسه ملكا على البلاد

---

(١) نشر شتوك رأيه هذا فى كتاب Die erste Zwischenzeit Aegyptens الذى صدر فى عام ١٩٤٩ ولكنه وجد معارضة ونقداً شديدين من الأثريين ولم يقبله غير الدكتور أوتو فى كتابه الأخير Aegypten, Der Weg des Pharaonenreiches الذى صدر عام ١٩٥٣ .

(٢) كان زيته أول من اقترح الفكرة القائلة بأن الأسرة الثامنة حكمت فى قفط وقد بنى رأيه هذا على وجود الكثير من آثار ملوكها هناك وخاصة فى المراسيم المشهورة: SETHE, Gottingen Gelehrte Anzeiger, 147 (1912), p. 705-725 ولكن هذا الرأى أصبح قديما الآن والرأى المقبول هو أن الأسرة الثامنة حكمت فى منف كما ورد فى بردية تورين ودفن أكثر ملوكها فى سقارة الجنوبية على مقربة من هرم بنى الثانى .

وساعده فى ذلك بعض حكام الصعيد وامتنع البعض الآخر . ومن المحتمل أيضا أن يكون بعض هؤلاء الحكام قد رأى أنه لم يكن أقل من ملوك منف فادعى الملك لنفسه أيضا ، وفى خلال هذا الضباب الكثيف يمكننا أن نرى بعض صور غير واضحة المعالم تماما . فإن ملوك الأسرة الثامنة كانوا يحكمون فى منف على الأرجح كما قلنا ، ولكنهم كانوا يعتمدون على مناصرة بعض البيوت القوية فى الأقاليم فكانوا يصاهرونهم ويمنحونهم بعض الامتيازات وقد حفظت لنا الأيام فى خرائب معبد الإله « مين » فى قفط بضعة مراسيم منحها آخر ثلاثة من ملوك الأسرة الثامنة لأعضاء هذا البيت فاعتزوا بها ووضعوا صورها منقوشة على لوحات حجرية فى المعبد ، وأكثر هذه المراسيم لمصلحة إثنين من هذا البيت وهما « شماى » الذى كان أميراً لذلك الإقليم وإبنه « إيدى » (١) .

وتوجد أجزاء من عدد منها فى متحف المتروبوليتان بنيويورك واحد منها باسم (واج كارع) (خع باوو) وأربعة من أيام (نترى باوو) (نفر كارع) الذى خلفه على العرش وقد أصدر هذه المراسيم الأربعة فى يوم واحد ، وذلك فى العام الأول من توليه الملك . أصدر هذا الملك أول تلك المراسيم لتحديد الألقاب التى تمنح لابنته الكبرى « نبيت » زوجة الوزير « شماى » ويعين ضابطا خاصا ليكون رئيسا لحراسها وفى المرسوم نفسه يأمر الملك بناء سفينة مقدسة للإله « مين » ويحدد أطوالها وفى مرسوم آخر يأمر الملك بتعيين « إيدى » خليفة لأبيه كحاكم للصعيد وأن يكون له الإشراف على الأقاليم السبعة الجنوبية ابتداء من النوبة إلى مدينة « هو » (على مقربة من نجع حمادى) . ولكن نفوذ الأسرة الثامنة لم يطل (٢) ، ولا نلبث أن نرى بيتا

(١) بدأت عادة إصدار المراسيم منذ أواخر أيام الأسرة الرابعة فى عهد شبسكاف ووجد بعضها من عهد الأسرة الخامسة وكثرت فى أيام الأسرة السادسة وخاصة في عهود تيتى وببى الأول مرنرع وببى الثاني كما استمر التقليد كما رأينا فى عصر الفترة الأولى وبخاصة من الأسرة الثامنة لحكام قفط أنظر :

(A) WEILL. Les Décrets royaux de l'Ancien Emptre Egyptien (1912).

(B) MORET. Chartre d'immunité dans l'Ancien Empire Egptien (Journal Asiatique. 10th series xx (1912). pp. 73-133 ; 11 th series VII (1916). pp. 271-341 ; X (1917). pp. 359-387.

(C) SETHE. Urkunden des alten Reiches. I. Leipzig 1932-3.

(٢) ذكر مانيتون أن عدد ملوك الأسرة الثامنة ١٨ ولكنه لم يذكرهم ، أما ثبت أبيدوس فإنها ذكرت ١٧ وحفظت بردية تورين أسماء ثمانية أما ثبت سقارة فقد تجاهل كل الملوك الذين حكموا بعد ببى الثانى حتى أول الأسرة الحادية عشرة . ومجموع سنى حكم هولاء الملوك ٣٨ عاما بين ٢٢٧٠ ، ٢٢٤٢ وها هى أسماؤهم كما رتبها هيز HAYES Scepter of Egypt (1953), p. 134.

١- نفر كارع الصغير ٢- نفر كارع - نبى ٣- جد كارع - شماى ٤- نفر كارع - خندو
٥- مرى إن حور ٦- نفر كامين ٧- نى كارع ٨- نفر كارع - ترورو ٩- نفر كاحور
١٠- نفر كارع - ببى سنب ١١- نفر كامين - عنو ١٢- فا كارع - إيبى
١٣- واج كارع - خع باوو ١٤- نفر كاحور - نترى باوو ١٥- نفر كارع - دمج إب تاوى.

حاكماً جديداً يتولى الملك ويجعل عاصمة ملكه فى مدينة اهناسيا (نن - نى - سوت، قديما) عند مدخل الفيوم ، وهى إحدى المدن القديمة ذات الأهمية الدينية التى عرفها الناس فى عصر اليونان باسم هراقليوبوليس ؛ لأنهم ساووا بين إلهها ، حرى شف ، ومعبودهم البطل هرقل .

ملوك اهناسيا (الأسرتان - التاسعة والعاشرة)

ولسنا نعرف شيئا عن النزاع الذى يرجح أنه قام بين أمراء اهناسيا وآخر ملوك الأسرة الثامنة فى منف ، ولسنا نعرف شيئا عن موقف حكام الأقاليم من الأسرة الجديدة عند نشأتها ، ولكن يمكن القول بأن الأوضاع العامة لم تختلف كثيراً عن ذى قبل واستمر الملوك الجدد يخطبون ود الحكام الأقوياء ويستعينون بهم . ونعرف من بردية تورين أن عدد ملوك هذه الأسرة ثلاثة عشر ، فقدت أسماء الكثيرين منهم بسبب تحطيم هذه البردية ، وأنهم حكموا من ٢٢٦٢ - ٢١٢٣ أى ١٠٩ سنوات .

ومؤسس هذه الأسرة (مرى إب رع) (أختوى) وهو أختوى الأول ، (ويذكر فى بعض المؤلفات باسم ، خيتى ،) الذى وصفه مانيتون بأنه كان ظالما متجبرا ، لاقى الشعب على يديه كل أنواع العنف والشدة أكثر مما أصابهم على يدى أى ملك قبله ، وأنه ظل فى ظلمه وطغيانه حتى أصيب فى أواخر أيامه بالجنون وانتهت حياته عندما فتك به أحد التماسيح .

وربما كان مانيتون صادقا فيما رواه عن قسوة أختوى وطغيانه ، فإننا لا نتوقع من أمثال هذا الشخص من الطامحين المحاربين فى عصر كانت تسوده الفوضى والأطماع ، والبلد يتقاسمها الحكام ، ويتحكم البدو فى الدلتا ويتنافس حكام الصعيد فيما بينهم على النفوذ ، لا نتوقع من ملك قوى جديد يريد أن يؤسس ملكا جديداً ، وله منافسون وحوله حاقدون وناقمون عليه ، ألا يقضى على كل من يقف فى طريقه دون رحمة وهوادة .

ولسنا نعرف الكثير عن هذا الملك ، ولسنا نعرف أيضا من هم حكام الأقاليم الذين وقفوا إلى جانبه ، أو مدى نجاحه فى إعادة النظام إلى الدلتا رغم كل حروبه وكل قسوته ، ولكنا نشك فى أن الحالة تغيرت كثيراً إذ ظل الحكام الأقاليم نفوذهم كما كانت الحالة فى الأسرة الثامنة ، وظلت الدلتا معرضة لما كان ينتابها من غزوات البدو المتكررة . ووجدت الأسرة التاسعة نفسها فى حاجة إلى مؤازرة بعض حكام الأقاليم الذين يحكمون بلادهم شبه مستقلين ، والذين ظلوا يشيدون مقابرهم على مقربة من مدنهم ، ويدفع الجزية من يدفعها إلى ملوك اهناسيا رمزا لولائهم ، ولكنهم

لم يعتمدوا إلا على أنفسهم لحماية أقاليمهم وحماية أنفسهم وجمع الضرائب من أتباعهم .

وفى نسخة يوسيبيوس عن مانيتون نقرأ أن عدد ملوك الأسرة العاشرة تسعة عشرة حكموا ١٨٥ سنة وينص على أن كلا من الأسرتين حكم فى أهناسيا ولكن الأبحاث الحديثة تثبت لنا أن عدد ملوك الأسرة التاسعة كان أكثر من أربعة حسب ما ورد فى بردية تورين وربما بلغ عددهم ثلاثة عشر شخصا حكموا ١٠٩ أعوام ولكن الأسماء الكاملة من بينها عددها خمسة فقط (١) . أما ملوك الأسرة العاشرة فقد كانوا خمسة فقط حكموا من ٢١٢٣ - ٢٠٥٢ ق.م. أى ٧١ عاما (٢) وأن هذه الأسرة الإهناسية كانت معاصرة منذ ظهورها تقريبا لأمراء طيبة الذين دارت بينهم وبين الإهناسيين فيما بعد حروب انتهت بالقضاء على بيت إهناسيا وانفراد الأسرة الحادية عشرة الطيبية بالملك .

والحقيقة أننا لا نكاد نعرف شيئا عن ملوك الأسرة التاسعة حتى الآن وكانت مصر فى أيامهم شبيهة بما كانت عليه فى عهد الأسرة الثامنة أى ملوك ضعاف يعيشون فى العاصمة لا يكاد أن يكون لهم نفوذ فى الأقاليم ، وأمراء أو حكام للأقاليم يستقل كل منهم بشأنه وتربط بعضهم بالبيت المالك فى إهناسيا رابطة من الروابط والبعض الآخر مستقل بشأنه ، أما البلاد بوجه عام فقد تفككت عراها وتأخرت فنونها وأصابها الوهن .

---

(١) أول ملوك الأسرة التاسعة هو (مر إب رع) (أختوى الأول) ثم يليه إسم مهشم وبعد ذلك الملك نفر كارع ثم ملك آخر يسمى أختوى ثم ملك يسمى (ستوت ...) ثم (أختوى) ثالث وبعد ذلك بعض أسماء مهشمة لا نقرأ إلا أجزاء منها وبعض أسماء تامة التهشيم .

(٢) ملوك الأسرة العاشرة مرتبون حسب الآتى : أولهم يبدأ بكلمة مرى وقد أكمله هيز إلى مرى حتحور والثانى نفر كارع والثالث إسمه (أختوى) (واح كارع) وقد ذكره شتوك على أنه أختوى الثالث وأنه حكم من ٢١١٥ - ٢٠٧٠ ق.م. بينما يعتبره هيز أنه أختوى الرابع وعلى أى حال فهو صاحب الوصية الشهيرة وخلفه على العرش إبنه مريكارع . أما خامس وآخر ملوك الأسرة فقد ورد إسمه فى بردية تورين على أنه أختوى أيضاً وهو خامس ملك يسمى بهذا الإسم ، وهو الذى كان معاصراً لمنتوحوتب مؤسس الأسرة الحادية عشرة . ويبقى بعد ذلك بضعة ملوك ولا يشك أكثر المؤرخين فى أنهم حكموا فى تلك الفترة أى فى عصر الفترة الأولى ولكنهم يختلفون فيما بينهم إختلافاً كبيراً فى تحديد أماكنهم بين غيرهم وهم الملك ، إيمحتب ، الذى عثر على إسمه فى أحد نقوش وادى الحمامات وكذلك ملك آخر يسمى إتى عثر على إسمه هناك والملك سخم كارع الذى ورد إسمه فى بردية عثر عليها فى الفنتين ، ويضاف إليهم ملك آخر ذكر إسمه فى مقبرة من عصر الرعامسة وهو جسر - ثوب .

وكان البيت المالك يزداد ضعفا بينما يزداد أمراء الأقاليم قوة حتى جاء اليوم الذى زال فيه حكم الأسرة ، وتلتها أسرة أخرى أظهرت شيئا من النشاط ، وبدأ الظلام المخيم على تاريخ مصر ينقشع رويدا فنرى خلاله بعض أشباح تتحرك ثم نرى هذه الأشباح تتحول إلى قوى تتطاحن فيما بينها ، وتدخل مصر مرة أخرى فى فترة استيقاظ .

ومنذ الوقت الذى جلس فيه ملوك الأسرة على العرش ظهر فى طيبة بيت قوى كان أفراده يرون فى أنفسهم أنهم أحق بالملك من بيت إهناسيا ولكن ولاء بعض البيوت القوية الأخرى لملوك إهناسيا وبخاصة أمراء أسيوط فى مصر الوسطى أى فى شمالهم وبيت آخر بأرمنت إلى الجنوب منهم جعل مهمة أمراء طيبة مهمة غير يسيرة كما سنرى .

فعلى جدران مقبرة المعلا (١) (بين الأقصر وأسنا) نقرأ بعض الحوادث التى جرت فى تلك الأيام . كان (عنخ تيفى) صاحب هذه المقبرة حاكما للأقاليم الجنوبية الثلاثة أى إلفنتين وإدفو وأرمنت ، أى يمتد نفوذه من النوبة حتى حدود الإقليم الرابع وهو إقليم طيبة . يفتخر « عنخ – تيفى » بسطوته وقوة جنوده الذين كانوا يذيعون الذعر إذا خرجوا للحرب ، ويتحدث عن المجاعة التى فتكت بالصعيد ولم ينج منها غير إقليمه لأنه ساعد الناس ، وكان يوزع عليهم الحبوب ، وحمى الضعفاء من الأقوياء حتى مرت تلك المحنة بسلام . ونحن لا يخالجنا شك فى أنه حدثت حرب بينه وبين أمير إقليم طيبة الذى اتحد مع من كانوا إلى الشمال منه وبخاصة بيت قفط وربما بيت دندرة أيضا ، ولكن نتيجة تلك الحرب لم تغير من الأمراء شيئا إذ ظل « عنخ – تيفى » حاكما على أقاليمه الثلاثة مواليا لبيت إهناسيا .

عاش « عنخ » – تيفى » فى أوائل أيام الأسرة العاشرة فى عهد الملك « نفر كارع » ثانى ملوك هذه الأسرة الذى ورد اسمه فى المقبرة ولكن قوة هذه العائلة لم تستمر طويلا ، ولسنا نعرف إن كان ذلك بسبب ازدياد قوة طيبة أو ضعف الذى خلف ذلك الرجل القوى فى حكم الجنوب ، وربما كان الإثنان معاً .

وجلس على عرش إهناسيا بعد « نفر كارع » ملك حازم وهو (واج كارع) (أختوى) الشهير الذى خلف وصيته لابنه ، تلك الوصية التى تلقى ضوءا كبيرا على ذلك العصر ، وهو المعروف الآن باسم أختوى الرابع لأننا نعرف الآن أن ثلاثة ملوك يحملون هذا الاسم كانوا من بين ملوك الأسرة التاسعة حسب دراسة الترتيب الأخير لبردية تورين منذ سنوات قريبة .

(١) VANDIER (J.) "La Tombe d'Ankhtif`a Mo`alla."

بدأ هذا الملك فى تطهير الدلتا من الفوضى السائدة فيها بسبب وجود عصابات البدو التى كانت تنشر الفزع وتنهب الناس . وبعد أن أستتب له الأمر بعض الشيء أراد أن يتخلص من أمراء طيبة وحلفائهم فى الجنوب فحدثت حرب بين الفريقين دارت رحاها فى إقليم ثينيس (ثنى) على مقربة من أبيدوس ، انتصر فيها الإهناسيون بمعاونة أمراء أسيوط ولكن الطيبين عادوا فاسترجعوا ما فقدوه تحت قيادة (واح عنخ - إنيوتف) الذى لم يكتف باستعادة حصن ثينيس بل تقدم شمالا حتى استولى على مدينة كوم اشقاو (أفرود يتوبوليس) فى الإقليم العاشر من أقاليم الصعيد أى إلى حدود إقليم أسيوط نفسه .

وفى عهد الملك الإهناسى ، مريكارع ، ابن أختوى الرابع زادت المتاعب إذ تولى حكم طيبة حاكم قوى وهو منتوحوتب الثانى الذى أستأنف الحرب وقضى على أمراء أسيوط ، ثم اندفع نحو الشمال فاستولى على الأشمونين ، ولم يبق للأهناسيين إلا القليل من مصر الوسطى ونفوذ متزعزع فى الدلتا .

ومات مريكارع وخلفه على العرش أختوى آخر وهو الخامس الذى جرت فى عهده حوادث قصة القروى الفصيح ، ولكن هذا الملك لم يبق طويلا على العرش إذ عاودت جيوش طيبة هجومها فقضت على عائلة إهناسيا وأخضعت مصر كلها وبدأت الأسرة الحادية عشرة عهدا جديدا ، وعادت مصر إلى وحدتها القديمة يحكمها ملك واحد كما بدأت أيضا الدولة الوسطى . تلك هى الخطوط الرئيسية لتاريخ ذلك العصر المظلم ولكن يجب علينا قبل الانتقال إلى عصر آخر أن نتحدث بشيء من التفصيل عن ثلاث نقاط وهى :

١ - وصية أختوى الرابع لابنه مريكارع .

٢ - بردية القروى الفصيح .

٣ - آثار ذلك العصر .

أما ما نعرفه عن الصراع بين إهناسيا وطيبة فسنعود له بشيء من التفصيل عند مناقشة موضوع نشأة الأسرة الحادية عشرة فى الفصل القادم .

وصية الملك أختوى لابنه مريكارع :

من أهم المصادر القديمة لدراسة الحالة فى مصر فى أواخر أيام إهناسيا ، تلك البردية التى تحتوى على النصائح والتوجيهات التى وجهها الملك أختوى الرابع

(خيتى) إلى ابنه الملك مريكارع (١) ، إذ أننا نرى فيها كثيراً من المعلومات المهمة عن ذلك العصر الغامض يحاول أختوى أن يعطى خلاصة تجاريه لابنه حتى لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء ، ويبدأ هذه النصائح بعد الديباجة التى فقدت الآن بتحذير ابنه من أى تابع له يكثر من الكلام ووراءه أتباع كثيرون فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين الناس ، وينصحه بقوله : « اطرده اقتله ، امح ذكراه (هو) وأتباعه الذين يحبونه » . ويوصى ابنه بعد ذلك بأن يكون فنانا فى الحديث ؛ لأن « اللسان كالسيف للإنسان » ، وينصحه بأن ينهج سبيل آبائه وأجداده وأن يكثر من قراءة ما خلفوه من كتب الحكمة وألا يفعل الشر وأن يتحلى بالصبر ويترك وراءه ذكرى حسنة من حب الناس له . ويحذر أختوى ابنه من الطمع ونصحه بأن يعتنى بتثبيت حدوده ، وأن يعلى من شأن رجاله ويقويهم ؛ لأن الغنى فى غير حاجة لمحاباة غيره ، أما الفقير فإنه لا يقول الحق الذى يؤمن به وإنما يحابى من يملك شيئا يعطيه له ، يقول لابنه : « ما أعظم الشخص العظيم عندما يكون رجاله المقربون عظماء ، وما أشجع الملك الذى يكون له رجال بلاط ، وما أعظم وأقوى الذى يكون له نبلاء كثيرون » ويكثر من نصح ابنه لاتباع جادة الحق وإقامة العدل ويحذره من ظلم الأرملة ، ويوصيه بألا يحرم شخصا من ثروة أبيه وألا يطرد الموظفين من وظائفهم ، ولكنه فى الوقت ذاته يوصيه وصية حازمة بقوله « حاذر من أن تعاقب الناس دون خطأ جنوه ، لا تقتل فإن ذلك لا يجديك شيئا ولكن عاقب بالضرب والإعتقال فتصلح الأمور فى البلاد ، اللهم إلا الثائر عيك الذى تتثبت من أمره » .

ولأول مرة فى تاريخ مصر نقرأ فى تلك النصائح عن وجود محكمة بعد الموت يقف أمامها الإنسان صاغرا ولا ينفعه أمام قضائها إلا العمل الصالح « فإن أعماله توضع مكدسة إلى جواره » . ويشير أختوى إلى الشباب فينصح أبنه بالعناية بهم

(١) هذه البردية فى متحف لينجراد ومرقومة تحت رقم ١١١٦ أ . والنسخة الحالية من عصر الأسرة الثامنة عشرة لأن المصريين فى تلك الفترة عنوا عناية كبرى بالآداب القديمة ، وكانت هذه القطعة الأدبية من القطع المحببة إليهم لمتانة أسلوبها وجمال معانيها . وليست نسخة متحف الإرميتاج بلينجراد هى النسخة الوحيدة بل توجد نسختان أخريتان ولكنهما ليستا كاملتين مثلها . وأول من نشر هذه البردية جولينيشف فى عام ١٩١٣ وظهرت لها ترجمات كثيرة فى اللغات المختلفة ولكن شارف قام بدراستها دراسة وافية فى عام ١٩٣٦ ونشرها تحت عنوان :

A. SCHARFF. Der historische Abschnitt der Lehre fur Konig Merikare (SBAW. 1936).

وقد نشرها مرة أخرى فولتن

A. VOLTEN. Zwei altagyptische politische Schriften (Analecia Aegyptiaca. IV) Copenhagen. 1945.

وتقريبهم منه ، وأن يمنحهم الحقول ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية ولكنه يحذره بشدة من أن يميز ابن شخص غنى على ابن شخص فقير ، بل يجب أن يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية .

ويوصيه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية وترتيب القرابين ، وأن يرضى الله فإن الله يعرف الذين يعملون من أجله ، ثم يتدرج بعد ذلك إلى ذكر ما كان حادثا فى مصر من انقسام فيقول لابنه إنه لا يخلو أحد من وجود أعداء له ، وإن الأعداء فى داخل مصر لا يهدأون ، ثم يشفع ذلك بقوله « إن القدماء قد تنبأوا بأن جيلا سيظلم جيلا آخر وأن مصر ستحارب حتى فى الجبانة وتهدم القبور . لقد فعلت ذلك وأصابنى ما يصيب من يعصى أمر الله » .

يشير أختوى بذلك دون ريب إلى حرب استعرت نارها بين الشمال والجنوب ، إذ ينصحه مباشرة بعد ذلك بأن يحسن علاقته بالجنوب وإذا لم تأت منهم جزية من الحبوب فيكفيه صداقتهم له وينصحه بأن يكتفى بما لديه من خبز وجعة .

ويقول لإبنه إن الجرانيت يمكن الحصول عليه دون عائق ، ويحذره من الاعتداء على آثار الآخرين وأنه يجب عليه الحصول على ما يلزمه من أحجار من محاجر طرة لبناء قبره ، وألا يأخذ أحجارا مما تخرب من قبور الناس .

كانت أيام أختوى مليئة بالحروب ، فلم يحاول الاصطدام ببيت طيبة فى الجنوب بل نشط نشاطا كبيرا فى الدلتا واهتم اهتماما خاصا بالجزء الغربى منها وأخضعه تماما لأهناسيا ، ولكن الأمر لم يكن سهلا فى شرقى الدلتا وإن كانت ضرائبها ظلت تأتى إلى القصر ، ويقول إنه أعاد تنظيم المنطقة من المنيا جنوبا حتى السويس وأنه أسكن فيها أناسا كثيرين انتقاهم من جميع أنحاء البلاد حتى يستطيعوا الدفاع عنها . لقد كان العدو الذى يخشاه ملوك أهناسيا وأقاموا الحاميات وشجعوا تعمير البلاد الواقعة على الحدود لصدهم عصابات الأسيويين حملة القوس ، الذين يلاقون الكثير من المتاعب فى بلدهم « بسبب الماء والأشجار والجبال » ويقول عن الأسيوى « إنه لا يستقر فى مكان واحد ولكن ساقيه صنعتا لكى يتجول ويسير بعيدا . إنه يحارب منذ أيام حورس » أى منذ الأزل « وهو لا يقهر ولا يقهر ، إنه لا يحدد يوما للقتال ، إنه كاللص الذى يعمل فى عصابة » وهذه إشارة دون شك إلى عصابات من البدو جاءت من الشرق وكانت تنتهز الفرص لنهب القوى الآمنة أو نهب المسافرين ، ثم تسارع بالهرب قبل أن يلحق بها المطاردون « ربما أمكنه أن ينهب شخصا (يسير) بمفرده ، ولكنه لا يهاجم مدينة فيها سكان كثيرون » . وينبه ابنه مريكارع إلى أهمية منطقة

البحيرات المرة لحماية مصر من خطر البدو وينصحه بتحصين جزء منها وغمر الجزء الآخر بالمياه ويذكر ما قام به من تحصينات وعدد الذين جعلهم يقيمون هناك وكلهم مسلحون اللهم إلا الكهنة الذين يقيمون معهم . ويشير أيضا إلى تحصينه لمنف وإلى إنشاء قناة (أو ربما جسر) تربط بينها وبين إهناسيا ، ويعيد الكرة فيحذر ابنه من محاربة الجنوب ويقول له بأن ذلك يعطى فرصة للبدو الأسيويين فيعيثون فسادا فى الدلتا . ويعود فيذكر ما جره عليه اصطدامه بالجنوب ، انظر ! لقد حدثت نكبة فى عهدى . لقد تحطمت مناطق إقليم ثنى . حدث ذلك حقا بسبب ما فعلت ، ولكنى لم أعلم به إلا بعد حدوثه . أنظر ! لقد جوزيت على ما اقترفت ، ويختم نصائحه بحث ابنه على طاعة الله والخوف منه فهو يعلم السر وما يخفى ، ويذكره بألا ينسى آخرته وأن يعمل لليوم الآخر ، ويقول له بأن يذكر دائما نعم الله عليه ويقول عنه : « إنه هو الذى خلق أنفاس الحياة لخياشيمهم (أى الناس) ، وأولئك الذين خرجوا من صلبه ليسوا إلا صورا له . إنه يشرق فى السماء ليلبى رغبتهم ، إنه خلق لهم النباتات والحيوانات والطيور والأسماك ليقتاتوا منها ، وما أجمل قوله : « إن الله يقبل أخلاق الرجل المستقيم الضمير أكثر من قبوله للثور الذى يقدمه الشرير (كقربان للآلهة) » وما أصدق عبارته التى يشير فيها إلى أن الله يوقع عقابه على بعض الناس لمصلحتهم : « إنه (أى الله) يقضى على من يملأ الشر قلبه بينهم (أى الناس) كما يضرب الأب ابنه إكراما لأخيه ، لأن الله يعرف كل إنسان » .

تلك هى بردية النصائح التى كتبها أختوى الرابع لإبنه وهى لا تمدنا فقط بتلك المعلومات الهامة عن الحالة الداخلية فى البلاد بل تمدنا بما هو أهم من ذلك ، وهو ظهور تلك النغمة الجديدة من التواضع . فلم يعد الملك ذلك الإله المترفع الجبار الحاكم فوق البشر والذى يرجو جميع الناس تعطفه ورضاه ليصيبهم شيء من إحسانه فى الدنيا والآخرة ، بل أصبح شخصا يتحدث عن ضعفه ويردد عبارات ندمه كسائر البشر . ونقرأ فى البردية أمرا آخر تزداد أهميته لأن قائله ملك يعترف له شعبه – ولو نظريا – بالألوهية الملكية ، وهو أن سعادة الإنسان فى آخرته تتوقف على عمله فى الدنيا ولا تتوقف على رضاء الملك فقط ، ونقرأ فيها أيضا أن كل امرىء مهما كان مركزه سيحاسب على أعماله أمام محكمة الآلهة وأنه سيجد تلك الأعمال مكدسة إلى جانبه بما فيها من خير وشر ، ونقرأ فيها أيضا نغمة حلوة وهى أن السعادة فى الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يبنى أو على قرابين تقدم بانتظام ولكن الله يعرف ما فى القلوب ويطلب من عباده أن تحسن نياتهم ويذرون وراءهم الطمع والشر ، لأن النيات الحسنة هى التى يقبلها ، وهى أقرب إلى قلبه من القرابين التى يقدمها المذنبون ليكفروا بها عما اقترفوه من إثم .

لقد فتكت الثورة الإجتماعية بمصر فدكت عرشها وفككت عراها وقضت على الحكومة المركزية فيها وعرضت البلاد لخطر الغزو الأجنبى ، ولكن مصر خرجت من محنتها بعد أن تعلمت من تلك التجربة القاسية أشياء جديدة عن قيمة الإنسان وحقوقه وعن معنى الخلق الكريم . لقد أثمرت تلك الثورة الإجتماعية إذاً ، وغيرت الشيء الكثير من نظرة المصريين إلى حكامهم بوجه عام وجعلتهم يدركون ما للفرد من قيمة وما له من حقوق ، ويكفى الآن هذا القدر من الحديث فسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى ١ـ عند مناقشتنا لبردية القروى الفصيح وبعض النصب التذكارية التى وصلت إلينا من ذلك العصر .

بردية القروى الفصيح (١) :

ازدهر الأدب ازدهارا كبيرا فى عهد ملوك إهناسيا ، وقد أشرنا قبل الآن إلى بردية « إبيرور » التى صورت لنا حالة البلاد وما ساد فيها فى بداية ذلك العصر المظلم الذى تلا سقوط الدولة القديمة وحللنا بردية النصائح الموجهة إلى مريكارع ورأينا فيها لغة مزدهرة وأدبا رفيعا يحوى آراء ناضجة وأهدافا محددة ، ولكن هناك قطعا أدبية أخرى ممتازة تساعدنا أيضا فى الوقوف على بعض نواحى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ومن بينها بردية البائس من الحياة ولكنى سأقتصر على واحدة منها فقط وهى بردية القروى الفصيح لأهميتها .

ليست هذه البردية قصة حقيقية وإنما هى قطعة أدبية ذات هدف خلقى أحسن فيها كاتبها اختيار تعبيراتها وصيغها ، وأظهر فيها مقدرته فى اللغة . تتكون من مقدمة على صورة قصة لا تخلو من الطرافة وتسع شكاوٍ فى موضوع واحد وهو الحث على العدل وإعطاء الفقير حقه وحمايته من الغنى الطامع وأن يكون الحاكم سياجا وملجأ للمظلوم ويخشى من عقاب الله إذا انحرف عن الطريق السوى .

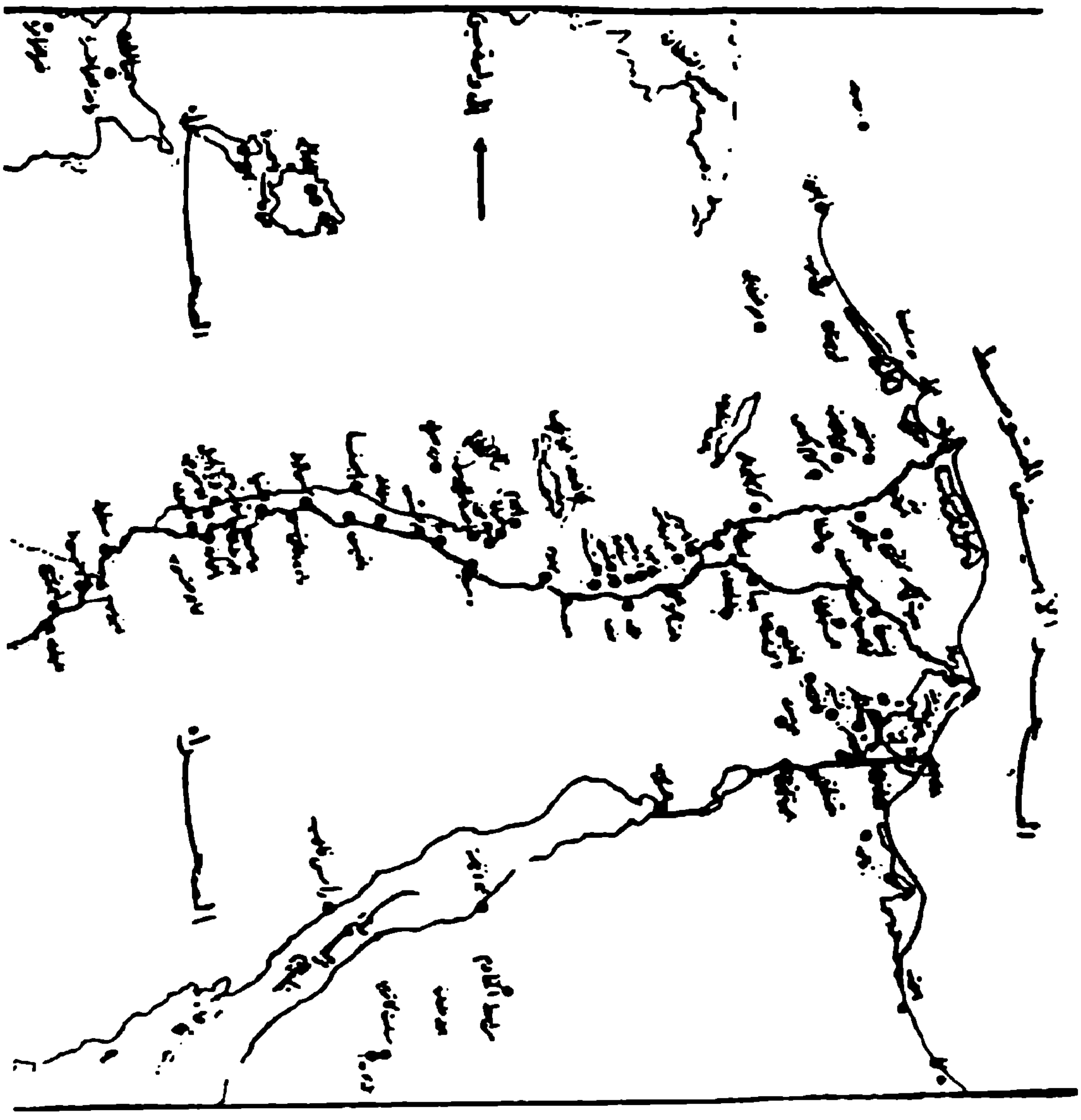
كان يعيش أحد القرويين وإسمه « خو إن أنوب » فى وادى النطرون وأراد أن يذهب ببعض محاصيل تلك الواحة ليبيعها فى إهناسيا ثم يشترى بثمنها غلالا يعود

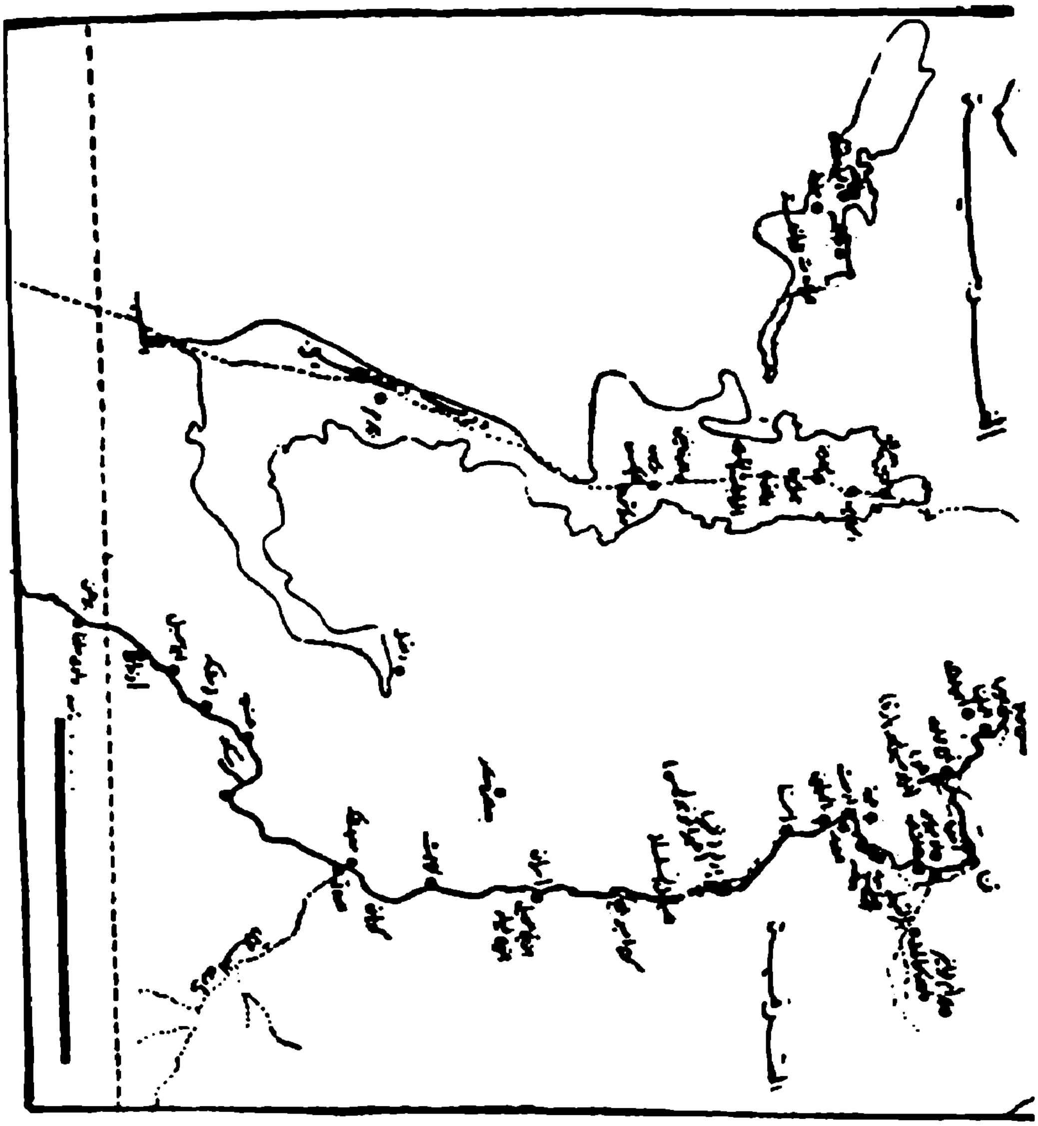
---

(١) كتبت هذه البردية ووقعت حوادثها فى أواخر أيام الأسرة العاشرة فى أهناسيا وكانت من أحب قطع الأدب وأكثرها انتشارا فى الدولة الوسطى ، وكان العالم الأثرى « شابا » أول من لفت إليها الأنظار فى عام ١٨٦٣ ونشر فوجلزانج نصوصها نشرا كاملا

VOGELSANG. Kommentar Zu den Klagen des Bauern. Leipzig. 1913.

وقد ترجمت ترجمات عدة وأحدث ترجمة لها هى ترجمة ولسون فى كتاب Ancient Near Eastern Texis ومترجمة أيضاً إلى العربية فى كتاب سليم حسن – الأدب المصرى القديم – الجزء الأول ص – ٥٤ وما بعدها .





أهم المواقع الأثرية فى مصر

بها إلى أهله . وطلب من أسرته أن تعد له زاد الطريق ، وحمل حميره ، وسار في طريقه حتى أصبح على مقربة من العاصمة وكانت في بلدة إهناسيا . وأثناء سيره رآه من بعيد شخص يسمى « تحوتى نخت » من أتباع « رنسى » بن « مرو » الذى كان رئيس مديرى القصر الملكى ومن كبار موظفى البلاد ، ومن أقرب الناس إلى الملك الحاكم . فلما رأى « تحوتى نخت » ذلك القروى آتيا في الطريق عزم على اغتصاب ما معه ، وكان بيته قريبا من جانب الطريق الضيق وكانت الحقول على أحد جانبى الطريق ، وعلى الجانب الآخر ترعة فيها ماء . وأمر « تحوتى نخت » أحد خدمه فأحضر له قطعة من القماش فرشها فوق الطريق فوصل أحد طرفيها إلى الشعير المزروع في الحقل بينما تدلى الطرف الآخر في مياه الترعة التى كانت هناك ، أى أن ذلك النسيج غطى عرض الطريق . فلما وصل القروى حذره « تحوتى نخت » من أن تدوس حميره على النسيج فصدع القروى للأمر وأجابه سمعا وطاعة . وساق حميره على حافة الجسر من ناحية الحقل وعند ذلك نهره سائلا عما إذا كان يريد أن يجعل من حقل شعيره طريقا لحميره فأجابه القروى بأنه لا يقصد سوءا فالطريق مرتفع وقد غطاه بالقماش ، ولم يعد هناك مكان يسير فيه إلا حقل الشعير . وفي أثناء تلك المناقشة مال أحد الحمير فأكل شيئا من الحقل وعند ذلك قال « تحوتى نخت » إنه سيستولى على ذلك الحمار ثمنا لما أكله ، فصرخ القروى سائلاً إذا كان من العدل أن يأخذ حماره مقابل قبضة من الشعير ملأ بها فمه ، وصاح قائلا « أننى أعرف صاحب هذه الضيعة ، إنها ملك رئيس مديرى القصر رنسى بن مرو ، أنه هو الذى يقف في وجه اللصوص في أنحاء البلاد فهل أسرق في ضيعته ؟ » وعند ذلك نهره « تحوتى نخت » وأخذ غصنا من شجرة وأوسعه ضربا وأخذ كل حميره وساقها إلى الضيعة .

وبكى القروى من آلامه بكاء مرا فلم يتركه « تحوتى نخت » وشأنه بل نهره وأمره بالسكون لأنه على مقربة من معبد « رب السكون » (أى أوزوريس) فصاح القروى : « إنك ضربتنى وسرقت متاعى وتأبى إلا أن تأخذ أيضا الشكوى من فمى !! يا رب السكون ، رد إلى بضاعتى حتى لا أصيح .. » . وظل القروى المسكين عشرة أيام كاملة يستسمح ويستجدى ظالمه دون جدوى ، فلما يئس منه سار في طريقه ليشكو إى رنسى نفسه في العاصمة . ورآه عندما كان يهم بالخروج من باب بيته لينزل إلى سفينة ليعقد فيها جلسة للمحكمة فقال له « هل لى أن أرفع إليك أمرا ؟ أرجوك أن ترسل لى تابعك الذى تثق فيه حتى يصل إليك عن طريقه ما أريد قوله » فأرسل رنسى إليه تابعه فشرح القروى له القصة بحذافيرها . وعند ذلك رفع رنسى قضية ضد « تحوتى نخت » أمام القضاة الذين كانوا معه . فما كان من القضاة إلا أن قالوا إن

هذا القروى لابد أن يكون أحد فلاحى تحوتى نخت الذين تركوا العمل عنده وذهب ليعمل عند الآخرين ، وأن ما حدث له هو ما يستحقه أى قروى يفعل ما فعله ، وقالوا « أعلى مثل ذلك يعاقب تحوتى نخت بسبب كمية تافهة من النطرون شيء قليل من الملح ؟ اصدر إليه أمرك بأن يعوضه عنها وسيفعل ذلك » ولكن رنسى لزم الصمت فلم يرد على القضاة ولم يرد على القروى .

وجاء القروى مرة ثانية ليشكو وصاح مخاطبا رنسى ومذكرا لهم باليوم الآخر ويطلب منه أن يقيم العدل حتى ينال العدل بعد موته ، ويقول له « إنك أبو اليتيم ، وزوج الأرملة ، وزوج المرأة المهجورة، ودثار من لا أم له » . وذهب رنسى إلى الملك نبكاورورع (آخر ملوك الأسرة العاشرة وكان يسمى أختوى أيضا) وقال له « سيدى : لقد وجدت واحدا من هؤلاء القرويين ، فصيحا بحق ، لقد تعدى عليه أحد رجالى وسرق ما معه وجاء إلى يشكو من ذلك » فنصحه الملك بأن يجعل ذلك القروى يطيل إقامته ليستمر فى الشكوى ، وأمره أن يكتب كل ما يقوله وفى الوقت ذاته يعنى بأمر زوجته وأطفاله فيرسل إليهم ما عساه يكفى لقوتهم ، وأن يعنى أيضا بأمر القروى نفسه فيرسل إليه الطعام دون أن يعرف أنه هو الذى أمر بترتيبه له . فرتبوا له فى كل يوم أربعة أرغفة من الخبز وإناء من الجعة . وجاء القروى مرة أخرى وكان فى كل مرة يلقى شكواه بأسلوب فصيح يملؤه بالاستعارات والتشبيهات حتى بلغت شكاواه تسعا ، أبدع فيها كاتب القصة ، وكلها تدور حول العدل ومسئولية الحاكم عن الدفاع عن المظلوم ومساوىء الطمع والتكبر على الناس ، وفى آخر شكواه التاسعة يئس القروى وصمم على قتل نفسه فختمها بقوله « أنظر ! إنى أشكو إليك ولكنك لم تسمع فهل تريد منى أن أذهب وأشكوك إلى (إله الموتى) أنوبيس ؟ » وترك القروى مكانه وسار فى طريقه فأرسل رنسى وراءه إثنين فأعاداه . وظن المسكين أنهم سيعاقبونه على ما بدر منه ، فلما وقعت عيناه على رنسى إبتدره قائلا : « إنى تواق إلى الموت كما يتوق الظمآن عندما يقترب من الماء ، وكما يتوق الرضيع إلى لبن (أمه) » ولكن رنسى رد عليه قائلا : « لا تخف أيها القروى ، انظر ! إنك ستقيم معى » ولكن يأس القروى كان قد بلغ نهايته : « لن آكل خبزك أو أشرب من جعتك ما حييت » . ولكن رئيس البيت الملكى قال له « تعال من هنا حتى تستمع إلى ما قلته من شكاوٍ » وأمر أن تقرأ له بردية سطرت عليها ، ثم أرسلها رنسى بعد ذلك إلى الملك ، وقال الملك لرئيس بيته أن يتولى هو الحكم فى القضية فأرسل إثنين من الشرطة لإحضار تحوتى نخت ، وأرضى القروى إذ عوضه عن كل ما فقده كما انتقم له ممن ظلمه دون وجه حق فأعطاه كل ما كان يمتلكه تحوتى نخت .

أى أن القضية نفسها إنتهت بما كانت تدعو إليه الشكوى وهو حماية الفقير من الغنى وأن يكون الحاكم سياجا يحمى الضعيف من عسف القوى وألا يعتقد الموظفون أو الذين ينتمون إلى ذوى النفوذ من بين الحكام أنهم يستطيعون أن يظلموا القرويين المساكين دون أن تنالهم يد العدالة .

لقد رأينا الملك أختوى الرابع يوصى إبنه الملك مريكارع أن يتعلم حسن الحديث وإجادة التعبير عن آرائه ، وبعبارة أخرى يمتدح الفصاحة وعدم السكوت عن الظلم ، ونرى فى هذه القصة تطبيقا لذلك المبدأ وهو الإعلاء من شأن الفصاحة وضرورة السعى وراء الحق ، وهى تصور لنا أيضا أمرا آخر ، وهو ظلم صغار الموظفين للفقراء من الناس بينما يعنى كبارهم برد الحق إلى أصحابه متى وصل ذلك إلى سمعهم ، لأنهم هم المسئولون عن ذلك . ونرى فيها أيضا بوضوح أمر الخوف من عقاب الذى لا تخفى عليه خافية إذ طالما ذكر القروى رئيس البيت الملكى بأنه هو المسئول عن نكبته ، وأنه سيقف يوما أمام الملك ليجيب عن ظلمه له ، لأنه لم يستمع إلى شكواه ولم ينصفه من تابعه .

لم نعرف لمثل هذه الشكوى وجودا فى الدولة القديمة ، وهى مثل غيرها من آداب ذلك العصر نتيجة لما نشأ فى مصر من وعى إجتماعى بعد تلك الثورة التى قام بها الشعب فى أعقاب الأسرة السادسة ، ولقى هذا النوع من الأدب وتلك الآراء قبولا من الناس فى الدولة الوسطى وخاصة فى أوائل أيام الأسرة الثانية عشرة ، ولكن ما جاءت الدولة الحديثة حتى تغيرت الأمور وأصبح للمصريين مثل عليا مختلفة .

أهم آثار عصر الفترة الأولى :

أهم آثار ذلك العصر هى دون ريب تلك البرديات الأدبية التى نرى فيها صدى لما طرأ على الحياة الإجتماعية من تغيير ، وما ظهر من آراء جديدة مهمة . ويليها فى الأهمية المراسيم التى كان يصدرها الملوك ثم ما وصل إلى أيدينا بعد ذلك من آثار سواء من أطلال أهرام أو مقابر ذلك العصر ، أو ما وصل إلى أيدى العلماء من أشياء أخرى .

ولم يعثر على أى أثر لمقابر ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة فى إهناسيا حتى الآن ، ولكن عثر على ما يكفى للترجيح بأن منف ظلت العاصمة الإدارية للبلاد ولم تكن إهناسيا غير مقر الملك كما أن ملوكها ورجال بلاطهم إستمروا على التقليد القديم ، وكان الكثيرون منهم يدفنون فى جبانة منف وعثر على آثار لبعضهم حول هرم تيتى فى الجزء الشمالى من الجبانة وحول هرم ببى الثانى فى سقارة الجنوبية .

وعثر أيضا على الكثير من النقوش التى بقيت من جدران بعض مقابر ذلك العصر فى سقارة كما عثر أيضا على لوحات جنازية لبعض الأفراد كانت فى مقابرهم التى شيدت هياكلها من الطوب اللبن أما القبر فكان تحت الهيكل وغالبا ما يكون على شكل حجرة صغيرة (شكل رقم ١٠ وشكل رقم ١١) من الحجر – وذلك للقادرين من الأغنياء – تلون جدرانها ويوضع فيها صاحب القبر داخل تابوت من الخشب محلاة جوانبه بالكتابة أو الرسوم ، وقد عثر على مئات من هذه التوابيت فى جميع أرجاء مصر وبخاصة فى مصر الوسطى وهى من أهم مصادرنا لدراسة ذلك العصر سواء من الناحية الدينية أو من الناحية الاجتماعية ، وذلك لرسم كثير من الأدوات على جوانبها بدلا من وضعها فى القبر (١) . ومن بين العادات الجنازية فى تلك الفترة الإكثار من وضع نماذج خشبية للخدم أو الجنود أو العمال وهم يؤدون أعمالهم المختلفة .

واستمر أمراء الأقاليم يدفنون على مقربة من بلادهم ، ولهذا نجد كثيرا من مقابر ذلك العصر منحوتة فى الصخر فى مصر الوسطى والصعيد ، أما الفقراء فكانوا يدفنون فى السفح تحت مقابر الحكام . وتقتصر المقابر غالبا على حجرة صغيرة تقطع فى الطبقة المتماسكة من الأرض أو تبطن بأحجار أو طوب ، ويوضع فى وسطها تابوت أو أكثر من الخشب وفوقه أو بجواره بعض النماذج الخشبية ، وأهم مقابر الأقاليم نجدها بين مقابر زاوية الأموات وبنى حسن والبرشا وأسيوط ودير الجبراوى والهجارسة وأخميم ودندرة والمعلا وأسوان .

ومن بين الأشياء المهمة التى تقرن بذلك العصر ظهور الجعارين وكان الجزء العلوى منها غير مقتصر على رسم الجعر فقط بل كان أيضا على هيئة حيوانات مختلفة ويكتب فى أسفله على الجزء المسطح ما يشاؤون أو يكتفون برسم هندسى أو زخرفى .

وإذا درسنا لوحات القبور التى يرجع تاريخها إلى هذا العصر نرى فيها أيضا أثر التطور الإجتماعى الذى رأيناه جلياً فى البرديات . فلم يعد الأفراد يقتصرون على ذكر الملك والآلهة وتقديم القرابين لهم بل نراهم يفخرون بأنفسهم وبأعمالهم ، ويتحدث كل منهم عن نفسه بأنه كان محبوباً من أهله ومن غيرهم من الناس وأنه كان بعيدا عن الدنايا ، عونا للفقير محبا للرزق الحلال مجدا فى عمله حائزاً على رضاء الناس .

(١) JEQUIER. Les frises d'objets des sarcophages du Moyen Empire. Cairo. 1921

لم تقتصر تلك الصيغ على لوحات القبور التى عثر عليها فى جبانة منف بل كانت شائعة جداً فى الأقاليم ، وقد عثر على مئات منها فى جبانات الصعيد ، وعلى أكثرها صيغ تمجد قيمة الفرد وفضائله الشخصية التى ساعدته على التقدم فى مضمار الحياة .

ويجب ألا يغيب عن ذهننا ما أشرنا إليه من قبل وهو أنه أثناء حكم ملوك الأسرة العاشرة فى إهناسيا كانت هناك بيوت قوية فى مصر الوسطى وبخاصة فى أسيوط وفى جرجا وفى طيبة ، وأن رؤساء تلك البيوت خلفوا وراءهم أثاراً ، وسنتحدث عنها فيما بعد عندما نصل إلى الفصل القادم ؛ لأن حكام طيبة هم أصل الأسرة الحادية عشرة التى تبدأ بها الدولة الوسطى .

*** الفصل الخامس ***

الـــــدولـــــة الوســـــطـى

الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة

(٢١٣٤ - ١٩٩١ ، ١٩٩١ - ١٧٧٨ قبل الميلاد)

****

الأسرة الحادية عشرة

نشأة حكام طيبة وتأسيس الأسرة :

نشأ فى طيبة منذ أيام الأسرة السادسة بيت حاكم ، كما حدث فى أكثر الأقاليم عندما ضعفت الحكومة المركزية فى منف ، وقطع بعض أولئك الحكام مقابرهم فى صخور تلال جبانة طيبة فى البر الغربى من النيل حيث يوجد عدد قليل منها بين مقابر العصور الأخرى .

ولسنا نعرف كثيراً عن أولئك الحكام أثناء الفترة التى تلت الأسرة السادسة ، ولكن لا يخامرنا شك فى وجود بيت واحد قوى أو أكثر من بيت فى هذه المنطقة الغنية ، وأن هذا البيت كان يعيش تارة فى سلام ، ويتنازع على السيادة تارة أخرى مع جيرانه فى أرمنت فى الجنوب وقفط فى الشمال ، حتى انتهت أيام الأسرات السابعة والثامنة فى منف . ثم نشأت بعد ذلك الأسرة التاسعة فى إهناسيا . ولكن عندما تغيرت الأمور وانتقل الحكم إلى ما نسميه الأسرة العاشرة فى إهناسيا أحس بيت طيبة بأنه لا يقل فى أحقيته للملك عن ملوك الشمال فأعلنوا عدم طاعتهم لإهناسيا ، وكونوا منهم ومن جيرانهم الأقربين إتحاداً فى الجنوب ، أى أن الأسرة الحادية عشرة فى الجنوب تبدأ فى الحقيقة منذ بدء الأسرة العاشرة فى الشمال ، لكن هؤلاء الجنوبيين احتاجوا إلى وقت طويل يزيد عن ثمانين عاما حتى أصبحوا يحكمون البلاد كلها دون منازع ، وأصبح الملك منتوحوتب الثانى ملك مصر كلها ووحد البلاد لتبدأ فترة جديدة فى تاريخها .

ومؤسس هـــذا البيـــت الذى سمى بإسم الأسرة الحادية عشرة فيما بعد ، يسمى «إنيوتف» (يكتبه أحيانا بعض الأثريين أنتف) ، ولا نعرف عنه أكثر من أنه كان

مؤسس هذا البيت وأن أمه تسمى « إكو » وأن أهل طيبة فيما تلا ذلك من الأيام كانوا ينظرون إليه نظرة تقديس خاصة ، وكانوا يلتمسون بركته (١) .

وورد اسم هذا الشخص أيضاً فى لوحة الأجداد التى أقامها تحوتمس الثالث فى الكرنك كأول حاكم للأسرة الحادية عشرة ، ولكنهم لم يكتبوا إسمه فى خانة ملكية بل إكتفوا بأنهم كتبوا ألقابه « الحاكم والأمير الوراثى إنيوتف المبجل » (٢) . لم يدع إنيوتف الملك منذ البداية بل ظل على إستقلاله الذاتى بإقليمه ولم يقطع صلته بملوك الشمال إذ ذكر على لوحته الشهيرة التي عثر عليها ماريت فى القرن الماضى وتوجد الآن فى متحف القاهرة أنه الحاكم ، الأمير الوراثى ، والسيد العظيم لإقليم طيبة الذى حاز على رضاء الملك كحارس لباب الجنوب ، العماد العظيم لمن يحيى الأرضين (يشير طبعاً إلى الملك) ، الكاهن الأكبر .. إنيوتف .

وفى وقت من الأوقات فى أواخر أيام حكمه ، كتب إنيوتف هذا – وكان يسمى أيضاً « سهر تاوى » أو مهدىء الأرضين – إسمه فى خانة ملكية وأصبح معروفاً لنا بإسم إنيوتف الأول ، وأحاط نفسه برجال البلاط ، ودفن فى قبر كبير أمامه صف من الأعمدة المقطوعة فى الصخر ، وكان هناك هرم من الطوب فوق قبره فى جهة الطارف ، وهى المنطقة الشمالية من جبانة طيبة .

إنيوتف الثانى (٢١٣١ – ٢٠٨٢) :

وتلاه إنيوتف الثانى المسمى « واح عنخ » وقد حكم نحو خمين عاما (من حوالى ٢١٣٠ – ٢٠٨١) على الأقاليم الخمسة الجنوبية فى الصعيد ، وبدأ فى عهده التوسع نحو الشمالى ، وبدأ الطيبيون فى مهاجمة الإقليم السادس ، وهو إقليم ثينى حيث توجد جبانة أبيدوس ، ولكن الإهناسيين ظلوا على قوتهم خصوصا وأن أمراء أسيوط الأقوياء كانوا حلفاء لهم .

كان إنيوتف الثانى معاصراً لإختوى (أو « خيتى) أمير أسيوط ، وفى مقبرة هذا الأخير نقرأ بعض إشارات عن جمع الجنود وإعداد الرماة والتفاخر بالأسطول

---

(١) مثل لوحة ماعت فى متحف المتربوليتان (HAYES, Scepter of Eygpt, p. 153)
كالتمثال الذى أقامه لذكراه الملك سنوسرت الأول
(LEGRAIN, Statues et Statuettes, No. 42005)
انظر أيضاً كتاب
WINLOCK, The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes (1947), p. 5.

(٢) SETHE, URKUINDEN IV, 608.

ولكنه لا يذكر وقائع حربية صريحة بينه وبين الطيبيين ، ويفتخر أختوى أمير أسيوط فى مقبرته بأن الملك (أى ملك إهناسيا) عينه حاكما وهو ما زال فى طفولته وأنه تعلم السباحة مع أبناء الملك .

ولكن الأمور لم تكن على هذه الصورة من الهدوء والإطمئنان الذى نراه فى نقوش أختوى فى أسيوط ، فإنا نعلم أن غيره من الأمراء فى الشمال مثل أمراء بنى حسن وأمراء البرشا أخذوا بدورهم يعلنون إستقلالهم ويؤرخون الحوادث بتاريخ حكمهم ، وبعبارة أخرى أخذ زمام الأمور يفلت من أيدى ملوك إهناسيا .

ومن نقوش مقبرة « تف إب » إبن أختوى الذى تلاه فى حكم أسيوط نقرأ شيئاً عن حروبه مع الطيبيين فى ثنيى ، إذ يتحدث عن معاركه مع أعداء الملك ويقول عن زعيم الطيبيين إنه وقع فى الماء وأن سفنه تفرقت وإستطاع أن يملى عليه ما يريد . ولكن رغم هذا التفاخر بنفسه وبقوة جنوده فإن الحقيقة كانت إنتصار طيبة وضم إقليم ثنيى إليها فأصبح تحت حكم إنيوتف الثانى ستة أقاليم من الصعيد ، وأصبح الحد الشمالى لملك الطيبيين عند مدينة كوم اشقاو (افروديتوپوليس) كما نعرف ذلك من عدة مصادر أخرى وهى لوحات بعض موظفى إنيوتيف التى عثر عليها فى طيبة .

كان إنيوتف الثانى من الحكام الأقوياء ، وقد أحسن إدارة الأقاليم الستة وبدأ فى تشييد بعض المعابد وبخاصة للإله « مونتو » ورمم الهياكل والمعابد التى كانت للآلهة الأخرى فى تلك الأقاليم ، وبنى لنفسه قبرا كبيرا كان يعلوه هرم من الطوب ، وأمام هذا الهرم أقام لوحة .

ولقبر هذا الملك ولوحته قصة طريفة ، جاء ذكرها فى بردية أيوب (Abbot Papyrus) التى نعرف منها تفاصيل سرقات مقابر الملوك فى الأسرة العشرين ، إذ زارت لجنة التحقيق هذا المكان وأشارت إلى تلك اللوحة بأنها كانت فى مكانها أمام الهرم وأن « رسم الملك على هذه اللوحة وكلبه المسمى (بحك) بين قدميه » ويزيد التقرير بأنهم فحصوا القبر فى ذلك اليوم ووجدوه سليما لم يسرق . وعثر ماريت فى عام ١٨٦٠ على هذه اللوحة وتركها فى مكانها ثم عثر عليها رجال الآثار مرة أخرى فى عام ١٨٨٢ ، ورغم تحطيمها فإن أجزاءها جمعت إلى بعضها وهى الآن فى المتحف المصرى ، ونرى عليها « إنيوتف » واقفاً ومعه خمسة من كلابه سماها بأسماء ليبية وكتب إلى جانب ثلاثة منها معانيها باللغة المصرية . ومن المعتقد أن هذه اللوحة لم تكن قائمة وحدها عند قاعدة الهرم بل كانت هناك لوحات صغيرة مختلفة بأسماء الموظفين المقربين إليه عثر على بعض منها فى المكان نفسه أثناء حفائر ماريت (Mariette) ثم حفائر ماسبرو (Maspero) ودارسى (Daressy) بعد

ذلك ، وتسرب أكثرها إلى المتاحف الأوروبية والأمريكية .

إنيوتف الثالث (٢٠٨٢ - ٢٠٧٩) :

ومات بعد أن حكم خمسين سنة فتبعه إبنه « نب تپى نفر » على العرش ، ويسمى أيضاً إنيوتف ، وكان متقدما فى العمر فلم يبق فى الحكم إلا سنوات قليلة ، ولم يبق من عهده إلا القليل وأهمه لوحة أحد موظفيه المسمى « مججى »[١] .

منتوحوتب الأول (٢٠٧٩ - ٢٠٦١) :

وتلاه على العرش ابنه « منتوحوتب » المسمى « سعنخ إب تاوى » ، وفى عهده أراد ملوك إهناسيا أن يسترجعوا ما فقدوه فحدثت بينهم وبين طيبة تلك الحرب التى عاد فيها إقليم ثينى (أبيدوس) إلى الشماليين وكان ذلك فى عهد الملك أختوى الرابع من ملوك إهناسيا كما أشرنا . وربما كان إبنه الأمير « هرو نفر » قد مات وهو يحارب دفاعا عن أبيدوس .

ولسنا نعرف عن هذا الملك شيئاً آخر ذا أهمية اللهم إلا أنه وضع تصميما لقبر يزيد فى حجمه عن قبور كل من سبقه من الملوك ولكنه مات بعد أن حكم ثمانية عشر عاما وترك قبره دون أن يتمه ، وخلفه على العرش إبنه منتوحوتب الثانى .

منتوحوتب الثانى (٢٠٦١ - ٢٠١٠) :

كان منتوحوتب الثانى أقوى وأهم ملوك هذا البيت . لم يسترجع إقليم أبيدوس فحسب ، بل اندفع نحو الشمال حتى سقطت إهناسيا نفسها فى العام التاسع من حكمه وكان أول ملك من ملوك طيبة يصبح حقيقة ملكاً على الوجه القبلى والوجه البحرى ، وكان ذلك حوالى عام ٢٠٥٢ ق.م. ولهذا يرى بعض المؤرخين إعتبار من سبقه من ملوك هذه الأسرة والتسعة أعوام الأولى من حكمه وقتاً معاصراً للأسرة العاشرة وأن الأسرة الحادية عشرة تبدأ من هذا التاريخ فقط ، ولكن الإنصاف فى البحث يحتم علينا إعتبار أيام الأسرة الحادية عشرة منذ عهد إنيوتف الأكبر أى قبل ذلك بإثنين وثمانين عاماً ، إذا لم ينس الطيبيون كما ذكرنا ذكرى مؤسس هذا البيت فالهموه وذكروه دائماً على آثارهم وفى وثائقهم وكانوا يقدمون له القرابين .

بذل منتوحوتب كثيراً من الجهد لإخضاع كل معارضة قامت فى طريقه . ولا

---

(١) هذه اللوحة من أهم آثار ذلك العصر وهى فى متحف المتروبوليتان بنيويورك ونقرأ عليها إسم أمنمحات الذى ربما كان إسماً آخر لمججى نفسه أو إسماً لإبنه وهو على أى حال أول إسم فى ذلك العصر يظهر فيه الإله أمون فى تركيب أسماء الأشخاص .

شك أنه حارب فى الدلتا وحارب البدو فى الشرق والغرب كما أخضع المنطقة جنوبى الفنتين ، ولكنه ترك الأمراء القدماء يحكمون أقاليمهم وإكتفى منهم بالطاعة والجزية وحسن الولاء .

كان إسمه عند توليه العرش : حورس نترى حزت ، ولكنه بعد العام التاسع عندما تغيرت الأوضاع وأصبح ملك مصر كلها دون منازع ، غير لقبه إلى ، سما تاوى ، أى موحد الأرضين وأصبح إسمه الآخر ، نب حيت رع ، وهذا هو الإسم الذى أصبح معروفاً به فيما بعد على جميع ما خلفه من آثار ، وهو الإسم الذى نراه فى معبد الرمسيوم بين إسمى ، منا ، مؤسس الأسرة الأولى و ، أحمس ، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، أى أن هؤلاء الملوك الثلاثة كانوا فى نظر المصريين أنفسهم ، فى الأسرة التاسعة عشرة ، هم مؤسسو الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة .

بدأت طيبة عهداً جديداً فى تاريخها ، وأخذت ضرائب البلاد كلها تتدفق على خزائنها ولم يدخر منتوحوتب وسعاً فى تجميل عاصمته وإنشاء المعابد المختلفة فيها وفى غيرها من البلاد . وقد رأينا منذ عهد أسلافه أن الفن الذى كان قد تأخر وإنحط ، أخذ يعود إليه شيئاً فشيئاً بعض روائه القديم ، ولكنه ظل متأثراً بالفن المحلى فى بعض نواحيه . وقبل أن نتحدث عن منتوحوتب وطيبة فى عهدها الجديد يحسن بنا أن نقف قليلا لذكر أهم ما نعرفه عن تلك الفترة . فقد أخذ ذلك الملك يوجه عنايته لتشييد المبانى ولا عجب إذاكان الفنانون قد أخذوا يستردون بعض ما كان لهم من مهارة فى الدولة القديمة .

وأخذت تعود للفن بعض مظاهر رقيه وها هو المثال ، إرتى سن ، نراه مرسوما مع زوجته وأبنائه على إحدى اللوحات ، ويفتخر بأنه كان يعرف كيف يرسم حركات التقدم والتأخر ، وكذلك حركات رسم الرجل وجسد المرأة ، وكيفية رفع الذراع عند صيد فرس البحر ، وحركات الشخص الجارى وأنه لم يكن هناك من ينجح فى عمل ذلك غيره هو وإبنه الأكبر (١) .

وكان بين أعمال منتوحوتب الثانى التى بدأها فى وقت مبكر من حياته إختيارمكان مدفنه ومعبده ، وقد عثرت بعثة متحف المتربوليتان على جثث ما يقرب من ستين جنديا ربما كانوا قد سقطوا عند مهاجمة هراقليوبوليس (إهناسيا) ونقلوا جثثهم إلى طيبة ليدفنوهم على مقربة من ملكهم الذى حاربوا معه .

---

(١) توجد هذه اللوحة الآن فى متحف اللوفر وهى رقم C14 - أنظر كتاب :
PRISSE D'AVENNES. Monuments. p. VII. MASPERO. TSBA 1877. p. 555. PETRIE. History of Egypt. I. p. 142 WINLOCK. Middle Kingdom in Thebes. p. 32.

كان انتصار منتوحوتب الثانى على أعدائه وتوحيد مصر كلها تحت سلطانه بداية عصر جديد . وأخذت مصر تنهض من كبوتها شيئاً فشيئاً وأخذ منتوحوتب يرسل الحملات إلى مناطق المناجم للعمل فيها ، كما أنه لم يهمل فى نشر الطمأنينة على الحدود فبعث بحملة وراء أخرى لإخضاع كل من حدثته نفسه بالبقاء بعيداً عن حظيرة وحدة البلاد .

واختار منتوحوتب الثانى المنطقة التى عرفت فيما بعد بإسم الدير البحرى ليشيد فيها معبده الجنازى ويحفر فيها قبره . ومنذ البداية أراد مهندسوه أن يجعلوا من مجموعته الجنازية ما يناسب عظمته ، ولو إنهم استوحوا كثيراً من تفاصيله المعمارية من مقابر أسلافه فى منطقة الطارف التى تبعد كيلو مترين إلى الشمال من الدير البحرى.

وفى العام التاسع والثلاثين من حكمه أى بعد ثلاثين سنة من إستيلائه على إهناسيا إحتفل بعيده الثلاثينى ، الحب (عيد) سد ، وغير لهذه المناسبة فى بناء معبده الجنازى ، كما أقام بعض التماثيل التى تمثله فى صورة الإله أوزيريس فى ذلك المعبد. وفى العام نفسه نرى منتوحوتب يقوم برحلة نيلية إلى الجنوب بصحبة عدد كبير من أفراد عائلته ورجال حاشيته ، ووصلوا فى تلك الرحلة إلى ما بعد جبل السلسلة التى كانوا يعتبرونها آخر حدود مصر الجنوبية وبداية إقليم النوبة ، وبقى فى ذلك المكان فترة من الوقت عند مكان يقال له شط الرجال وكان التفسير السائد لهذه الرحلة والنقوش والرسوم التى نقشت على الصخر أن منتوحوتب أتى لينتظر إبنه الأكبر الذى كان يسمى إنيوتف ، ومن المحتمل أنه كان على رأس حملة إلى بلاد النوبة .

وقيل أيضاً من الجائز أن يكون منتوحوتب قد أعلن إبنه ولياً للعهد وربما أيضاً شريكاً فى الملك بهذه المناسبة ، لأننا نرى إسمه مكتوباً فى النقش الكبير الذى نرى فيه اسم منتوحوتب وأسماء عائلته وبخاصة أمه وزوجاته ورجال بلاطه ، نقرأ إنيوتف ، الأب الإلهى ، محبوب الإله ، إبن الشمس إنيوتف الذى يعيش إلى الأبد ، وقد كتبوا إسمه فى خانة ملكية . ولكن إنيوتف هذا لم يعش طويلاً بعد ذلك ، ومات ودفن على مقربة من القبر الذى أعده له أبوه داخل حرم معبده الكبير فى طيبة . ولكن هذا التفسير وجد بعض المعارضة ويظن بعض المشتغلين بالتاريخ أن إنيوتف هذا لم يكن إبناً للملك بل كان أباه وأن منتوحوتب الثانى لم يكن إبناً لمنتوحوتب الأول بل حكم بينهما لفترة قصيرة جداً إنيوتف الذى خلد إبنه ذكراه فى شط الرجال .

وفى جهات مختلفة من مصر وبخاصة فى الصعيد ، فى الجبلين وفى الطود وفى دير البلاص وفى دندرة وفى أبيدوس وغيرها ، أقام هياكل جديدة وأصلح ما تهدم من مبانيها ، ولكن خير مبانيه جميعاً هو ما شيده فى طيبة ليكون مقراً أبدياً له بعد وفاته .

مقبرة منتوحوتب ومعبده الجنازى :

يرى زائر منطقة الدير البحرى أطلال معبد الأسرة الحادية عشرة إلى الجنوب من معبد حتشبسوت ، والواقع أن مهندسى الأسرة الثامنة عشرة كانوا متأثرين بمن سبقهم فى أوائل الدولة الوسطى ، ليس فى اختيار المكان فحسب ، بل وتأثروا أيضاً بعمارته وتشييده على نظام المدرجات . وإذا كانت أطلال معبد الدولة الحديثة أصبحت أكثر أهمية الآن لكثرة ما بقى من مبانيه ونقوشه الهامة ، فإن الذى يعنى بفحص كل من المعبدين سيدرك بلا شك أن معبد منتوحوتب عندما كان كاملاً كان أفخم وأجمل من معبد حتشيبسوت .

شيد مهندسو منتوحوتب معبده على مرتفع أقاموا أمامه صفوفاً من الأعمدة ، وفوق ذلك المرتفع قام هرم تحيط به الأعمدة أيضاً ، وكان يوصل بين الردهة السفلى لذلك المعبد وبين معبد آخر على حافة الوادى طريق طويل بين جدران ، وعلى جانبى الطريق الموصل أقاموا تماثيلاً للملك منتوحوتب تمثله فى صورة المعبود أوزيريس .

فإذا ما وصل زائر المعبد الذى كان يأتى من الوادى ، ويصعد إلى آخر الطريق ويمر فى الباب الموصل إلى المعبد ، يرى نفسه يسير بين صفين من أشجار الجميزة وخلفهما من اليمين واليسار حديقتان غرز فى كل منهما عدد كبير من أشجار الأثل . ويسير بعد ذلك فى طريق صاعدا حتى يصل إلى الرصيف الذى أقيم عليه المعبد . فإذا أراد هذا الزائر أن يدور حول الهرم فإنه يرى هناك ١٤٠ عموداً على جوانبه وهى مثمنة الجوانب ، ثم يجد نفسه بعد ذلك فى ردهة مفتوحة للسماء تحيط بها الأعمدة فقط على جوانبها على هيئة بواكى . وفى وسط هذه الردهة فتحة تنزل إلى الصخر يليها دهليز طويل يقل قليلاً عن ١٥ متراً ، وكسيت جوانبه بالحجر الرملى الأرجوانى، وفى نهاية حجرة الدفن المشيدة من الجرانيت ، وفى وسطها تابوت من المرمر .

ولنترك الآن حجرة الدفن والتابوت ونعود أدراجنا لنستأنف وصف باقى المعبد. فعندما يصل الزائر إلى نهاية الردهة يجد فى آخرها من ناحية الجبل بهواً يحمل سقفه ثمانين عموداً مثمنة الجوانب وفى الجهة الغربية من ذلك البهو مذبح أمام هيكل

مقطوع فى الصخر كان فيه تمثال للملك ، وبعبارة أوضح لقد جمع هذا البناء بين قبر الملك ومعبده كما إحتفظ أيضاً بفكرة الهرم إذ أقيم هرم فى وسط المعبد ولكنه كان هرماً أصماً ولم يدفن فيه أحداً .

وكشفت الحفائر فى هذا المعبد عن حقائق مهمة تتعلق بتشييده ، إذ ثبت أن مشروع تشييده قد تغير عدة مرات بعضها أثناء العمل والبعض الآخر بعد الإنتهاء منه، وذلك بهدم بعض الأجزاء وإعادة بنائها على نظام آخر .

وقبل أن يشيدوا شيئاً ، مهد المهندسون أرضية المكان وحفروا إثنتى عشرة حفرة فى الأرض فى محور المعبد ، ووضعوا فى كل منها أرغفة خبز مخروطية الشكل ، ثم حفروا عند كل ركن من أركان ذلك الرصيف المتسع حفرة مربعة ووضعوا فيها القرابين المختلفة ووضعوا فوق تلك القرابين أربعة قوالب من الطين ، وضعوا فى ثلاثة منها قوالب صغيرة صنعت إحداها من الخشب والثانية من الحجر والثالثة من المعدن وهى المواد التى استخدمت فى تشييد المعبد إلى جانب الطوب اللبن، وعليها اسم الملك وألقابه . أما القرابين فقد وضعوها فى أوانٍ فخارية ، كما حوت هذه الحفر قطعا من اللحم ورأس ثور وفخذه وبعض قطع من ضلوعه وكثيراً من أرغفة العيش ، من مخروطية ومستديرة ، وبعض حبوب الشعير والفاكهة وبخاصة التين والعنب ، كما وضعوا بينها أيضاً أوان صغيرة رمزية فيها جعة ونبيذ سدوا فتحاتها بالطين . وتسمى محتويات أمثال هذه الحفر ودائع الأساس ، وكثيراً ما نجد أمثالها فى أركان المعابد وتحت بعض عتباتها أو أعمدتها ، ويجد فيها رجال الآثار أحياناً كثيراً من الجعارين والحلى وغيرها وعليها اسم الملك الذى شيد المعبد .

وعثر أثناء الحفائر على عدد كبير جداً من أجزاء الجدران المنقوشة وعليها رسوم ملونة تبين بوضوح تقدم الفن المصرى فى ذلك العهد كما عثروا أيضاً على كثير من أجزاء التماثيل وبعض التماثيل الكاملة ، وعلى قطع كثيرة من الأعمدة ، كما عثروا على قطعة من الحجر عليها رسم قديم خطه المهندس القديم بفرشاة يمثل التصميم الأصلى لجزء من المعبد وعليه رسم واضح للرصيف وأماكن الأشجار .

لم يكن هذا البناء وقفا على منتوحوتب الثانى وحده ، بل ضم أيضاً عددا كبيرا من مقابر أهله وبخاصة زوجاته ومحظياته ، ويبلغ عددهم أكثر من ثلاثين ، وأهمها مقابر أمه وزوجاته الملكات ، نفرو ، و ، تم ، وكذلك ، عشاييت ، و ، كمسيت ، و ، كاويت ، وغيرهن اللاتى عثر على توابيتهن الجميلة هناك ، وبعضها فى متحف القاهرة الآن والبعض الآخر فى نيويورك ، وكلها من الحجر الجيرى وعليها نقوش

جميلة . كان هؤلاء الزوجات مدفونات تحت أرضية المعبد وكان لكل منهن عند آخر البهو هيكل صغير لتمثالها وعليه اسمها وبعض ألقابها ، كما عثر فى مقابرهن على بعض الحلى التى كن يتزين بها أثناء الحياة . ولم تقتصر المقابر على زوجات الملك فقط بل كان هناك أيضا بعض الوصيفات والتابعات بل والراقصات النوبيات .

وفى جبانة طيبة ، وبخاصة على جانبى الطريق الصاعد للمعبد ، وفى علوة عبد القرنة ، وفى المرتفع الذى يطل على الدير البحرى ، نرى مقابر كثيرة لموظفى ذلك العهد فقد حكم منتوحوتب الثانى واحداً وخمسين سنة تمتعت فيها البلاد بالرفاهية والاطمئنان ، وترك كثير من رجال بلاطه مقابرهم على مقربة من قبر سيدهم أمثال أختوى وحننو والوزير إيبى ، الذى عثرت بعثة متحف المتروبوليتان فى فنائه الخارجى على مجموعة من الرسائل التى كتبها أحد كهنة الروح لذلك الوزير ، وكان يسمى ، حقا نخت ، وعثروا أيضا على كل ما تبقى من مواد التحنيط وما كان معها من أوان وأدوات ، وضعها مخبأة فى مكان فى ذلك الفناء بعد تحنيط الوزير .

رسائل حقا نخت (١) :

تصادف الباحث فى التاريخ المصرى صعوبات جمة عند محاولته ترك أعمال الملوك والحديث عن الحياة اليومية التى كان يحياها الشعب . لقد وصلت إلينا مناظر كثيرة للحياة اليومية مرسومة على جدران المقابر ، كما وصلت إلينا عشرات الآلاف من قطع الآثار التى كان يستخدمها الشعب ، ويمكننا وصف هذه وتلك ، ويمكننا أيضا الحديث عن أصحابها ومحاولة خلق صورة فى أذهاننا للحياة التى كان يحياها هؤلاء الناس ، ولكن مهما بذلنا من مجهود فإن الصورة تظل ناقصة ، وإن استطعنا رسم خطوطها الرئيسية فإن التفاصيل تظل غير واضحة فضلاً عن أن لونها يظل باهتا ، وبعبارة أخرى لا يمكن أن تكون تلك الصورة كاملة كما نحب .

(١) عثر على هذه المجموعة من الخطابات عند حفر بعثة متحف المتروبوليتان للمنطقة التى حول قبر الوزير ، إيبى ، فى موسم ١٩٢١ – ١٩٢٢ (Winlock. Bulletin Metropolitan Museum of Art. 1921. p. 38 ff. إذ وجدت هى وغيرها من المهملات ملقاة فى إحدى الفجوات بين الصخور على مقربة من طريق مقبرة مكت رع إلى الجنوب الغربى من معبد الأسرة الحادية عشرة فى الدير البحرى ، ولم تنشر نشرا علميا كاملاً حتى الآن ، ونحن نعتمد على الترجمة المؤقتة التى قدمها العالم الأثرى ، باتيسكومب جن ، (Baltiscomb Gunn) لرجال متحف المتروبوليتان عند دراسته لها عقب إكتشافها والتى نشر ونلوك خلاصتها فى هذا المقال .

ولهذا رحب جميع المشتغلين بالدراسات المصرية برسائل « حقا نخت » عند إذاعة نبأ اكتشافها لأنها جزء من صميم الحياة ، شيء نابض حي ، وكأن « حقا نخت » أزاح بيده ستاراً رأيناه خلف بيته وأبنائه ، وتحدث إلينا قليلا فعرفنا منه جانبا من حياته وشخصيته ، ولكن سرعان ما عاد ذلك الستار إلى مكانه مرة أخرى ولم يبق أمامنا غير التعقيب على ما رأيناه .

كان « حقا نخت » كاهنا لروح الوزير « إيبى » ويدخل فى اختصاصه إدارة الأملاك التى أوقفها ذلك الوزير للصرف من ريعها على مقبرته ، وكان من بينها ضيعتان ربما كانت كلتاهما على مقربة من منف أو أن واحدة منهما كانت فى الشمال والأخرى فى الجنوب . وكان « حقا نخت » يسافر من آن لآخر إلى الشمال بعد أن يترك لابنه الأكبر واسمه « مرسو » إدارة بيته وأملاكه التى على مقربة من طيبة ، كما كان ينيبه عنه فى القيام بوظيفة الكاهن عند غيابه .

وتصور لنا تلك الرسائل شخصية « حقا نخت » فنراه رجلا حريصا على المال ، خبيثا فى معاملاته شديداً فى محاسبة إبنه الأكبر ، غير واثق من حسن تصرفه ، ولكن فيه أكثر من نقطة ضعف واحدة إذا كان هناك أمر من الأمور يتعلق بابنه المدلل الصغير أو محظيته الشابه . كان يرسل إلى ابنه الأكبر رسالة بعد أخرى من منف ، ونحن نأسف لأنه لم يصل إلينا إلا جزء من تلك الرسائل ، كما أنه لم يسعدنا الحظ بالعثور على ردود ابنه . ولا يتسع المقام هنا لسرد كل ما ورد فى تلك الرسائل لكنا نشير إلى بعض ما يمكننا أن نستخلصه منها .

تثبت لنا هذه الرسائل عودة الصلة بين الشمال والجنوب وعودة الأمن إلى ما كان عليه من قبل إذ كان فى وسع هذا الكاهن السفر المستمر وجمع المحاصيل والإتجار فى بعض السلع ، دون أن يقع عليه أى اعتداء أو يتعرض للأذى . وأقدم تلك الرسائل هى التى كتبها « حقا نخت » بعد أن عاد من ضيعة « دد إسوت » إلى ضيعة أخرى إلى الجنوب منها . كان الوقت صيفا وكان النيل على وشك الفيضان ويظهر أن « مرسو » أرسل إلى أبيه يظهر تخوفه من عدم احتمال الجسور فأرسل إليه أبوه الرد محذراً متوعداً . ويظهر أن النيل فى تلك السنة لم يغمر الحقول كما يجب ، ولهذا لم يأت المحصول وفيرا ونقصت الأقوات فى كل مكان ، وبخاصة فى الدلتا حيث عمت المجاعة ، وها هو حقا نخت يكتب لابنه « إن الإبن يخاطب أمه وكاهن الروح حقا نخت يتحدث إلى أمه إيبى وإلى حثيت (إحدى قريبات حقا نخت) : كيف حالكم فى معيشتكم ورفاهيتكم وصحتكم ؟ لا تقلقوا على فإنى حى وبخير . إنكم أشبه بمن يأكل

حتى يشبع ويغمض عينيه بينما يموت الناس جوعا فى البلاد كلها . لقد نزلت إلى الجنوب وحصلت على مؤونة لكم بقدر ما استطعت . أليس النيل منخفضا جدا ؟ حسنا فقد جاءنا المحصول متناسب مع ذلك . كونوا صبورين يا من سأذكر أسماءكم فإنكم ترون أننى تمكنت من إعالتكم حتى اليوم ، ويستمر فى خطابه فيذكر أسماء كل فرد فى العائلة والمخصص الذى سيرسله لأجله ثم يستمر قائلاً : فلا تغضبوا بسبب ذلك ، فإن جميع من فى المنزل وكذلك الأطفال يعتمدون على وكل شيء هو ملكى . إن نصف الحياة خير من الموت الكامل ، هم يقولون إن الجائع يحب أن يجوع ، ويريد حقا نخت أن يقنع أقاربه بأنهم أحسن حالا ممن هم فى الشمال، فيقول : لماذا أخذوا يأكلون الرجال والنساء هنا ، لا يوجد أحد فى أى مكان يحصل على مثل هذه المؤن . يجب أن تدبروا أنفسكم حتى أصلكم فإنى سأقضى شهور ، الشمس ، هنا (١) .

وفى الخطاب نفسه يعطى حقا نخت تعليماته إلى إبنه وإلى ، حتى ، المشرف على زراعته فيخاطبهما معا ، اعطو هذه المؤن إلى رجالى فقط عندما يقومون بالعمل . ضعوا ذلك فى ذهنكم ، وأعدوا أكثر ما تستطيعون إعداده من الأرض ، احرثوا الأرض ولا تكفوا عن العمل ، واعلموا أنكم إذا كنتم مجتهدين فسأدعو لكم بخير ، ما أسعدكم لأنى أعولكم ، ولا يترك حقا نخت إبنه الأكبر دون أن يسدى إليه النصح لإنماء ثورته فيكلفه بأن يرسل ، حتى بن نخت ، لاستئجار حقلين ، ولكنه يوصيه ألا يعطى الإيجار إلا من ثمن الأقمشة التى كان قد أرسلها من الشمال ، ويأبى الشيخ إلا أن يذكر لابنه أنه يجب عليه أن يمدح نوع الأقمشة عندما يقدمها للبيع وأن يقول إنها من أحسن الأنواع . ويعود ثانية إلى الأرض التى يجب استئجارها فينصح ابنه بأن يتأكد من أن الأرض جيدة وريها ميسور . ويستطرد الشيخ فيقول لابنه أن يعطى ، حتى بن نخت ، أجراً شهرياً مقداره خمس ويبات من الشعير وأن يعطى عائلته فى أول كل شهر ويبتين ونصف زيادة على ذلك ، ويحذره من مخالفة أمره وأنه إذا أعطاهم زيادة فإنه سيستقطع ذلك من مخصصاته هو ، ولكن قبل أن ينتهى من كتابة خطابه يعود إلى موضوع مرتب ، حتى بن نخت ، مرة أخرى فيقول لابنه بألا يعطيه الويبات الخمسة التى ذكرها بل يعطيه أربعة فقط .

يكفينا هذا القدر لإعطاء صورة عن ذلك الشيخ الشحيح الماكر ، ولننتقل إلى جزء آخر من تلك الرسائل لنرى جانبا من شخصيته . كان حقا نخت يقسو على ابنه الأكبر ويستحثه دائماً على العمل ويهدده فى كل رسالة من رسائله ، ويحاسبه حسابا

(١) شهور الشمس هى الشهور الأربعة المقابلة لأغسطس حتى نهاية نوفمبر .

عسيرا على دخل كل حقل من من الحقول ، حتى أخشاب الأشجار لا ينساها ولا ينسى بيعها . وكان له ولدان آخران يساعدان « مرسو » فى العمل وكانوا جميعا متزوجين وكان له ابنان آخران صغيران أحدهما يساعد إخوته فى أعمالهم فى الزراعة أما الثانى فكان مازال طفلا وكان يتمتع بحب أبيه وعطفه . ويأمر حقا نخت ابنه الأكبر بأن يعطيه ما يريد من مؤن ، « وبلغه تحياتى ألف مرة ، اعتن به وارسله إلى مباشرة بعد أن تنتهى من زرع الأرض » ولكن « سنفرو » المدلل يرفض السفر . وفى رسالة أخرى نرى حقا نخت يكتب فى رسالة : « إذا كان سنفرو يريد العناية بالثيران فاجعله يعتنى بها ، لأنه لا يحب الجرى هنا وهناك معك فى الزراعة ، ولا يريد الحضور إلى هنا ليكون معى . دعه يفعل ما يشاء ويتمتع بما يريد » .

لقد فقد حقا نخت زوجته منذ وقت غير قصير وأصبح أصغر أطفاله موضع حبه ، وكان فيه ضعف ظاهر له . كان بيت ذلك الكاهن ، كما نستشف من رسائله ، مملوءاً بالأقارب والأطفال . يسأل عنهم جميعاً ، كما يشير من آن لآخر إلى من كان فى ذلك البيت من خدم أو إماء ولكن واحدة منهن وتسمى « إيو إن حب » اصطفاها لنفسه محظية له بعد زوجته وكان يخصها بعطف خاص أثار حسد أبنائه والخادمات الأخريات . ويظهر أن « إيوت إن حب » كتبت له خطابا تشكو فيه من إحدى الخادمات . فما كان من حقا نخت إلا أن صب غضبه على ابنه المسكين « مرسو » : «اطرد الخادمة « سنن» من منزلى فى الحال .. وإذا بقيت « سنن » يوما واحداً فى المنزل فإنك أنت الملوم إذا جعلتها تسبب أى أذى لمحظيتى . لأى غرض أعولكم ؟ وماذا تستطيع محظيتى أن تفعله ضدكم أنتم أيها الأولاد الخمسة ؟ سلم لى على أمى « إيبى » ألف مرة ، ومليون مرة وسلم على « حتبت » وجميع العائلة وسلم لى على « نفرت » أما عن موضوع إيذاء محظيتى فإنى أحذرك . إنك لست شريكا لى ، وخير لك أن تسكت » ، وفى خطاب آخر كتبه بعد ذلك ، طلب حقا نخت من ابنه أن يرسل له محظيته الى الشمال ويقول له فى هذا الخطاب : « انظر إنها محظيتى ومن المعلوم جيدا أنه يجب إحسان معاملة محظية الإنسان » ، ويتحدث كثيرا فى هذا المعنى إلى أن يختمه بقوله : « كيف يمكننى أن أعيش معكم فى مكان واحد إذا كنتم لا تحترمون محظية لأجل خاطرى » .

إن القارىء لهذه الرسائل ، الذى يدرس تفاصيلها ويدقق فى استطراد جملها ، لا يسعه إلا أن يحس بأن آلاف السنين قد طويت ، ويرى أمامه أحد صغار الملاك المحبين للمال الذين مازال يعيش الكثيرون منهم بيننا اليوم فى قرى الريف : نرى بينهم مئات من أمثال « حقا نخت » الذين لا يثقون فى غير أنفسهم ويعتقدون أن

أبناءهم لا يهمهم إلا تبديد ما جمعوه ، وهم برغم حرصهم على أموالهم يحملون في صدورهم قلوبا رحيمة ولهم نقط ضعف خاصة نحو بعض أبنائهم أو بعض من يظهرون لهم الحب والعطف .

إن فائدة تلك الرسائل لم تقف عند مدنا بمعلومات جغرافية عن بعض قرى الصعيد والوجه البحرى ، أو تنحصر فائدتها فيما نقف عليه من معلومات عن المعاملات بين الناس فى تأجير الأراضى أو أجور العمال ، ولكنها ترينا الكثير من الحياة الداخلية لإحدى العائلات المتوسطة الحال التى عاشت على مقربة من الأقصر قبل أربعة آلاف سنة. وسواء أحسسنا بالعطف على « حقا نخت » ، والتمسنا له العذر أو رثينا لحال ابنه « مرسو » وما كان يلاقيه من أبيه ، فإننا فى كلتا الحالتين نحس بأننا عشنا معهم بعض الوقت ، ونكاد نتصور « مرسو » المسكين عندما أحضر تلك المجموعة من الرسائل معه إلى القبر الذى كان مكلفا بالعناية بـه . وهو قبر الوزير « إيبى » لقراءة بعض ما فيها ، ونكاد نتصوره عندما ألقى بها ملفوفة مع بعضها بين المهملات عندما كان العمال يحفرون قبرا آخر ، فلما انتهى العمل قذفوا بها ومع كل الأشياء الأخرى التى لم يكن العمال فى حاجة إليها فى تلك الفجوة فظلت هناك آلاف السنين حتى جاء اليوم الذى رأت فيه النور وأحيت سيرة أصحابها .

يكفينا هذا القدر عن حقا نخت ورسائله ولننتقل الآن لإتمام الحديث عن هذه الأسرة ونتكلم عن الفترة التى تلت وفاة منتوحوتب الثانى حوالى عام ٢٠١٠ قبل الميلاد.

خلفاء منتوحوتب الثانى :

حكم منتوحوتب الثانى بعد استيلائه على إهناسيا أكثر من اثنين وأربعين عاما بذل أثناءها كل ما فى وسعه من جهد لإصلاح ما تصدع من بنيان مصر ، وجعلها بلدا واحدا كما كان الأمر من قبل ، فتحقق له الكثير مما أراد وخلفه على العرش ابنه منتوحوتب الثالث المسمى « سعنخ كارع » الذى اتبع سياسة أبيه فى تعمير البلاد وإنشاء المعابد فى الدلتا والصعيد . وتقدمت الفنون فى عهده تقدما كبيرا خصوصا فن النقش ، كما اهتم اهتماما غير قليل بالمحاجر والمناجم التى نعرف من نقوشها الشيء الكثير ، مثل حملته التى أرسلها فى العام الثامن من حكمه تحت إمرة مدير بيته المسمى « حننو » وكان معه ثلاثة آلاف شخص ، ذهبوا عن طريق وادى الحمامات إلى شاطيء البحر الأحمر ، جمعهم « حننو » من شباب مصر الوسطى والصعيد (من إهناسيا حتى الجبلين) وأعد لهم ما يلزم من معدات ، وخصص لكل رجل قدرا من الماء وعشرين رغيفا صغيرا فى اليوم . وحفر لأجل تلك المهمة صهاريجا للمياه

وعشرين بئرا فى الطريق ، فلما وصلوا إلى الشاطىء صنعوا السفن للنزول بها إلى بلاد بونت ثم عادوا ومعهم كل ما وجدوه فى موانئ تلك البلاد ، وعند عودتهم مروا ثانية بوادى الحمامات فأحضر « حننو » ورجاله معه بعض أحجار الجرانيت لأجل تماثيل المعابد .

وأراد منتوحوتب الثالث أن يبنى قبرا ومعبدا يماثلان ما أقامه أبوه فاختار لذلك واديا فى الجبل الغربى من طيبة على بعد لا يزيد عن ثمانمائة متر إلى الجنوب الغربى من الدير البحرى ، وبدأوا بتمهيد المكان وإعداد الطريق ثم أخذوا فى حفر القبر ، ولكن العمل لم يتقدم أكثر من تلك المرحلة . وبالرغم من أن العمل لم يكد يبدأ بداية جدية فقد عثر على بعض آثار هذا الملك فى ودائع الأساس التى كانت فى حفرات تحت المعبد ، كما شيد كثير من رجاله مقابرهم على مقربة من ذلك المكان وأهمها قبر « مكت رع » الذى كان من أهم رجال حكومته وكان قبل ذلك من كبار الموظفين فى عهد أبيه ، كما عثر أيضا على قبر إنيوتف الذى تولى بعض وظائف أبيه « مكت رع » بعد وفاته .

عثرت بعثة متحف المتروبوليتان على كثير من مقابر موظفى هاتين الشخصيتين الكبيرتين ، كما عثرت فى قبر « مكت رع » نفسه على كثير من الآثار الهامة وبخاصة فى حجرة الدفن إذ عثروا إلى جانب التابوت على ما يقرب من ألف ومائتى قطعة مختلفة من نماذج الأسلحة والأدوات المختلفة من فؤوس للقتال وعصى وأقواس وسهام ودروع وغيرها . ولكن الحظ كان يحتفظ للمكتشفين بما هو أهم من ذلك إذ وجدوا فى السرداب ، فى حجرة قطعت فى الصخر تحت أرضية المقبرة وسدت سدا محكما ، مجموعة من النماذج الخشبية وعددها ثلاثة وعشرون تمثل جميع ممتلكات « مكت رع » وهى وإن كانت صغيرة الحجم نسبيا إلا أن صانعيها عنوا بتفاصيلها عناية كبرى فأصبحت مصدرا من أهم مصادر دراستنا للحياة اليومية فى ذلك العهد . ففيها الخدم يحملون القرابين ، وأهم تلك النماذج معروضة الآن فى متحف القاهرة وبعضها فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك (١) .

لم يزد حكم منتوحوتب الثالث على اثنى عشر عاما ، تلاه بعدها على العرش ابنه المسمى سنوسرت وكان يحمل لقب « والد الإله » ولكنه لم يبق طويلا على العرش، ثم تلت وفاته فترة عدم استقرار استمرت نحو خمس سنوات حكم خلالها عدة أشخاص ربما كان من بينهم « قا كارع – إنيوتف » والملك « إيبى خنت إب رع » وحورس « جرج تاوى إن » والملك « واج كارع سجر سنى » الذين لم يكن لهم إلا نفوذ

(١) WINLOCK, The Models of Daily Life, 1953

محدود فى الجنوب وبخاصة فى النوبة .

ولكن بعد هذه السنين الخمس المضطربة نرى على العرش الملك « منتوحوتب الرابع وهو المسمى « نب تاوى » ، ولا نعرف عنه إلا أنه حكم فترة لا تزيد عن عامين كان من خلالها مهتما إهتماما كبيرا بإرسال البعثات إلى المحاجر المختلفة ، وبخاصة إلى وادى الحمامات ، لقطع الأحجار وإلى وادى الهودى جنوب شرقى أسوان للحصول على حجر الجمشت (الأماتيست) (١) .

وبالرغم من تلك المدة القصيرة التى قضاها هذا الملك على العرش فقد حدثت خلالها أحداث هامة مثل بعثاته إلى الصحراء واحتفاله بعيد « السد » فى العام الثانى من حكمه أى بعد ثلاثين سنة تماما من الاحتفال الذى أقامه منتوحوتب الثانى فى العام التاسع والثلاثين من حكمه ، مما يجعلنا نرجح أن الإحتفال بالعيد الثلاثينى فى ذلك الوقت بالذات كان يقام كل ثلاثين سنة دون التقيد بحكم ملك من الملوك .

وأهم حادث يرتبط بحكم هذا الملك هو قيام وزيره المسمى « أمنمحات » ومعه عشرة آلاف من أقاليم الجنوب والشمال بحملة إلى وادى الحمامات لقطع الأحجار اللازمة لتابوت له ولتشييد معابد الجنوب ، وأنهم أتموا ما ذهبوا من أجله وتركوا عدة نقوش فى ذلك الوادى يسجلون فيها أعمالهم المختلفة .

كانت تلك البعثة إلى وادى الحمامات آخر شيء نعرفه عن الأسرة الحادية عشرة ، وعن حكم ذلك البيت الطيبى الذى ظل فى الحكم نحو ١٤٣ سنة ، إذ يتغير المنظر فجأة ونرى أمورا كثيرة متلاحقة أهمها استيلاء ملك جديد على العرش وتأسيس أسرة حاكمة جديدة ، وانتقال العاصمة إلى الشمال . ونرى أن ذلك الشخص الذى قام بذلك الانقلاب ، إن كان يجوز استخدام مثل هذا التعبير ، يسمى « أمنمحات» ، فهل هو الوزير الذى ذهب إلى وادى الحمامات ؟ يكاد يكون مؤكدا أنه هو الشخص نفسه ، ونكاد نجزم أيضا أن جمع ذلك العدد الكبير من الجنود لم يكن لأجل إحضار أحجار يكفى لإحضارها بضع مئات من الرجال ، أو على أكثرها عرفناه ثلاثة آلاف رجل كما حدث فى عهد الملك الذى كان قبله ، وهو رقم لم يسمع به من قبل ، وربما كان عدد الجنود كبيرا لأجل إعداد الطريق وحفر الآبار من النيل حتى شاطىء البحر ثم إنشاء السفن والذهاب إلى بونت وليس لإحضار أحجار من وادى الحمامات فقط . وربما جمع الوزير أمنمحات هذه الآلاف العشرة من الجنود توطئة لعمل آخر وهو الاستيلاء على الملك لنفسه ، ووضع حد لعدم الإستقرار الذى أخذ ينتشر فى البلاد منذ وفاة منتوحوتب الثالث أى مدى سبع سنوات كاملة .

(١) AHMED FAKHRY. The Amethyst Quarries of Wadi el hudi p. 19.23

الأسرة الثانية عشرة

أمنمحات الأول :

واستتب الأمر لأمنمحات فترة من والاه من حكام الأقاليم فى مناصبهم بعد أن وضع الحدود بينهم وبين جيرانهم . وقبلوا ما فرضه عليهم من أموال وما ألزمهم به من حق الحكومة فى الإشراف على الأمور الداخلية فى الأقاليم ، أما من وقف فى وجهه فقد نحاه وولى مكانه واحدا ممن يثق فيهم . وما من شك فى أن المهمة كانت صعبة وكانت البلاد فى حاجة إلى شخص فى مثل كفاءته وجرأته فتم له ما أراد من إعادة الأمن إلى نصابه .

كان تنظيم الأمور الداخلية أهم الواجبات التى واجهته عند توليه الحكم ، وسواء أكان اختيار مكان للعاصمة على مقربة من منف كان من تفكيره هو أو كان فى عهد الملك منتوحوتب الرابع (نب تاوى رع) فإن رأيه استقر على نقل عاصمة الملك إلى الشمال بعد استتباب الأمر له وسمى المكان الجديد الذى بنى قصوره ودور حكومته فيه باسم « إثت تاوى » أى القابضة على الأرضين مشيرا بذلك إلى الشمال والجنوب .

وتابع أمنمحات سياسة سلفه فى الإهتمام بالجنوب فوصل نفوذ مصر إلى دنقلة، ومن المرجح أنه تأسس فى عهده ذلك المركز التجارى فى مدينة كرمة فى شمالى السودان بعد أن شيد حصن سمنه جنوبى الشلال الثانى .

ولم تكن حدود مصر الشرقية أو الغربية أقل حظاً فى عنايته بها . فقد وضع ذلك الملك النشيط حدا لغارات البدو من كلا الصحراوين ، وبنى سلسلة من التحصينات على حدود الدلتا الشرقية كانت تسمى باسم حائط الأمير ، كما أقام أيضا سلسلة حصون أخرى على حدود الدلتا الغربية مازالت بقايا واحد منها قائمة فى وادى النطرون ، وكان فى داخله معبد له بوابة من الجرانيت نقش عليها إسمه (١) .

لم يكن أمنمحات إلا رجلا عصاميا من الشعب رفعه ذكاؤه وجده وحسن إدراكه للأمور إلى المكان الذى يستحقه ، ولكنه لقى كثيرا من المصاعب ، وقامت كثير من القوى الرجعية ضده فكان من بين أساليب رده على خصومه كتابة البردية المعروفة باسم تنبؤات « نفرتى » (نفر روهو) المحفوظة الآن فى متحف لينجراد

(١) AHMED FAKHRY, Wadi el-Natrun, in Annales de Service, T. XL.p. 837-848.

والتى تحدثنا عنها قبل الآن ، وهى التى أطنبت فى وصف ما سيحل بمصر من فوضى ، وأن إنقاذها سيتم على يدى ، ملك سيأتى من الجنوب يسمى «أمينى» ابن امرأة من النوبة ويولد فى الصعيد .. سيهزم الأسيويون أمام مذابحه ، ويقع الليبيون صرعى أمام لهيبه ، وسيبنى « حائط الأمير » ، ولن يتيسر للأسيويين بعد ذلك النزول إلى مصر » ، وليس اسم « أمينى » إلا اختصارا عاديا لاسم أمنمحات ، الذى نرى أصله الجنوبى فى ملامح وجهه ووجوه أسرته من بعده . ولم يكن المقصود من كتابة تلك البردية إلا الترويج بين الشعب لهذا الحاكم الجديد ومحاولة إقناع الناس بأن اختياره لإنقاذ مصر أمر أرادته الآلهة منذ أبعد الأزمنة .

وكان من الطبيعى أن يهتم أمنمحات بطيبة ، ذلك البلد الذى نشأ فيه وعاونه على تولى الملك ، وكان طبيعيا أيضا أن يهتم بإعلاء شأن إلهها المحلى « أمون » وأن يقيم له المعابد ، ولكن هذا كله لم يمنعه من نقل عاصمة البلاد إلى مقربة من منف وبناء مقره الجديد فى المنطقة التى تقع الآن على مقربة من قرية اللشت ، وبناء مقره الأبدى على مقربة منها .

ولم يقتصر نشاط هذا الملك على طيبة وعلى عاصمته الجديدة بل نرى آثار نشاطه فى وجهات كثيرة من مصر ، وبقايا معابده منتشرة فى سيناء وفى شرقى الدلتا وبخاصة فى الختاعنة (مركز فاقوس) وفى تل بسطه (الزقازيق) كما نرى بقايا معبد له فى مدينة الفيوم (كيمان فارس - كروكوديلوبوليس) إذ كان أول ملوك تلك الأسرة الذين اهتموا اهتماما خاصا بذلك الإقليم لاستصلاح أراضيه والاستفادة من بحيرته . وورد اسمه على كثير من مقابر ولوحات الموظفين الذين عاشوا فى عصره ، ولكن أكثر ما عثر عليه علماء الآثار كان على مقربة من مجموعته الهرمية فى اللشت إذ عاد أمنمحات إلى التقليد القديم الذى كان سائدا فى الدولة القديمة من بناء الأهرام لتكون مدافنا للملوك وبناء معبد جنازى إلى الشرق منه ، ثم طريق موصل إلى الوادى وتشييد معبد اخر عند بداية ذلك الطريق . وعثروا هناك على كثير من الأحجار المنقوشة من معبديه وعلى كثير من بقايا الأعمدة والتماثيل كما عثروا أيضا على بعض ودائع الأساس تحت أرضية ركن من الهرم ، وبعض أركان المعبد . وكشفت تلك الحفائر أيضا عن حقيقة هامة وهى أن الهرم مشيد بأحجار أخذوا الكثير منها من المعابد أو المقابر الأقدم عهدا ، ومن بينها أحجار منقوشة أتوا بها من معابد لبعض ملوك الأسرة الرابعة من الجيزة والأسرة الخامسة من سقارة ، كما كشفت أيضا عن وجود مصاطب كثيرة داخل سور الهرم وخارجه لكبار موظفى الملك وبعض أفراد عائلته .

ونشط أمنمحات فى استغلال المحاجر والمناجم ، وتسهيل التجارة ونجح فى سياسته مع أمراء الأقاليم الذى هادن الكثير من بينهم بعد أن اطمأن إلى ولائهم له ، ولكنه أبقى لهم على ثرواتهم والجزء الأعظم من نفوذهم فى مناطقهم مع اعترافهم بسلطانه عليهم ودفع الضرائب المفروضة عليهم ، فكانت أيامه نعمة على كثير من هؤلاء الحكام فبنوا المقابر العظيمة فى بلادهم أمثال أمراء بنى حسن .

ويمكننا أن نتوقع من أى شخص فى مكان أمنمحات أن يغضب الكثيرين ويبطش بالمناوئين له ، ولهذا لا نعجب إذا وجدنا أيامه الأخيرة مليئة ببعض المتاعب، بالرغم من أن البلاد تمتعت بوجه عام بطمأنينة ورخاء لم تعرف لهم مثيلا منذ الدولة القديمة .

استولى أمنمحات على الملك وقد جاوز سنى الشباب الأولى إذ كان قبل ذلك وزيرا ، ولهذا عندما أتم عشرين سنة وهو ملك ، وبدأت تتقدم به السن أراد الاطمئنان على مصير الملك الذى أنشأه وخاف من أن تعصف به يد الأطماع أو المنافسات بعد موته ، فأعلن ابنه سنوسرت شريكا له فى الملك ، ولكن النفوذ الأكبر ظل فى يد الملك الشيخ وكان يكلف ابنه من آن لآخر بالقيام ببعض الحملات الحربية ليتعرف على بلاده ويوطد نفوذ مصر على حدودها .

ولكن الأيام طالت بأمنمحات حتى وصل حكمه إلى ثلاثين عاما أى أنه حكم منذ عام ١٩٩١ ق.م. إلى عام ١٩٦١ ق. م. ولم يقدر له أن يموت وهو فى شيخوخته ميتة هادئة بل مات غيلة وهو فى قصره ، إذ انتهز أعداؤه فرصة غياب ابنه وولى عهده وشريكه فى الملك سنوسرت ، فى حملة على ليبيا ودبروا مقتله ، وربما كان ذلك الاغتيال بسبب التنافس على العرش بين أفراد العائلة نفسها إذا استطاع المتآمرون أن يصلوا إليه فى مخدعه . ونعرف بعض التفاصيل عن تلك النهاية من برديتين إحداهما هى بردية شخص يسمى « سنوهى » [١] كانت تربطه بالعائلة المالكة رابطة من قرابة ، وكان مع سنوسرت فى حملته عندما وصل رسول من القصر يحمل نبأ مصرع الملك . فأمر سنوسرت بإخفاء الأمر عن الجيش وعاد فى الحال مسرعا إلى العاصمة . وكان سنوهى على مقربة من خيمة الأمير واستمع إلى ذلك الخبر . ولسنا نعرف ما الذى أفزعه حتى هرب فى جنح الظلام وأخذ يسير من بلد إلى آخر حتى

(١) هناك ترجمات كثيرة لهذه القصة في جميع اللغات الحية الهامة – إقرأ عن أهم المراجع لدراستها وقطع الاوستراكا التى تحتوى أجزاء منها ، مع ترجمة حديثة كاملة لها فى كتاب : Ancient Near Eastern Texts (Princeton. 1950) p. 18-23.

استطاع مغافلة الحراس على الحدود الشرقية وهرب إلى فلسطين ومنها إلى لبنان حيث أقام هناك ، وأثرى وتزعم إحدى القبائل ثم حن فى شيخوخته للعودة إلى مصر ليقضى فيها ما تبقى له من أيام ، وقد حقق له الملك سنوسرت الأول رغبته .

كانت وفاة أمنمحات فى اليوم السابع من الشهر الثالث من شهور الـ « أخت » فى العام الثلاثين من حكمه ، فى يوم يوافق ١٥ فبراير سنة ١٩٦١ ق.م. عند حسابه بتقويمنا الحالى . أما البردية الأخرى التى تهمنا فهى البردية المعروفة بإسم نصائح أمنمحات لابنه (١) ، وقد كتبت دون شك بعد موت الملك وكأنها على لسانه من العالم الآخر يتحدث فيها إلى ابنه ويوصيه كيف يسوس الملك ويشرح له كيف قتلوه .

ينصح أمنمحات ابنه ، وقد صار ملكا ، أن يحترس من رعاياه ولا يظهر بينهم وهو وحيد ، وألا يثق فى أخ أو يعتمد على صديق ، ويذكره بما كان يفعله عندما كان يعطى المحتاج ويربى اليتيم ويجعل من لا يملك شيئا يبلغ هدفه . ولكن « الذى أكل طعامى هو الذى حرض الجنود على ، والذى أطعمته يدى هو نفسه الذى استطاع بواسطتها أن يحدث الفزع » ، ويستمر أمنمحات فى ذكر جحود الذين أغدق عليهم نعمه ثم يقول « كان ذلك بعد تناول الطعام عندما حل المساء ، وخلدت لساعة من الراحة مستلقيا على سريرى ، لأنى كنت متعبا » وعند ذلك سمع صليل الأسلحة ورأى اشتباك حراسه مع المهاجمين ، ولكن سرعان ما حدثت النكبة قبل أن يتمكن الملك من النهوض من فراشه « لو أننى أسرعت وبيدى أسلحتى لجعلت الجبناء يتقهقرون شذرمذر ، ولكن لا شجاع فى الليل ولا قتال لمن كان وحده ولن يتم النجاح دون حام » إذن لقد تمت المؤامرة بالنجاح . ويستمر النص فيذكر أن ذلك قد حدث عندما كان سنوسرت بعيدا ، وتملأ الحسرة نفس الملك من خيانة خدمه وأتباعه الذين رعاهم وعاونهم ، ووضع ثقتهم فيهم فكانوا هم المتآمرون على حياته . ويعدد أمنمحات بعد ذلك ما قام به من إخضاع البلاد لسلطانه وتأمين حدودها واعتراف الناس بأفضاله ، ويذكر أيضا شجاعته فى الصيد وغزوه لإقليم واوات فى النوبة وتأديبه للأسيويين الذين كانوا يغيرون على الدلتا ، ولا ينسى ذكر قصره الذى شيده وزينه بالذهب وحلى

(١) كانت نصائح أمنمحات من أحب الموضوعات الأدبية إلى قلوب المصريين فى الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشرة حتى الأسرة العشرين . وهناك بضع نسخ منها بعضها كامل والبعض الآخر يحوى مقتطفات منها ، وكانت منذ عام ١٨٩٦ موضع دراسة كثير من العلماء ، وقد ترجمها كل من جريفيث وماسبرو وجاردنر ودى بك وليفغر كما عنى بدراستها أخيراً جون ويلسون ووضع ترجمة جمع فيها آراء ومجهودات كل من سبقه ونشرها بين ما نشره فى A.N.E.T. السالفة الذكر ص ٤١٨ – ٤١٩ .

سقفه بأحجار اللازورد ، وكانت أبواب حجراته من النحاس ومصاريع الأبواب من البرونز ، ويختم وصاياه بتحية ابنه وتمنيه النجاح له ليتم ما بدأه ويوصيه بعمل الخير وتشييد المعابد الفخمة المتينة .

كان العام الثلاثون من حكم أمنمحات موافقا للعام العاشر من حكم ابنه سنوسرت إذا احتسبنا الأعوام العشرة منذ إعلانه وليا للعهد وشريكا فى الملك بداية حكمه الحقيقى .

ولم يصل إلى أيدينا حتى الآن أى وثيقة نعرف منها تفاصيل الأيام الأولى لحكم سنوسرت ، لكننا نعرف أنه لم يلق من الصعوبات شيئا لم يتغلب عليه ، واستطاع حقا أن يسير فى الطريق الذى رسمه أبوه العظيم .

خلفاء أمنمحات الأول :

تابع سنوسرت الأول سياسة أبيه وثبت أقدامه لا فى مصر وحدها بل وفى البلاد التى كانت على حدودها . وتوسع جنوبا ، وبدأت كلمة ، كوش ، ترد بكثرة فى النصوص كمنطقة امتد إليها النفوذ المصرى . وعنى سنوسرت عناية كبرى باستغلال مناجم الصحراء ، فنجد اسمه على لوحات أقامها رؤساء بعثاته إلى الصحراء يذكرون فيها تاريخ عملهم ويمجدون فيها الملك الذى كانوا يعملون باسمه . وكانوا يستخرجون الذهب أو النحاس وغيرهما من بعض تلك المناجم ، كما كانوا حريصين أيضا على استغلال بعض الأحجار نصف الكريمة مثل الفيروز من سيناء والجمشت (الأماتيست) من وادى الهودى ، كما حرصوا أيضاً على الحصول على أصلب الأحجار مثل الجرانيت الذى كانوا يستخرجونه من أسوان ومن وادى الحمامات ، والديوريت الذى كانوا يجلبونه من جبال النوبة فى منطقة إلى الجنوب الغربى من أبو سمبل وهى المحاجر التى استغلها المصريون منذ أقدم العصور لأجل عمل الأوانى ، وكان خوفو وخفرع من ملوك الأسرة الرابعة يحصلون منها على الأحجار اللازمة لتماثيلهم . كما نعرف أيضا اهتمام سنوسرت باستغلال محاجر المرمر فى حتنوب فى شرقى النيل على بعد يقرب من خمسة وعشرين كيلو مترا من تل العمارنة الحالية.

وشيد سنوسرت آثاره فى كثير من جهات مصر ، نجدها فى الكرنك وفى كثير من بلاد النوبة وفى الدلتا وفى الصعيد ، وكان للفيوم نصيب خاص من عنايته ، وشيد هرمه على مقربة من هرم أبيه فى اللشت .

وكان من أهم أعمال تشييده من جديد لمعبد رع فى مدينة هليوبوليس (إيون - عين شمس) . بدأ ذلك فى العام الثالث من حكمه وعندما أتم الثلاثين سنة على

العرش واحتفل بعيده الثلاثيني ، أقام أمام المعبد مسلتين من الجرانيت مازالت إحداهما قائمة حتى الآن في مكانها هناك . كما شيد في الكرنك بناء صغيرا كان يستخدم أثناء الاحتفالات لتستريح فيه سفينة الإله أمون رع ، وقد عثر على أحجاره داخل الصرح الثالث الذى شيده الملك أمنحوتب الثالث ، وقد كان عند هدمه كاملا ولهذا عثروا في السنوات الماضية على جميع أحجاره تقريبا ، وأعادت مصلحة الآثار تركيبها وهو قائم الآن في المعبد نفسه ولا يبعد إلا قليلا عن مكانه الأصلى ، ونقوشه من أجمل ما أخرجته يد الفنان المصرى في أى عصر من العصور . وطال حكم سنوسرت الأول حتى أربى على ٤٤ عاما (١٩٧٢ - ١٩٢٨) منها عشرة مع أبيه وأقل من ثلاث سنوات مع ابنه الذى أشركه معه في الملك في عام ١٩٣٠ ق.م.

ولم يكن أمنمحات الثانى كأبيه أو جده في نشاطه الحربى أو المعمارى ، فقد كانت الحالة الداخلية آمنة مطمئنة بفضل جهود من سبقوه ، كما كانت صلات مصر بغيرها من الأمم صلات صداقة ومودة ، وكان يرسل هداياه إلى أمراء سورية وغيرها ويتلقى منهم أيضاً كثيراً من تلك الهدايا . وقد عثر منذ وقت غير بعيد تحت أرضية معبد الطود جنوبى الأقصر على كمية كبيرة من أوانى الذهب والفضة ، والحلى مع غيرها من الأشياء غير المصرية . وكان نشاط أمنمحات الثانى موجها بصفة خاصة إلى استغلال مناجم المعادن والأحجار نصف الكريمة ، وإرسال البعثات إلى الصحراء لتأمينها .

وكذلك كان حال خلفه سنوسرت الثانى فقد شابهه في كل من سياسته الداخلية والخارجية ولكن زاد عليه في عمل مهم وهو تكريس جزء كبير من جهده لعمل مشروعات رى كبيرة في إقليم الفيوم ، وقد شيد هرمه في اللاهون وعثر على مقربة منه على القرية التى أقامها للعمال والموظفين الذين أشرفوا على تشييد الهرم وما يلحقه من معابد ، وظلت هذه القرية مسكونة حتى عصر الهكسوس ، وعثروا فيها على كثير من أوراق البردى المهمة وعلى غيرها مما كان يستخدمه الناس في حياتهم اليومية من أدوات .

وعلى مقربة من هرمه أقاموا عددا كبيرا من المصاطب لأهل بيته ، وعلى بعد غير قليل منها قامت جبانة كبيرة كانت مدفنا للكثيرين من رجال بلاطه (١) .

(١) كان أكثر حكام الأقاليم يدفنون في أقاليمهم ، ونرى الكثير من مقابرهم الفخمة في مصر الوسطى وفي واحدة منها ، في بنى حسن ، نرى المنظر الذى يمثل مجىء بعض الكنعانيين إلى مصر.

وفى مقبرة من مقابر الأميرات عثرت إحدث بعثات الحفر الأجنبية فى عام ١٩٢٠ على مجموعة كاملة من الحلى داخل صندوق مخبأ فى فجوة فى الجدار الصخرى غاب عن أعين اللصوص القدماء ، وأكثر هذه المجموعة يوجد الآن فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك .

لم يزد حكم سنوسرت الثانى على تسعة أعوام ، بما فى ذلك الفترة التى اشترك فيها مع أبيه أمنمحات . وعندما ترك العرش لابنه سنوسرت الثالث فى عام ١٨٩٧ ق.م. استقبلت مصر ملكا كان مقدرا له أن يكون من أعظم من جلس على عرش الفراعنة فى جميع العصور .

طال حكم سنوسرت الثالث حتى زاد على ثمانية وثلاثين عاما (١٨٧٩ - ١٨٤١) وترك وراءه فى أكثر بلاد مصر آثارا تدل على نشاطه ، فبنى المعابد الكثيرة وأقام آثارا له فى أشهر المعابد التى شيدها من سبقه من الملوك ولكن أهم أعماله تركزت فى أمرين ، أحدهما قضاؤه التام على نفوذ حكام الأقاليم ، والثانى أعماله الحربية سواء فى فلسطين أو فى جنوب الوادى ، وما قام به من حروب ضد القبائل التى أغارت عليه ، وتشييده الكثير من الحصون الحربية فى تلك المنطقة التى جعلت منه بطلا أسطوريا للأجيال القادمة . أما قضاؤه على نفوذ حكام الأقاليم فكان سياسة ناجحة أزالت من البلاد كل أثر لما كانوا يتمتعون به من نفوذ ، وكل أثر للإقطاع .

لقد نقم كثير من رؤساء تلك العائلات القوية على منتوحوتب الثانى عندما وحد البلاد وأخضعهم لسلطته ، وقد استغل أمنمحات الأول ما فى أنفسهم من حفيظة ، فأبقى لهم الكثير من نفوذهم بعد أن وضع الحدود بين تلك الأقاليم فظلوا سادة فى ديارهم طالما كانوا يدفعون الضرائب ويقدمون الولاء ، ويرسلون رجالهم ليحاربوا عندما يطلب اليهم الملك ذلك .

ولكن مع مضى الزمن أخذ نفوذ أولئك الحكام يزداد وثرواتهم تعظم ، فكان من الضرورى وضع حد لهذا الأمر ، ولم يكن هناك من هو أقدر من سنوسرت الثالث لتسديد هذه الضربة فجردهم من مزاياهم وخلع عنهم ألقابهم التقليدية التى كانوا يورثونها لأبنائهم ، فلم يصبح حكام الأقاليم منذ عهده إلا موظفين عاديين كغيرهم .

ولم يقل إهتمام سنوسرت الثالث بالفيوم ولكنه لم يشيد هرمه هناك بل شيده كبعض من سبقه من ملوك هذه العائلة فى منطقة دهشور ، وقد عثر فى عامى ١٨٩٨ - ١٨٩٩ على مجموعة عظيمة من حلى أميرات بيته اللاتى دفن على مقربة من هرمه ، وهى تزين الآن قاعة الحلى فى المتحف المصرى بالقاهرة .

وفى أواخر أيامه أشرك معه فى الحكم إبنه أمنمحات الثالث (١٨٤١ - ١٧٩٢ ق.م)، الذى طالت أيام جلوسه على العرش أكثر من جميع من سبقه أو جاء بعده من ملوك هذه الأسرة .

جنى أمنمحات الثالث ثمرة حروب أبيه وإصلاحاته فنعم بعهد من الرخاء والطمأنينة انصرف فيه إلى أعمال الإنشاء ، فشيد كثيرا من المبانى فى مختلف أنحاء البلاد . والتفت إلى الرى ، وحظى إقليم الفيوم أكثر من أى إقليم آخر بجهوده ، فأتم ما بدأه جده سنوسرت الثانى من أعمال لإستصلاح جزء كبير من أراضى تلك الواحة ، بعمل الجسور العظيمة لتحديد البحيرة الطبيعية التى فيه ، وشيد القناطر عند هوارة وعند مدخل الفيوم (روحنت - اللاهون) وشق الترع وبنى على شاطئها ، الذى أصبح على منسوب جديد ، كثيرا من المعابد التى أبقى الزمن على كثير من بقاياها وبخاصة فى الجنوب الغربى من الإقليم مثل معبد مدينة ماضى الذى بناه فى أواخر سنى حكمه عندما كان ابنه أمنمحات الرابع شريكا معه فى الملك ، كما بنى معبدا آخر فى مدينة شدت (مدينة الفيوم الحالية - كيمان فارس) وأقام هرمه عند بلدة هوارة ، وبنى إلى الشرق منه معبده الشهير الذى أسموه فيما بعد « اللابيرنت » ، والذى كتب عنه اليونان والرومان الشيء الكثير ، ولكن لم يبق من آثاره إلا بضعة أحجار متناثرة هناك . وقد عثر فى صيف عام ١٩٥٦ على مدفن ابنة له تسمى « نفروبتاح » وعثر فى داخل حجرة الدفن على ثلاث أوان كبيرة من الفضة وعليها إسمها وإسم أبيها أمنمحات الثالث ، ولم يعثر فى تلك الحجرة على شيء آخر ذى أهمية . وقد وجد تابوتها سليما لم يفتحه اللصوص ، ولكن لم يعثر على موميائها سليمة فى داخله بما تحللت جثتها من مياه الرشح ولم يكن معها إلا القليل من الحلى ، ويظهر أنها دفنت على عجل فى ذلك الوقت المضطرب من تاريخ مصر .

وتلاه على العرش إبنه أمنمحات الرابع ، الذى لم تتوافر فيه مزايا أسلافه العظماء ، فلم نعرف عنه إلا القليل إذ ورد إسمه على بعض لوحات موظفيه ، ومنهم من ذهب إلى المحاجر فى النوبة وإلى محاجر وادى الهودى لاستحضار الجمشت ، كما ورد إسمه أيضا على جدران معبد مدينة ماضى بالفيوم .

وتذكر بردية تورين أنه حكم تسعة أعوام وثلاثة شهور وسبعة وعشرين يوما ، ولسنا نعرف تماما أين دفن وإن كان الرأى الأرجح أنه كان مدفونا فى أحد الهرمين اللذين ما زالت بقاياهما القليلة قائمة حتى الآن خلف قرية مزغونة إلى الجنوب من أهرام أجداده فى اللشت .

وتنتهى أيام تلك الأسرة المجيدة نهاية محزنة . فقد رأينا الضعف يدب فى أوصالها بعد أمنمحات الثالث ، وها هى تنتهى عندما تولت إبنة الملك أمنمحات الثالث عرش مصر ، ولم يطل حكمها أكثر من ثلاثة أعوام وأربعة أشهر وعشرين يوما كما جاء فى بردية تورين بين أعوام ١٧٨٢ و١٧٧٨ قبل الميلاد .

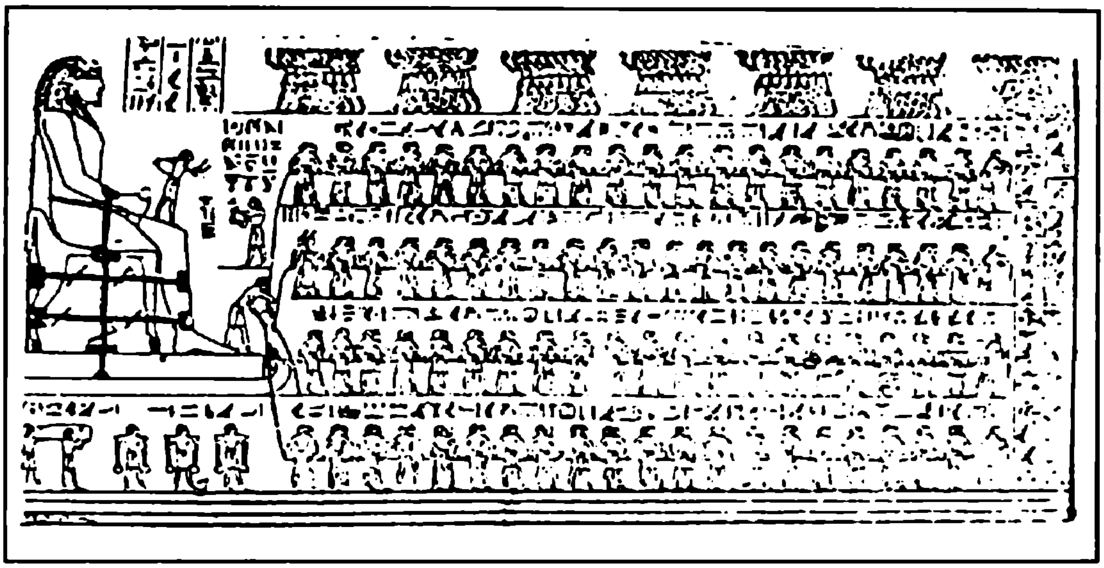
ومن المحتمل أن تلك الملكة واسمها « سوبك . نفرو » شيدت هرمها على مقربة من هرم أمنمحات الثالث فى هوارة ، فقد عثر على بعض آثار باسمها على مقربة من ذلك الهرم فى القرن الماضى .

فإذا ما تساءلنا عما حدث وما الذى قضى على حكم تلك الأسرة، وربما على الملكة أيضاً . فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن الجواب المقنع لقلة ما لدينا من وثائق . فربما كان ضعف الأسرة ناشئاً عن إضطرابات داخلية ومنافسات بين أفراد العائلة الحاكمة ، فقد رأينا مظاهر هذا الضعف منذ أيام أمنمحات الرابع ، ولكنا سنرى عند الحديث على عصر الفترة الثانية وجود عوامل أخرى خارجية بعضها بسبب ثورات قامت فى الجنوب ، والبعض الآخر فى آسيا . ولم يكن على عرش مصر ملك مثل أمنمحات أو سنوسرت فيوقف ذلك التيار الجارف فهوى الصرح ، ولم تنته عائلة أمنمحات فحسب بل دخلت مصر فى فترة مظلمة من تاريخها جاء فى أعقابها غزو أجنبى . وكانت فترة طويلة لم تقل فى مجموعها عن ٢٠٨ سنوات وهى عصر الفترة الثانية التى بدأت إثر موت الملكة سوبك نفرو عام ١٧٧٨ ولم تنته إلا فى عام ١٥٧٠ عندما أتمت مصر تطهير أرضها من ذلك الغزو الأجنبى وبدأت عهداً جديداً فى تاريخها وأسست الأسرة الثامنة عشرة .

ولكن قبل أن نتحدث عن عصر الفترة الثانية يجب أن نقف قليلا لنلقى نظرة على أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى الأسرة الثانية عشرة .

نظرة عامة فى الحياة الاجتماعية :

عرفنا الكثير عن حياة المصريين فى أيام الدولة القديمة مما تركوه مرسوما على جدران مقابرهم ، وبالرغم من أن الغالبية الكبرى من مقابر الدولة القديمة كانت مبنية بالأحجار ، أو من الطوب اللبن فى بعض أجزائها ، فإن بعضها كان من أيام الأسرة الرابعة يقطع فى صخر الجبل ويزينون جدرانها الصخرية بما يشاؤونه من نقوش إذا كان نوع الصخر جيداً ، ولكن إذا كان نوع الصخر رديئاً يغطون الجدران بطبقة من الملاط الجيد ، ويرسمون ويلونون فوق الملاط .



نقل تمثال الحاكم «تحوتى حتب» رسم فى مقبرته بالبرشا فى محافظة أسيوط .

ومقابر الدولة الوسطى وفيرة العدد ، مختلفة الأنواع ، ولكن أهمها فى دراستنا لما طرأ على الحياة الإجتماعية من تطور أو تغيير ، هى مقابر أمراء الأقاليم وعائلاتهم وكبار موظفيهم ، تلك المقابر التى خلفوها وراءهم فى بلادهم وقطعوها فى صخر الجبل فى أماكن مرتفعة تشرف على المناطق المزروعة .

كان أمراء الأقاليم يعيشون فى أقاليمهم منذ الأسرة السادسة كما ذكرنا ، واستمروا فى عصر الفترة الأولى ، وزاد نفوذهم بعد ذلك ، وكان كل واحد منهم يحيط نفسه ببلاط صغير ، وله جيش لحماية الأقليم من إعتداء أى إقليم مجاور ولنشر الأمن والطمأنينة بين السكان . ويكفى أن يزور الإنسان بعض مقابر هذا العصر فى بنى حسن أو فى البرشا أو فى شطب أو أسيوط أو فى الأقصر أو فى أسوان ويرى عظمتها ، ومدى عنايتهم بنقوشها ، ليدرك أن كل واحد من أصحابها كان ملكا صغيرا فى إقليمه . ولسنا ندهش لثرائهم فقد كانت الضرائب كلها تقدم إلى خزائنهم ، ثم يقدمون بأنفسهم بعد ذلك إلى الملك ما يكونون قد اتفقوا عليه . وإذا صدقناما ذكره هؤلاء الحكام فى مقابرهم أو فى اللوحات التى خلفوها وراءهم . فإنهم كانوا مهتمين بنشر الأمن فى بلادهم وعدم الظلم ، وكانوا يعتمدون على جنودهم فى حماية الآمنين من الناس من عبث العابثين .

وما من شك فى أن كل حاكم من أولئك الحكام كان يهتم بجنوده ولهذا أكثروا

من تدريبهم الجثمانى حتى تظل لهم مرونتهم وسرعة حركتهم فى القتال . صوروا على جدران المقابر مناظر تمريناتهم وأخصها المصارعة . فنرى مناظرها مفصلة فى مقابر كثيرة ، وبخاصة فى مقابر بنى حسن . ولكن المصارعة لم تكن الرياضة الوحيدة التى مارسها الجند ، فقد كان هناك أيضاً حمل الأثقال ، يملؤن غرارة من الرمل أو التراب ويرفعها كل من المتبارين بيد واحدة إلى ما فوق رأسه ، فإذا تمكن كل منهما من ذلك زادوا من كمية الرمل أو التراب حتى يعجز أحدهما . ومن بين المناظر التى على تلك الجدران مناظر المبارزة بالعصى ، كما نرى أيضاً لجنود وهم يحملون بعض أدوات القتال وأهمها الأقواس والحراب وفؤوس القتال ومن بينها ذلك الدرع الكبير الشبيه بالخيمة يحمله ثلاثة من الرجال ويتقدمون فى حمايته للهجوم على الأعداد أو لمهاجمة سور إحدى القلاع ليحدثوا ثغرة فيه ، وذلك بتحريك قضيب ذى نهاية معدنية يحركونه وهم داخل الدرع من ثقب فيحطمون به الأبواب أو يفتحون به ثغرة فى الأسوار ، وهم فى مأمن من سهام المدافعين عن ذلك الحصن ، أى أن تلك الدروع الكبيرة كانت تقوم فى ذلك العهد بما تقوم به العربات المصفحة فى عصرنا الحاضر .

ونرى أيضاً على تلك الجدران المناظر المألوفة فى الحياة اليومية مثل الحفلات الموسيقية المصحوبة برقص الراقصات ، ومناظر الصناع والعمال المختلفين ، والمناظر الدينية التى نرى فيها الكهنة يقومون ببعض الطقوس ، ونرى الأتباع يحملون الأطعمة والأزهار ليقدموها إلى صاحب القبر .

ومن أهم الموضوعات التى أقبلوا على رسمها فى مقابر ذلك العهد مناظر الصيد سواء أكان ذلك فى الصحراء ، حيث نرى الحيوانات الصحراوية المختلفة أو صيد الطيور فى الحقول ، أو على مقربة من المستنقعات ، أو صيد السمك بالطرق المختلفة .

وفى مقابر الدولة القديمة نرى سفنا أكثر مما كان يملكه صاحب القبر للتنقل به على صفحة النيل ، أو لنقل المحاصيل المختلفة ، والقليل منها تلك السفن التى نعرف أن أصحابها اشتركوا بها فى الأعياد التى كانت تقام فى بعض العواصم الدينية القديمة مثل بوتو أو نخن . ولكن فى مقابر عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى نراهم يكثرون من رسم سفن ويكتبون إلى جوارها إنها ذاهبة أو آتية من أبيدوس ، إذ أصبحت العادة المتبعة هى نقل مومياء الميت إلى أبيدوس لتزور المعبد أو لتدفن هناك بعض الوقت ، فى ذلك المكان المقدس للإله أوزيريس .

وإذا فحصنا تلك المناظر نرى تطوراً واضحا فى أشياء كثيرة ، نرى تطوراً فى

أشكال الملابس ، وفى الحلى ، وفى الأوانى وفى الأدوات المختلفة ، إذ نرى فيها اختلافاً عما كانت عليه فى الدولة القديمة ، كما نرى تطوراً فى الفن نفسه وفى المواضيع المحببة إلى الفنانين .

وعلى ذكر الفن وتطوره يحسن بنا ألا ننسى أن الرسم بالألوان فوق الملاط قد تقدم ولكن عمل التماثيل ، وبخاصة تماثيل الأشخاص ، قد تأخر كثيراً عن مستوى الأسرتين الرابعة والخامسة اللهم إلا فى بعض حالات قليلة فى تماثيل بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة مثل الملك سنوسرت الثالث . لقد أقبل الأفراد من جميع الطبقات على طلب عمل التماثيل فكان الفنانون يصنعونها من جميع الأحجام وفى جميع الأوضاع ، دون التقيد بصورة صاحبها . وعندما كان يختار أحد من الناس تمثالا كان يضيفون اسمه وألقابه . ولم يقتصر ذلك على التماثيل بل كان متبعاً أيضاً فى التوابيت الخشبية ، وبعض اللوحات الجنازية ، ولم يكن الفنانون يعملون تماثيل أو توابيت أو لوحات خاصة وعلى نمط معين إلا للأغنياء وكبار الموظفين ومن كانوا أعلى من هؤلاء فى مرتبتهم .

وتمتاز الأسرة الثانية عشرة بما أنتجه صانعوا الحلى وبخاصة لأميرات البيت المالك إذ جمعت تلك الحلى بين الدقة المتناهية فى الصناعة والذوق الفنى الرفيع ، ونرى تلك المجموعات فى المتاحف المختلفة وبخاصة فى متحفى القاهرة والمتروبوليتان بنيويورك فلا نملك إلا الإعجاب بها وبصناعتها ، وقد فحص الكثيرون من الخبراء تلك الحلى وهم يرددون جميعا رأياً واحداً وهو أن الصائغ الحديث ، مع ما تيسر له من أدوات ووسائل لا يمكن أن يتفوق على الصائغ المصرى القديم الذى عاش فى أيام الدولة الوسطى أى قبل قرابة أربعة آلاف سنة .

تكفينا الآن هذه الإشارات العابرة إلى بعض مظاهر الحياة الاجتماعية ولننتقل إلى نقطة مهمة فى تاريخ هذه الأسرة ، وهى علاقتها بغيرها من البلاد .

الصلة بين مصر وغيرها من البلاد فى الدولة الوسطى :

إذا رجعنا إلى الوثائق المعاصرة من أيام هذه الدولة ، وبخاصة فى الأسرة الثانية عشرة ، نجد أن مصر زادت كثيراً من صلتها بما حولها من بلاد . فقد إهتم ملوكها بتأمين حدودها الغربية والشرقية ، وأقاموا التحصينات ، وبدأوا أيضاً سياسة جديدة نحو واحات الصحراء الغربية منذ أيام أمنمحات الأول فاهتموا بها وكانوا يرسلون الدوريات البوليسية للتفتيش على الطرق لتأمينها . كما نعرف أيضاً أن الواحات ، وبخاصة الواحات الخارجة والداخلة ، وكانت شديدة الصلة بطيبة وأبيدوس،

قد أخذت تزدهر فى ذلك العهد .

ولكن الأمر لم يقف عند حدود مصر . فقد زادت الصلة التجارية والثقافية بين مصر والشاطىء الفينيقى ، وكان ملوك مدينة جبيل وثيقى الصلة بملوك وادى النيل الذين كانوا يرسلون إليهم الهدايا الثمينة ويتلقون منهم بعض الأشياء الثمينة من حاصلات ومصنوعات تلك البلاد . كانت التجارة بين مصر وشرقى البحر الأبيض تأخذ سيرها فى واحد من طريقين أحدهما طريق البر والثانى طريق البحر . ولم تكن تلك الصلة قاصرة على الشاطىء الفينيقى بل كانت تشمل جزر البحر الأبيض المتوسط وبخاصة جزيرة قبرص القريبة من الشاطىء السورى وجزيرة كريت ذات الحضارة المزدهرة فى ذلك العهد ، والتى كان لفنها بعض الأثر فى زخرفة الحلى المصنوعة فى مصر .

كانت هناك صلة وثيقة بين مصر وفلسطين والشاطىء الفينيقى وجزء كبير من سورية ، فهل كانت لمصر سياسة إستعمارية فى ذلك الوقت فى تلك البلاد ؟ وهل يدل وجود آثار مصرية فى بعض بلادها سواء على مقربة من الشاطىء أو فى منطقة البقاع على نفوذ سياسى لمصر ؟ . الجواب على ذلك هو أن مصر لم تكن معنية إلا بالتجارة وإن كان هناك ذكر عارض لحملة حربية أو لحملتين على تلك البلاد ، فإنها كانت دون شك لتأديب بعض القبائل التى استهانت بمصر وكرامتها وهاجمت قوافل تجارتها التى كانت إذ ذاك احتكاراً للملوك .

كان رسل مصر يسيرون جيئة وذهابا على الطريق التجارى الرئيسى بين مصر والشاطىء السورى ، وبين الشاطىء وداخل سورية كما ذكرنا عند الحديث عن سنوهى ، وكانت تقيم فى أكثر من مدن سورية جاليات مصرية لأجل التجارة . وكان لبعض الآلهة المصرية معابد هناك ولكن لم تكن لمصر حاميات فى أى ماكن ، وإذا كان ملوك جبيل قد ارتبطوا برباط صداقة وولاء مع مصر ، أو كانوا متأثرين كثيراً بالثقافة المصرية فإن أولئك الملوك لم يكونوا من موالى مصر أو كانوا يحكمون باسمها، أو يقدمون لها جزية مفروضة عليهم .

كان ازدهار الأسرة الثانية عشرة بين أوائل القرن العشرين وأوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد (١٩٩٢ – ١٧٧٨ ق.م.) ، وكانت مصر إذ ذاك أعظم الأمم ثقافة وقوة فى بلاد الشرق القديم ؛ لأن بلاد الرافدين فى ذلك الوقت كانت تجتاز فترة ضعف فى تاريخها ، لم يخرجها منها إلا الملك حمورابى عام ١٧٢٨ ق.م. ولهذا لا يكون مستغرباً إذا وجدنا نفوذ مصر الثقافى يتغلغل فى بلاد فلسطين وسورية ، ولا يدهشنا أن نرى المصريين يستفيدون من هذه الظروف ويقوون صلاتهم التجارية بتلك

البلاد . وليس من المستغرب أيضاً أن يبدأ بعض سكان تلك البلاد فى التفكير فى المجىء إلى مصر يحملون خيرات بلادهم للإتجار بها (١) .

ولكن صلة مصر بالجنوب كانت ذات طابع آخر ، إذ تعتمد مصر فى حياتها على النيل ، وكانت منذ فجر تاريخها تهتم بالجنوب وتعنى بمعرفة طرقه وتهتم بالحصول على خيراته . وأخذ ملوك الدولة القديمة منذ أيام الأسرة الخامسة يرسلون الحملات للإتصال بأهله ، وقد رأينا عند حديثنا عن تاريخ الأسرة السادسة أن أهل النوبة لم يكونوا يرحبون دائما بتلك الحملات وكانوا يهاجمونها فى بعض الأحيان . ولكن ما جاءت أيام الأسرة الثانية عشرة حتى كانت الأمور قد تغيرت فى تلك البلاد وذلك بسبب تقدم الجنس الزنجى نحو الشمال واختلاطه بثقافة حامية الأصل ، وسيطرته على السكان المحليين فأصبح مع مرور الأيام خطراً على مصر نفسها .

ولهذا نجد ملوك الأسرة الحادية عشرة يهتمون بالجنوب ، ونجد الملك أمنمحات الأول منذ توليه العرش يهتم بهذا الأمر ، ويتم ملوك الأسرة إخضاع المنطقة بين الشلال الأول والشلال الثانى إخضاعاً تاما للنفوذ المصرى ويبنون هناك الحصون وقد بلغ عددها سبعة عشر حصنا ، ويضعون فيها الحاميات ويحرمون على أحد من السكان الزنوج أن يتعدى الشلال الثانى فى طريقه نحو الشمال سواء بطريق النيل أو بطريق البر إلا بقصد التجارة وفى جماعات قليلة .

ولم تقف هذه الأسرة عند ذلك بل دفعت بحدود مصر إلى جنوبى الشلال الثالث وهناك ، عند مكان يقال له « كرمة » ، أقاموا حصنا ومخزنا كبيراً لإيداع ما يحمله التجار من بضائع . وكان يقيم هناك حاكم مصرى ، وكانت هناك أيضاً مدينة مصرية صغيرة وفيها صناع مصريون . ولسنا نعرف على وجه اليقين كم من الحكام تولوا تلك الوظيفة ، ولكن واحداً منهم واسمه « زفاى حعبى » (٢) مات هناك فدفنوه حسب تقاليد البلاد ، لا حسب التقاليد المصرية ، وضحوا بأكثر من مائتى شخص

(١) نرى فى مقابر بنى حسن بعض صور لقوم من الجنس الحامى ربما كانوا من سكان الصحراء الشرقية الجنوبية ولكن المنظر الشهير فى مقبرة خنوم . حوتب الذى نرى فيه رئيس إحدى القبائل السامية ومعه بعض الرجال والنساء والأطفال والحمير المحملة ، إنما يمثل قوما من الكنعانيين أهل فلسطين القدماء .

(٢) « زفاى حعبى » هو صاحب المقبرة الشهيرة فى أسيوط والتى تحتوى على تلك النصوص الشهيرة التى توضح لنا تفصيلات ما تعاقد عليه مع كهنة الإله « ويواوت » ليقدموا به فى الأعياد المختلفة وما يقدمونه لروحه من قرابين . وكان زفاى حعبى يتوقع أن يموت فى موطنه فى أسيوط ولكنه مات ودفن فى كرمة فى دنقلة .

(وربما كانوا نحو ٢٧٠) من خدمة وأتباعه ودفنوهم فى الممر المؤدى إلى قبره ، [1] ثم أقاموا كوما كبيراً فوق القبر ووضعوا فوقه تمثالا له داخل هيكل مشيد من الطوب .

لم تكن عادة دفن الأتباع قاصرة على الزعماء أو الملوك فى السودان فى ذاك الوقت بل كانت عادة عامة فى كثير من حضارات العالم القديم ، وقد وجد « ريزنر » الذى حفر منطقة كرمة قبل الحرب العالمية الأولى كثيراً من القبور التى دفن فيها الخدم مع سادتهم ومن بينهم قبر لطفلة صغيرة إحتضنتها مربيتها داخل القبر وقد رقدت خادمة أخرى على مقربة منهما ، وقد دفنت كل من المربية والخادمة وهن أحياء وكانت العادة المتبعة هى أن يعطوا أولئك الخدم أو الأتباع شراباً مخدراً ويضربوهم ضربة قاتلة على رؤوسهم إذا رفضوا تناوله . والفكرة فى دفنهم مع سادتهم هى أن يقوموا على خدمتهم فى الحياة الأخرى كما كانوا يخدمونهم فى هذه الدنيا .

لم يقتصر الاهتمام بالجنوب على ملك دون آخر ، فنراهم جميعاً وقد أظهروا الكثير من العناية بالنوبة وبمياه النيل ولكن واحداً من بينهم وهو « سنوسرت الثالث » اهتم اهتماما خاصا بالحد الجنوبى لمصر ونزل بنفسه إلى الجنوب على رأس الجيش عدة مرات واعتنى عناية كبير بتجديد الحصون وتقوية الحاميات ، وأقام عدة لوحات للحدود جنوبى الشلال الثانى ، وحرم على جميع الزنوج الجنوبيين إجتياز ذلك الحد وكتب فى تلك اللوحات أنه برىء من ابن يأتى بعده ولا يحافظ على تلك الحدود ، ويحارب من أجلها . وبعد موت هذا الملك بخمسمائة عام تقريبا نرى ملكا عظيما آخر يقدر أعماله وجهوده فى المحافظة على حدود مصر الجنوبية ، نرى الملك العظيم «تحوتمس الثالث» يرفع « سنوسرت الثالث » إلى مصاف الآلهة ويجعل منه إلها حاميا للنوبة ، ويقيم المعابد لعبادته ويقف أمامه يقدم له القرابين كإله من الآلهة .

العناية بالرى والتوسع فى الزراعة :

لقد أشرت أكثر من مرة فى هذا الفصل إلى اهتمام ملوك هذه الأسرة بإقليم الفيوم ، والواقع إن إهتمامهم بهذا الإقليم لم يكن إلا أحد مظاهر عناية تلك الأسرة بمسألة من أهم المسائل الحيوية لمصر وهى الانتفاع بمياه النيل ومحاولة زيادة الأراضى المزروعة .

وبالرغم من أننا لا نعرف كم كان عدد سكان مصر فى الدولة القديمة . وكم

(١) ربما كانت عادة دفن الأتباع مع سيدهم معروفة فى مصر فى عهد ما قبل الأسرات ، وربما كانت معروفة أيضاً فى الأسرة الأولى ، ولكنا لا نجد لها أثراً بعد ذلك .

كان عددهم فى الدولة الوسطى ، فإن ظواهر الأمور تدل على إزدياد عدد السكان خلال ذلك العهد المزدهر الذى سادته الطمأنينة خلال حكم الأسرة الثانية عشرة . وسواء أكان اهتمام ملوك الأسرة بموضوع مياه النيل راجعاً إلى ضرورة إقتصادية أو كان إصلاحا عاديا للتقديم بالبلاد ، فإننا نعرف أنهم كانوا يسجلون إرتفاع النيل عند الشلال الثانى ، عند حصن سمنة ، وذلك ليطمئنوا على حالة الفيضان ويتخذوا من الإحتياطات ما يكفى لمجابهة الحالة المنتظرة يستوى فى ذلك إذا كان الفيضان عاليا أو أقل من المعتاد .

ولم يكن إهتمامهم بإقليم الفيوم راجعا فقط إلى استغلال البحيرة لتكون خزانا للمياه فى أيام الفيضان ثم الاستفادة من تلك المياه فى أوقات التحاريق ، بل استفاد الإقليم كله من عمل الجسور اللازمة ؛ لذلك الخزان وتم إستصلاح مساحة تقرب من سبعة وعشرين ألف فدان ، كما يرجح أيضاً أن تكن الأراضى المزروعة فى الإقليم قد تحسنت بسبب تلك المشروعات ، وبدأت تنشأ مدن جديدة حول البحيرة نفسها على منسوب + عشرين مترا فوق مستوى مياه البحيرة زيادة على المدن القديمة التى كانت قائمة قبل ذلك (١) .

وليس لدينا أدلة ثابتة على قيام ملوك تلك الأسرة بأى مشروعات أخرى لاستصلاح الأراضى فى غير إقليم الفيوم ولكن إهتمامهم بمقاييس النيل ونجاحهم الكبير فى استصلاح الأراضى فى الفيوم يجعلنا نرجح أن جهودهم فى زيادة الثروة الزراعية لم تقف عند حد الفيوم وربما كان لهم نشاط آخر فى استصلاح أراضى بعض مناطق الدلتا ولكن لم تصلنا عن ذلك أى وثائق معاصرة حتى الآن ، وربما كان المستقبل كفيلا بذلك .

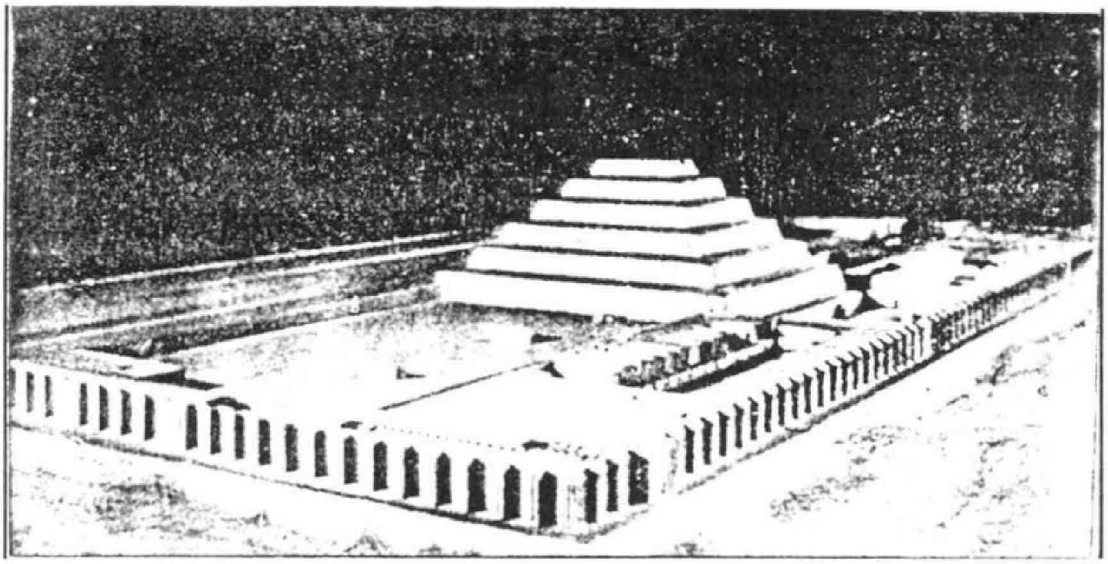
تلك نظرة عامة على الأسرة الثانية عشرة وعلى الدولة الوسطى بصفة عامة ، رأينا فيها إزدهار الأدب والفن ، ورأينا أيضاً كيف تغلبت مصر على ضعفها فى عصر الفترة الأولى وكيف استعادت ثقتها بنفسها ، واستأنفت السير فى الطريق الذى رسمته لنفسها منذ أن كونت أصول حضارتها . ولم تقف مصر خلال أيام الدولة الوسطى

---

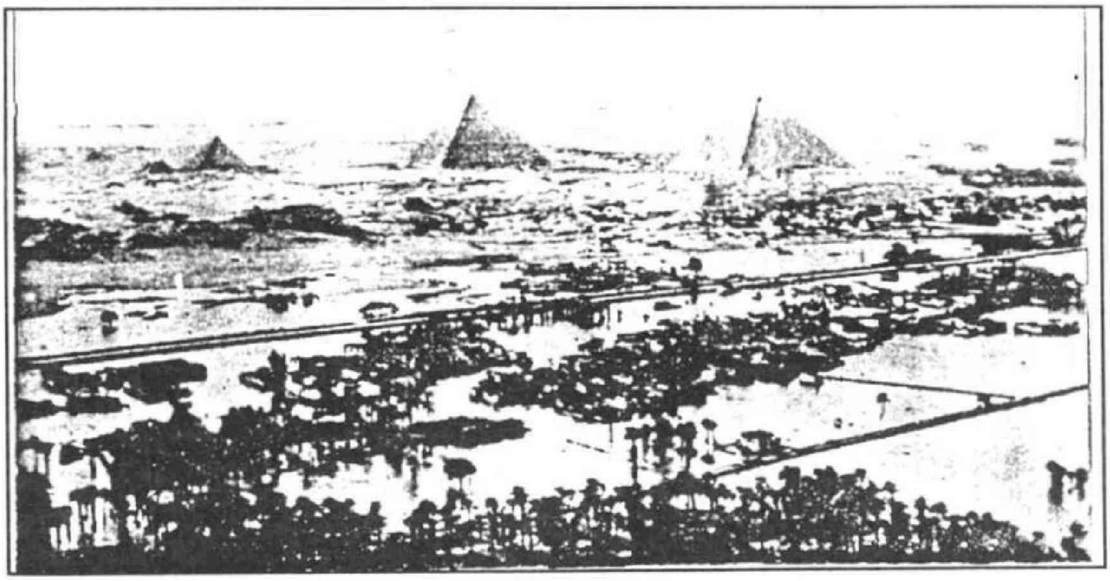
(١) سطح مياه البحيرة الآن ٤٥٠ مترا أى أن الفرق بين سطح مياه البحيرة فى الأسرة الثانية عشرة وسطحها الآن لا يقل عن خمسة وستين متراً ، وقد تغير منسوب البحيرة خلال العصور المختلفة وكثيراً ما نرى بعض المناطق الأثرية القديمة واقعة الآن فى الصحراء . وعلى أى حال يجب ألا ينسى القارىء أن مياه البحيرة كانت عذبة فى العصور القديمة ، بل فيما تلا ذلك من عصور إلى ما قبل قرون قليلة ، وكان الذين يعيشون حول شواطئها يستخدمون مياهها فى الشرب وفى رى أراضيهم .

جامدة تترسم خطى الدولة القديمة بل نرى تطورها فى مختلف الميادين ، ونرى تطورها فى السياسة الخارجية بل وفى الناحية الدينية أيضاً .

لقد عاد للملك ما كان له من نفوذ وسلطان ، وعاد الموظفون إلى تملقه والتمسح فى أعتابه ، وأختفت من لوحات الأفراد ، أو كادت ، تلك النغمة الحلوة وهى الإعلاء من قيمة الفرد واعتماده على ما يقدمه من عمل صالح فيضمن النجاح فى الدنيا والآخرة ، وحلت محلها النغمة التقليدية القديمة وهى أن الخير كل الخير فى عطف الملك ورضاه . وما من شك فى أن أكثر ملوك الدولة الوسطى لم يكونوا عتاة أو متجبرين فى الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم على رعايتهم ، ولهذا سرعان ما اطمأن الناس إلى حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم ورجعوا إلى تقاليدهم القديمة فى تمجيدهم . ولكن ذلك كله لم يغن شيئاً عندما أخذت تتجمع فى الأفق سحب قاتمة ، وعندما بدأت رياح الأحداث فى مصر وفى خارج مصر تدفع بتلك السحب فوق البلاد ، وإذا بمصر تتعرض مرة أخرى لفترة ضعف ، هى ما نسميه عصر الفترة الثانية .



شكل رقم (١) : هرم سقارة المدرج والمباني التي حوله كما كانت عند تشييدها - صورة لنموذج حديث الصنع .



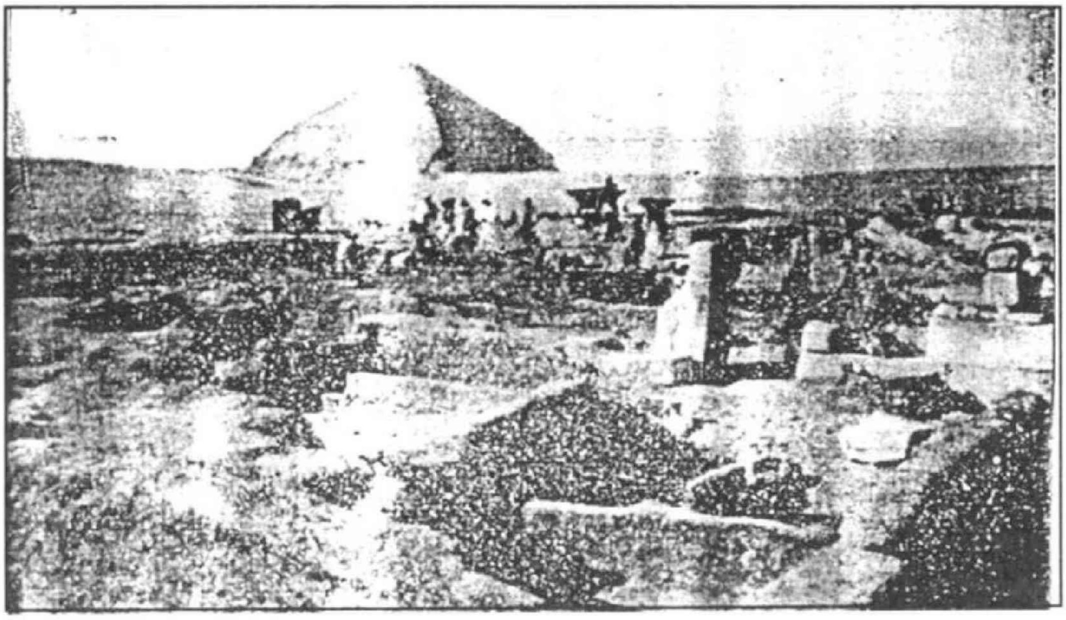
شكل رقم (٢): أهرام الجيزة الثلاثة: من يمين الصورة إلى يسارها ، هرم خوفو (الهرم الأكبر)ثم هرم خفرع (الهرم الثاني) ثم هرم منكاورع (الهرم الثالث).



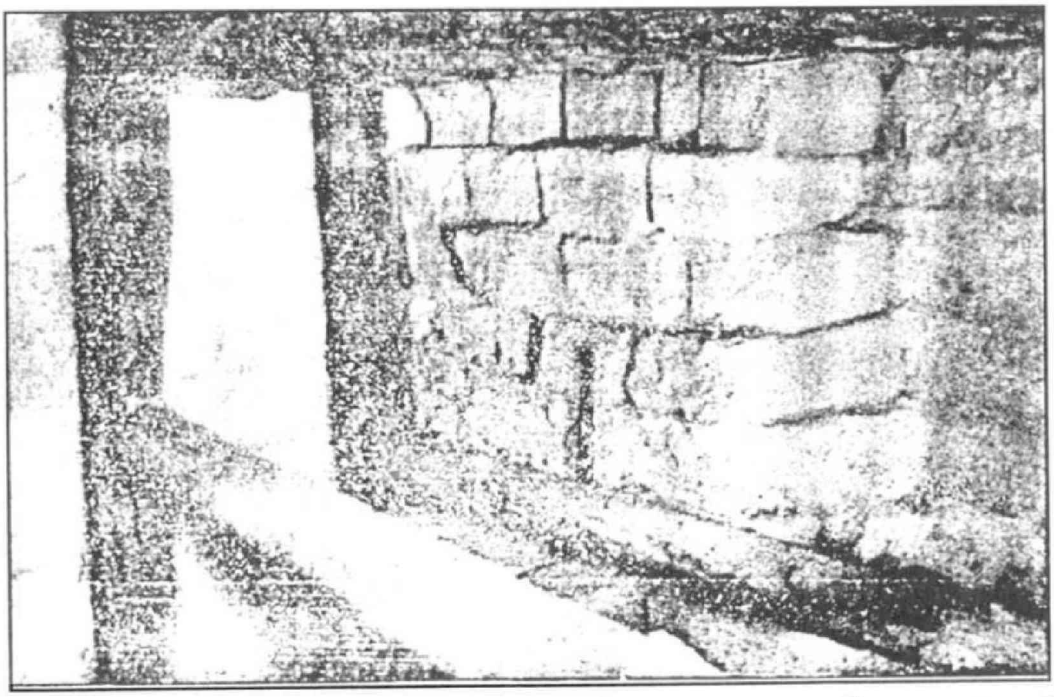
شكل رقم ٣
«سنفرو» مؤسس الأسرة الرابعة يرتدى ملابس عيد «السد» . من إحدى لوحاته التى عثر عليها فى حفائر دهشور عام ١٩٥١ .



شكل رقم ٤ : الإلهة «سخمت» تعانق «سنفرو» . جزء من أحد المناظر التى كانت فى معبد الوادى بدهشور ، مازالت محتفظة بما عليها من ألوان ؛ وتظهر لنا المستوى العظيم الذى وصل إليه فن النقش فى ذلك العهد المبكر فى الحضارة المصرية .



شكل رقم (٥) : هرم سنفرو الجنوبى بدهشور وأمامه مخازن معبد الوادى أثناء الكشف عنها فى موسم ١٩٥١ - ١٩٥٢ .



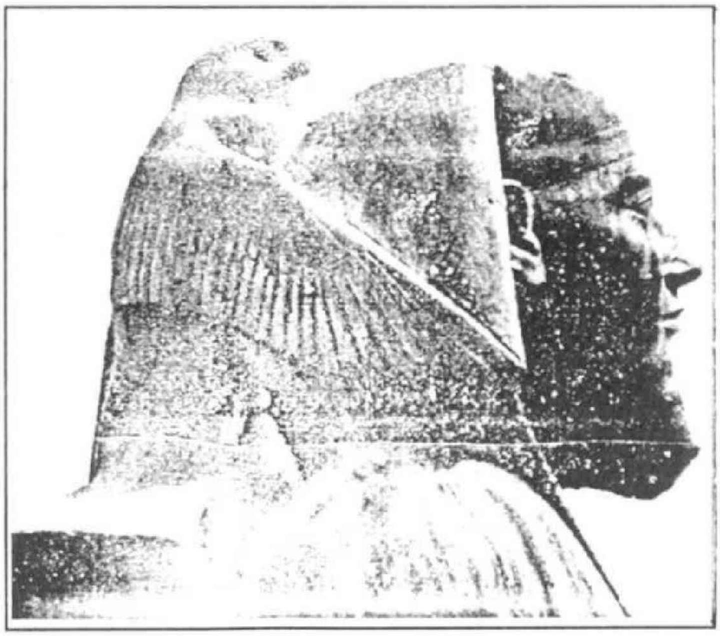
شكل رقم (٦): أشجار من خشب الأرز فى حجرة الدفن بالهرم الجنوبى للملك سنفرو فى دهشور وقد احتفظت بصلابتها رغم مضى أكثر من ٤٦٠٠ سنة



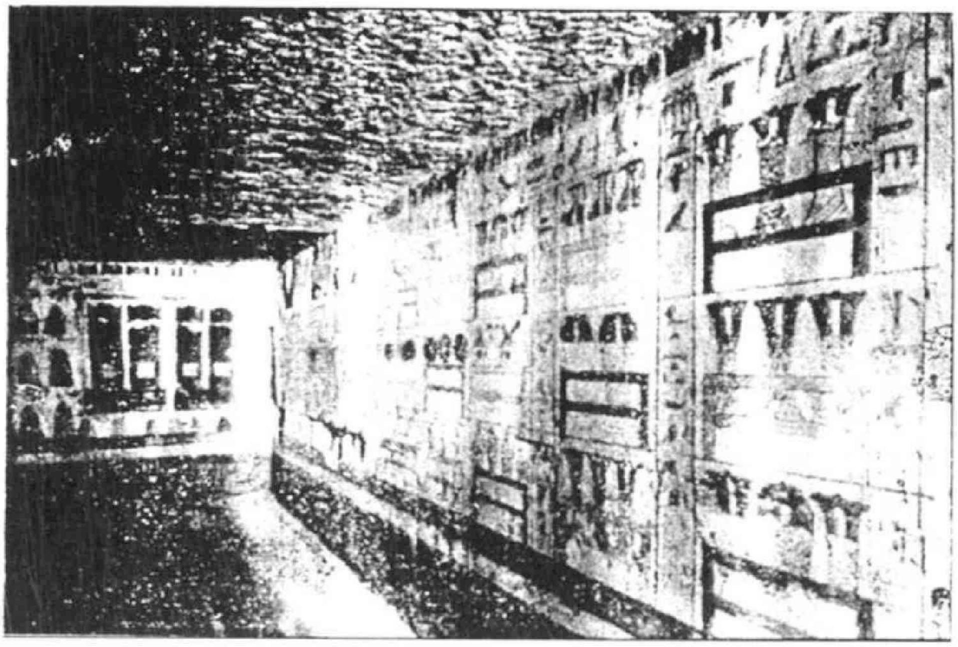
شكل رقم (٧) : السيدة «نفرت» زوجة الأمير «رع حتب» أحد أبناء الملك سنفرو ، وقد عثر على هذا التمثال مع تمثال آخر لزوجها في قبرهما بميدوم، والتمثالان في المتحف المصرى بالقاهرة .



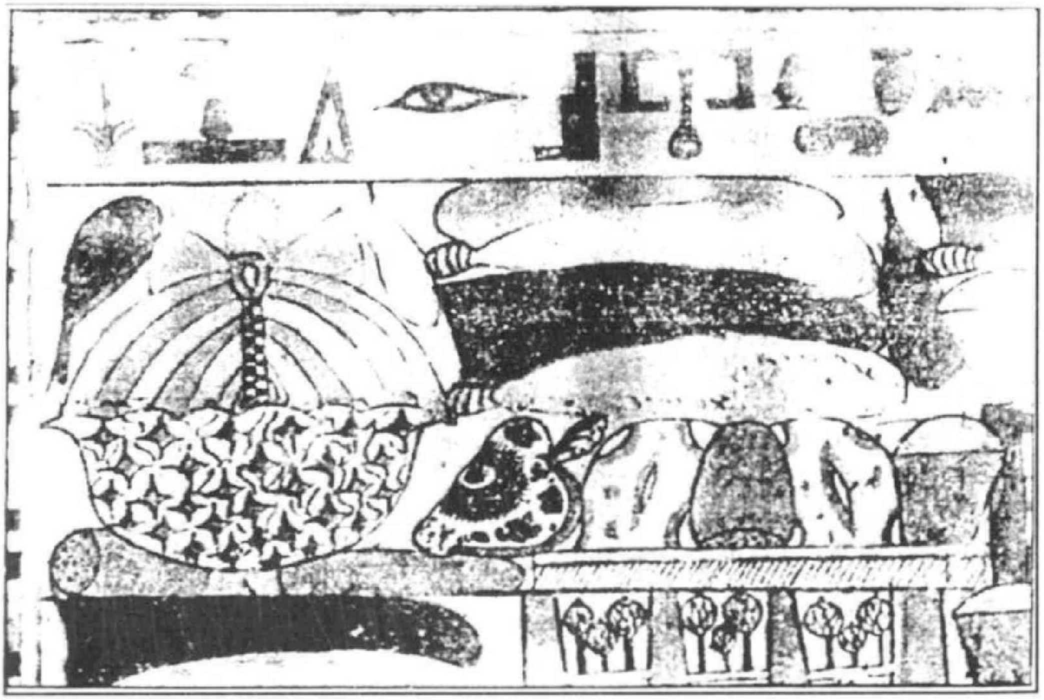
شكل رقم ٨
الجزء الأعلى من تمثال «حم إيون» أحد أبناء سنفرو ، عثر على قبره فى الجبانة الغربية للهرم الأكبر وتمثاله الآن فى متحف هيلدزهيم بألمانيا . وقد أشرف «حم إيون» على تشييد الهرم الأكبر فى فترة من فترات بنائه .



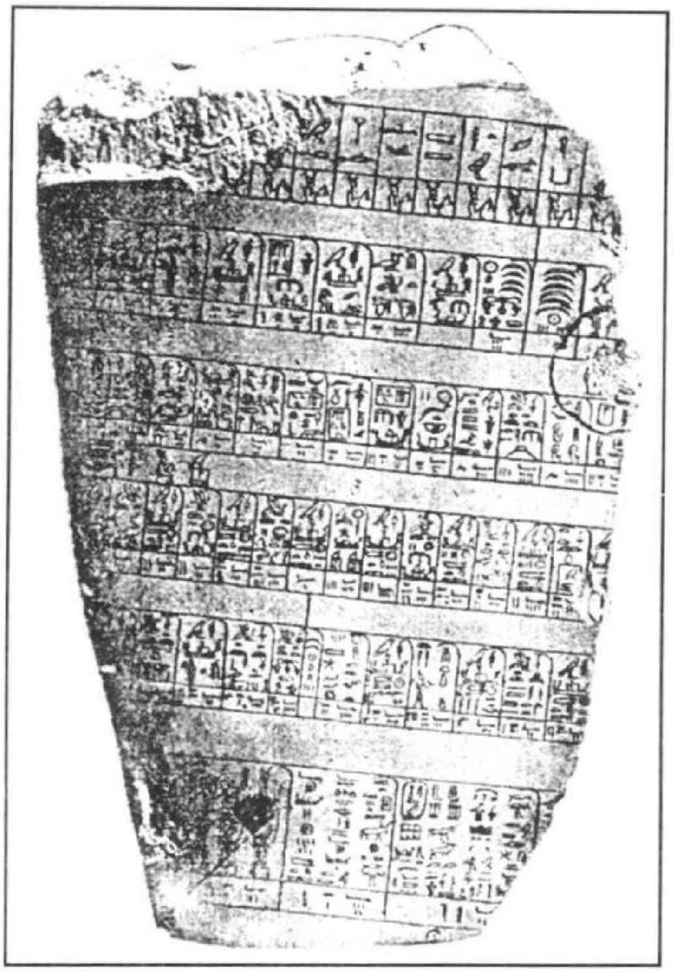
شكل رقم ٩
تمثال الملك خفرع من حجر الديوريت ، وخلف رأسه الإله حورس يحميه . ولا شك فى أن هذا التمثال ليس آية من آيات الفن المصرى فحسب بل هو من أعظم ما أخرجته عبقرية المثال فى جميع العصور والبلاد .



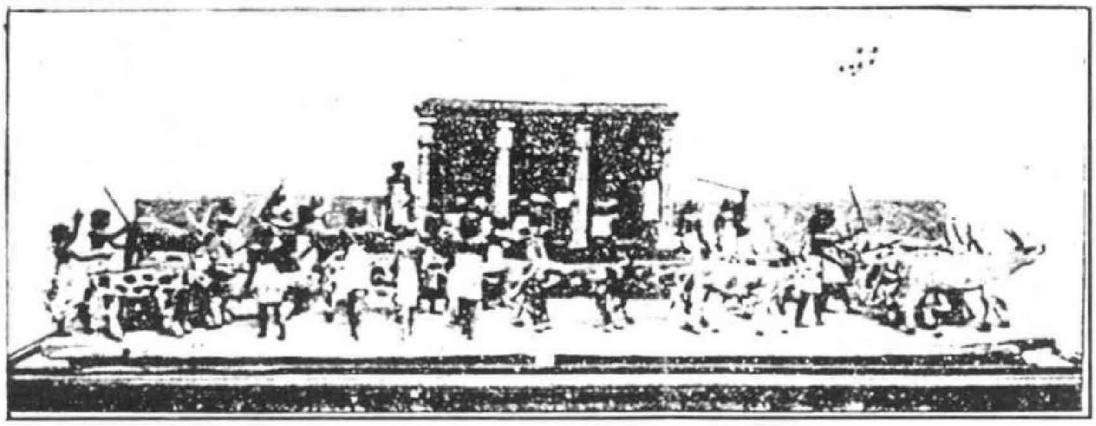
شكل رقم (١٠) : منظر فى مقبرة «بى عنخ» الملقب باسم «سثو» .



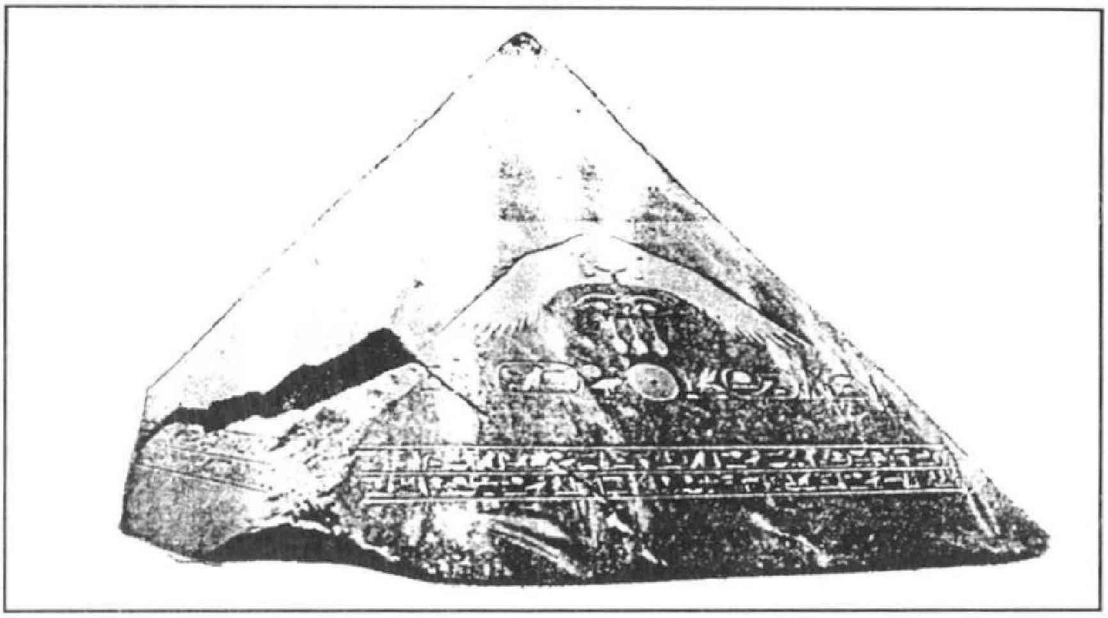
شكل رقم (١١): جزء من الجدار المقابل فى المقبرة ذاتها ، وهى من أواخر أيام الأسرة السادسة وقد لونت جدرانها بمناظر القرابين والأدوات المختلفة . عثر على هذه المقبرة إلى الشرق من معبد (إسيسى) عام ١٩٥٢ .



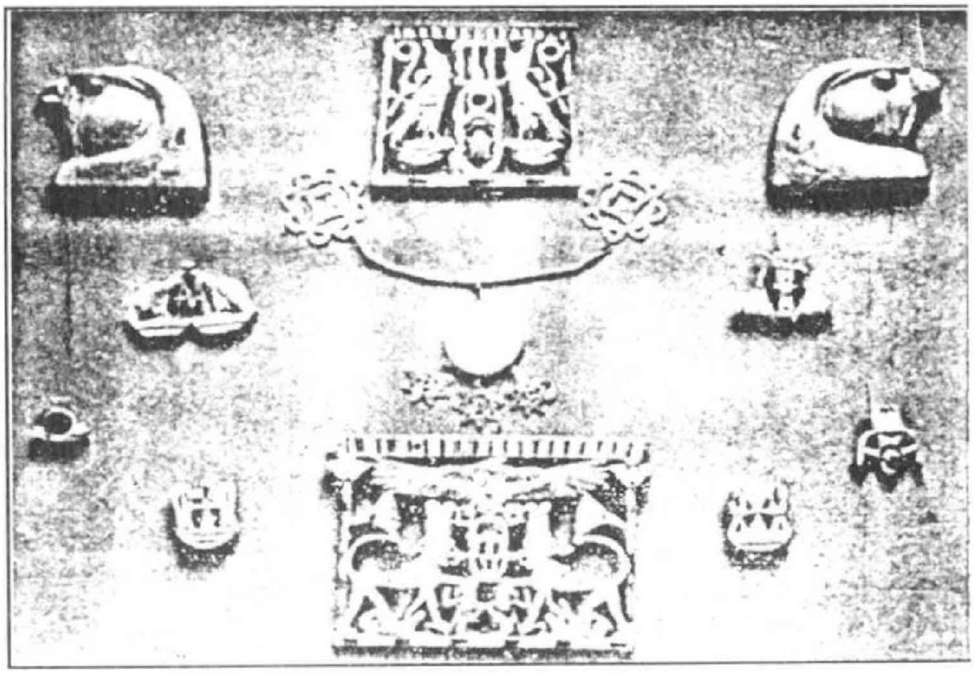
شكل رقم ١٢
القطعة الكبرى من حجر بالرمو ، وعليها سنوات حكم بعض الملوك وأهم ما حدث وما تم فى أعمال كل سنة .



شكل رقم ١٣ : نموذج لأحد الأثرياء وقد جلس يحيط به الكتبة والحراس يستعرض قطيع ثيرانه ويستمع إلى ما يقدمه الرعاة من بيانات – من مقبرة «مكت رع» من الأسرة الحادية عشرة ، وقد عثر عليه فى الأقصر مع أكثر من عشرين نموذجا آخر تمثل مظاهر الحياة اليومية المختلفة .



شكل (١٤) : هرم من الجرانيت كان فوق هرم أمنمحات الثالث بدهشور ، وهو الآن في المتحف المصرى بالقاهرة .



شكل رقم ١٥ : مجموعة من حلى الأسرة الثانية عشرة . ونرى عليها اسم الملك أمنمحات الثانى . وتعتبر الأسرة الثانية عشرة العصر الذهبى لصناعة الحلى فى مصر الفرعونية .

*** الفصل السادس ***

عصـــر الفتـــرة الثـــانيـــة

القسـم الأول

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

(١٧٧٨ – ١٦٨٠ ق.م.)

بين عهدين :

كانت الأسرة الثانية عشرة من أزهى عصور مصر دون شك ، وكان الملك أمنمحات الثالث من أعظم الفراعنة ليس فى تاريخ تلك الأسرة فحسب ولكن فى تاريخ مصر كلها . وقد اشترك معه فى حكم مصر فى آخر أيامه ابنه أمنمحات الرابع كما أسلفنا ، ثم تلته الملكة ، سوبك نفرو ، التى كانت إبنة لأمنمحات الثالث . وفجأة أخذ نجم هذه العائلة فى الأفول وتولاها الضعف ، وخرج الملك من يدها إلى أسرة أخرى وهى الثالثة عشرة . ويقف التاريخ – أو بعبارة أدق – يقف المؤرخون حائرين يتلمسون الأسباب لهذا التغيير وهذا الضعف الشامل الذى أصاب البلاد فلا يعرفون له سببا واضحا .

ويريد بعض الباحثين أن يرى أن سبب هذا الانحلال راجع إلى ظهور أعداء لمصر ، فى سورية وفلسطين وفى الجنوب ، ويعتمدون على وجود عدد غير قليل من الدمى والأوانى كتبت عليها تعاويذ سحرية لسحق أصحابها [١] .

ولو درسنا هذه التعاويذ والدمى لوجدنا أنها خاصة بأمراء من النوبة أو من آسيا وقفوا موقفا عدائيا من مصر ، فأراد بعض من أحاطوا بالملك أن يقنعوه بأنه من

(١) ترجع عادة كتابة أسماء الأعداء على أوان من الفخار الأحمر أو على قطع صغيرة من الطين ، أو تماثيل من الطين ، إلى العصر المتأخر من الدولة القديمة ولكنها أستعملت فى عصر الأسرة الثالثة عشرة على نطاق واسع . وقد عثر فى طيبة على أوان من الفخار الأحمر غطيت جوانبها بتعاويذ سحرية لسحق أعداء فرعون ونشرها زيته فى بحثه K. SETHE. Die Achtung feindlicher Fursten (Berlin. Abh.. 1926) أما الدمى فقد عثر عليها فى سقارة وكتب عنها پوزنر G.POSENER. Princes et pays D'Asie et de la Nubie (Bruxelles). 1940 وانظر أيضاً بحثا مختصرا للمؤلف نفسه عن هذا الموضوع نشره فى مجلة Chronique D'Egypte. No. 27 (1939) pp. 39 ff.

الممكن سحقهم بواسطة السحر ما دامت تعوز مصر الجيوش ، وفي هذا الدليل الكامل على ضعف البلاد ووقوفها مكتوفة الأيدى أمام ذلك الخطر الذى أخذ يهدد كيانها . وإنى أقدم هنا مثلا واحدا لما هو مكتوب على دمية من تلك الدمى : « باكويت المسمى جاى ، حاكم أباتس بن أهاسى وأونكات وجميع حلفائه الذين معه وجميع رجالهم الأقوياء وعدائيهم وجميع أصدقائهم وأتباعهم ، وكل ما تحدثه نفسه بالثورة أو التآمر ، والذين يحاربون أو يفكرون فى الحرب ، أو الذين يفكرون فى الخروج عن الطاعة فى جميع تلك البلاد » وإذا درسنا هذه المجموعة لوجدنا أن بين أصحابها كثيرين من أمراء الجنوب وأمراء الإمارات السورية ، وأسماء أصحابها أحيانا سامية وأحيانا أخرى مصرية . ونعرف من بين البلاد التى ذكرت على هذه الدمى أسماء جبيل (بيبلوس شمالى بيروت) وعسقلان ويافا كما ظهرت فيها لأول مرة كتابة إسم أورشليم -Au shamem) أوشاميم) .

وهناك ظاهرة أخرى وهى وجود دمى لبعض المصريين أيضا ، ومعنى ذلك أن مصر كانت تعانى شدة كبرى ، وأن مصريين فى مصر نفسها وأمراء سورية والسودان الذين كانوا يدينون لها بالطاعة أخذوا فى الثورة عليها وإن فرعون أصبح عاجزاً عن قمع الثورة فالتجأ إلى السحر لعله ينقذه مما هو فيه .

وهنا نعود مرة ثانية لنتساءل عن سبب هذا الإنهيار وتعليله فلا نجد إلا فروضا يمكننا أن نسوقها ، ولكن لا نجد فى النصوص المصرية ما يؤكدها تماما . وأول هذه الفروض أن ملوك الأسرة الثانية عشرة جاءوا وكانت مصر محكومة بحكام أقوياء فحاربوا بعضهم وهادنوا أو حالفوا البعض الآخر ، ولكن بقى للكثيرين منهم الجاه والثروة فى أقاليمهم فانتهزوا فرصة الضعف الذى انتاب البلاد بعد أمنمحات الثالث واستعادوا سلطانهم القديم ، خصوصا وأنه منذ بدء الأسرة الثانية عشرة كانت الخلافات والحزازات الداخلية فى العائلة تقطع أوصالها ، وكانت المؤامرات فى البيت المالك سببا من أسباب انهياره . وإلى جانب هذين الفرضين توجد حقيقة هامة ربما كانت هى أقوى الأسباب ، وهى أنه منذ عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريبا بدأت بعض الشعوب الهندو – أوروبية تأتى من الشرق والشمال من موطنهم الأصلى فى أواسط آسيا لتستقر فى بلاد الرافدين وفى سورية . وترتب على هذه الهجرات اضطراب فى تلك الولايات ، وقد حاربت بعض هذه القبائل سكان البلاد الأصليين وأجلتهم عنها ، كما استقرت قبائل أخرى مع السكان وعاشوا فى وئام ؛ لأن هذه الهجرات لم تتخذ طابع الغزو المنظم ، وإنما جاءت هذه الشعوب تباعا فى طلب العيش . ولم يمض غير قرنين من الزمان حتى أصبح منهم أمراء يحكمون البلاد ، بل إننا نستطيع أن نرى بين

أسماء أمراء سورية الذين ذكرت أسماؤهم على الدمى أن بعضهم يتسمى بأسماء غير سامية وربما كانوا من هؤلاء الغزاة الشماليين .

وأمام هذه الأخطار كلها لم يكن لمصر المفككة العرى من سبيل إلا الاستسلام للقضاء .

ملوك الأسرة الثالثة عشرة وآثارهم :

لا يمكن أن يكون قد زاد حكم ملوك هذه الأسرة عن خمسة وخمسين عاما؛ لأن مدة حكم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة لم يكن يزد على قرن ونصف كما سنرى ، وأن المدة التى تفصل الأسرة الثانية عشرة عن الأسرة الثامنة عشرة لم تزد على قرنين من الزمان ، بينما نرى أن المؤرخ المصرى مانيتون قد ذكر أنها تزيد عن خمسة عشر قرنا . وقد واجه مانيتون الصعوبة التى نواجهها الآن . فقد كانت أمامه قوائم طويلة لعائلات مختلفة فى نواحى مصر ، وكان كل منها يدعى الملك وأنه حاكم الشمال والجنوب ، فاعتبر مانيتون أن كل بيت من هذه البيوت حكم البلاد كلها ثم تلته البيوت الأخرى ، بينما الواقع أنها كانت تحكم فى وقت واحد عندما كانت مصر مفككة الأوصال . كان هناك بيت قوى فى طيبة وكان هناك بيت آخر فى قفط وثالث فى أسيوط ورابع فى شرق الدلتا وخامس فى غربها . وكان نفوذ بعض هذه البيوت يزداد حينا ويتقلص حينا آخر ، ولكن أهمها جميعا هو ما نسميه الأسرة الثالثة عشرة وهو البيت المالك الذى حكم على الأرجح فى منف فى الشمال وخلف آثارا كثيرة فى طيبة ، وفى أماكن كثيرة فى البلاد ، والذى ظهر من حكامه بعض ملوك امتد نفوذهم جنوبا إلى بلاد النوبة وشمالاً إلى لبنان .

وأول ملك معروف لنا هو ، سخم – رع – خو – تاوى ، الذى تسمى أيضاً باسم ، أمنمحات ، سوبك ، حوتپ ، . ويريد بعض المؤرخين أن ينسب إليه أنه تزوج من الملكة ، سوبك نفرو رع ، ولكن يعوزنا الدليل على ذلك . وتلاه على العرش ملك آخر اسمه ، سعنخ تاوى سخم كارع ، وقد جاء اسمه فى بردية تورين مثل سابقه ، وعثر على آثار له فى مختلف جهات مصر ، ولكن بدأت تسجيلات مقاييس النيل فى سمنه وكمه تنقطع فى عهده مما يجعلنا نرجح أن بدء عدم استقرار الأمور فى النوبة راجع إلى أيامه .

ولدينا عشرات من أسماء الملوك الذين عثر على تماثيل ولوحات لهم فى نواح متعددة من مصر فى شمالها وجنوبها ، ومن بين هؤلاء الملوك واحد يدعى ، خع – سخم – رع ، سوبك حوتپ ، ، عثر على أكثر من تمثال له فى صان الحجر ، وعثر

على تمثال له فى جزيرة أرقو بين الشلالين الثالث والرابع . ومن الأسماء الظاهرة بين هؤلاء الملوك اسم الملك « سمنخ كارع إميرا مشع » واسم الملك « خع سخم رع - نفر حوتپ » الذى يقترن اسمه بلوحة عثر عليها فى بيبلوس وتمثل أمير ذلك الإقليم واسمه « يوناتان » جالسا أمام أسمائه مما يدل على امتداد نفوذ مصر إلى بعض مناطق سورية فى عهده ، وربما كان هذا الملك ممن كانت لهم السيطرة التامة على شرقى الدلتا على الأقل .

ولابد من الإشارة إلى ملك آخر وهو « سواج - إن - رع » الذى جاء ذكر اسمه على لوحة عثر عليها فى الكرنك ، وعليها صورة عقد يتنازل فيه حاكم إقليم الكاب عن منصبه لأحد أقاربه مقابل ٦٠ دبناً (٩١ جراماً = دبناً) من الذهب ، وهى تشمل ذهبا وحبوبا وثيابا .. الخ .

أما الملك « نحسى » فإن ألقابه ووصفه بأنه « حبيب ست رب أواريس » تجعلنا نرجح أنه كان ذا صلة بأيام الهكسوس ، الذين كانوا قد بدأوا يستقرون فى شرقى الدلتا منذ أواسط أيام هذه الأسرة . ومن أبرز الأسماء فى هذه الأسرة اسم الملك « خنجر » الذى عثر على هرمه فى سقارة القبلية والذى نعرف أيضا أنه أمر وزيره « عنخو » ليقوم بإصلاح معبد سنوسرت الأول فى أبيدوس محتذيا بما قام به ملك يسمى « نفر حوتپ » الأول وهو من هذه الأسرة أيضا ، ونعرف من إحدى اللوحات أنه جمع رجال بلاطه وأمرهم بدراسة الكتب القديمة لإعادة تشييد معبد أوزيريس فى أبيدوس كما كان وقت إنشائه منذ القدم (١) .

وكان ملوك الأسرة الثالثة عشرة ، وربما الرابعة عشرة أيضا ، يدفنون فى جبانة منف ، وقد أشرنا إلى هرم الملك « خنجر » فى سقارة القبلية الذى كشفت عنه حفائر مصلحة الآثار فى عام ١٩٢٩ ، وكشفت فى الوقت ذاته على مقربة منه عن هرمين آخرين لم يكن قد انتهى العمل فى أحدهما ، ولم يستطع القائمون بهذا الكشف أن يعرفوا اسمى صاحبيهما .

وفى عام ١٨٩٤ كشف عن قبر ملك يسمى « حور - إو إب » وكان فى الناحية الشمالية من هرم أمنمحات الثالث فى دهشور داخل السور المحيط بالهرم ، وعثر فى هذا المدفن على أشياء ثمينة ومن بينها تمثاله الخشبى الشهير الذى يمثله واقفا فى

---

(١) اقتصرت هنا على ذكر أهم الملوك الذين خلفوا آثارا فى البلاد . ولو أردنا سرد أسماء لذكرنا عشرات منهم ذكرت أسماؤهم على جعارين . ولكنا لا نعرف فى الحقيقة مكانهم الصحيح أو إذا كانوا من هذه الأسرة أو من الأسرة الرابعة عشرة أو بعد ذلك .

ناووس من الخشب وقد مثله الفنان عاريا وفوق رأسه علامة الرمح ، كا ، وهو الآن فى المتحف المصرى .

وفى عام ١٩٥٧ أذيع فى الصحف نبأ الكشف عن هرم ملك يسمى ، أمينى عامو ، فى دهشور ، كتبوا اسمه على أوانى الأحشاء التى هشمها اللصوص ، ولكن فحص هذا القبر لم ينته بعد ، ومازال هناك أمل كبير فى العثور على أشياء أخرى .

وليس لدينا حتى الآن دليل على أن هذا الملك حكم فى الأسرة الثالثة عشرة ، وربما كان ملكا فى زمن آخر بين هذه الأسرة السادسة عشرة ، ولكن مهما كان الأمر فإن الكشف عن قبر فى هذه المنطقة من الجبانة المنفية وعلى بعد مئات قليلة من الأمتار من مدفن الملك ، حور إوا إب ، يعطينا بعض الأمل فى أننا سنعرف أيضاً أسماء غيره من ملوك عصر الفترة الثانية متى تم حفر ذلك العدد الكبير من المرتفعات التى تملأ هذه المنطقة ، وتمتد مسافة طويلة على حافة بركة دهشور ، وهى كلها إلى الشرق من هرم سنفرو القبلى وإلى الجنوب من هرم أمنمحات الثالث .

ومن الجدير بالذكر أيضاً أنه قد عثر على آثار بعض ملوك الأسرة الثالثة عشرة فى منطقة الختاعنة فى مركز فاقوس ومن بينها هريم من الحجر ، ومن الصعب جدا أن يقول أحد إن كانت بعض مقابر ملوك ذلك العهد كانت فى شرقى الدلتا حيث عثر على تلك الآثار ، أو أنهم جاءوا بها من منف لاستخدامها فى البناء فى عصور تالية .

الأسرة الرابعة عشرة (١٧٧٨ - ١٥٩٤ ق.م.) :

ويحدثنا مانيتون أنه بعد انتهاء حكم الأسرة الثالثة عشرة تلاهم ملوك الأسرة الرابعة عشرة ، وكان مقر حكمهم فى مدينة سخا فى غربى الدلتا . وجاء فى أقوال مانيتون أن عدد ملوك هذه الأسرة ستة وسبعون ملكا حكموا مائة وأربعة وثمانين عاما . وتذكر بردية تورين نحو واحد وعشرين ملكا منهم ، أما ثبت الكرنك فلم يشر إليهم . ومهما كانت قيمة كتابة مانيتون ومهما كثر عدد الملوك الذين جاء ذكرهم فى بردية تورين ، فمن المرجح أن هذه الأسرة بدأت فى الوقت الذى بدأت فيه الأسرة الثالثة عشرة ، ولكنها استمرت مدة أطول ؛ لأنها كانت بعيدة عن مقر الهكسوس فى الشرق . أما آثار ملوك هذه الأسرة - إن كان مازال لدينا أمل فى العثور على آثار لهم - فإنها إما مازالت كامنة تحت حقول المنطقة ، لم تكشف عنها يد حتى الآن ، أو أن

تكون الأيام قد عفت عليها لكثرة ما تعرضت له بلاد الدلتا من محن على مر السنين.

ومهما يكن من أمر ، فإن الأسرة الرابعة عشرة كانت تحكم فى سخا فى وقت من الأوقات ، بينما كان شرقى الدلتا خاضعا للهكسوس الذين بدأت طلائعهم تستقر هناك . أما طيبة ، وجزء كبير من الصعيد ، فقد ظلت تحت نفوذ البيوت الحاكمة هناك .

القسم الثانى

الهكسوس

مقدمة :

لم يحظ عصر من عصور التاريخ المصرى بعناية المؤرخين كما حظيت به تلك الفترة التى تعرضت فيها مصر لمحنة غزوها بشعب أجنبى أطلق عليه الناس اسم الهكسوس . وإذا أردنا حصر الأبحاث الجدية التى نشرت عنه لبلغت العشرات ، ومع ذلك فإن هناك كثيرا من النقط الغامضة التى مازالت موضع نقاش عنيف بين المؤرخين ، وهناك نقط أخرى مازلنا نجهل تأويلها ، ومازال علم الآثار يضيف من آن إلى آخر عن ذلك العصر كثيرا من المعلومات ، سواء أجاءت هذه المعلومات من مصر نفسها أو من خارج حدودها وبخاصة فى فلسطين . ولكن قبل أن نتحدث عن تاريخ هذه الفترة وأثرها فى تاريخ مصر ، يجمل بنا أن نعود قليلا إلى الوراء بل ونترك أيضا حدود مصر ونلقى نظرة على ما كان يجرى فى غربى آسيا .

ففى القرن التاسع عشر قبل الميلاد أى فى أواخر أيام الأسرة الثانية عشرة كان نفوذ مصر السياسى والاقتصادى والثقافى سائدا فى غربى آسيا . وكانت مصر دون شك أقوى بلاد الشرق الأدنى ، وكانت تتدفق عليها خيرات آسيا والنوبة وشمال السودان وشمال إفريقيا وجزر البحر الأبيض . وبالرغم من انتهاء أيام الأسرة الثانية عشرة حوالى عام ١٧٨٠ ق.م. (١٧٧٨ على وجه التحديد) (١) ، وتعرضها داخليا للضعف والإنحلال فإن نفوذها فى خارج حدودها لم يتأثر كثيرا ، ولم يجد بعض ملوك الأسرة الثالثة عشرة صعوبة فى الإبقاء على ولاء أمراء بعض الولايات وبخاصة فى بيبلوس وأوجاريت (رأس الشمر على مقربة من ميناء اللاذقية فى سوريا، كما ظل النفوذ المصرى أيضاً فى كرمة (فى نقلة) كما كان من قبل .

ولم تكد مصر تحاول النهوض من كبوتها حتى اضطرتها ظروف أخرى خارجية إلى التعثر ثانية ، فقد بدأت شعوب بلاد الرافدين وسورية وما جاورها عصرا

---

(1) LYNN WOOD, Bulletin ASOR 99.8; EDGERTON, JNES, I 34 ; SÅVE SÖDERBERGH, JEA. 37 (1951), p. 53 .

جديدا من تاريخها . فإننا نعرف من وثائق مدينة ماري (إسمها الحديث تل الحريري في سورية ، قريبا من حدود العراق) (١) ، والتي يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثامن عشر ، أن الملك الأشوري « شمشي أداد الأول » (Shamshi - Adad I) كان حاكما على جزء كبير من الجزء الأعلى من بلاد الرافدين ، ولكن ابنه « إشمادجن » (Ishma-Degan) لم يستطع المحافظة على قوة أشور السياسية فاستطاعت ماري أن تحرر نفسها . وهذا هو نص خطاب تلقاه « زمري ليم » (Zimri - Lim) حاكم ماري وهو يلقي كثيرا من الضوء على الموقف السياسي في هذه المنطقة من بلاد الشرق في ذلك العهد .

« لا يوجد ملك واحد يمكن أن يقال عنه إنه أقوى الجميع ، فإن عشرة أو خمسة عشر ملكا يتبعون « حمورابي » (ملك) بابل ومثل هذا العدد يتبعون « ريم سين » (Rim-Sin) (ملك) لارسا (Larsa) ومثل هذا العدد يتبعون « إيبال بي إيل » (Ibal Pi El) (ملك إشنونا (Eshnuna) ومثل هذا العدد يتبعون « أموت بي إيل » (Amut Pi El) (ملك) قطنا (Qatna) ، و«عشرين ملكا يتبعون « يريم ليم » (Yarim Lim) (ملك يمخد) (Yamkhad) (٢) ولكن هذه الاتحادات الصغيرة من المدن لم تبق طويلا فإن حمورابي ملك بابل هزم لارسا وماري واستولى عليهما ومن المحتمل أيضا أن يكون قد حكم مملكة أشور ، ولكن لم يمض إلا زمن قليل حتى بدأت قبيلة من الجبال الشرقية تنزل إلى السهل وهذه القبيلة هي التي يطلق عليها المؤرخون إسم «الكاسيين» (Kassites) ، التي استقرت وأسست حكمها في الجزء الشرقي من مملكة بابل .

أما في شمالي بلاد ما بين النهرين أي في أشور ، فإن شعبا أجنبيا آخر وهو شعب « الحريين » (Hurrians) جاء أيضاً من الشرق ولم يلبث إلا قليلا حتى صار له نفوذ كبير في البلاد ، وكان من الطبيعي أن يحدث التصادم بين الكاسيين والحريين ، وأن يشتد بينهما التنافس ، ولكن الحريين آثروا ترك ما سبق أن استولى عليه الكاسيون واتجهت أنظارهم نحو الجنوب الغربي فهاجموا بعض المدن هناك وكانت من بينها مدينة آلالاخ (Alalahk) عاصمة مملكة « يمخد » ، وتلا ذلك اضطراب عام في جميع البلاد السورية نشأ من جراء هذه الهجرات التي تدفقت عليها من ناحية الشرق ، ولم تكن هناك مندوحة من أن تتأثر مصر بما كان يجري على حدودها ، وكان من

(١) ALBRIGHT, Bull, 99,9 ff.

(٢) DOSSIN, Syria, 19, 117 f. وأنظر أيضاً ما كتبه سيدني سميث في كتابه SIDNEY SMITH, Alatakh and Chronology.

المحال أن تبقى بمنأى عن نتائج هذه الهجرات والغزوات فى بلاد الشرق الأدنى .

وقد سبق أن تحدثنا بالتفصيل عن حالة مصر وضعفها النسبى فى عهد الأسرة الثالثة عشرة ، وأشرنا إلى أنه من المحتمل أن تكون بعض الشعوب المهاجرة قد بدأت تستقر فى شرقى الدلتا منذ أواسط أيام هذه الأسرة وأن ذلك كان بداية ظهور الهكسوس فى مصر .

وبعد هذه المقدمة يبقى أمامنا موضوع الهكسوس نفسه ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ – من هم الهكسوس ؟

٢ – حكم الهكسوس فى مصر ؟

٣ – طردهم من مصر .

ولنبدأ الآن بالقسم الأول من الموضوع .

١ – من هم الهكسوس ؟

كتب مانيتون يقول (١) : « فى عهد الملك توتيمايوس (٢) (Toutimaios) ، ولا أدرى السبب فى ذلك ، أصابتنا ضربة من الله ، ودون أن نتوقع ذلك جاءنا غزاة من جهة الشرق من أصل مجهول ، ساروا تملؤهم الثقة فى النصر ضد بلادنا وتمكنوا بقوتهم من الإستيلاء عليها بسهولة دون ضربة واحدة وبعد أن تغلبوا على حكام البلاد حرقوا مدننا دون رأفة ، وهدموا معابد الآلهة من أساسها وعاملوا جميع الأهالى بعداء قاس ، فذبحوا البعض وأخذوا نساء وأطفال البعض الآخر ليكونوا إماء وعبيدا لهم . وأخيرا عينوا واحدا من بينهم إسمه « ساليتيس » (Salitis) ليكون ملكا عليهم فأقام فى منف وفرض الضريبة على شمالى مصر وجنوبيها وكان يترك دائما الحاميات فى أكثر المواقع المناسبة » . ويزيد مانيتون على ذلك بأن ساليتيس بنى حصنا فى أواريس فى شرقى الدلتا ويذكر أنه ترك فيها حامية عدد رجالها ٢٤٠,٠٠٠ مزودين بأسلحتهم ، وكان يذهب لزيارة هذا الحصن ويتفقد رجاله فى شهور الصيف من كل عام . ويذكر مانيتون عددا من ملوك الهكسوس كما يذكر بعد ذلك قصة إخراجهم من

(١) MAMITO. ed. W.G. WADDEL. 79 ff.

(٢) يعتقد أولبرايت أن إسمه (Timaios) (ALBERIGHT. Bull. ASOR 99. 15 n. 44) وأنه من المرجح أن يكون هو الملك المصرى ديدومس الذى وجد إسمه منقوشا على صخور النوبة .

مصر (١) . ولكن هناك فى الوثائق المصرية القديمة بعض ما يزيد من معلوماتنا عنهم فقد أشارت الملكة حتشبسوت فى معبدها المنحوت فى الصخر فى بنى حسن (اسطبل عنتر إلى الهكسوس بقولها ، لقد أقمت ما كان قد تداعى ، وكذلك ما كان قد تهدم فى الوقت الذى كان فيه الأسيويون يحكمون فى أواريس فى الشمال ، وكانوا بجحافلهم المتجولة يعيشون بين الناس فسادا محطمين ما كان قائما . إنهم كانوا يحكمون دون (اعتراف بسلطان) رع ، وكان رع لا تنفذ له إرادة إلهية حتى جاء عهدى العظيم (٢) . وفى لوحة كارنارفون أو لوحة الكرنك الجديدة أو بردية ساليه التى سنتحدث عنها فيما بعد ، لا نجد ما يفيدنا فى البحث عن أصل الهكسوس أكثر من نعتهم بأنهم ، أسيويون ، .

من ذلك كله نرى أنه لا جدال بين العلماء فى أن الهكسوس أتوا من الشرق وأنهم جاءوا من آسيا ، ولكن إذا أردنا أن نقترب أكثر من ذلك لنعرف من أى جنس كانوا فإننا نصل إلى النتيجة الآتية : وهى أنهم ليسوا من شعب واحد وإنما من شعوب متعددة ، وأنه وإن غلبت فى أسمائهم الأسماء السامية فإننا نجد أيضا أن فيهم عناصر غير سامية لا شك أن بعضها ، كاسى ، والبعض الآخرى ، حرى ، وكلا الجنسين من أصل هندو - أوروبى نزل من أواسط آسيا كما سبق القول .

وكلمة الهكسوس ليست اسما ساميا أو آريا بل كلمة مصرية وهى تحريف للقب معروف منذ الأسرة الثانية عشرة وهو ، حقا خاسوت ، أى حاكم البلاد الأجنبية ، وكان لقبا يطلقه المصريون على زعماء القبائل البدوية التى كانت تعيش فى شرقى مصر ، ونراه مكتوبا فوق منظر قدوم البدو الساميين فى إحدى مقابر بنى حسن كما جاء أيضا فى قصة سنوهى أثناء حديثه عن إقامته بين بدو لبنان - سورية . ولا جدال فى أن هؤلاء الهكسوس جاءوا من طريق فلسطين وربما كانت جحافلهم

(١) لم يصلنا النص الذى كتبه مانيتون كاملاً وإنما وصلت إلى أيدينا أجزاء منه كما نقلها المؤرخ اليهودى يوسيفوس Flavius Josephus الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد . وقد سبق أن ذكرنا فى الفصل الأول أن يوسيفوس كتب كتابه رداً على العالم الأسكندرى أبيون (Apion) . رد عليه يوسيفوس ونقل ما نقله من مانيتون مدعياً بأن الهكسوس كانوا يهوداً وأنهم كانوا ملوكاً ذوى سلطة وجاه وحضارة وأنهم قوم ذوو تاريخ ومجد .

ولم يبق الزمن على نسخة من تاريخ مانيتون حتى يمكننا القول بأن ما ذكره يوسيفوس منقول بأمانة من المؤرخ المصرى القديم ، أو دخله التحريف ومدى هذا التحريف .

ومن خير الأبحاث عن كتاب يوسيفيوس THACKERY. Contra Apionem (London. 1926).

(٢) أحدث الترجمات للنص المصرى الذى على واجهة هذا المعبد هى ترجمة GARDINER. JEA. 32. (1947) pp. 48. ff.

المختلطة مستقرة هناك قبل مجيئهم إلى مصر ، فلما ضغط عليهم غيرهم هاجروا إلى وادى النيل وحملوا معهم كثيرا من عاداتهم ومظاهر ثقافتهم .

وكانت هناك آراء فى أنهم جاءوا عند غزوهم لمصر بالخيل والعربات الحربية ، وأنه كانت لهم مملكة واسعة شملت رقعة كبيرة من آسيا مدللين على ذلك بتشابه الحصون الحربية ووجود أنواع خاصة من الفخار ، ولكن أحدث الأبحاث العلمية لا تقبل هذه الآراء الخاصة بإمبراطورية هكسوسية بحال من الأحوال . كما أنه يعوزنا الدليل على أن الغزاة الأجانب جاءوا بالخيل والعربات، بل أنهم لا يستعملوها إلا فى أواسط أيام حكمهم فى مصر وبعد أن مر عليهم فيها نصف قرن على الأقل (١) ، أو ربما بعد ذلك أيضا قبيل طردهم من مصر .

٢ - حكم الهكسوس :

تعتمد معلوماتنا عن هذا الموضوع على مصدرين أولهما ما كتبه مانيتون وما جاء على الآثار ، أما ثانى المصدرين فهو ما أخرجته الحفائر الأثرية فى مصر وفلسطين.

وتجمع المصادر المصرية على أن الهكسوس كانوا قوما مخربين وأنهم أذلوا مصر وخربوا معابدها ، ولكن النقد الصحيح لا يمكن أن يقر الاعتماد على وجهة نظر أحد الخصمين فقط فإن ما وصل إلى يدنا من هذه النصوص كتبه المصريون بدافع الوطنية الخالصة أو بدافع آخر من الزهو والدعاية من جانب الملوك المتأخرين مثل حتشبسوت الذين قاموا بإصلاح ما أصاب بعض المعابد أثناء حرب التحرير .

فمثلا نقرأ فى نص حتشبسوت إنهم لم يعرفوا الإله « رع » ولم يوقروه بينما نرى الكثيرين من ملوكهم جعلوا اسم رع جزءا من أسمائهم مثل « عا أوسر رع » و « نب خبش رع » و « عاقنن رع » (٢) ، بل أن بعض ملوكهم كتبوا أمام أسمائهم أنهم « ابن رع » جريا على عادة من سبقهم من ملوك مصر . وفى هذا دليل على عدم صحة ما ادعته حتشبسوت .

أما عن سوء معاملتهم للمصريين فإن هذا أمر طبيعى ، فويل للمغلوب من

(١) انظر T. SAVE. SODERERGH. The Hyksos Rule in Egypt. J.E.A. 37 (1951). p. 59.

(٢) هؤلاء الملوك الثلاثة كان كل منهم يتسمى باسم ابوفيس « بيبى » ولكن يوجد غيرهم كثيرون أمثال « عا . حتب . رع » « خع . أوسر . رع » « خع . ان . رع » « ما عت . إب . رع » « نب . تاوى . رع » « خع . مو . رع » وغيرهم .

الغالب فى كل زمان ومكان ، وليس عجيبا أن نسمع بأن القاهر كان ظالما أو مستبدا بل العجيب أن نتوقع أن نسمع من المغلوب رضاءه عن قاهريه وسالبى حريته ومن أذاقوه طعم المذلة والهوان .

وإذا رجعنا إلى الآثار نفسها لوجدنا أن مدة احتلال الهكسوس لمصر لم تدخل أى تطور ملحوظ على الفن المصرى أو الحياة المصرية ، فكل شيء سار فى مجراه الطبيعى وإذا كانت هناك بعض عناصر جديدة فى الفن المصرى أو فى الفخار فإنها كانت نتيجة منتظرة لزيادة اتصال مصر بغربى آسيا عندما كان الهكسوس فى شرقى الدلتا وكان أهلهم الأقربون يعيشون فى فلسطين وسورية .

أما ديانتهم – أو ديانة الذين لم يعتنقوا ديانة المصريين من بينهم – فإنها تركزت فى عبادة الإله سوتخ وهو دون شك أحد مظاهر الإله « ست » المصرى الذى كان معبودا فى شرقى الدلتا منذ الدولة القديمة (١) وأنه لم يكن غريبا على البلاد . والمرجح أن الهكسوس رأوا فى هذا الإله شبيها أو صورة من الإله الأسيوى « بعل » ، فقبلوا أن يعبدوه وجعلوا منه المعبود الأكبر فى البلاد ، فكان فى هذا الإجراء بعض ما آذى شعور السكان الذين كانوا يعبدون آلهة أخرى . ولكنا نعرف أيضا أن الحمار كان ذا شأن فى ديانتهم وسواء أكان هذا الحيوان رمزا للإله سوتخ أو رمزا لمعبود آخر فأنهم كانوا يجلونه ويدفنونه فى مقابرهم وكان الهكسوس يرسمون الإله سوتخ فى مظهر أسيوى أكثر منه مصريا فإنه كان قريبا من مظاهر الآلهة الأسيوية أمثال « بعل » و « رشب » (Reshep) و « تشوب » (Teshub) فإن رداءه ولباس رأسه الذى يخرج منه القرنان صورة تامة للآلهة الأسيوية (٢) وهناك أثر هام لتاريخ ست والهكسوس على السواء ، وهذا الأثر هو اللوحة المعروفة باسم لوحة عام ٤٠٠ (٣) ، التى عثر عليها مرييت فى صان الحجر ثم دفنت ثانية وبحث عنها بترى وبارازنتى دون جدوى إلى أن عثر عليها مونتيه فى حفائره هناك . وقد أقام الملك رمسيس الثانى هذه اللوحة تخليدا لزيارة أبيه وجده لهذه المدينة فى وقت من الأوقات وكان ذلك فى أيام الملك حور محب عندما كان الجد أحد قواد الجيش وكان الأب ضابطا فيه . حدثت هذه الزيارة حوالى عام ١٣٣٠ ق.م. ، وكان قد مضى إذ ذاك على بدء عبادة « ست

(١) SETHE, Urgeschichte und älteste Religion der Ägypter, 47 ff.
أنظر أيضاً ما كتبه يونكر فى مجلة Z.A عدد ٧٥ ص ٧٧ ما تلاها ! وما كتبه شتوك فى مؤلفه عن الفترة من الأسرة ١٣ ، ص ٦٣٠ وما بعدها .

(٢) DUSSAUD, RHR 109, 116 ff; SÅVE-SÖDERGH, Ibidem, p. 64.

(٣) MONTET, ' La Stéle de L'An 400' Kemi IV (1933) p. 191-216 ; MARIETTE, Revue d'Arch. XI (1865) p. 169-1900

، فى هذه المدينة ٤٠٠ سنة (١) فلو رجعنا أربعمائة سنة إلى الوراء لرأينا أن عام ١٧٣٠ وهو بدء إعلان تتويج الإله ست إلها للبلاد كلها يوافق بدء سيطرة الهكسوس على مصر (٢) .

أما السبب الذى حدا برمسيس الثانى إلى إقامة هذا الأثر فهو ولا ريب تمجيد لهذا الإله الذى كان يحتل المكانة الأولى فى المدينة التى جاءت منها عائلة هذا الملك.

ملوك الهكسوس :

إذا أردنا حصر ملوك الهكسوس سواء من ذكرهم مانيتون أو من ذكرهم الإفريقى (Africauss) أو من وصلت إلينا أسماؤهم مكتوبة على الآثار لوجدنا أمامنا جدولا طويلا من الأسماء وبخاصة ما جاء منها مسطرا على الجعارين .

ولنبدأ الآن بمانيتون . فنراه قد قسم ملوك مصر فى عهد الهكسوس إلى ثلاث أسرات أولاها وهى الأسرة الخامسة عشرة تتكون من ستة ملوك يبدأون بالملك ساليتيس ثم يليهم ملوك الأسرة السادسة عشرة (فى مختصر الأفريقى) وعدد ملوكها اثنان وثلاثون ثم بعد ذلك ملوك الأسرة السابعة عشرة المعاصرون لملوك طيبة وعددهم ثلاثة وأربعون .

وقد تكلم عن هؤلاء الملوك وآثارهم بالتفصيل كل من الدكتور باهور لبيب (٣) والدكتور شتوك (٤) فى رسالتيهما عن هذا العصر ويكفينا فقط أن نشير إلى بعضهم مثل الملوك الثلاثة الذين يتسمون باسم أبوفيس (إبيبى باللغة المصرية) والذين عثر على آثار كثيرة تحمل أسماءهم فى أماكن عديدة من مصر ، ومن بينها تماثيل وأحجار منقوشة وبعض آثار صغيرة مثل الخنجر المصنوع من البرونز الذى عثر عليه فى سقارة فى مدفن شخص يسمى ، عبد ، وكان هذا الخنجر باسم شخص سامى آخر اسمه ، نحمان ، .

ومن أهم ملوك الهكسوس الذين لا يمكن إغفال ذكرهم الملك المسمى ، خيان ،

(١) على وجه التحديد كان تاريخ زيارة الجد والأب فى : السنة الأربعمائة ؛ الشهر الرابع من فصل الصيف . اليوم الرابع من حكم ملك الوجهين القبلى والبحرى : أى أن التاريخ هنا كان لبدء حكم هذا الإله فى تلك المدينة .

(٢) الرأى المتفق عليه نهائيا بين العلماء أن بدء حكم الهكسوس لابد أن يقع بين عامى ١٧٣٠ و ١٧٣٥ ق.م.

(٣) P.C.LABIB. Die Herrschaft der Hyksos in Ägypten und ihr Sturtz (1936) .

(٤) H. STOCK. Studien zur Geschichte und Archeologie der 13 bis 17 Dyn. Ägyptens (1942) .

وربما كان هو الذى ورد فى قائمة مانيتون تحت اسم جناس (Jannas) ونعرف من آثاره الكثيرة أنه كان يحمل لقب « حقا خاسوت » من بين ألقابه ، وكان أيضا رئيس الجند ، وكان ابن الشمس ، كما كان يسمى الإله الطيب مثل ملوك مصر السابقين . ومن المهم جدا أن نعرف أن آثار هذا الملك عثر عليها فى جهات مختلفة من مصر، وفى سورية ، وفى فلسطين ، ومنها أيضا الأسد الذى يحمل اسمه الذى رؤى فى بغداد يوما ما لدى أحد تجار الآثار وغطاء اناء من المرمر جاء من حفائر السير أرثر إيڤانز فى كريت .

وما من شك فى أن « خيان » كان من أعظم ملوك الهكسوس ولكن وجود بعض الجعارين باسمه فى سورية وفلسطين ، أو تمثال صغير لأسد لا يزيد طوله عن ٤٥,٢ سم فى بغداد أو غطاء آنية متوسطة الحجم فى كريت لا تجعلنا ننساق وراء من يذهب بهم الخيال إلى جعل هذه الأشياء أساسا لنظرية اتساع ملك الهكسوس ، وأنهم كانوا على رأس امبراطورية شملت مصر وسورية وفلسطين والعراق وجزر البحر الأبيض المتوسط فإن هذا غير مقبول ولا يستند على أى دليل جدى ؛ لأن جميع هذه الآثار من السلع التى يمكن أن يقال عنها إنها سلع تجارية وسهل حملها من مكان إلى مكان ، وعلى هذا فإن الإتجاه الحديث يخالف المؤرخ الكبير إدوارد ماير فيما رآه (١) .

٣ - طرد الهكسوس

كان مركز حكم الهكسوس فى شرقى الدلتا ، ولكن نفوذهم امتد مع الزمن فشمل الدلتا بأكملها والصعيد ، وإن كنا نجهل الصلة التى كانت بين الهكسوس وأبناء البلاد ، ونجهل أيضاً تقسيمها الإدارى فى ذلك العهد ، فإننا نستطيع أن نستشف مما وصل إلينا من وثائق أنه ليس بمستبعد أن يكون الهكسوس قبلوا دفع الجزية ممن والاهم من أمراء البلاد الذين ظلوا على رأس إماراتهم عندما غزوا مصر وآثروا السلامة فلم يدافعوا عن وطنهم .

فإذا كان هناك حقيقة أمراء مستقلون فإن أحدا منهم لم يجرؤ على ادعاء الملك وتلقيب نفسه بألقاب الفراعنة المصريين كما كان الأمر فى الأسرة الثالثة عشرة ، ومرت أيام الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة دون أن يكون هناك بين أمراء البلاد من يستطيع مقاومة نفوذهم ، ولكن فى الأيام الأخيرة من حكمهم بدأ بعض أمراء الصعيد يحسون بقوتهم ، وكان أكثرهم نفوذا وأعظمهم سلطانا أمراء طيبة الذين

(١) ED. MEYER, Geschichte I. & 306, 307.

أخذوا يتحالفون مع جيرانهم فى شمالى طيبة وجنوبيها ، ولكنهم ظلوا يدفعون الجزية لملوك الهكسوس . وجاء اليوم الذى رأى فيه هؤلاء الأمراء أنهم أصبحوا ذوى حول وقوة ، وأن قوة أعدائهم فى الشمال أخذت فى الإنحلال فلم يترددوا فى اعتبار أنفسهم ملوكا لإقليمهم ، وبدأوا يكتبون أسماءهم فى خانة ملكية مسبوقة بألقابهم التقليدية بأنهم ملوك الوجهين القبلى والبحرى ، وهؤلاء هم ملوك الأسرة السابعة عشرة الذين كانوا معاصرين للمتأخرين من ملوك الهكسوس فى الدلتا .

ولسنا نعرف على وجه اليقين مدى العلاقة بين هؤلاء الملوك الطيبين وملوك الهكسوس ، فمن المرجح أن الطيبيين امتنعوا عن دفع الجزية ، أو أن ملوك الهكسوس رأوا خطرا فى ترك أمراء طيبة وشأنهم فبدأ الاحتكاك بين الفريقين . والوثيقة الأولى التى تتحدث عن بدء النزاع ليست وثيقة معاصرة وإنما هى وثيقة من عصر متأخر من عصر الرعامسة أى يرجع تاريخ كتابتها إلى بضع قرون بعد طرد الهكسوس من مصر ، وربما كان مرور بهذا الزمن وطبيعة هذا النص كافيين لإدخال كثير من الخيال على محتوياته . تلك الوثيقة هى بردية سالييه ١ (١) . ونعرف من هذه الوثيقة أن الطاعون كان قد إجتاح البلاد ، مشيرين بذلك إلى وجود الهكسوس فى مصر ، وأن البلاد كانت خاضعة لهم وأن الملك أبوفيس جعل من الإله سوتخ معبودا لمصر ولم يقدم قربانا لإله غيره ، وبنى له معبدا إلى جوار قصره ، وكان يعبده دون حياء كما كان يعبد الناس فى مصر إله الشمس رع – حورحتى . وكان سقننرع فى ذلك الوقت حاكما على طيبة ولم يقبل أن يعبد إلها غير الإله أمون – رع .

ونعرف من سياق القصة فى بردية أن سقننرع كان يعترف بسيادة ملك الهكسوس ، ولهذا استقبل رسول أبوفيس بحفاوة عندما جاءه من أواريس ليبلغه بأن أفراس النهر فى مياه طيبة تقلق نوم أبوفيس وهو فى قصره فى الدلتا ولهذا فهو يطلب منه إسكاتها ، وأن يهجر أفراس النهر ذلك المكان ، وذلك إلى جانب طلبه الآخر وهو ضرورة عبادة الإله سوتخ . وحاول سقننرع تهدئة خاطر الرسول ، ثم تملكته الحيرة فجمع رجاله لاستشارتهم . ولكن البردية ليست تامة لسوء الحظ ، وإن كنا نستطيع أن نخمن أن السبب فى كتابة مثل هذه القصة هو تسجيل انتصار الملك سقننرع على عدوه وربما كان الانتصار نفسه هو الذى أجبر الهكسوس على الاعتراف باستقلال حكام طيبة ، أو على الأقل أجبرهم على السكوت .

(١) GARDINER, late Eygtian Stories, 85 ff; LEFEBVRE, Romans et Contes Egyptiens, p. 131 ff.

وباللغة العربية كتاب سليم حسن . الأدب المصرى القديم (القاهرة ١٩٤٥) ص ١٠٥٠ .

أما الملك أبوفيس فربما كان واحد من ثلاثة تسموا بهذا الاسم وذكرهم مانيتون ضمن ملوك الأسرة السادسة عشرة ، وبنى أحدهم وهو أبوفيس (عاقننرع) معبدا ، أو على الأقل أصلحه أو بنى جزءا منه فى أواريس ، ولهذا نرجح أن يكون هو الملك الذى أراد مناوأة سقننرع وبدأت فى أيامه المعركة الأولى من سلسلة المعارك التى انتهت بطردهم من مصر . وإذا كانت بردية سابيه ١ هى الفصل الأول من كتاب التحرير فإن الفصل الثانى نقرؤه عندما نفحص مومياء سقننرع ، وقد أبقى عليها الزمن وهى محفوظة الآن فى المتحف المصرى ، فنرى أن صاحبها مات متأثرا من جراح كثيرة فى صدره وضربه فأس فى رأسه مما يجعلنا نرجح أن يكون هذا الملك قد مات فى الحرب (١) ، وخط بدمه صفحة نقية فى تاريخ بلاده . أما الفصل الثالث من القصة فإننا نقرؤه بشىء من التفصيل فى نص معاصر كتب فى أيام الملك كامس (كاموسه Kamosé) ووصل إلينا أولا منذ أعوام طويلة على لوحة صبى فى أحد المكاتب أملاها عليه مدرسه كقطعة إملاء ثم عثر على جزء من لوحة من الحجر الجيرى فى الكرنك عام ١٩٢٨ . واللوحة الأولى هى المشهورة باسم لوحة كارنارفون وقد نشرها جاردنر (٢) ، واللوحة الثانية التى نشرها لاكو (٣) وهى دون شك جزء من اللوحة الأصلية التى نقلت عنها لوحة كارنارفون .

ويبدأ هذا النص القديم بالتاريخ . فنعرف أن ذلك كان فى السنة الثالثة من حكم الملك كامس وهذا هو النص :

« الملك القوى فى طيبة كامس له الحياة إلى الأبد . إنه ملك صالح وقد حباه رع ليكون ملكا حقا وسلم إليه القوة وأيم الحق . وكان جلالته فى القصر وقال للمجتمعين من كبار رجال الذين كانوا حوله : أريد أن أعرف مدى سلطانى إذا كان هناك حاكم فى أورايس ، وآخر فى كوش ، وأجلس شريكا بين أسيوى ونوبى ويحكم كل منا جزء من مصر ، إن هذا الذى يشاركنى فى الأرض يجعلنى لا أستطيع الوصول إلى منف وهى تابعة لمصر ، لأنه يتحكم فى مدينة الأشمونين . والناس فى نصب لأنهم جميعا فى خدمة الأسيويين . سأحاربه وسأبقر بطنه؛ لأن رغبتى هى أن أخلص مصر وأسحق الأسيويين » . وقد أجابه مجمع رجاله بما يأتى : « انظر إن

(١) لا شك فى أن سقننرع مات متأثرا من جراحه ولكن بعض الأثريين الأجانب مثل جاردنر وجن GARDINER - GUNN J.E.A. 5. 43. يتشككون فى أنه مات فى موقعة مع الهكسوس ويقولون بأنه يعوزهم الدليل . ولكن مثل هذه النغمة لا تدهش أحدا وبخاصة إذا جاءت ممن يؤمنون بإضعاف كل ما من شأنه إيقاظ الروح القومية بين الشرقيين .

(٢) J.E.A. 3. 95 FF ; 5 45 FF.

(٣) LACAU. ANNALES DU SERVICE 39. 245 FF.

منطقة الأسيويين تمتد حتى القوصية ، ثم حركوا ألسنتهم وقالوا بصوت واحد ، ولكننا فى طمأنينة ونحكم مصرنا ، وإلفنتين بخير ، وجميع البلاد حتى القوصية إلى جانبنا والرجال يحرثون لنا أراضينا ، وترعى ماشيتنا فى الدليل ، ويأتينا الشعير علفا لخنازيرنا . لم يأخذ أحد ماشيتنا غصبا ولم يعتد علينا معتد . إنه يتملك على أرض الأسيويين ونحن نتملك على أرض مصر . أما إذا جاءنا أحد واعتدى علينا فإننا نقاومه ، . ويستمر النص فيقول إن ما فاهوا به أحزن قلب الملك وصاح فيهم بأنه سيطرد هذا الذى يشاركه الملك ، وأنه سيذهب إلى الشمال لينقض عليه وأنه واثق من أن النصر آت ، وأن البلاد كلها ستهتف لهذا الحاكم فى طيبة وستقول عنه ، كامس هو حامى مصر ، .

إذن لقد بدأ النضال مرة أخرى ولم يكن هذه المرة دفعا لتحرش كما حدث فى أيام سقننرع بل أن الشبل نما وترعرع وأصبح شبيها بأبيه ، وأحس أنه لابد من تطهير البلاد مما تحمله أرضها من رجس وشر . ونفهم من باقى النص أن أول معركة خاضتها جيوش طيبة كانت فى مدينة نفروسى فى إقليم الأشمونين وأن حاكمها المسمى تيتى بن بيأوبى جعل من إقليمه عشا للأسيويين ، أى أنه كان ممالئا لهم ، وكانت فى بلده حامية للهكسوس ولكنه انتصر عليهم ، وعند هذا الكلام ينتهى النص.

كانت هذه كل معلوماتنا عن حرب كامس مع الهكسوس حتى شهر يوليه ١٩٥٤ ، إذ شاء الحظ الحسن أن يعثر رجال مصلحة الآثار ، أثناء ترميمهم لبعض آثار الكرنك على لوحة ، استخدمها القدماء لتكون بين أحجار الأساس التى يقوم فوقها أحد التماثيل الكبيرة للملك پينزم أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين . كانت اللوحة كاملة لحسن الحظ ، وهى من الحجر الجيرى وارتفاعها ٢٢٠ سم (ولكنها كانت فى الأصل ٢٣٥ وتهشم الآن جزء من أعلاها وجزء من أسفلها) ، وعرضها ١١٠ وسمكها ٢٨ سم ، وتغطى الكتابة أحد سطحيها وجانبيها ، وعليها ٣٨ سطرا من الكتابة تكمل لنا قصة كفاح كامس ضد الهكسوس (١) .

ونعرف الآن أن النص الذى أمر كامس بكتابته تسجيلا لانتصاره لم يكن على لوحة واحدة وإنما كان على لوحتين أقيمتا على الأرجح على جانبى مدخل أحد

(١) M. HAMMAD, Découverte d'une st'ele du Roi Kamose, Chronique d'Egypte, T.XXX (Juillet 1955) , p.198-208 ; LABIB HABACHI, Preliminary report on ka,psc Ste;a, Amma;es di Servoce, LIII (1955) ; p. 195 ff.

الهياكل فى معبد الكرنك ، وكان الجزء الأل من النص مكتوبا على لوحة مماثلة للوحة التى عثر عليها أخيرا ، ولكنها تعرضت لسوء الحظ للتحطيم ولم يبق منها إلا أجزاء قليلة هى التى عثر عليها داخل البيلون الثالث فى الكرنك من عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ولكن نصها الكامل تقريبا معروف لنا من لوحة كارناڤون . أما الجزء الثانى وهو الذى كان على الجانب الأيسر من المدخل فقد ظل سليما حتى استخدمه ملوك الأسرة الحادية والعشرين فى أساس أحد التماثيل كما ذكرنا .

والنص الذى على اللوحة الجديدة يكمل ما سبقه على اللوحة الأخرى ، وينحى باللائمة على ملك الهكسوس ويذكر هزيمته أمامه وخوف الأسيويين من جيش مصر و « أن نساء أواريس لن يلدن بعد ذلك » . ويصف كامس غريمه « أبيبى » بأنه زعيم « رتنو » ويتحدث على حربه على سطح الماء فى معركة نيلية ويذكر انتصاره واستيلاءه على الكثير مما كان لدى عدوه ، وبخاصة ثلاثمائة سفينة مصنوعة من خشب الأرز ، كانت تفيض بمحتوياتها من الذهب واللازورد والفضة والفيروز وفؤوس القتال المصنوعة من النحاس ، والكثير من زيت الزيتون والبخور والدهن والعسل والكثير من أنواع الأخشاب الثمينة . ويذكر كامس على هذه اللوحة أنه أسر رسولا اتخذ طريق الواحات بعث به أبيبى (أبوفيس) إلى كوش يحمل رسالة مكتوبة بخطه يحرض فيها أمير كوش (النوبة العليا) على مهاجمة مصر من الجنوب أثناء اشتغال كامس بحربه ، ويعده بأن يتقاسم معه مدن مصر .

وخشى كامس أن يحدث هجوم عليه من طريق الواحات فأرسل حملة من رجاله احتلت الواحات البحرية؛ لأنها على رأس الدروب الموصلة إلى مصر الوسطى . ثم يعدد كامس المدن التى استولى عليها ، وفرح أهل طيبة بانتصاراته واستيلائه على البلاد الواقعة بين الأشمونين وأطفيح ، ولكن الاستيلاء على الوجه البحرى كله وعلى أواريس عاصمة الهكسوس لم يتم على يديه بل تم على يدى أخيه أحمس كما سنرى .

وقبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى أحب أن ألفت النظر إلى حقيقة هامة وهى وجود جنود من الميجا ، وهم من النوبيين الحاميين سكان شرقى السودان والصحراء الشرقية ، بين رجال كامس كما جاء فى لوحة كارناڤون ، وهذا فى حد ذاته دليل على أن أمراء البيت الطيب كانوا قد استعادوا صلتهم بعض الشيء بالجنوب وكان بعض أبناء النوبة مشتركين فى حرب الاستقلال (١) .

(١) إن اشتراك بعض جنود الميجا فى جيش طيبة لم يكن إلا إستمرارا لتقليد قديم منذ عهد الدولة القديمة كما نعرف من تاريخ حياة القائد « ونى » من الأسرة السادسة مثلا . أما ما ذهب إليه سودربرج (J.E.A. 37, p. 71) من أن الهكسوس جلبوا أسيويين والمصريين جلبوا إفريقيين وأن النزاع أصبح نزاعا بين آسيا وأفريقيا فهو محض خيال بعيد .

ولسنا نعرف كيف انتهت أيام البطل الثانى من أبطال الجهاد ولكنا نرى فجأة أمامنا البطل الثالث وهو الملك أحمس كامس الذى تسلم منه راية الجهاد وأعلنها حرباً لا هوادة فيها فتم له النصر وأجلى العدو عن مصر كلها . ولسنا نعرف قصة حروب أحمس من أى أثر ملكى ، ولكن الأيام قد أبقيت على مقبرة أحد قواده واسمه ، أحمس بن إبانا ، من أهل منطقة الكاب على مقربة من إدفو ، فإن هذا القائد يحدثنا عن تاريخ حياته وتنقله فى الخدمة العسكرية كقائد لإحدى السفن ، ويذكر لنا كيف تبع سيده الملك أحمس فى حربه مع الهكسوس وكيف سقطت أواريس بعد حصارها وكيف فر الهكسوس إلى مدينة شاروهن (Sharuhen) فى جنوبى غزة وأن المصريين حاصروها ثلاث سنوات حتى سقطت فتم لهم النصر على أعدائهم . ومكان مدينة شاروهن الآن هو تل فرعه (Tell Far'ah) وهى المنطقة التى أطلق عليها فلندرزبترى اسم بيت بلث (Beth Peleth) فى تقارير حفائره (١) . وبعد أن اطمأن أحمس تماما إلى سحق أعدائه وجه همه إلى إعادة تنظيم بلاده ولم يجد هناك ما يمنعه من القيام بحملة إلى الجنوب .

وهكذا خرجت جحافل جنود مصر من طيبة لمحاربة الهكسوس فلم تعد إلى وطنها إلا بعد القضاء عليهم ووضع الحجر الأول فى صرح الإمبراطورية المصرية .

خاتمة الهكسوس :

احتل الملوك الثلاثة سقننرع وكامس وأحمس مكان الصدارة فى تاريخ عائلتهم ولكن يجب ألا ننسى أنهم كانوا آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة الطيبية . نعرف قبلهم ثمانية على الأقل كان بعضهم يتسمى باسم ، أنتف ، والبعض الآخر باسم ، سوبك إم ساف ، والبعض الآخر بأسماء أخرى ، وقد اهتم بدراستهم الأثرى ونلوك الذى قام بحفر مقابرهم فى منطقة الطارف ودراع أبو النجا وقارنهم بما جاء فى بردية أبوت (٢)، ثم قام بدراستهم حديثا شتوك فى كتابه الذى أشرنا إليه أكثر من مرة فى هذا البحث .

---

(١) أنظر ما كتبه أولبرايت ALBRIGHT, The Archaeology of Palestine and the Bible. وكذلك ALBRIGHT Bull. ASOR 33, 7; DE KONING, PETRIE 53, 187. أنظر أيضاً Studien over de El-Amarnabrieven, (Delf. 1940) & 375, Ancient Gaza, (London 1932).

(٢) بردية أبوت مجموعة تحقيقات عن سرقات فى جبانة طيبة فى أواخر أيام الدولة الحديثة وجاء فيها ذكر مقابر بعض الملوك وموقعها فى الجبانة .

وقد عثر ماريبت على قبور بعضهم مثل قبر الملكة ، إعح حوتب ، زوجة سقننرع وأم الملك أحمس ، والتى تزين حليها بعض خزائن المتحف المصرى ، ونعرف أيضا من بين ملكات هذا البيت اسم الملكة ، تتى شرى ، التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ الأسرة وكانت جدة للملك أحمس ، واشتهرت فى عصرها وبعد عصرها ملكة أخرى وهى الملكة أحمس نفرتارى التى توزوجت زخويها كامس وأحمس واحدا بعد الآخر .

ولا شك أن هذا البيت المالك كان متأثرا فى الناحية الفنية بما وصل إلى مصر من تأثيرات أسيوية فى بعض قطع الحى ، إذ نرى فى زخرفتها ما يجعلنا نقارنها بالطرز الزخرفية المعروفة لنا بأنها كانت شائعة فى سورية وفى كريت . ولكن إذا درسنا الآثار المصرية بوجه عام لا نرى أثرا كبيرا لاحتلال الهكسوس فقد ظلت التقاليد الفنية فى صناعة التماثيل وفى اللوحات وفى الحلى بوجه عام ، تتبع ما كانت عليه فى آخر أيام الأسرة الثانية عشرة اللهم إلا بعض التطور الذى يحتمه مرور الزمن . وكذلك اللغة ، لم يدخلها عنصر غريب أو يحدث فيها تطور يذكر ، وإذا قرأنا النصوص المبكرة فى الأسرة الثامنة عشرة فإننا نرى أن تكاد تختلف نحوها أو مفرداتها عن لغة الأسرة الثانية عشرة .

أما عن الهكسوس أنفسهم فإن حروب أحمس فرقت شملهم ثم جاءت حروب تحوتمس فقطعت دابرهم ، ومحتهم محوا تاما من صفحات التاريخ كقوة حربية أو كأمة لها كيانها . كان إحتلال الهكسوس لمصر أول ما تعرضت له من ذلة على يد أجنبى ، لهذا كان انتقام المصريين من أعدائهم على قدر ما أحسوه من مرارة ، وظلت هذه المرارة فى نفوسهم لم يقض عليها الزمن حتى فيما كتبه مانيتون عن طردهم من مصر بعد مرور نحو ١٣٠٠ عاما . بل وحتى الآن وبعد مضى أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام مازال المصريون يلعنونهم ، كما لعنهم أجدادهم ، كلما مروا فى دراستهم للتاريخ القديم بهذه الفترة من تاريخ بلادهم .

وبالرغم من أن أحمس الأول ينتسب إلى الأسرة السابعة عشرة فإن مانيتون وضعه على رأس أسرة جديدة وهى الأسرة الثامنة عشرة التى بدأت بحكمه عام ١٥٧٠ قبل الميلاد ، وقد أحسن مانيتون فإن حكم هذا الملك كان بداية عهد جديد فى تاريخ البلاد .

*** الفصل السابع ***

الدولـــــة الحديثـــــة

القسـم الأول - بناة الإمبراطورية

الأسرة الثامنة عشرة

(١٥٧٠ - ١٣٢٠ ق.م.)

أحمس الأول :

كان أحمس الأول من أظهر ملوك مصر ، وكان بطلا من أبطال إستقلالها وفارسها فى طرد الهكسوس ، وهو بالرغم من أنه أخو الملك كامس وإبن سقننرع فإن مانيتون وضعه كما سبق القول على رأس عائلة جديدة . ولو أمعنا النظر قليلا لوجدنا أنه لم تكن هناك مندوحة من ذلك ، لأنه بالرغم من أنه لم يحدث تغيير فى البيت المالك إلا أن مصر بدأت عصراً جديداً وهو عصر جدير بأن يكون فاتحة لعهد جديد وهو الأسرة الثامنة عشرة .

ويميل بعض المؤرخين المحدثين (١) إلى إعتبار هذا الملك وإبنه أمنحوتب الأول من ملوك الأسرة السابعة عشرة ، ويبدأ الأسرة الثامنة عشرة بالملك تحوتمس الأول ، ولكن هذا الرأى لا يجد من أكثر العلماء قبولا ، ولو قبلنا منطق الأستاذ شارف نفسه وهو أن أحمس الأول ليس إلا أخا لكامس وإبنا لسقننرع ويجب أن يتبع الأسرة التى يتبعانها ، فإن تحوتمس الأول أيضاً من العائلة نفسها ، ولهذا يجب أن يكون من الأسرة السابعة عشرة أيضا (٢) ، هو وأولاده وجميع من أعقبوه حتى إنتقال الملك إلى بيت آخر .

ومهما يكن من أمر فإن تقسيم مانيتون للأسرات المصرية وإعتبار قدماء

---

(١) أنظر مثلا A. Scharff فى كتاب SCHARF - MOORTGAT, Aegypten u. Vorderasien in Altertum, p. 123.

(٢) كانت أبحاث الأستاذ ونلوك فى مقابر الطارف ودراع أبو النجا هى الأساس الذى قام عليه تتابع ملوك طيبة فى الفترة التى سبقت طرد الهكسوس . وقد كتب ونلوك تقارير كثيرة ولكن فى آخر أبحاثه التى نشرها بدأ يتراجع عما سبق له أن أبداه من آراء واعتبر كثيرين منهم تابعين للأسرة السادسة عشرة ولكن أبحاث شتوك فى هذا الموضوع بالذات تجعلنا نؤمن أنهم جميعا من عائلة واحدة وأنهم من الأسرة السابعة عشرة .

المصريين أنفسهم أن أحمس قد بدأ عصرا جديدا فى تاريخهم ، وذلك التغيير الكبير فى الحياة المصرية بعد أن طردت الهكسوس وطهرت أرضها من المستعمر وبدأت صفحة جديدة فى تاريخها يجعل بدء الأسرة الثامنة عشرة يبطل الإستقلال أمرا أقرب إلى المنطق وإلى الحق .

وإذا تتبعنا تاريخ الملك أحمس لوجدنا أنه بعد أن تم طرد الهكسوس وهزيمتهم فى فلسطين إلتفت نحو الجنوب فقام بحملة إلى تلك البلاد لإعادة الأمن إليها ، ولكن أثناء تغيبه هناك أراد بعض المصريين (وربما كانوا من سلالة الهكسوس أى ممن كانوا موالين لهم) القيام بثورة فعاد وقضى عليهم ولم نسمع بعد ذلك بأية محاولة أخرى . وامتد حكم هذا الملك إلى أربعة وعشرين عاما قضاها فى إصلاح البلاد وتوطيد النظام وتعمير المعابد ، وبخاصة فى طيبة وأبيدوس .

وقبل أن أترك عصر هذا الملك أرى من اللازم على الإشارة إلى بضع نقط تتصل به . فبالرغم من أن هذه العائلة طيبية الأصل وأن آمون هو الإله المحلى لطيبة فإن ، القمر ، كان يلعب دورا كبيراً فى حياة هذه العائلة ، فإن معنى كلمة أحمس هى ، القمر (إعح) ولد ، وكذلك إسم أخيه كامس فإن ، كا ، وتكتب بشكل الثور كانت وثيقة الصلة بالقمر وعبادته [١] ، وإسم أمه ، إعح حوتب ، أى القمر مطمئن وتكتب بالأفرنجية فى الغالب . (Ah - hotep) . كما أن إسم تحوتمس نفسه يحتوى أيضا على إسم الإله تحوت الذى لم يكن إلا إله القمر نفسه [٢] .

ومما يستلفت النظر فى تاريخ هذه الحقبة من تاريخ مصر ذلك النفوذ الكبير الذى كان لسيدات هذه الأسرة ، وهو نفوذ نحسه فيما كان لهن من نعوت وأوصاف وما كان يقوم به الملوك لتخليد ذكراهن . وأظهر نساء هذه الأسرة ثلاث لعبن دوراً كبيراً فى حرب الإستقلال وبعث روح المقاومة فى العائلة ، أولاهن الملكة ، تتى - شرى ، جدة الملك أحمس التى ظل وفيا لذكراها إلى آخر سنى حياته ، وأقام لها فى أبيدوس أثرا كبيراً ليكون مدفنا مؤقتا لها ، ووضع فيه لوحة أبقى عليها الزمن لتقص علينا قصة وفائه لذكراها . أما ثانية هذه السيدات فهى الملكة ، إعح حوتب ، التى يظهر أنها لعبت دوراً رئيسياً فى الحرب وكان لها أثناء حياة إبنها المقام الأول . فإنه كتب عنها فى لوحة الكرنك [٣] :

(١) EBERHARD OTTO. Beiträge zur Geschichte der Stierkult in Aegypten (1938), p. 30-31 .

(٢) كانت مدينة الأشمونين (خمنو أو هرموبوليس) فى مصر الوسطى هى المقر الرئيسى للإله تحوت وعبادته ، فهل كانت لهذه العائلة صلة خاصة بالأشمونين ؟

(٣) SETHE. urkunden. IV. P. 14 ff.. Vercoutler. Les Haou-Nebout BIFAO. T. 47148. 1948 .

« امدحوا سيدة البلاد ، وسيدة جزر البحر الأبيض ، فاسمها محترم فى جميع البلاد الأجنبية وهى التى تضع الخطط للناس . زوج الملك وأخت الملك عاشت (متمتعة) بالحياة والسلامة والصحة . وهى أخت ملك وأم ملك ، هى العظيمة القديرة التى تهتم وتضطلع بشئون مصر . وهى التى جمعت جيشها وحمت الناس ، وأعادت الهاربين ولمت شتات المهاجرين وهدأت ما حل بالصعيد من خوف ، وأخضعت من كان فيه عصاة ، الزوجة الملكية « إعح حوتب » لها الحياة » .

وقد أراد بعض المؤرخين ، وبخاصة المؤرخ الألمانى الكبير إدوارد ماير ، (١) أن يرى فى ألقاب هذه الملكة ما يسمح له بأن يقول إنها ربما كانت أصلا من كريت وأنها تزوجت من ملكها ، لأن كريت كانت مركز حضارة جزر البحر الأبيض المتوسط . وأراد أن يرى فى نقوش حليها التى عثر عليها فى قبرها ما يؤيد كلامه إذ أن بعض هذه الحلى ، وعلى الأخص خنجرها ، بالرغم من أنها مصرية الصناعة إلا أن أثر الفن الإيجى ظاهر فى شكلها وزخارفها (٢) .

وليس من المستبعد أن يكون سكان جزر البحر الأبيض المتوسط تحالفوا مع بيت طيبة ، وقدموا شيئاً من المعونة فى حصار الهكسوس وأن نتيجة هذا التحالف كانت زيادة التجارة بين أهل كريت وأهل مصر . وليس من المستبعد أيضاً أن تكون الملكة «إعح حوتب» لعبت دوراً مباشراً وهاما فى هذا الأمر كما نستشفه من ألفاظ لوحة ابنها أحمس .

أما ثالثة السيدات العظيمات فهى أحمس نفرتارى ، التى تزوجت من أخيها كامس ثم من أخيها أحمس وظل نفوذها كبيراً فى أيام إبنها أمنحوتب الأول . وما زلنا نجهل حتى اليوم السبب الذى جعل المصريين منذ أواخر الأسرة ١٨ وفى خلال الأسرات ١٩ ، ٢٠ حتى الأسرة ٢١ ينظرون إليها نظرة عبادة واحترام ، وأقاموا لها معبداً فى طيبة وجعلوا منها ومن إبنها أمنحوتب الأول إلهين حاميين للجبانة ، وكانوا يرسمونها على جدران كثير من مقابرها . أما الملك أحمس الأول فقد ألهه

---

(١) انظر أيضاً ما كتبه إدوارد ماير فى كتابه عن التاريخ القديم الجزء الثانى ص ٥٥٠ ولكن آراء ماير بهذا الشأن وعلى الأخص ما قاله عن إنها من أصل كريتى أو تزوجت من ملك كريتى لا سند له من التاريخ حتى الآن .

(٢) عثر على هذه المجموعة الفريدة فى طيبة أيام مرييت باشا وكان للعثور عليها قصة طريفة، وهذه الحلى موجودة الآن فى متحف القاهرة .

المصريون أيضاً ، ولكن كان لعبادته شأن فى أبيدوس أكبر من شأنها فى طيبة (١) .

وأبقى الزمن على كثير من مومياوات ومقابر وآثار بعض موظفى هذا الملك ولهذا أصبح من الميسور لنا معرفة الكثير عن حالة البلاد الإجتماعية فى أيامه أما مؤمياؤه هو فقد سلمت من العبث وهى الآن فى المتحف المصرى .

وقد فحص إليوت سميث هذه المومياء ، (٢) ونعرف من بحثه أنه قد قدر له عمرالأربعين عند موته أى أنه تولى الملك وهو فى الثامنة عشرة ، وكان طوله ١٦٣,٥ سم . وليس يدهشنا أن كون أحمس قد مات فى عمر مبكر فإن أمه عاشت عشر سنوات بعد وفاته .

أمنحوتب الأول : (١٥٤٦ – ١٥٢٦ ق.م.)

ومات أحمس الأول قرير العين وخلفه على العرش إبنه أمنحوتب الأول وكان يافعاً ، فقامت أمه ، أحمس نفرتارى ، بعبء كبير فى معونته كما فعلت الملكة ، إعح حوتب ، مع أبيه أحمس من قبل .

وورث هذا الملك الصغير صفات أبيه وجده ، وما لبث أن خرج على رأس جيشه ليرى أطراف ملكه فى شمالى السودان ، وفى سورية وفى ليبيا ، كما نعرف ذلك من تاريخ حياة القائدين ، أحمس بن إبانا ، و ، أحمس بن بننخبت ، . ولم يكن هناك ما يدعو لأن يستمر الملك الشاب فى حروبه ، فإن مصر وما جاورها من البلاد ظلت هادئة ، وظل أمنحوتب فى سياسته الإنشائية يعمر المعابد ويزيد فى رخاء البلاد طيلة الأعوام الواحد والعشرين التى قضاها على العرش ، وقد بقى من أيامه بعض آثاره فى الكرنك ، وبخاصة هيكل من المرمر أعيد تركيب أحجاره فى السنوات الأخيرة.

أما قبر أمنحوتب فليس لدينا شك فى أنه كان فى دراع أبو النجا كما جاء فى بردى أبوت ، وأن عمقه كان أكثر من ستين متراً (٣) ، وسواء أكان قبر الملك أمنحوتب

(١) من مميزات هذه الأسرة (أو بعبارة أدق هذه العائلة منذ طرد الهكسوس حتى أمنحوتب الأول) وضع أسماء أميراتها وأمرائها فى خانات ملكية . وكذلك عبادة هؤلاء الأفراد فى العصور التالية (L.D. III. PL. 2d.) أنظر أيضاً – سليم حسن : مصر القديمة ج ٤ – ص ٢١٥ ، ٢١٦ – وخير مصدر عن عبادة أحمس الأول فى أبيدوس وأنه كانت له نبوءة خاصة به مثل أوزيريس ما جاء فى لوحة باسر التى عثر عليها فى العرابة المدفونة (Annales du Serv. XVI. p. 161) .

(٢) G. ELLIOT SMITH. The Royal Mummies. p. 15-18 (PL XI & XII 3) J. DÉntr-ce No. 51057.

(٣) يرى بعض الأثريين أنه ليس لدينا من الأدلة ما يكفى لإثبات أنه كان مدفونا فى دراع أبو النجا ويرى ويجل أنه صاحب مقبر ٣٩ فى وادى الملوك . ولكنا نعلم علم اليقين أن تحوتمس الأول كان أول من دفن فى ذلك الوادى .

الأول هو الذى كشفه كارنارڤون فى عام ١٩١٤ (١) أو لم يكن ، فإن هذا الملك كان أول الفراعنة الذين فصلوا بين قبرهم وبين المعبد الجنازى ، لأن جميع الملوك السابقين كانوا إما يدفنون داخل أهرامهم أو كانوا يدفنون فى مقابر تعلوها أهرام مثل مقابر الطارف .

وكان أمنحوتب رفيقا برعيته طيلة السنوات الواحد والعشرين التى قضاها على العرش ، ولأمر ما ظل عمال الجبانة فى طيبة قرونا عدة بعد وفاته يعبدونه ويقدمون له القرابين ، بل كان هناك تقليد خاص وهو أن كهنة معبده فى تلك الجبانة كانوا من العمال أنفسهم (٢) ، ولم يكن هناك مركز واحد لعبادته بل عبد فى أماكن متفرقة وفى أشكال عدة .

ومما هو جدير بالذكر ، وله صلة بعهد هذا الملك ، أنه يوجد على ظهر بردية إيبرس (Ebers) الطبية بيان بعدد من الأعياد مع تاريخ الاحتفال بها ، ومن دراسة علماء الفلك لهذه البردية أمكن تحديد السنة التاسعة من حكمه بأنها وقعت فى عام ١٥٣٦ قبل الميلاد . ومات أمنحوتب الأول دون أن يترك ولدا ذكراً من بعده ليخلفه على العرش فسبب ذلك شيئا من الاضطراب فى الوراثة ، وانتهى الأمر بتولى الملك تحوتمس الأول عرش البلاد . ولم يكن تحوتمس إبنا لأمنحوتب الأول ولكنه كان أميرا من أمراء البيت المالك وتزوج من الأميرة صاحبة الحق فى الوراثة للملك وكانت تسمى أحمس ، وهى إبنة أمنحوتب فأصبح له الحق فى ولاية العرش دون إعتراض .

كان تحوتمس أول فراعنة مصر المحاربين ، وهو الذى خطا الخطوة الأولى فى تشييد صرح الإمبراطورية المصرية ، وقبل أن نتحدث عنه أو عن أعماله يحسن بنا أن نقف قليلا لنلقى نظرة عابرة على بلاد الشرق الأدنى القديم لنعرف ما كانت عليه عندما تولى تحوتمس الأول عرش وادى النيل .

---

(١) أنظر GARTER. J.E.A. Vol 3. p. 147 هذا القبر على مسافة نحو ٨٠٠ متر من معبده الجنازى الذى إكتشف فى عام ١٨٩٦ – وتذكر بردية أبوت أن قبر هذا الملك يقع شمال معبد «أمنحوتب سيد الحديقة» .

(٢) CERNY. BIFAO. T. XXVII. P. 159 ff.

نظرة عامة فى حالة بلاد الشرق الأدنى فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد :

وضع أحمس اللبنة الأولى فى أساس الإمبراطورية المصرية وتلاه إبنه أمنحوتب الأول فحافظ على بناء أبيه . فلما جاء تحوتمس الأول كانت مصر مطمئنة وأمورها الداخلية مستقرة ، وكانت حدودها قد امتدت جنوباً حتى الشلال الرابع . أما عن صلتها بمن جاورها من البلاد فإن نفوذها السياسى المباشر لم يمتد إلا إلى الجزء الجنوبى من فلسطين وبعض بلاد الساحل الفينيقى ، أما ما بقى بعد ذلك من إمارات فى شمالى فلسطين أو فى سورية فكان بين صديق لمصر وبين مستقل عن أى نفوذ أجنبى ، أو تربط حكامه رابطة من الصداقة أو الولاء بدولة من الدول التى كانت تعيش وقتذاك فى بلاد الرافدين ، أو دولة خيتا فى آسيا الصغرى ، التى أخذت تظهر فى دنيا السياسة فى ذلك العهد .

أشرت عند الحديث عن الهكسوس إلى أثر هجرات الكاسيين والحريين من جبال القوقاز أو غيرها من ناحية الشمال الشرقى ، فلم يمض غير بضعة قرون حتى تمكنت بعض قبائل من هذين الشعبين من توطيد أقدامها فى الهلال الخصيب ، فقامت دويلات صغيرة متعددة فى بعض مدن سورية ولكن لم تقم مملكة كبيرة إلا فى شمال بلاد النهرين وهى مملكة ميتانى ، التى كان يقوم إلى الجنوب منها مملكة أشور ، وفى الجزء الجنوبى على مقربة من الخليج الفارسى كانت تقوم مملكة بابل ، ولم تكن هناك مندوحة من قيام التنافس بين هذه الممالك وبخاصة المملكتين الأخيرتين .

وكان من أثر هذه الهجرات الهندو – أوروبية قيام مملكة فى الأناضول وهى مملكة خيتا ، التى لم يأت عليها القرن السادس عشر ق.م. حتى كانت مملكة لها اتحادها وقوتها ، ولم تكتف بالسيطرة على آسيا الصغرى فقط بل تطلعت بعيونها نحو الجنوب ، وأصبحت هى والمملكة الأخرى ذات الأصل القوقازى الآرى وهى مملكة ميتانى عاملا قويا فى سياسة دويلات سورية . وليس من المعقول أن تظل جزر بحر إيجة وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط بعيدة عن هذا التطاحن فقد كانت الصلة بين هذه الجزر وبلاد الأناضول وسورية وبخاصة الشاطىء الفينيقى ومصر متصلة ، وكان سكانها وعلى الأخص أهل كريت وقبرص ذوى حضارة قديمة وكانت سفنهم التجارية تزور شواطىء مصر وسورية ، وكانت موانئ بلادها تزخر بسفن مصر وفينيقيا . ولكن إلى جانب هذه الصلة التجارية والثقافية بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط كانت هناك صلة أخرى يكاد يكون لها لون سياسى خاص . فنحن نعرف من النصوص المصرية منذ الدولة القديمة صلة مصر بهذه الجزر « حاوو »

نبوت » ، ونعرف أن هذه الصلة إزدادت فى الدولة الوسطى فإذا ما انقشعت غمامة حكم الهكسوس بدا لأعيننا شيء جديد وهو زيادة هذه الصلة بمصر مما يجعلنا نقف متسائلين عن سببها . وإنى أميل إلى تفسير هذه الصلة بأنه ليس من المستبعد أن تكون كريت وبعض هذه الجزر وقعت . مثل مصر ، فريسة لحكم الهكسوس ، وأنه عندما بدأت مصر نضالها ضد الغاصبين لحريتها قامت كريت أيضا بنضالها فتوحدت الغاية وتآلفت القلوب . وربما كان للجيوش المصرية فضل مباشر على تطهير الجزيرة من فلول الهكسوس مما جعل أهل كريت يعترفون بفضل مصر وأصبح للملكة « إعح حوتب» الحق فى أن تسمى نفسها ملكة إذ ربما يكون أهل كريت أنفسهم قد خلعوه عليها كلقب من ألقاب الشرف والتكريم اعترافا بما قدمه أهل طيبة لهم من معونة .

أما بلاد شمال أفريقيا فليس لدينا عنها معلومات كثيرة ، ولكن ليس لدينا أيضاً ما يدل على أنه كان لمصر نفوذ سياسى خاص هناك فى ذلك العهد ، ولو أن سكان البلاد التى على الحدود المصرية كانوا من البدو الذين لم تكن لهم دول ذات خطر سياسى على وادى النيل .

وبالرغم من تفرق كلمة هذه الأمم وقيام الدول المختلفة فيها ، فإن التجارة كانت تأخذ طرقها برا وبحرا بين البنجاب فى الشرق ومصر فى الغرب ، وكانت بلاد الفرات بحكم مركزها الجغرافى هى القنطرة الأولى للتجارة وسورية هى القنطرة الثانية ، ولم تكن هناك مندوحة من تطلع كل من دول ما بين النهرين وخيتا ومصر إلى السيطرة أو على الأقل ضمان الولاء من ولايات سورية وفلسطين .

كانت هذه المصاعب تتراءى لمصر ، ولكن كان هناك دون شك عامل آخر له قيمته ووزنه . لقد تبع الملك أحمس الأول فلول الهكسوس إلى جنوبى فلسطين وهزمهم فى شاروهن فإلى أى المناطق إتجهوا وكيف انتهى بهم المطاف ؟ ويجدر بنا عند التفكير فى هذا الأمر ألا ننسى صلة الهكسوس الوثيقة بسورية وفلسطين ، فإنهم جاءوا من الشرق وكان فى تلك البلاد دويلات ممن اتصلوا بالهكسوس وأصحاب الأمر فيهم ذابوا دفعة واحدة من الأرض أو أنهم تبخروا ولم تبق منهم باقية . وليس بالأمر البعيد أن تلك البقية ومن إتصلوا بهم بصلة الجنس أو القربى أو ممن كانوا لا يؤمنون بصداقة المصريين ويميلون إلى الدول التى تنافسهم أصبحوا ، على الأرجح ، مع مرور الزمن خطراً على الولايات الصديقة لمصر ، بل ربما أيضاً خطراً على مصر نفسها (١).

(١) إذا رجعنا إلى قصة طرد الهكسوس كما رواها مانيتون فإن الملك الذى طردهم وقضى عليهم اسمه Toutimaios بن Misphragmouthis .

وسواء أكان هذا الفرض صحيحا أو غير صحيح فإن اعتلاء الملك تحوتمس الأول لعرش البلاد كان إيذانا بعصر جديد وهو بدء تسيير الجيوش المصرية على نطاق واسع إلى خارج الحدود وتكوين الإمبراطورية المصرية التى بلغت أوجها فى عهد الملك تحوتمس الثالث أعظم ملوك مصر المحاربين .

تحوتمس الأول (١٥٢٥ – ١٤٩٥ ق.م.) :

لم يكن تحوتمس الأول عند إعتلائه العرش شابا يافعا أو فى زهرة شبابه ولكنه كان قد جاوز الأربعين وأصبح مكتمل الرجولة ، وكانت تملأ نفسه ذكريات طفولته عندما كانت البلاد مشتعلة الحماس بعد طرد الهكسوس .

جلس تحوتمس الأول على العرش عام ١٥٢٥ ق.م. ولم تكد تنتهى مراسيم تتويجه ويطمئن على سير الأمور فى البلاد حتى ذهب إلى الجنوب ليتفقد نتائج حملتى أحمس وأمنحوتب هناك ، وقد توغل حتى وصل إلى آخر دنقلة وأصبحت مدينة نبتا عند جبل برقل داخلة ضمن حدوده ، وقد ظل هذا الحد أى الشلال الرابع لمدة خمسمائة عام تقريبا دون تغيير ، بل أخذ النفوذ المصرى يتوغل كثيراً نحو الجنوب حتى وصل إلى قبيل الخرطوم . ولكى ينظم أمور هذه المملكة الجنوبية جعل المنطقة إبتداء من مدينة الكاب شمالى إدفو حتى آخر حدوده فى السودان وحدة واحدة يحكمها موظف أطلقوا عليه ، الإبن الملكى لكوش ، ومنذ هذا اليوم أخذت بلاد النوبة وشمالى السودان تصطبغان بالصبغة المصرية البحتة وبدأت الثقافة المحلية الوراثية فى تلك البلاد تختفى تدريجيا حتى كادت تتلاشى مع مرور الزمن .

وبعد أن انتهى تحوتمس من إصلاح حال حدوده الجنوبية إلتفت نحو أسيا فذهب إليها فى السنة الثانية من حكمه ، وسار حتى وصل إلى نهر الفرات الذى أسماه معاصروه ، ذو المياه المعكوسة ، إشارة إلى أنه يجرى من الشمال إلى الجنوب بعكس نهر النيل ، وقضى هناك بعض الوقت فى اصطياد الفيلة وأرسل منها بعض عشرات إلى معبد أمون فى طيبة .

وبدأ تحوتمس الأول بتشييد المبانى الفخمة فى معبد الكرنك ليجعله جديراً بأن يكون المعبد الرئيسى لعاصمة الإمبراطورية التى أخذ ينظم أمورها فأزال المعبد المتواضع الذى كان قائما منذ أيام الأسرة الثانية عشرة ، وبنى مكانه معبدا كبيراً أمامه مسلتان من الجرانيت مازالت إحداهما قائمة فى مكانها حتى الآن ، أما الأخرى فقد وقعت على الأرض أيام القرن الثامن عشر ومازالت بعض أجزائها ملقاة هناك. كما أقام أيضاً بهوا كبيراً فيه أعمدة مربعة على واجهتها تماثيل على شكل الإله أوزيريس ، عثر على بعضها تحت أرضية المعبد فى عام ١٩٤٢ .

ونحن نعرف الكثير عن أعمال أمنحوتب وتحوتمس مما كتبه مهندسهما « إنينى » فى لوحته التى نقش واجهتها فى مقبرته فى علوة الشيخ عبد القرنة ، فهو يذكر لنا قصة مبانيه التى أقامها فى الكرنك ، ويذكر لنا أيضاً قصة تكليف الملك تحوتمس له ليبحث عن مكان فى الجبل الغربى أمام الأقصر ليكون مقرا صالحا لقبره . كان هذا الملك هو أول من قرر الإقلاع عن التقليد القديم وهو الدفن فى هرم أو مقبرة يعلوها هرم ، وفضل أن يدفن فى مكان خفى بعيد عن العيون وأن يكون معبده الجنازى على حافة الزراعة . وكان هذا الوادى الذى إكتشفه « إنينى » وقطع فى أحد أركانه قبر تحوتمس الأول هو « وادى الملوك » الذى أصبح منذ ذلك اليوم مكان دفن ملوك الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين .

وقضى هذا الملك ثلاثين عاما فى حكم البلاد ، وترك مصر فى خير حالة ، فقد بسط نفوذه القوى فى الجنوب والشمال وبدأ فى تعمير البلاد بعد أن بدأت تتدفق على طيبة خيرات الأمم المختلفة إذ نعرف من مقابر الأفراد الذين عاشوا فى أيام تحوتمس الأول كيف بدأت مصر تدخل فى عهد جديد من الرخاء .

تحوتمس الثانى (١٤٩٥ - ١٤٩٠) :

كان زواج الملك تحوتمس الأول من الأميرة « أحمس » ذات الحق الأول فى الوراثة هو السبب الذى جعل منه ملكا شرعيا فى أنظار الشعب ، ولكن شاءت الظروف ألا تلد له الملكة أحمس ولدا ذكرا ، بينما ولد له ذكور من زوجات أخريات . وكان أهم أولاده الذين بقى إسمهم ظاهرا فى التاريخ إبنته حتشبسوت بنت الملكة أحمس ، وكانت قوية الشكيمة ورثت الصفات القوية فى نساء هذه العائلة كما ورثت حب المجادلة من أبيها ، ثم أكبر أبنائه الذين عاشوا وكان يسمى « تحوتمس » مثل أبيه وقد ولد له من زوجة إسمها « موت نفرت » ، وتزوج تحوتمس هذا من أخته حتشبسوت وبدأ حكمه كغيره من الملوك .

ولكن منذ البداية دب الخلاف بين الاثنين . فإن تحوتمس الثانى كان ضعيف الصحة غير طموح بينما كانت حتشبسوت فتاة طامحة تملأ رأسها فكرة الاستئثار بالملك ، ولهذا إضطربت الأمور وانقسم موظفو القصر ، وربما موظفو الدولة أيضاً ، إلى حزبين وبدأت المؤامرات الداخلية تفعل فعلها فى البلاد . وكان من أثر هذا الخلاف أن قامت ثورة فى شمالى السودان ، وقسم بعض أمراء البلاد الأصليين بلاد كوش بينهم فأرسل الملك جيشا هزم الثوار وأعاد الأمور إلى ما كانت عليه ، وكان الملك تحوتمس فى أسوان عندما عاد جيشه منتصراً من الجنوب ، ومن المحتمل أن

تكون ثورة أخرى قامت فى سورية ، ومن المحتمل أيضاً أن تكون بعض القبائل البدوية فى شرقى مصر إنتهزت هذه الفرصة وأخذت تقطع الطرق على القوافل فأدبها جيش فرعون . وبالرغم من ذلك كله فقد أظهر هذا الملك شيئاً من الإهتمام بالبناء فقد عثر على آثار له فى طيبة ، وعند الشلال الثانى ، كما جاء ذكر إسمه فى نقوش كثيرة وبخاصة فى مقابر الموظفين الذين عاشوا فى أيامه .

ومدة حكم هذا الملك فيها شيء من الخلاف؛ لأن مانيتون ذكر أنه حكم عشرين عاما وذكر بعض رجال الآثار (دارسى) أنه رأى أثراً فى المتحف المصرى مؤرخا فى العام الثامن عشر ، ولكن هذا الأثر مفقود الآن ولا نعرف مكانا له حتى يمكن التأكد من هذا التاريخ ، لأن ظواهر الأمور وما وصل إلى يدنا من آثار تجعل هذا الحكم الطويل أمراً مستحيلاً ، ولا يمكن أن يكون قد زاد حكمه عن خمس سنوات . وبموت الملك تحوتمس الثانى بدأت فترة صراع شديدة ، صراع قوى جبار بين حتشبسوت والملك تحوتمس الثالث الذى كان من خيرة ملوك مصر ، إن لم يكن أعظمهم جميعاً.

النزاع بين حتشبسوت وتحوتمس الثالث:

نعرف من لوحة ، إنينى ، المهندس المعمارى الذى عاصر أكثر من ملك من ملوك هذه الأسرة أنه بعد موت تحوتمس الثانى تولى تحوتمس الثالث الملك ، ولكنا نقرأ فى النص ذاته أن أخته (أى أخت تحوتمس الثانى) كانت هى التى تدبر أمور البلاد وأن مصر ، كانت مطأطئة الرأس وهى تعمل لها وكانت هى صاحبة الأمر ؛ لأنها البذرة الممتازة التى خرجت من الآلهة ، .

وكان أكثر الأثريين إهتماماً بهذه الفترة من تاريخ مصر هو ، برستد ، وقد نشر آراءه فى كتابه عن تاريخ المصريين القدماء ولكن جاء بعد ذلك العالم الألمانى ، كورت زيته ، (١) فكتب عن هذا الموضوع وعارض آراء برستد ، وظلت آراء زيته مصدراً تاريخيا مهما لهذه الفترة من تاريخ مصر حتى طلع ، إدجرتون ، (٢) ببحث له وعدل فى بعض آراء زيته وأصبح ترتيبه هو المقبول ما يقرب من عشرين عاما أى

(١) كتب زيته أول أبحاثه فى عام ١٨٩٦ تحت عنوان KURT SETHE. DIE Throniverren unter den nachfolgern konigs Thoutmlsis I. Untersuchungen I. p. 1-58 ثم كتب ثانية للرد على ناقديه وأستعان بمصادر أثرية جديدة Das Hatshepsutproblem noch ein-mal untersucht 'Abhandlungen-Preuss.-Akad. d. WissenschafÆten. Berlin. 1932Æ .

(٢) EDGERTON. The Thutmosid Succession (Studies in ancient Oriental Civilization : Publications of the Chicago Oriental Institute) .

إلى أعوام قليلة مضت . وتتلخص آراء إدجرتون فيما يأتى :

١ – أراد تحوتمس الثانى أثناء حياته أن يعلن لابنه تحوتمس الثالث حتى تولى العرش من بعده ، فدبر لذلك موضوع اختياره بوساطة الإله أمون رع فى أحد أيام الأعياد عندما كان تحوتمس هذا يعيش فى المعبد كأحد كهنته .

٢ – بعد وفاة تحوتمس الثانى ، تزوج تحوتمس الثالث من حتشبسوت الملكة الشرعية وصاحبة الحق فى الوراثة ليكون جلوسه على العرش شرعياً ، ومنذ اللحظة الأولى لم تكن زوجة فقط بل كانت شريكة فى الملك .

٣ – كانت حتشبسوت امرأة طموحة كما أسلفنا ، وكانت صاحبة الرأى طيلة أيام تحوتمس الثانى فأصبحت لها السلطة الكاملة فى بدء حكم تحوتمس الثالث الذى كان أصغر سنا ودونها فى المرتبة الاجتماعية ؛ لأن أمه لم تكن إلا زوجة ثانوية.

ولكن آراء إدجرتون أصبحت بدورها فى حاجة إلى تعديل والمأخوذ به الآن حسب آخر الأبحاث هو (١) .

١ – تحوتمس الثالث إبن لتحوتمس الثانى وليس إلا أخا له .

٢ – تزوج تحوتمس الثاث من أميرة اسمها حتشبسوت صارت زوجته الأولى ، وهى ليست حتشبسوت الكبرى وإنما هى إبنة لها .

وإن فى اعتبار تحوتمس الثالث إبنا لتحوتمس الثانى ليس إلا رجوعا إلى رأى زيته أما عن زواجه بإبنة حتشبسوت التى سميت بإسم أمها فهو أمر ثانوى والحجة عليه ضعيفة ولا تغير فى صلب الموضوع شيئا ذا أهمية . فقد كانت حتشبسوت الكبرى صاحبة الأمر فى البلاد منذ أواخر أيام أبيها تحوتمس الأول حتى موتها ، وربما اضطرتها التقاليد إلى الزواج من إبن زوجها وإبن أخيها عندما مات أبوه وأشركته فى العرش ، ثم تزوج بعد موتها من إبنتها « مريت رع حتشبسوت » .

ومنذ البداية أخذت حتشبسوت مقاليد الأمور كلها فى يدها وجعلت من إبن أخيها الصغير الجالس على العرش شبه خيال أمام الناس ، وكانت تكتب اسمه مع اسمها فى البداية ولكن لم تمض سنوات حتى أصبح لها الأمر المطلق ولم يعد لتحوتمس الثالث أى ذكر فى الحكم . كما بدأت حتشبسوت ترسم نفسها فى المعابد وهى ترتدى زى الرجال وتستخدم ضمير المذكر فى انصوص ، وكان هذا كله لكى

(١) JOHN WILLSON The Burden of Eygpt. (1951) p. 174. وفى الترجمة العربية لكتابه « الحضارة المصرية » القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٨٧ – ٢٨٨ .

توهم الناس أن التقاليد المتبعة لم يدخل عليها أى تغيير بوجود امرأة على العرش .

واصطفت حتشبسوت بعض الموظفين ، وكان أكثرهم حظوة لديها المهندس سنموت الذى قام ببناء معبد الدير البحرى لها ، وكان يشرف على تربية ابنتها الأميرة « نفرو – رع » التى أعلنتها خليفة لها فى الملك ، ولكنها ماتت وهى صغيرة .

ونرى على جدران معبد الدير البحرى وفى مبانى معبد الكرنك قصة حياة هذه المرأة الجبارة ، فقد إدعت أنها ليست من صلب أبيها وإنما هى إبنة للإله أمون رع الذى اختار أمها الملكة أحمس لتكون أماً لإبنة له تحكم مصر . ورسمت مناظر هذه القصة على أحد الجدران فى المعبد ، وقصت على جدار آخر قصة طويلة تتلخص فى أن أباها تحوتمس الأول بايعها بالملك فى حياته عندما كانت فتاة شابة ، وأن الكهنة ، وكبار رجال الدولة وافقوا على ذلك ، أى أن كل من تحوتمس الثانى والثالث كانا مغتصبين لحقها . ومن أجمل وأهم نقوش هذا المعبد العظيم ذى الموقع الممتاز مناظر الرحلة البحرية التى أرسلتها إلى بلاد بونت لتجلب البخور وغيره من خيرات البلاد إلى مصر ولتنقل بعض أشجاره لزرعها فى حديقة معبدها . ولنقوش الدير البحرى أهمية كبرى لدراسة موضوع بلاد بونت التى بدأت تظهر فى كتابات المصريين منذ أيام الأسرة الخامسة ، وكان لها مركز خاص فى ديانتهم ، ومكانها حول بوغاز باب المندب على الناحيتين أى تشمل الصومال وجنوبى بلاد العرب كما ذكرنا من قبل ، أما أعمال حتشبسوت فى الكرنك فكثيرة وأهمها المسلتان العظيمتان والصالة التى كانت خلفهما ، ومعبد من الجرانيت عثر على أكثر أحجاره فى صرح الملك أمنحوتب الثالث بعد أن هدمه تحوتمس الثالث . ولم تقم حتشبسوت بأى حملات حربية اللهم إلا فى الجنوب (١) . واعتنت ببناء ما كان مخرباً من اثار البلاد وبخاصة ما هدمه الهكسوس ، كما نقرأ على واجهة هيكلها المسمى اصطبل عنتر فى بنى حسن .

ولا جدال فى أنها كانت سيدة قديرة حكمت مصر بحزم ، ولكن موقفها من زوجها ثم من ابن زوجها جعل من الشاب الصغير عدواً لها فلما اشتد ساعده ، ووجد من الأعوان من يساعده على تحقيق أمنيته ضرب ضربته واستعاد حقه . ولسنا نعرف حتى الآن كيف انتهت حياة حتشبسوت ، ولكنا لا يخامرنا أى شك فى أنها كانت نهاية محزنة فإنه لم يعثر على جثتها فى مقبرة من مقبرتيها فى طيبة ، ولا فى خبيئة الدير البحرى ، كما نعلم أيضاً أن تحوتمس الثالث أزال اسمها من كل أثر .

(١) انظر ما كتبه أخيراً لبيب حبشى :
LABIB HABACHI, Two Graffiti at Sechél from the reign of Queen Hatshepsut, Journal of Near Eastern Studies Vol. XVI, April 1957, p. 88 ff.

وحطم مقابر أصفيائها وأسمائهم ، وعلى الأخص سنموت الذى بنى لنفسه قبراً فى علوة الشيخ عبد القرنة ثم قبراً آخر على مقربة من الدير البحرى ، ولكن حتشبسوت غضبت عليه قبل موتها . وصب تحوتمس الثالث جام غضبه على كل ما أقامته فحطم تماثيلها وكان العمال يوقدون النار حول تلك التماثيل ويصبون عليها الماء فتتناثر أجزاؤها إلى آلاف القطع الصغيرة ، ثم رموها كلها فى محجر قديم أمام الدير البحرى حيث عثرت عليها بعثة متحف المتروبوليتان وأمكن جمع قطع هذه التماثيل وترميمها، ويوجد بعض هذه التماثيل الآن فى متحف القاهرة والبعض الآخر فى متحف المتروبوليتان بنيويورك .

وهكذا انتهى حكم حتشبسوت بتلك الفاجعة بعد أن حكمت وحدها ثمانية عشر عاماً . فقد مات تحوتمس الثانى فى عام ١٤٩٠ وحكم تحوتمس الثالث بالإشتراك مع حتشبسوت مدى أربع سنوات ، ثم قبضت حتشبسوت على السلطة فى عام ١٤٨٦ واستمرت حتى عام ١٤٦٨ ، ولكن تحوتمس الثالث لم يعترف بهذا وظل بعد القضاء عليها يؤرخ أيام حكمه منذ كان صبياً بعد وفاة أبيه فى عام ١٤٩٠ . وطالت سنوات جلوسه على العرش ، حتى مات بعد أن حكم ٥٤ سنة فى عام ١٤٣٦ .

ولسنا نعرف إذا كان وجود امرأة على عرش مصر كان السبب فى انتفاض الجنوب وبدء الثورة فى سورية على حكم مصر ، أو أن ما عساه أن يكون قد قام من حرب أهلية وانقسام البلاد كان هو السبب فى ذلك . على أى حال فإن الموقف فى كل من السودان وسورية وجد فى الملك الشاب خير كفء له ولم يكد تحوتمس ينفرد بالحكم حتى سار بنفسه لتوطيد ملكه .

تحوتمس الثالث : (١٤٩٠ – ١٤٣٦) (١)

لم يكد تحوتمس ينتهى من القضاء على عمته حتشبسوت ومن كان يواليها ، حتى بدأ يجهز نفسه لتوطيد ملكه فى آسيا ؛ لأن النفوذ المصرى كان قد بدأ يتدهور فى سورية ، وبدأ بعض الزعماء فى الاستقلال بولايتهم عندما رأوا بأعينهم الانقسام الداخلى فى مصر .

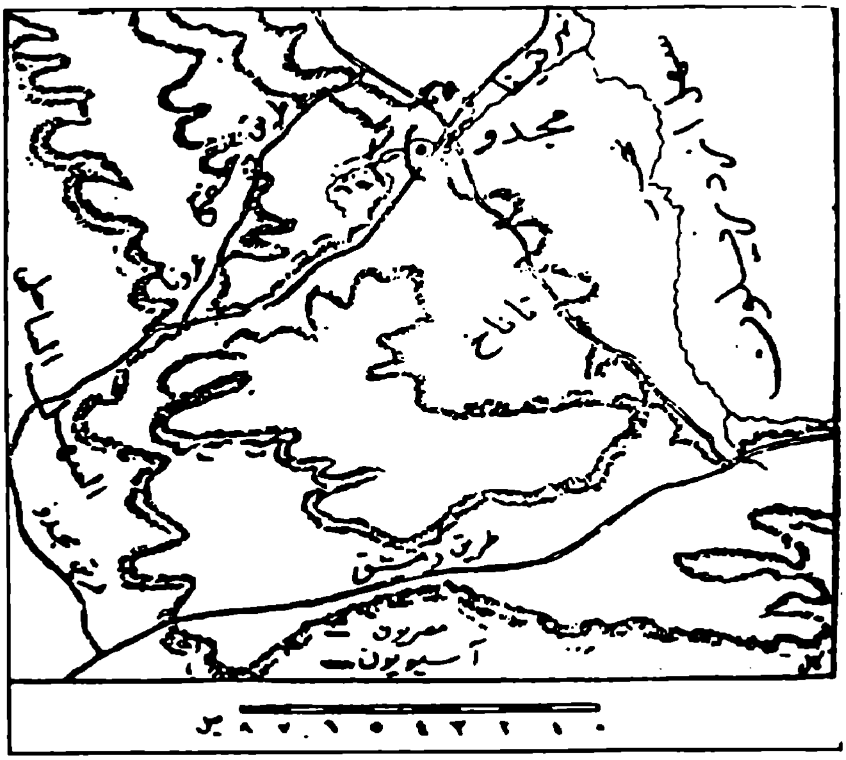
ونحن نعرف تفاصيل الحملة الأولى مما جاء على جدران معبد الكرنك؛ لأن تحوتمس الثالث كان يصطحب معه فى حملاته كتاباً يؤرخون كل ما يحدث ، ونرى فى ذلك أول اتجاه ، أو بعبارة أخرى أول تقليد ، لعمل تقارير حربية مفصلة نستطيع

(١) فى رأى إدوارد ماير ومن تبعه من العلماء تقع أعوام حكم تحوتمس الثالث بين ١٥٠٢ – ١٤٨٨ ولكن جعل بداية حكمه فى ١٤٩٠ أقرب إلى الصواب .

أن نقارنها بتقارير المعارك الحربية الحديثة ، وكان الأصل مكتوباً على ملفات البردى ونقلوا بعض مقتطفات منها على جدران الكرنك .

ونقرأ فى أخبار هذه الحملة أنها كانت فى العام الثانى والعشرين من حكمه أى فى السنة الأولى من إنفراده بالحكم ، وأنه غادر حصن ثارو (على مقربة من القنطرة) فى طريقه إلى فلسطين فوصل إلى غزة بعد تسعة أيام ، وهذا سير سريع لجيش يقطع الصحراء ولم تكن لديه وسائل النقل الميكانيكية ، إذ أن هذه المسافة تزيد على ٢٨٠ كيلو متراً . ولم يضع تحوتمس وقته؛ لأنه كان يعلم أن الذين شقوا عصا الطاعة جمعوا جموعهم عند مدينة مجدو (تل المتسلم – على الحافة الجنوبية لسهل جزريل الذى ذكرته التوراة تحت اسم Esdraelon - jezreel وهو مرج ابن عامر فى الناحية الشرقية الشمالية من جبال الكرمل) وكان هذا الإتحاد تحت رئاسة أمير قادش، فلما تقدمت الجموع إلى مجدو اعتبر تحوتمس الثالث أن هذا إعتداء عليه وعلى حدوده ولهذا هب للدفاع عنها .

ترك الجيش غزة ووصل بعد ذلك بسلام إلى بلد يقال له ، يحم Yehem ، بعد مسيرة أحد عشر يوماً لم يلق فيها الجيش أى جموعهم فى مجدو ، وكانت هذه الجموع



مجدو ، والطرق الموصلة إليها.

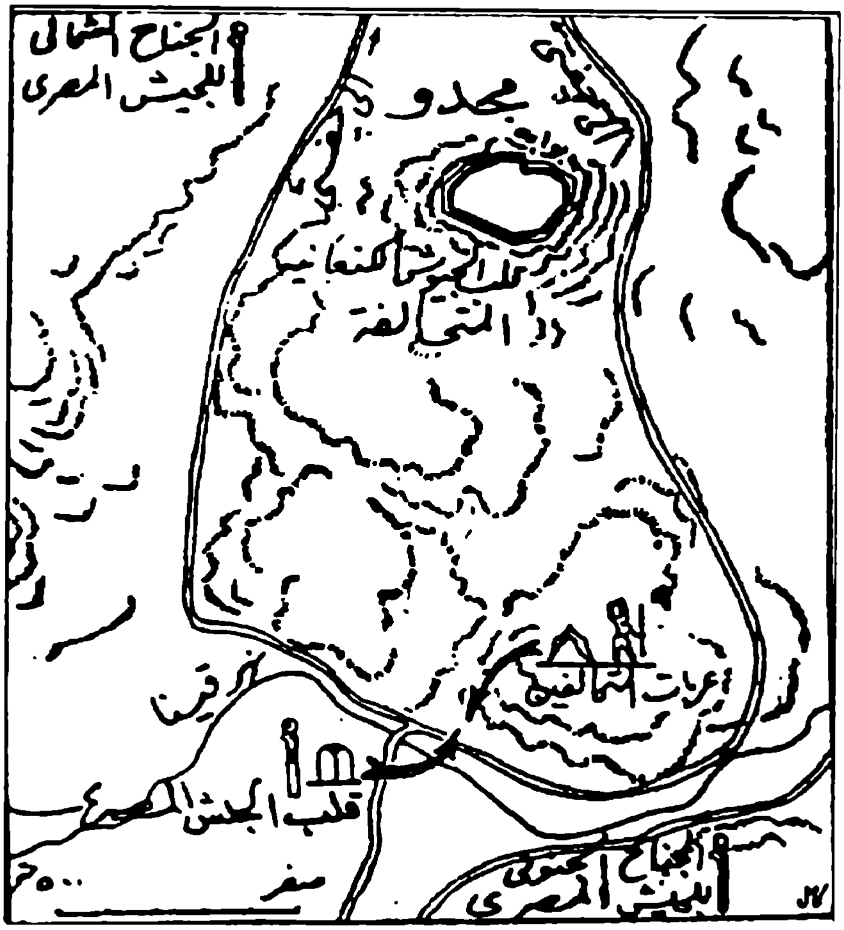
مؤلفة من رجال ثلاثمائة وثلاثين زعيماً من زعماء سورية وفلسطين . وكان أمام تحوتمس ثلاث طرق إثنان منها يدوران حول سفح جبال الكرمل والثالث طريق مباشر صعب المرتقى ولكنه يوصل رأساً إلى مجدو . عقد القائد الشاب مجلسه الحربى فكانت نصيحة قواده له أنه ليس من الحكمة أن يخاطر بسلامة الجيش وحذروه من إتخاذ طريق الجبال الذى يبدأ من مكان يسمى « عرونا » وقالوا له بأنه لا يأمن أحد على سلامة الجيش فى ممر ضيق لا يتسع إلا لمسير عربة واحدة ، ولكن تحوتمس صمم على رأيه، وقال إنه لابد من مفاجأة العدو من هذا الطريق وأصدر أمره إلى الجيش ليستعد للتحرك فى فجر اليوم التالى حيث وصلوا فى آخر اليوم إلى مدخل الممر . وفى صباح اليوم التالى أقسم تحوتمس أن يكون فى طليعة جيشه وأن يسير على قدميه ، فلما إنتهى من إجتيازه أراد الزحف مباشرة إلى مجدو ، ولكن ضباطه ألحوا فى الرجاء أن ينتظر هناك حتى يتم تجمع الجيش ، وقد تم ذلك بعد سبع ساعات. وعسكر المصريون عند مدخل « وادى قينا Kina » وفى فجر اليوم التالى هجم الجيش المصرى على شكل نصف دائرة على مجدو ، ولم يلبث المدافعون عنها أن ولوا عند بدء الهجوم تاركين معسكرهم بما فيه وكان كل همهم أن يدخلوا المدينة المحصنة ، ولكن الذين كانوا داخلها أغلقوا الأبواب وأخذوا يساعدون رجالهم بجذبهم إلى أعلى الأسوار وذلك بعمل حبال من ملابسهم . ويذكر لنا النص المصرى بأنه لولا أن الجنود المصريين شغلوا أنفسهم بنهب المعسكر لأمكنهم الإستيلاء على المدينة ، وقد كلفتهم هذه الغلطة أنهم ظلوا سبعة شهور فى حصارها حتى استسلمت استسلاماً تاماً ، وقدم جميع من كان فيها من الزعماء ولاءهم وخضوعهم . ولكن زعيم قادش كان قد فر بعد المعركة . وبعد الاستيلاء على مجدو إتجه تحوتمس شمالاً مستولياً على البلاد كلها بغير عناء ولم يذكر إلا أسماء ثلاثة من المدن ربما حاولت ألا تفعل ما فعلته الأخرى فاضطر لتأديبها (١) .

وإذا نظرنا إلى بيان الغنائم التى وقعت فى أيدى المصريين لهالنا ثراء تلك البلاد . فكثيراً ما جاء ذكر العربات الحربية المصفحة بالذهب والفضة وكذلك الأوانى الذهبية والأسلحة ، وقد ذكر تحوتمس أيضاً سبعة قضبان من نوع ثمين من الخشب إسمه « مرو » كانت مصفحة بالفضة لتحمل سرادقات بعض الأمراء .

كانت حملته على « مجدو » فاتحة لحملات أخرى بلغ عددها ست عشرة

---

(١) هذه المدن الثلاث هى « ينعم » (وتقع على بعد ٩ كيلو مترات من طبرية) و« نجاساء (وهى مدينة نوخاشش وكانت قريبة من حلب) أما الثالثة فإسمها « حرتكر » لم يعرف مكانها على وجه الدقة .



معركة مجدو

حملة، كان يقوم بها عند إقبال الصيف ويرجع إلى مصر فى أوائل الشتاء فيقضى وقته فى إصلاح حالة البلاد أو الإشراف على تنفيذ ما كان يأمر به من معابد أو مبان . وقد رأى تحوتمس فى حملاته التى تلت الحملة الأولى ضرورة إعداد بعض الموانئ السورية لتكون قواعداً للأسطول المصرى ، إذ أنه فى الحملات الخمس الأولى كان يتقدم ويستولى فى كل حملة على بعض بقاع جديدة ولكن كان دون وصوله إلى بلاد الفرات عقبة كؤود وهى الاستيلاء على مدينة ، قادش ، الحصينة التى كانت مركز المقاومة للنفوذ المصرى ، والتى كان يتزعمها ويتزعم غيرها من المدن أميرها الذى كان على رأس المتحالفين فى أولى حملات تحوتمس . فلما انتهى تحوتمس من إعداد كل شيء وضمن تعاون الأسطول مع الجيش البرى سواء فى النقل أو فى التموين هاجم قادش واستولى عليها فى حملته السادسة التى كانت فى العام الحادى والثلاثين من حكمه . وفى حملته الثامنة وصل إلى الفرات واستولى على مدينة قرقميش ، وقد أقام

على ضفة الفرات إلى جانب لوحة جده لوحة أخرى ، وقد فقدت كلاهما ولم يعثر عليهما حتى الآن .

ونعرف من سياق قصة حربه أنه كان قد أعد لعبور الفرات سفناً حملت أجزاؤها على عربات . صنعت هذه السفن فى ، جبيل ، ونقلت إلى ، قرقميش ، وأدى استخدامها إلى فتح أقاليم الفرات أمام الجيش المصرى . وبدأت مملكة ، ميتانى ، تحس بحاجتها إلى صداقة مصر فقدمت ولاءها وهداياها ، وكذلك فعلت مملكة أخرى آرية وهى مملكة ، خيتا ، فى آسيا الصغرى التى بدأت منذ أيام تحوتمس الثالث تظهر فى صفحات التاريخ ، وكان أول هذا الظهور هو تقديمها الهدايا الثمينة مع رسول خاص لطلب صداقة ملك مصر . وكذلك فعلت ممالك أشور وبابل وأصبحت مصر منذ هذه الحملة صاحبة النفوذ فى غربى آسيا ، كما أصبحت جميع ثغور فلسطين وسورية، وجزر البحر الأبيض المتوسط داخلة تحت نفوذ مصر بفضل أسطولها القوى.

واستمرت حملات تحوتمس بعد ذلك إلى أن كانت الحملة السادسة عشرة فى العام الثانى والأربعين من حكمه ، وكانت مدينة قادش أعلنت العصيان مرة أخرى يؤازرها ملك ميتانى ، وإنضمت إليها مدينة ، تونيپ ، التى كانت غير بعيدة من مدينة ، حماة ، الحالية . وبسقوط مدينة ، قادش ، وتحطيمها للمرة الثانية قضى على كل أثر لمعارضة النفوذ المصرى فى تلك الأصقاع .

قضى تحوتمس الثالث بعد هذه الحملة إثنى عشر عاماً على العرش لم يحدث خلالها ما يجعله يسير إلى آسيا . فإن البلاد كلها دانت له ، وكانت ترسل هداياها وما قرره عليها من جزية كل عام إلى طيبة ، وكان الحكام المصريون فى جميع هذه البلاد ينفذون أمر الجالس على عرش طيبة الذى امتدت رقعة ملكه من الفرات فى الشمال إلى ، نپتا ، فى الجنوب أى كان طول إمبراطوريته نحو ٣٢٠٠ كيلو متر .

شخصية تحوتمس الثالث :

اشتهر اسم تحوتمس الثالث كقائد حربى من الطراز الأول . رأيناه يضع الخطط وينفذها ويلجأ إلى أساليب جديدة فى فن القتال ، كما رأيناه أيضاً يتحلى بشجاعة نادرة ، ولم يكن يتطلب من أحد جنوده أن يفعل أمراً لا يستطيع هو بنفسه أن يفعله ، ويكفى موقفه يوم عقد مجلسه الحربى فى ، يحم ، ويوم تقدم الجيش على قدميه فى ممر ، عرونا ، لنعرف أنه كان جندياً ممتاز الصفات فى كل شيء .

ولكنا نعرف من الوثائق الأخرى أن ميزاته الحربية لم تكن إلا إحدى نواحى عظمته . فقد حكم إمبراطوريته الواسعة بالحزم واللين وكان يعرف كل ما يحدث فى

أرجائها ، كما قال عنه وزيره «رخ – مى – رع » كالصقر يرى كل شيء .

أدرك تحوتمس الثالث أنه لن يستطيع الإبقاء على إمبراطوريته إذا لم تقم على أساس المودة . ولهذا لم ينتقم من الأمراء الذين حاربوه بل قربهم وثبتهم فى وظائفهم، وقبل منهم الولاء بعد أن أقسموا له يمين الطاعة . ولكنه رأى أن يأخذ معه بعض أبنائهم ليتعلموا فى مصر مع أبنائه ومع أبناء كبار الرجال ، ليشبوا مؤمنين بصداقة مصر لهم ولبلادهم ولكى يرتبطوا منذ طفولتهم وشبابهم بروابط الصداقة مع الأمراء المصريين ومع أبناء كبار الموظفين .

وكانت رحلات تحوتمس الثالث إلى بلاد سورية غير مطبوعة بالطابع الحربى فقط بل إنها كانت مطبوعة أيضاً بطابع آخر . فقد أصدر تحوتمس أمره إلى رجاله بأن يدخلوا إلى مصر كل ما يجدونه صالحاً من حيوان أو فواكه أو زراعات ، ونرى صوراً لكثير من الطيور والحيوانات والنباتات على جدران إحدى القاعات التى بناها فى معبد الكرنك ، صوروا على جدرانها كل ما أمر بإحضاره إلى مصر ، ونعرف أنه كان ضمن ما أدخلوه إلى مصر فى ذلك الحين الدجاج والرمان .

وليس من المستغرب بعد ذلك أن نرى أن بعض مظاهر الفن والحضارة السورية والعراقية بدأت تظهر فى البلاد ، وبدأ كثير من الأسيويين يستقرون فى وادى النيل ، وكان لهم الحرية التامة فى أن يعيشوا كما كانوا يعيشون فى بلادهم ويعبدوا آلهتهم الأسيوية ما يحلو لهم . وكان تحوتمس الثالث يقدر شجاعة رجاله فيغدق على من يميز نفسه على أقرانه جميع أنواع الترقيات والهدايا . فنرى مثلاً فى تاريخ حياة أحد ضباطه « أمون – إم – حب » الذى دونه على جدران مقبرته فى طيبة كيف كان الملك يكافئه فى كل مرة يظهر فيها الشجاعة مثل اليوم الذى أنقذ فيه حياة الملك عندما هاجمه أحد الفيلة أثناء صيدها فى سهول الفرات ، ويوم أسعفه ذكاؤه فهجم على الفرس التى أطلقها زعيم قادش فى الحملة السادسة عشرة لتحدث الإضطراب بين الصفوف فى العربات التى كان يجرها الذكور من الخيل ، ولكن « أمون إم حب » هجم على الفرس وقتلها .

وليس هناك ما هو أوقع فى النفس مما فعله لتخليد ذكرى الملك سنوسرت الثالث فى بلاد النوبة والسودان ، فإن سنوسرت الثالث اهتم كثيراً بهذه المنطقة وحصنها ووضع لوحات عند حدودها ، وأصلح كثيراً فى إدارتها ، فلما نزل تحوتمس إلى تلك البلاد ورأى بعينيه أعمال جده الذى حكم قبله بأكثر من أربعمائة سنة لم يسعه إلا أن يأمر بتأليهه وتشييد المعابد بإسمه ، وأمر بأن يرسمه الفنانون وهو يقدم القرابين له بإعتباره إلهاً حامياً للنوبة .

أما نظرة هذا الفرعون إلى الحكم وكيف يجب أن يعامل الناس فإننا نقرؤها على جدران مقبرة الوزير « رخ مى رع » ، وهى وصايا هذا الملك لوزيره يوم أسند إليه منصب الوزارة ورسم له الطريق الذى يجب أن يسير عليه ، وهى وصايا لم تكن دستوراً صالحاً للماضى فقط ، بل صالحة لكل زمان ومكان وفيها تحليل نفسى للشعب ، والصلة التى يجب أن تكون بين الحاكم والمحكوم .

كبار رجال ذلك العهد :

كانت أكثر أعوام تحوتمس الثالث سنوات حرب فلهذا كنا نتوقع أن يصبح لقواده العسكريين الذين كانوا دائماً حوله فى حروبه المركز الأول فى البلاد ، وأن تصبح لهم الكلمة الأولى فيها . ولكنا إذا درسنا جيداً حياة رجاله الذين خلفوا آثاراً وراءهم نرى أن بعد نظر هذا الحاكم جعله يضعهم فى مكان لا يعدونه حتى لا يفلت الزمام من يده . ونحن نعرف كثيراً من أسماء ضباطه الذين أبلوا بلاءاً حسناً فى الحروب والذين حظوا بإنعامه وعطفه ، ولكن لا نرى واحداً منهم وصل إلى مركز رئيسى كبير بل أن إدارة البلاد المالية والقضائية والدينية بقيت بعيدة عن رجال الجيش ليتفرغوا لبناء الإمبراطورية ويحافظوا عليها .

كانت طيبة فى أيام تحوتمس الثالث عاصمة العالم القديم ، وكانت تتدفق عليها خيرات إفريقيا وآسيا وجزر البحر الأبيض ، وكان يفد إليها كل عام رسل جميع البلاد يحملون خير ما استطاعت بلادهم تقديمه من ذهب وفضة ، ومعادن أخرى وأحجار كريمة ، ومصنوعات مختلفة . وكان موظفو الخزانة هم المسئولون عن تسلم هذه الهدايا وأنواع الجزية ، كما كان الوزير يستقبلهم بحكم منصبه ليقدمهم إلى فرعون . وكثيراً ما سجل كبار موظفى ذلك العهد هذه المناظر على جدران مقابرهم فأصبحت مقابر طيبة سجلاً جامعاً لحضارات بلاد الشرق القديم فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد ، إذ سجل الفنانون المصريون ما رأوه فرسموا وفود هذه البلاد بملابسهم الوطنية ، وما كانوا يحملونه من مصنوعات بلادهم ومحاصيلها . وقد زال أثر تلك الحضارات من كثير من بلاد آسيا وجزر البحر الأبيض والسودان ، وأصبحنا نعتمد على مقابر طيبة وحدها كالمصدر الأول لدراسة حضارات تلك البلاد والشعوب . وأهم المقابر فى طيبة لدراسة الحالة الاجتماعية فى مصر فى ذلك العهد ودراسة حضارات الشعوب الأخرى هى مقابر الوزراء أمثال « أوسر » و « رخ مى رع » ، وبعض كبار الكهنة مثل مقبرة « منخپر رع سنب »(١) الذى كان الكاهن الأكبر لأمون

---

(١) كان لهذا الكاهن مقبرتان هما رقم ٨٦ ، ١١٢ فى طيبة - ومقبرته الهامة منشورة فى كتاب DAVIES, The Tomb of menkheperasonb, Amenmose and Another.

وبعض كبار رجال الدولة أمثال « بويمرع » (١) و « أمنمحات بن تحوتمس » (٢) .

و « أنتف » (٣) و « إمونزح » (٤) وبعض القواد أمثال « أمون إم حب » (٥) و« أمون مس » (٦) ولكن أهم الشخصيات جميعاً كانت شخصية الوزير « رخ مى رع » ونقوش مقبرته أهم مصدر لدراسة الحياة الإجتماعية فى ذلك العصر (٧) .

السنوات الأخيرة من حياة تحوتمس الثالث :

كانت خيرات العالم القديم تتدفق على خزائن فرعون ، وسرعان ما دبت فى مصر وفى جميع بلاد الشرق حياة جديدة ، كما أخذ شأن « طيبة » يزداد من يوم إلى يوم . ولم يدخر تحوتمس الثالث جهداً فى تزيينها لتصبح جديرة بأن تكون عاصمة العالم المعروف ، فبنى فيها المعابد والهياكل وأقام المسلات ولم يقتصر نشاطه على الكرنك أو الأقصر أو جبانة طيبة بل نرى هذا النشاط شاملاً لجميع أرجاء الوادى . ففى جبل برقل فى دنقلة أقام المعابد وكذلك على طول النيل فى بلاد النوبة ، وفى جميع البلاد الهامة فى الصعيد وفى الدلتا ، كما نعرف أيضاً أن المعابد المصرية بنيت فى كثير من بلاد آسيا وأصبح الإله أمون – رع معبوداً فى كافة أنحاء الإمبراطورية .

ولم يذهب تحوتمس الثالث إلى آسيا بعد الحملة السادسة عشرة التى ظل بعدها على العرش إثنى عشر عاماً ، ولم يكن ذلك راجعاً إلى فتور همته أو ضعف صحته لتقدمه فى السن ، وإنما كان مرجعه إلى استتباب الأمن والنظام فى كل مكان ، إذ نعرف مثلاً أنه لم يتردد فى القيام بحملة إلى السودان فى العام الخمسين من حكمه ، وقد قضى هناك أكثر من سبعة شهور ، فلو كان ممن يحبون الدعة أو الراحة لما سافر

---

(١) صاحب مقبرة رقم ٣٩ من مقابر طيبة وكانت أهم وظائفه الإشراف على الأعمال الإنشائية وقد نشر المرحوم ديفز مقبرته بما فيها من رسوم .

(٢) كان أمنمحات مدير بيت الوزير أوسر وكان المدير لجميع أعماله وبخاصة المالية منها ومقبرته رقمها ٨٩ . DAVIES & GARDINER, The Tomb of Amenemhat

(٣) مقبرته رقم ١٥٥ ولوحته فى اللوفر . كان أنتف يشغل وظيفة رئيس التشريفات وكان حاكماً لإقليم أبيدوس والواحات .

(٤) كان إمونزح من بين حكام الأقاليم ، وكانت دندرة ضمن اختصاصه ولكنه إلى جانب ذلك كان من كبار رجال القضاء .

(٥) مقبرة هذا القائد فى طيبة ورقمها ٨٥ وفيها تاريخ حياته وأعماله التى قربته إلى تحوتمس الثالث .

(٦) مقبرته رقم ٤٢ وهى فى حالة سيئة الآن وكان « أمون – مس » رئيساً للرماة ومقبرته منشورة فى كتاب ديفز عن مقابر منخبر رع سنب وأمون – مس وغيره .

(٧) خير مرجع لدراسة هذه المقبرة هو كتاب ديفز
DAVIES , The Tomb of Rekh-mi-at Thebes.

بنفسه لإخماد فتنة قامت هناك . لقد ذهب بنفسه ولم يكل ذلك إلى فرد آخر من قواده بالرغم من أنه كان قد قارب السبعين من عمره .

ومن المحتمل أن يكون تحوتمس الثالث قد بدأ حياته الزوجية غير الموفقة مع حتشبسوت كما ذكرنا ، ولكنه تزوج أيضاً من أميرة أخرى إسمها « سات - إعح » فلما كبرت « مريت - رع - حتشبسوت » إبنة الملكة حتشبسوت وأصبحت فى سن الزواج إتخذها زوجة ؛ لأنها كانت الوريثة الشرعية ، وأنجب منها إبنه « أمنحوتب » الذى خلفه على العرش . ومات تحوتمس الثالث بعد أن ملأ سمع الدنيا وبصرها وكان إبنه أمنحوتب قد جاوز عامه الثامن عشر ، وكان مشهوراً بالفروسية والشجاعة وممارسته أنواعاً عدة من الرياضة البدنية ، وكان رجاله الذين ولد أكثرهم فى عهده ، ساهرين على أحوال الإمبراطورية ، فلا عجب إذا كان قد مات وهو مطمئن على مستقبل إمبراطوريته .

مات تحوتمس بعد حكم دام أربعة وخمسين عاماً فى اليوم الثلاثين من الشهر الثالث من فصل الشتاء وكما ذكر القائد « أمون - إم - حب » فى مقبرته « صعد إلى السماء واتحد مع الإله رع واندمجت أعضاؤه الطاهرة مع الذى خلقها . فلما جاء اليوم الثانى وأشرقت الشمس وأضاءت السماء ، جلس على عرش أبيه الملك « عاخبرو - رع » (أمنحوتب الثانى) وإتخذ لنفسه الألقاب الملكية » . ودفنت مصر فى مقبرته فى وادى الملوك ملكاً من أعظم الملوك الذين حكموا فى الأرض ثم إلتفت حول إبنه الشاب وهى واثقة أنه خير من يحمل العبء ويستمر فى تحقيق رسالة أبيه .

أمنحوتب الثانى : (١٤٣٦ - ١٤١١ ق.م.)

تفتحت عينا الأمير أمنحوتب ليرى مصر وبلاد الشرق القديم تحنى رأسها لأبيه، فلما شب عن دور الطفولة لم يكن ليسمع إلا دقات طبول الحرب . ولا شك أنه متع ناظريه وأذنيه وهو يرى والده العظيم يقود جنوده عاماً بعد عام ليعود بعد شهور قليلة وقد حمل جنوده ما قدمته البلاد الأسيوية من جزية أو من هدايا ، وليرى أيضاً الأمراء العصاة يمشون مكبلين بالأغلال فى مواكب النصر .

كانت مصر فى ماضى أيامها تعيش آمنة فى بلادها لا تهتم إلا بأمورها وتأمين طرق تجارتها مع غيرها من البلاد ، وإذا كانت قد إهتمت بتوطيد أقدامها فى مكان خارج حدودها فإنها لم تهتم إلا بالجنوب كما حدث فى الأسرة الثانية عشرة . ولكن تعرضها للمذلة أثناء غزو الهكسوس جعلها تفكر فى الانتقام لكرامتها ، وأرادت

أن تبعد الخطر عن حدودها الشرقية وتستأصل كل مكامن الشر حتى تطمئن على نفسها ، وكان أول من نفذ هذه السياسة على نطاق واسع هو تحوتمس الأول .

ولكن حتشبسوت كانت على غير رأى أبيها فلم تهتم على الإطلاق بآسيا بل أرادت أن تحيى السياسة القديمة وهى الإقتصار على العلاقات التجارية وبخاصة مع الجنوب ، فأرسلت حملتها الشهيرة إلى بلاد بونت ، واهتمت بإصلاح حال البلاد وترميم ما تهدم من معابدها وبخاصة أثناء حكم الهكسوس ، وأقامت المبانى الفخمة فى طيبة وضنت بموارد البلاد أن تذهب فى حروب فى آسيا لم تكن تؤمن بها أو بنتائجها .

ولكن هذا الإتجاه السلمى نحو إحياء التجارة ، والإتجاه نحو الجنوب والاهتمام بالإتصال بإفريقيا بدلا من الإتصال بآسيا ، بدأ يحدث رد فعل جديد ، وأخذت بعض الولايات الأسيوية تتخلص من النفوذ المصرى ، ورأى بعض المصريين ومنهم الكهنة ، الذين كانوا يشجعون الحرب للإستفادة من المغانم ، أن الخطر بدأ يظهر مرة أخرى ، ثم جاءت الضربة التى ضربها الحزب المناوىء لحتشبسوت وتولى تحوتمس الثالث عرش البلاد .

فلما جاء اليوم الذى تولى فيه أمنحوتب الثانى عرش أبيه لم يتردد فى إتباع خطواته ولم يظهر ميلاً نحو الدعة أو المسالمة ، بل أسرع ليظهر بطولته ، وهكذا ماتت سياسة السلم وترك آسيا وشأنها بموت حتشبسوت ، ولم يقدر لها أن تظهر من جديد ، ولو فى صورة أخرى ولأسباب أخرى ، إلا فى أواخر أيام الأسرة الثامنة عشرة فى عهد إخناتون .

ولندع الآن الحديث عن ذلك ونعاود سرد قصتنا عندما بدأ منحوتب الثانى حكمه وهو فى ميعة الشباب ، فوضع التاج المزدوج فوق رأسه وقبلته البلاد ملكاً مؤلها ، تدين له إمبراطورية من أكبر الإمبراطوريات التى عرفها العالم القديم .

كانت الأيام كلها أيام فتوح وحرب وكان حديث الشعب كله هو ما يرويه الجنود العائدون من القتال من قصص وأخبار ، وكلهم يريد أن يضفى على نفسه هالة من البطولة ، صادقة كانت أو كاذبة . وكان الشعب يحب ذلك كله إذ كان يرى أثر هذه الحروب فى الرخاء الذى أخذ يغمر البلاد ، وفى النهضة التى شملت كل مرافقها . وأدرك تحوتمس الثالث أنه لا بقاء لهذا الملك الواسع العريض إلا إذا خلفه على العرش ملك قوى الشكيمة محب للحرب ولهذا أسلم ابنه منذ صغره إلى أحد ضباطه ليشرف على تربيته التربية العسكرية اللازمة . ونحن نرى الأمير الصغير الذى لم يكن قد بلغ

الحلم مرسوماً فى قبر مربيه فى طيبة وقد أخذ يتلقى عنه درساً فى الرماية (١) . ويستمع إلى معلمه وهو يقول :

« شد القوس حتى أذنك مستعملاً كل ما فى ذراعيك من قوة وثبت السهم .. يا أمير أمنحوتپ » .

وأنشأ تحوتمس الثالث مدرسة فى قصره فى طيبة ليتعلم فيها ولى عهده . ومعه كثيرون من أبناء ضباطه وكبار رجال البلاد وأبناء أمراء آسيا الذين يقاربونه فى السن ، ليشبوا جميعاً وقد إرتبطوا برباط الصداقة معه لكى يخدموه فى مستقبل أيامه خدمة الصديق للصديق وهى خير وأجدى من خدمة العبد للسيد .

ولسنا نشك فى أن تحوتمس الثالث ، وكان قد أصبح شيخاً متقدماً فى السن ، كان راضى النفس وهو يرى ولى عهده يشب صحيح الجسم مغرما إلى أبعد حد بجميع أنواع الرياضة من رمى بالسهام ، إلى براعة فائقة فى التجديف ، وفى الجرى، ونعرف من لوحته التى عثر عليها فى عام ١٩٣٦ بجوار « أبو الهول » فى الجيزة وتصف حبه للرياضة والفروسية أنه عندما أبلغوا أباه غرامه بالجياد وأظهروا للملك شفقتهم على الأمير من شراستها سر الملك سروراً كبيراً من ذلك ، لأن الإله وضع فى قلبه حب الفروسية وأنساه شهوة الجسد، لأن الإله قد أراد أن يكون حامياً لمصر (٢) .

وعاش تحوتمس الثالث حتى أتم إبنه العام الثامن عشر من حياته ، فلما تربع على العرش وجد حوله رجال أبيه الذين ساعدوه فى إنشاء وإدارة الإمبراطورية كما وجد الخزائن ملآى ، والبلاد آمنة ، ولكن لم يلبث حتى وصل إلى سمعه أن بعض الولايات السورية الشمالية إنتهزت فرصة موت تحوتمس الثالث وأرادت التخلص من الحكم المصرى فعز ذلك على الملك الشاب وعده استخفافا به . واندفع نحو سورية على رأس جيشه بكل ما فى الشباب اليافع من إندفاع ، فهزم كل من لم يقدم له الولاء، وكان انتقامه شديداً وأتى بما لم يأت به أحد من أجداده من قبل ، إذ مال إلى التنكيل بأعدائه ، وأحضر معه سبعة من أمراء المدن السورية إلى طيبة وقتل ستة

---

(١) قبر « مين » رقم ١٠٩ فى طيبة وهو أحد الضباط الذين حاربوا مع تحوتمس فى صدر أيامه وأصبح بعد ذلك حاكماً لمدينة « ثنى » على مقربة من أبيدوس .

(٢) إكتشفها سليم حسن فى عام ١٩٣٦ ونشرها فى مجلة Annales du Service XXXVII. p. 129-134 وقد ترجمها بعد ذلك كل من الأثريين فارى وفان دى وال على حدة كما ترجمها الأستاذ حسن مرة أخرى إلى اللغة العربية فى كتابه مصر القديمة جـ ٤ – ص ٦٤٦ – ٤٨ (القاهرة ١٩٤٨) .

منهم أمام الإله أمون فى طيبة ، أما السابع فقد أرسله إلى « نبتا » ليشنق هناك أمام أمون سيد جبل برقل .

وكان لهذا العمل أثره ، فسرعان ما عرفت آسيا أن الجالس على عرش مصر قادر على الإحتفاظ بهيبته ، ولهذا أخذت جميع المدن ترسل هداياها وتبعث بخيرات بلادها وكان فى مقدمة هذه البلاد مملكة ميتانى نفسها التى شجعت العصيان ، ومدينة قادش التى لعبت دوراً رئيسياً فيه .

كانت هذه الحملة أولى حملاته على آسيا ، وقد أتبعها بحملة أخرى فى السنة التاسعة . ولكنها كانت حملة تفتيشية أكثر منها حملة حربية ؛ لأن الثورة التى قبل عنها إنها قامت فى فلسطين لم تكن إلا فتنة صغيرة محلية فى إحدى المدن . ويقص أمنحوتب الثانى أخبار هاتين الحملتين على لوحتيه الشهيرتين وإحداهما فى الكرنك منذ وقت طويل ، وعثر على الثانية فى عام ١٩٤١ فى منف (١) ، إذ أمر الملك بإذاعة إنتصاراته على هاتين اللوحتين فى أكبر معابد مصر وهما معبد بتاح فى منف ومعبد أمون رع فى طيبة (٢) ، وقص فيهما الكثير من حوادث بطولته الشخصية وجرأته وقوته البدنية . وآثاره غير القليلة ، فقد زاد كثيراً فى معبد الكرنك وفى منف ، وكذلك فى كثير من بلاد النوبة والسودان ، ومن بين هذه الآثار تمثال راكع وفى يديه إناءان كان فى معبد له فى جهة النجعة على مقربة من شندى على مسافة تقل عن سبعين ميلا شمالى الخرطوم : أن أن أمنحوتب زاد فى الإتجاه نحو الجنوب ومن المحتمل أن يكون قد وصل النفوذ المصرى إلى أبعد من ذلك ، ولكن ليس لدينا حتى الآن آثاراً من هذه الأسرة عثر عليها جنوبى الخرطوم .

وقد أحاط أمنحوتب الثانى نفسه برجال جدد بل يكاد يكون من المؤكد أنه لم يرض عن كثيرين ممن كانوا فى خدمة أبيه ، وقرب إليه شباناً وبخاصة ممن كانوا رفقاءه فى طفولته . وفى جبانة طيبة نرى مقابر هؤلاء الموظفين ومن أهمها مقبرة « قن أمون » الذى كان يتمتع بنفوذ كبير ، ورسمت على جدرانها الهدايا التى كانت

(١) اللوحة الأولى عثر عليها فى الكرنك منذ وقت بعيد وقد نشرها
LEGRAIN, Annales du Service, IV (1904); p. 126 ff
أما الثانية فقد نشرها مكتشفها أحمد بدوى
AHMAD BADAWI, Annales du Service XXLL, p. 1 . ff .
أنظر أيضاً كتابه فى موكب الشمس الجزء الثانى صفحة ٥١٨ وما تلاها .

(٢) أمر أمنحوتب لاثانى بتحديد ملكه فى الشمال والجنوب وأوفد أحد رجاله فى السنة الرابعة من حكمه فوضع لوحة على الضفة اليمنى للفرات بجوار لوحات أبيه وجده الأكبر ووضع الثانية فى الجنوب فى معبد نبتا .

قدمت للملك فى عيد السنة الجديدة ، ومقبرة ، وسرحات ، ومقبرة ، باسر ، وغيرها، وكذلك مقبرة ، أمون إم أبت ، الذى حل محل الوزير ، رخ مى رع ، ، وجدران هذه المقابر مغطاة بمناظر تكمل مناظر مقابر عهد تحوتمس الثالث فى دراسة الحياة الإجتماعية لبلاد آسيا وغيرها ، إذ ظل تمثيل تقديم الهدايا والجزية كما كان فى عهد أبيه وزاد عليها الميل لتصوير مناظر الصناعات المختلفة والحفلات المنزلية بما فيه من بذخ وتوفير السرور .

وهناك شيء من الخلاف بين الأثريين فيمن كانت زوجته الملكية وأكبر الظن أنها كانت أخته من أبيه الملكة ، تاعا ، التى أصبحت فيما بعد أما للملك تحوتمس الرابع الذى خلفه على العرش .

وكان للفرعون أمنحوتب الثانى خمسة أولاد من الذكور ، أسلمهم إلى مرب اسمه ، حقر نحح ، رسمهم جالسين على ركبتيه من قبره فى طيبة ولكن أسماءهم – ما عدا إسم الأمير تحوتمس – قد محيت عمداً فيما بعد بسبب الخلاف الذى دب فى العائلة بعد موت والدهم ، بعد أن قضى خمسة وعشرين عاماً فى الملك ودفن فى قبره الذى أعده فى وادى الملوك .

تحوتمس الرابع : (١٤١١ – ١٣٩٧ ق.م.)

لم يكن تحوتمس الرابع ولى العهد الذى كان يجب أن يؤول إليه العرش بعد وفاة أبيه بل كان من بين إخوته من الذكور من هو أقرب إلى الملك منه ، وإنما تولى العرش عقب نزاع بينه وبين غيره من إخوته ، وإذا كانت آثار هذا الملك لا تتحدث صراحة عن ذلك فإن اللوحة الشهيرة باسم ، لوحة الحلم ، ، وهى التى أقامها بين ذراعى ، أبو الهول ، فى الجيزة ، تحمل فى ثناياها أنه لم يكن هو الأمير صاحب الحق فى الملك . فإن تحوتمس الرابع أقام هذه اللوحة فى العام الأول من حكمه ويقص علينا فيها أنه كان يصطاد يوماً من الأيام فى صحراء الأهرام عندما كان أميراً، وجلس فى ظل تمثال ، حور أم أخت ، (تمثال أبو الهول) وغلبه النعاس فرأى بوضوح أباه الإله يبشره بأنه سيصبح ملكاً فى المستقبل وسيضع التاج على جبينه ، ويطلب منه إذا تحقق ذلك أن يرفع الرمال التى تجمعت حوله؛ لأنها تكاد تخنقه ولا يستطيع التنفس. ويقول تحوتمس إن هذه النبوءة الإلهية تحققت وأنه أمر برفع الرمال.

ولو أمعنا النظر فى هذه القصة لرأينا فيها محاولة لتبرير وجوده على العرش إذ لو كان الأمير الشرعى لما كان هناك داع لهذه القصة المخترعة . كما أننا نعرف فى الوقت ذاته من مقبرة المشرف على تربيته أن نزاعاً ما حدث بين الأمراء فمحيت

أسماؤهم ما عدا تحوتمس الذى أصبح فيما بعد ملكاً على البلاد . وربما كانت مؤامرته لإبعاد أخيه صاحب الحق قد أغضب كهنة أمون الذين لم يقروه على ما فعله فحدثت بينه وبينهم جفوة جعلته يتجه نحو كهنة الشمس ويبذل كل ما إستطاع لإحياء عبادة رع ، بل إننا نجد أيضاً نه شجع عبادة قرص الشمس « أتون » وكان أول من أمر برسمه وهو يعطى الحياة ، كما نرى ذلك فيما بعد فى عهد حفيده إخناتون .

ومهما كان الأمر فإن تحوتمس الرابع أثبت جدارته ، فما كاد يجلس على العرش فأعاد النظام ، ورجع محملاً بالغنائم ، وأحضر معه أسرى كثيرين بنى لهم حياً خاصاً فى طيبة . وكذلك فعل عندما نزل إلى السودان لإطفاء نار ثورة شبت هناك فنزل إليها بنفسه أيضاً . وقد إستن تحوتمس الرابع سنة جديدة عندما زين مقدمة عربته الحربية بمناظر تمثل ساحة القتال ، فإن هذه المناظر التى أصبحت فيما بعد تملأ واجهات المعابد بدأت كما رأينا على مقدمة عربة هذا الملك ، وهذا المنظر وإن صغرت مساحته فإن الفنان الذى رسمه راعى فيها جميع التفاصيل ، وحشر فيه مناظر متعددة روعيت فيها الدقة التامة (١) .

كان تحوتمس الرابع آخر ملوك مصر المحاربين الذين قامت الإمبراطورية على سواعدهم ، وهو أيضاً آخر ملوك هذه العائلة الذين ذهبوا على رأس الجيش إلى آسيا ، وجعل هيبة مصر تحتل المكانة الأسمى فى سورية وفى العراق وفى آسيا الصغرى . كانت هناك ممالك ميتانى وبابل وأشور وخيتا فى آسيا ، وكانت تتنافس فيما بينها ، وأهمها جميعاً إذ ذاك مملكة « ميتانى » التى بدأت تحس بخطر مملكة « خيتا » الناشئة وأخذت تخطب ود مصر ، فشجع تحوتمس هذا التقارب بل أراد أن يوثق أواصر المودة بزواجه من إبنة الملك « إر تا تاما » ملك ميتانى فأرسل إليه ستة رسل يطلب يدها وأخيراً قبل أن يرسلها مع الرسول السابع .

وهذه الأميرة الميتانية هى التى سميت بعد ذلك بالإسم المصرى « موت إم أويا » وأصبحت أم « أمنحوتب الثالث » الذى تولى العرش بعد وفاة أبيه .

ويرى بعض المؤرخين (٢) أن اختلاط دم الفراعنة بالدم الآرى كان سببا مباشرا لإدخال الطراوة وحب الملذات فى دم أمنوحتب الثالث ولكن ليس فى تاريخ الجنس

---

(١) وجدت هذه العربة فى مقبرته فى وادى الملوك وهى محفوظة الآن فى المتحف المصرى ، ويلوح أن رسم المناظر الحربية على مساحة صغيرة كان هو أيضاً السبب فى رسم مثل هذه المناظر على جانبى الصندوق الشهير الذى عثر عليه فى مقبرة الملك « توت عنخ أمون » .

(٢) أنظر كتاب « مصر » تأليف دريوتون وفانديه ، الترجمة العربية – القاهرة ١٩٥٠ ص ٤٥٩ – ٤٦٠ .

الآرى بوجه عام ما يجعلنا نقبل مثل هذا الرأى على علاته ، فإنهم جنس محارب شديد المراس ، وإذاك أن أمنحوتب الثالث غير ميال بطبيعته إلى الحروب فهذا أمر آخر وربما كان راجعاً إلى عوامل أخرى .

وبالرغم من أن تحوتمس الرابع تربع على العرش وهو فى سن العشرين فإنه مات فى ريعان شبابه إذ لم يحكم أكثر من أربعة عشر عاماً فقط ولكن نشاطه الذى رأيناه فى الحرب لازمه أيضاً فى إدارة البلاد فنرى آثاره فى كثير من أرجاء مصر (١) . ونرى فى طيبة كثيراً من مقابر رجاله الذين رافقوه فى حروبه وعاونوه فى إدارة ملكه الواسع ، وقد إمتازت مقابر هذه الفترة برسم المناظر الحربية وعرض الجنوب ، وبخاصة فى مقابر « نب أمون » و « ثاننى » و « ثنونا » . (٢) وقد تزوج تحوتمس الرابع أكثر من واحدة وولد له بضع ذكور وعدد غير قليل من الإناث .

ودفن فى مقبرة وادى الملوك ، وقد سرق هذا القبر فى أيام الرعامسة وعثر فيه فى أوائل هذا القرن على كثير مما تركه اللصوص . وبموت هذا الملك بدأت مصر فترة جديدة فى تاريخها .

---

(١) كان آخر عمل قام به هذا الملك هو إقامة مسلة للملك تحوتمس الثالث ظلت ملقاة فى مكانها بالكرنك خمسة وثلاثين عاماً ولم يؤد أمنحوتب الثانى واجبه فى إقامتها .

(٢) DAVIES. The Tombs of Two Officials of Thothmes IV. مقبرة نب أمون رقم ٧٥ أما مقبرة ثاننى فهى رقم ٧٤ وفيها مناظر هامة لعرض الجنود ، وقبر ثنونا رقم ٦٧ ، وكان من المقربين جداً من الملك

الأسرة الثامنة عشرة

القسم الثانى - أيام السلم

*****

أمنحوتب الثالث يتولى الملك : (١٣٩٧ - ١٣٦٠ ق.م.)

قضت مصر قرناً كاملاً وهى توسس إمبراطوريتها . فمنذ أن تولى تحوتمس الأول عرش البلاد وتطلع بعينيه نحو آسيا لم يتراخ هو أو واحد من خلفائه فى توطيد هذا الملك ، بل أن مصر لم تحس بسلامتها وتؤمن أنها قد تخلصت إلى الأبد من خطر فلول أعدائها الهكسوس إلا بعد أن رأت تحوتمس الثالث يدك أسوار قادش ، ويقود زعماءها فى موكب نصره ، وقضى عليهم وعلى كل من كان يناصرهم من زعماء المدن الأخرى .

ومنذ اليوم الذى اتصلت فيه مصر بتلك البلاد ، بدأ أسرى الأسيويين يستوطنون أرض النيل ، وكان جنود مصر يذهبون إلى آسيا ، ويأتى الكثيرون من سكان بلاد الشرق القديم إلى طيبة ، فأصبحت هذه المدينة أولى بلاد العالم وكعبة القصاد . وفى مثل هذا الظروف كان أمراً طبيعياً أن تتغير الحياة الاجتماعية فى مصر وأن يتسع أفق المصريين ويخرجوا من عزلتهم الهانئة ، ويخففوا من غلواء تقاليدهم الدينية والاجتماعية بعد أن اتصلوا بالشعوب الأخرى ، وبدأت تتسرب إليهم آراء وتقاليد لم يكن لهم بها عهد من قبل .

ونحن نحس ونرى هذا التغيير فى حياة المصريين كما صوروه فى جبانة طيبة، وكما عرفناه من آدابهم ولغتهم كما وصل إلينا من أخبار ملوكهم . وليس أدل على هذا التغيير من أن مصر لم تعد تعبأ كثيراً بالتقاليد القديمة القاسية ، ولم نجد أى غضاضة فى أن ترى تحوتمس الرابع يتزوج من أميرة من ميتانى أو أن ترى إبنه من هذه الأميرة ، وهو الذى تبع أباه فى حكم البلاد يجلس على العرش ، بل بلغ من تغير الحياة الاجتماعية أن هذا الأمير نفسه لم يجد ما يدعوه لأن يتزوج أميرة من أميرات البيت المالك ويجعل منها الزوجة الأولى بل فضل عليهن فتاة من الشعب وهى التى أصبحت فيما بعد ملكة البلاد وأم ولى عهدها .

ونرى أثر هذا التغير الإجتماعى أيضاً فى معاملة أمنحوتب الثالث لزوجته «تى» . فللمرة الأولى فى تاريخ فراعنة الدولة الحديثة نرى الملكات تقام لهن التماثيل الكبيرة جالسات إلى جوار الملوك ، أو يذكرن معه دائماً على آثاره ، حتى على

الجوارين التذكارية التى كان يأمر هذا الملك بتوزيعها من آن لآخر .

دخلت مصر منذ تولى أمنحوتب الثالث فى فترة جديدة من حياتها فقد كان حاكمها الجديد غير ميال إلى الحرب بطبيعته ، وكانت الأمور قد استتبت فى آسيا ، ولم يعد هناك من تحدثه نفسه بالخروج على حكم مصر أو منازعتها . وكانت خزائن فرعون تفيض بأكداس الذهب والفضة ، وجميع ما فى العالم من ثروة وفن، يأتون به إليه هدية أو جزية من جميع أنحاء ملكه . وكان الملك الشاب ميالاً إلى الفن وميالاً إلى المتعة والجمال ، فطبع البلاد بطابعه وأخذت مصر تبنى المعابد الفخمة الجميلة والقصور الباذخة وأخذ بنوها يميلون للترف والتمتع بما فى دنياهم من رفاهية وملاذ، ولم يقصر المعماريون المصريون أو رجال الفن وأصحاب الحرف عن السير فى ركاب الاتجاه الجديد ، فإذا بنا نرى تغيراً فى شتى النواحى ، وبدأت الفنون تحتل المكانة الأولى ، وبدأت مصر تتجمل وتبنى ثمار جهادها الطويل الشاق .

ويكفى أن يقف الزائر فى معبد الأقصر ويمتع ناظريه بجمال نقوشه ، ويتأمل نسب أبهائه وأعمدته ليحس بأن فن العمارة خطا خطوات واسعة كبيرة ، فإذا ذهبنا إلى البر الغربى وزرنا مقابر الأشخاص الذين عاشوا فى أيامه مثل ، رع – موسى ، (راموزه) و ، خرو – إف ، و ، خع ام حات ، و ، سررو ، وغيرها أو تأملنا بقايا معبده الجنازى خلف تمثالى ممنون اللذين يمثلانه . أو قرأنا ما ذكره هذا الملك على لوحته الشهيرة التى يصف فيها ذلك المعبد فإننا نحس بأنفسنا وقد إنتقلنا إلى ماض بعيد ، كله عظمة وثروة وجمال ، ومن ذا الذى يملك نفسه من الإعجاب عندما يقرأ فى وصف المعبد :

، كان لا يسر قلب جلالته شيء مثل إقامة المبانى العظيمة التى لم يبن مثلها منذ خلق العالم . وقد أقام جلالته لأبيه أمون معبداً فخماً فى الجهة الغربية من طيبة فجعل منه حصناً خالداً . بناه بأجود أنواع الحجر الجيرى من كتل ذات حجم كبير ، وزين جميع أجزائه بالذهب وحلى أرضيته بالفضة وكانت أبوابه مغطاة بصفائح من الذهب . لقد زاد جلالته من حجمه وأكثر من أبهائه وأتمه ليبقى إلى الأبد ، ووضع فيه الكثير من التماثيل الملكية من جرانيت أسوان ، ومن الحجر الرملى الصلد ومن جميع أنواع الأحجار الجيدة ، وكانت صناعتها تامة وستبقى إلى الأبد . وكانت أحجامها الكبيرة تضيء الوجود أكثر من السماء ، وكان إنعكاس أشعتها فى وجوه الناس مثل الشمس عندما تضيء فى مطلع النهار ، .

ولم يكن أمون وغيره من الآلهة هم وحدهم الذين استفادوا من حب هذا الملك للبناء ، فإنه لم يترك وسيلة دون إرضاء ذوقه الفنى وذوق زوجته فبنى لها قصراً على الضفة الغربية من النيل على مقربة من معبده الجنازى، جعل منه ومن أبهائه معرضاً للذوق الفنى الرفيع ، وكان يقضى فيه أوقات سروره هو والمقربون من أصدقائه ورجال حاشيته وجواريه . وكانت زوجته « تى » تحب النزهة وأرادت أن يكون لها بحيرة على مقربة من القصر فتم لها ما أرادت بعد أسبوعين فقط وكانت تخرج فى زورقها هى والملك وبعض الوصيفات ليتمتعوا جميعاً بالهواء الطلق.

وكان أمنحوتب فى صدر شبابه قد أظهر بعض الرغبة فى ممارسة الصيد ، ونعرف من آثاره أنه خرج أكثر من مرة لصيد البقر الوحشى وغيره ، بل أنه أغرم فى وقت من الأوقات بصيد الأسود . ولكن هذا الحب للرياضة والفروسية لم يكن أصيلاً فيه بل كان نزوة شباب عارضة ، أو تقليداً من تقاليد البلاط ، وسرعان ما سئم الملك هذا النوع من النشاط وترك نفسه على سجيتها يستمتع بالحياة الباذخة بين قصوره وزوجاته والمئات من جواريه . ولم يفكر مرة واحدة فى زيارة أجزاء ملكه الواسعة ويعطى سكان آسيا فرصة واحدة لرؤية فرعون واقفاً فى عربته الحربية المصفحة بالذهب وخلفه جحافل جنوده ، بل ترك كل هذا وراءه ولم يعطه من عنايته أكثر من الإبقاء على صلات المودة بينه وبين الأمراء الأسيويين بقبول هداياهم والرد على تحياتهم .

والناس على دين ملوكهم . فلم تلبث الحياة الاجتماعية فى مصر كلها أن اتجهت نحو الدعة والاستمتاع بالحياة ، وكانت أسيرات الحرب خير معوان على ذلك، فلم تقتصر حفلات الطرب والرقص على القصور أو منازل كبار الموظفين بل شمل ذلك جميع الطبقات . ونشأت فى طيبة مشارب الجعة وفيها المغنيات والراقصات المحترفات ، وكان يرتادها العمال وغيرهم من طبقات الشعب ، ولا نستغرب بعد ذلك أن يعم خطر هذه المشارب فنقرأ فى بردية من البرديات تحذير مدرس لتلميذه من إرتيادها واصفاً له ما يجرى فيها من أعمال تنافى الخلق الكريم .

ركن أمنحوتب الثالث إلى حياة الإستمتاع بين زوجاته وجواريه ، وطلب من ملك ميتانى وكان إسمه « سوتارنا » Soutarna ، وهو إبن خال أمنحوتب أن يزوجه إحدى بناته فأرسل إليه الأميرة « كيلو جيبا » Kilougepa ، لتأييد المودة بين

(١) كان زواجه من كيلوجيبا فى السنة العاشرة من حكمه وقد جاءت ومعها ٣١٧ من وصيفاتها الميتانيات تزوجن على الأرجح من موظفى البلاد وضباط الجيش وممن كانوا مقربين إلى الملك.

البلدين(١) . وكأن هذا أصبح تقليداً جديداً إذ بعد أن مات سوتارنا تولى الملك بعده إبنه « توسراتا Tousratta » فأرسل إليه أميرة صغيرة السن وهي « تادوجيبا Tadoughepa » في الوقت الذى كان فيه أمنحوتب مريضاً متهدماً طاعناً فى السن .

ولم تقتصر مصاهراته على بنات مصر وبنات ميتانى بل تزوج من أميرات بابليات وأشوريات ، وكان يرسل إليه حكام المدن السورية كل عام عشرات من الفتيات الجميلات اللاتى كن يرسلن إليه مع الجزية وكان يلح فى طلبهن ، وهكذا انقلبت حياة هذا الملك إلى حفلات يقيمها فى قصره ، وأغرق نفسه إغراقاً فى نوع من الحياة لم يعرفها أحد ممن سبقوه .

أمنحوتپ الثالث بين الدين والسياسة :

لسنا نعرف ما الذى حدث تماماً بين تحوتمس الرابع وبين كهنة أمون حتى بدأ ينظر إليهم بشيء من القلق ، وأراد حفظ التوازن بتشجيع كهنة رع وعبادة رع فكان عصره بداية الحركة التى آتت ثمارها فيما بعد . ولم يقتصر التجديد فى عهد تحوتمس الرابع على إحياء عبادة الشمس والتجديد فيها ، بل مشى إلى جانبها نوع آخر من التجديد فى الفن ، وبدأنا نحس فى فن الأسرة الثامنة عشرة باتجاهات لم يكن لنا بها عهد من قبل ، وهى إتجاهات تعطى للفنان الحرية فى التعبير عما يحسه وإبراز عبقريته الشخصية بدلاً من إتباع أساليب معروفة لا يحيد عنها .

وجاء إبنه أمنحوتب الثالث فلم يرجع عن السياستين ، بل نعلم أكثر من ذلك بأنه جعل من أكبر أبنائه وولى عهده الأمير « تحوتمس » كبيراً لكنه پتاح (١) وكانت إقامته فى منف . وأخذت الاتجاهات الفنية التى بدأت فى الظهور فى عهد تحوتمس تتقدم وتظهر أكثر وضوحاً ، وبدأنا نرى حياة ملوك الفراعنة تمثل كحياة سائر البشر وأصبح للفنان حرية رسم الملك كما كان يراه ، وليس كما يجب أن يكون .

كان هذا التطور فى الأفكار الدينية والاتجاهات الفنية متمشياً مع تغير الحياة الإجتماعية فى مصر ، ولا يخالجنا الشك فى أن مثل هذه التغيرات فى حياة الشعب لم ترض المتزمتين من رجال الدين ومن المحافظين ، أو أبناء العائلات القديمة ، بينما وجدت قبولاً وتشجيعاً من الطبقات الأخرى – وبخاصة بين الموظفين والصناع – تلك الطبقات التى بدأت تغير حياتها وتحتل مركزاً إجتماعياً لم يكن لها من قبل . وليس

(١) كان تحوتمس ولياً للعهد ولكنه مات فى حياة أبيه ودفن فى سقارة . وبهذا أصبح أخوه أمنحوتب هو صاحب الحق فى ولاية العهد . أنظر : أحمد بدوى – فى موكب الشمس جـ ٢ ص ٥٦١ – ٥٦٢ وأنظر أيضاً كتابه Memphis . ص ٥٩ وما بعدها .

هناك من شك أيضاً فى أن حياة أمنحوتب الثالث لم يرض عنها الكثيرون من أهل عصره ، وبالرغم مما بناه من معابد باسم أمون رع فإن كهنة أمون رع لم ينظروا بعين الرضى إلى إحياء عبادة الشمس ولم ينظروا أيضاً بعين الرضا إلى تحلل الحياة الاجتماعية تقليداً لفرعون الذى استخف بكل التقاليد . كما أصبح للكثيرين من غير المصريين أو الذين لم يكونوا من دم مصرى خالص رأى مسموع فى البلاد الذى إبتعد عنه بعض أبناء كبار الموظفين القدماء فكان ذلك أيضاً سبباً من أسباب الجفاء .

أما فى السياسة فلم تكن الحالة خالية من الشوائب ، فقد أصبح اعتماد أمنحوتب الثالث فى حكم إمبراطوريته على صلته بملوك هذه البلاد . وكان يعتقد أن تبادل رسائل المودة بينه وبينهم كان لحفظ الإمبراطورية ، أو أن زواجه من بنات الملوك أو الأمراء كفيل بجعل هذه الدول والمدن راضية بالحكم المصرى إلى الأبد . وفات أمنحوتب والذين كانوا حوله من مستشارين أو ناصحين أ ن سياسة السلم وتبادل رسائل المودة والهدايا لم تكن إلا معبرة ، سواء بالحق أو بالباطل ، عن شعور الحكام فقط ، أما شعور الشعوب نفسها أو شعور الدول الأخرى المعادية فهذا أمر لم يحسبوا له حساباً ، بينما كان فى الحقيقة عاملاً هاماً فى سير الحوادث . لقد قضى أمنحوتب الثالث ستة وثلاثين عاماً على العرش ، لم يرسل خلالها إلى آسيا حملة واحدة فنسى أكثر الناس جيش فرعون وقوته ، وبدأوا يحكمون على مصر بما كان يقترفه حكامها أو جنودها وموظفوها فى تلك البلاد من خير أو شر أو ما يسمعونه من أخبار ممن كانوا يعودون من مصر .

وكان أمنحوتب الثالث فى أواخر أيامه شخصاً مهدماً محطم الصحة بالرغم من أنه كان دون الخمسين، لأنه أفرط فى ملذاته ، وكانت السلطة مركزة فى يدى زوجته « تى » والقليل من الموظفين الذين كانوا طوع إرادتها . ورأى هذا الملك بعد وفاة إبنه تحوتمس أن يشرك معه فى حكم البلاد إبنه الثانى منحوتب الرابع الذى كان قد تزوج من أميرة تسمى « نفرتيتى » . وبدأ أمنحوتب يحكم فى عهد أبيه ، وأقام فى طيبة مقر عبادة الإله أمون رع والعاصمة الأولى للبلاد . ولا شك فى أن نفرتيتى أميرة مصرية ، وأكبر الظن أنها إبنة لأمنحوتب الرابع ولم تكن من أصل ميتانى أو من أى شعب من شعوب آسيا كما أراد أن يذهب إلى ذلك بعض المشتغلين بالتاريخ المصرى فى وقت من الأوقات .

كان كل شيء فى مصر فى حاجة إلى الإصلاح بل إلى التغيير ، وكان العرش فى حاجة ملحة إلى ملك نشيط محارب مثل تحوتمس الثالث أو على الأقل مثل

تحوتمس الرابع ليحاول عمل شيء لتدعيم البناء الذى بدأ يتصدع ، ولكن أمنحوتب الرابع كان شاباً حالماً ذا إحساس دينى عميق ونفس شاعرة ، فلم يكن الرجل الذى يستطيع مواجهة الموقف الذى كانت فيه البلاد ، ولهذا لم يكن بد من حدوث الصدام ولم يكن بد من أن تسير الأمور من سيء إلى أسوأ ،

أمنحوتب الرابع : (١٣٧٠ - ١٣٤٩)

تولى أمنحوتب الرابع الملك شريكاً لأبيه وأقام معه فى طيبة ولكن منذ أن أصبح له شيء من الزمر بدأ يفكر فى الدعوة إلى عبادة الشمس ، وإختار أحد مظاهرها وهو ، أتون ، الذى عبر به عن القوة الكامنة فى قرص الشمس إلهاً له وأقام له معبداً على مقربة من معبد الكرنك .

وتدل جميع الشواهد على أن أمنحوتب الرابع لم يشتط فى أول دعوته ولم يبادىء كهنة أمون بالعدوان ، بل أن كل ما فعله هو دعوته إلى عبادة أتون وجعل منه إلهه المفضل ، وتبعه دون شك بعض رجال البلاد وكثير من عامة الناس ، وبدأ كهنة أمون يحسون بالخطر الجديد الذى أخذ يهددهم فبدأوا يخلقون المصاعب أمام الملك الجديد .

وإذا درسنا آثار هذه الفترة نرى أن أمنحوتب الرابع قد احترم فى بداية حكمه جميع الآلهة ، وبخاصة ما كان منها متصلاً بعبادة الشمس مثل رع وحورختى وغيرهما . وإذا كان قد نادى بعبادة أتون فإن أتون لم يكن إلهاً أجنبياً عن مصر فإن إسمه معروف منذ الدولة القديمة وورد فى نصوص الأهرام ، أى قبل أن يولد أمنحوتب الرابع بألف عام ، كما أن إحياء عبادة الشمس وشكل قرص الشمس وهو يمد شعاعه بالحياة كانا أمرين معروفين فى أيام تحوتمس الرابع ، إذ نعرف أنه فى عهد هذا الملك بالذات بدأ الفن المصرى يتحرر من كثير من قيوده القديمة ، ويتجه نحو أساليب واقعية تمثل الحياة كما هى ، وتظهر ما فى الطبيعة من جمال ، فكانت أكثر زخارف القصور بل وأدوات الزينة والأثاث ، تميل إلى الإعتماد على رسم الزهور ومختلف النباتات والحيوان والطيور والأسماك .

واستمر تطور الفن فى عهد أمنحوتب الثالث ونشأت فى أيامه المدرسة الفنية التى مهدت لظهور مدرسة العمارنة فيما بعد .

ولم يمض زمن طويل على أمنحوتب الرابع فى طيبة حتى بدأ يشتد تعصبه لدينه الجديد ووقف فى وجه كهنة أمون وغير إسمه من أمنحوتب الرابع إلى إسم جديد لتأكيد صلته بمعبودة فاختار إسم ، أخ - إن - أتون (إخناتون) ، وترجمتها ، المفيد

لأتون » ، وانقسم الناس وبدأت المتاعب أمامه واضحة، وربما كان أمنحوتب الثالث والده غير راض عن هذه الحركة الجيدة التى زادت من متاعبه ، وخصوصاً وأن ملك مصر فى آسيا بدأ ينهار وخسرت مصر جزءاً كبيراً من ولايات سورية المالية وانفض عنها كثير من خلفائها ، وإنقطع ما كان يأتى من جزية من بعض تلك البلاد.

كان أمنحوتب الثالث فى ذلك العهد شخصاً محطماً جنت عليه حياة البذخ والإفراط فى الملذات كما سبق القول . ومن كان فى مثل هذه الحالة وفى مثل هذا السن لا يمكن أن يرضى عن إنقسام أو عن حرب أهلية وعلى الأخص إذا تناول ذلك إلهه أمون الذى تفتحت عيناه على عبادته وقضى حياته يقيم له المعابد ، ليس فى طيبة فقط بل فى جميع البلاد سواء فى الشمال ، وبخاصة فى منف ، أو فى النوبة أو فى السودان . وربما كان عدم رضا الأب وزوجته تى عن عمل إبنهما من بين الأسباب التى دعته إلى ترك طيبة فاختار مكاناً بين طيبة ومنف ، فى محافظة أسيوط ، وجعل منه عاصمة جديدة للبلاد .

كان ذلك فى السنة الرابعة من حكمه ، فذهب إلى هذه المدينة الجديدة التى سماها « أخت أتون » أى « مشرق أتون » ووضع لوحات حدودها على جانبى النيل فى سفح الهضبتين الشرقية والغربية ، وبنى معبده وقصوره ومدينته الجديدة فى الناحية الشرقية من النيل ومكانها الآن على مقربة من قرية تل العمارنة .

وإستمر العمل فى إنشاء المدينة الجديدة عاميــن كاملين ، إنتــقل بعدهـــما « إخناتون » ومعه عائلته ورجال قصره ومن تبعه من خاصته إلى تلك العاصمة الجديدة فاستقر هناك ، وأقسم يميناً سجلها على اللوحات التى أقامها بأنه لن يغادر حدودها طالما كان حياً ، وفى هذه الجملة بالذات ما يجعلنا نحس بالمرارة التى كان يعانيها من كهنة أمون ، ومن المحافظين من رجال الدولة الذين لم تعجبهم هذه الحركة الجديدة . لم يترك إخناتون طيبة إلا بعد أن أعلنها حرباً لا هوادة فيها على أمون وعلى غيره من الآلهة ، ومن بينها أوزيريس ، وكان إسم أمون بالذات موضع حقده فأمر بمحوه أينما كان حتى ولو كان فى إسمه أو إسم أبيه . وانصرف إخناتون بعد ذلك إلى عبادة إلهه فى « أخت أتون » صاماً أذنيه عن سماع أى شىء تاركاً الحبل على الغارب ، وغير مهتم بما كان يجرى فى داخل مصر أو خارجها .

وفى مثل هذه الظروف كان من الضرورى أن يحدث تغير فى إدارة البلاد . فأقصى إخناتون من لم يتبعه فى دينه الجديد ، وقرب الذين إستطاعوا الحصول على

ثقته بما كانوا يبدونه من حماس صادق أو مصطنع ، فأصبحت وظائف الدولة أو أكثرها فى أيدى فئة حديثة العهد بفن الحكم فى وقت كانت البلاد فى أشد الحاجة إلى خبرة الموظفين الأكفاء ، خصوصاً وأن الحالة فى آسيا إزدادت سوءاً على سوء وأصبحت مملكة خيتا تغير على أطراف سورية وتضمها ولاية بعد أخرى إلى ممتلكاتها ، كما أخذت مدن عديدة فى فينيقيا وفلسطين تستقل بأمورها أو تغير إحداها على الأخرى . وزاد الطين بلة أن جماعات من بدو الصحراء أخذت بدورها تحدث إضطراباً فى الأمن وهذه القبائل المعروفة بإسم الـ « خابيرو » ، وأخذ أمراء بعض تلك المدن يستخدمونها عند حروبهم مع منافسيهم .

لم يترك الحكام المصريون أو الأمراء أو الزعماء الأسيويون المخلصون لمصر وسيلة من الوسائل إلا إلتجأوا إليها . فأرسلوا الكتب وأرسلوا الرسل إلى طيبة ، وإلى إخناتون . كان إخناتون لا يهتم بهم فالتجأوا إلى الملكة « تى » فى طيبة فأخذت بدورها تنبه إبنها . وإزدادت النصيحة وإزداد التحذير حتى أصبح ذلك فى أذنى إخناتون ضجيجاً فصم أذنيه عامداً ورفض أن يفعل شيئاً غير عبادة إلهه أتون ، ووضع الأناشيد فى مدحه والذهاب إلى المعبد ومكافأة المنافقين من مادحيه .

وبدأت المؤامرات على حياة الملك ، وكاد المتآمرون مرة من المرات أن يصلوا إلى غرضهم لولا يقظة رئيس حراسه الذى أسرع للقبض عليهم عندما علا صراخ الحراس (١) . وخشى إخناتون على حياته فانزوى فى قصره وقرب إليه المتملقين المداهنين ، وعلى الأخص شخص غير مصرى الأصل إسمه « توتو » دخل فى خدمته خادماً فى القصر ولم يلبث أن صار صاحب الأمر والنهى فيه . وكثيراً ما ورد إسمه فى رسائل الأمراء الأسيويين الذين كانوا يستعينون بنفوذ هذا الشخص للوصول إلى مآربهم ، وإخفاء حقيقة الحالة عن الملك (٢) .

ولنترك الآن إخناتون ورجاله ، ونترك إمبراطورية مصر تتفكك وتنهار ولنتحدث قليلاً عن ديانة إخناتون .

---

(١) نعرف تفاصيل هذه الحادثة من مقبرة «محو» رئيس شرطة مدينة أخت – أتون أنظر DAVIES, The Rock Tombs of El-Amarna الجزء الرابع لوحة ٢١ وما بعدها .

(٢) كان يسمى « دود » فى المكاتبات وله مقبرة فى تل العمارنة – أنظر الجزء السادس م مؤلف ديفز عن مقابر العمارنة لوحات ١٧ – ٢٢ .

ديانة أتون :

إن مصادرنا الرئيسية لدراسة الحركة الدينية التى قام بها إخناتون هى ما خلفه لنا على لوحات الحدود التى أقامها لتحديد مدينته الجديدة ، وما بقى على جدران مقابر تل العمارنة وما وصل إلينا من بقايا معابده فى الكرنك وغيرها من البلاد ؛ لأن إخناتون أقام إلى جانب أهم المعابد فى البلاد معابد أو هياكل للإله أتون لكى يتعبد فيها الناس .

وبالرغم أن إخناتون فشل فى حركته وبالغ أعداؤه ، وفى مقدمتهم كهنة أمون ، فى القضاء على آثاره ، وعلى ذكراه ، وإعتبروه ملحداً خارجاً على الدين ، وأسقطوا إسمه وإسم عائلته من أثبات أسماء الملوك فإن ما وصل إلى يد العلماء وبخاصة بعد حفائر البعثتين الألمانية والإنجليزية فى تل العمارنة كاف لإعطائنا صورة عن هذه الحركة الدينية وما فيها من آراء .

وقد كتب كثير من الباحثين فى هذا الموضوع لعلاقته الوثيقة بموضوع هام وهو نشأة التوحيد ، ونظر كل باحث إليه من زاوية مختلفة فجاءت آراؤهم متباينة . ولسنا هنا فى معرض تحليل هذه الديانة أو إعطاء تلخيص للآراء المتباينة فيها بل يكفى أن نذكر النقط الآتية للإجابة بأهم مبادئها :

أولاً – كانت ، ماعت ، (ويمكن ترجمة معناها ، الحقيقة ، أو ، العدل ، أو ، الأصول ، بمعناها المتعارف عليه أى القواعد التى يجب أن تتبع) هى الأساس الذى إرتكزت عليه ديانة أتون . فقد طلبت من الناس أن يجعلوها نصب أعينهم وأن يسموا الأشياء بأسمائهم ولا يلتجئوا إلى النفاق والمداهنة . وكان أثر هذا المبدأ كبيراً على الفن فتحرر الفنانون من القواعد القديمة ، وأخذوا يرسمون الملك وزوجته وأولاده فى مواقف لم يحلم برؤيتها أحد من قبل ، نراها مرسومة على جدران المعابد أو المقابر مثل مداعبة فرعون لزوجته أمام الناس فى الطريق أو تقبيل أولاده ، أو تصويره وهو يأكل بشراهة على إحدى موائد الطعام .

ثانياً – كره إخناتون تصوير إلهه على صورة من الصور سواء أكانت إنسانية أو حيوانية ، وجعله فقط قرص الشمس الذى تعطى أشعته الحياة للناس أجمعين .

ثالثاً – كان أتون هو الإله الواحد الذى لا شريك له ولكن مثل هذا التعبير كان يطلق على عدد غير قليل من الآلهة ومنها أمون ، ولهذا لم يكن جديداً على الديانة المصرية ، ولكن الجديد هو تحريم عبادة آلهة أخرى فى الوقت نفسه .

رابعـاً – ومن أهم النقط فى هذه الديانة أن ، إخناتون ، كان هو وحده إبن أتون، وهو الذى كان مكلفاً بعبادته ، أما الناس فكانوا يعرفون أتون بعبادتهم لإبنه ورسوله إخناتون ، وهذه النقطة بالذات هى التى وقفت حائلاً بين الناس وبين الإستمرار فى هذه الديانة بعد موت إخناتون .

خامساً – لم تكن ديانة أتون لمصر وحدها بل كانت للعالم كله ، فبسبب هذا الإله عاشت الأسماك فى البحار والوحوش فى الأدغال والزواحف فى أحجارها والنبات فى الحقول . وبالرغم من أننا نعرف الكثير عن العبادات فى هذا الدين فإنه يلوح أنه لم يتعرض للمعاملات بين الناس ولم يدخل عليها أى تعديل .

سادساً – لم يكن هناك معنى لبناء معابد مغلقة ذات حجرات وأبهاء تنتهى بهيكل قليل الضوء ، وإنما كان المعبد مكوناً من بهو كبير يتوسطه مذبح ليتمكن كل شخص من الاستمتاع بضوء الشمس والتطلع إليها . ولكن هذا لم يمنع إخناتون من إتقائه لحرارة الشمس ، إذ نراه فى منظر من المناظر يسير تحت مظلة لإتقاء وطأتها .

سابعاً – كان إخناتون هو الرسول والوساطة بين أتون والناس ، ولكن لم يمنع ذلك وجود كهنة لأتون سواء فى العمارنة أو فى البلاد الأخرى التى نشأت فيها معابد لهذا الإله .

ثامناً – إذا دققنا فى فحص ديانة أتون لوجدنا أنها أول محاولة للإتجاه نحو التوحيد ونحو التخلص من عبادة آلهة متعددة فى وقت واحد . ولكنها لم تصل إلى الكمال الذى وصلت إليه الديانات السماوية فيما بعد .

تاسعاً – ليس هناك شك فى أن أناشيد إخناتون لإلهه كانت ذات أثر مباشر على المزامير ، وأن المزمور ١٠٤ يكاد يكون منقولاً عن النشيد الكبير وليس من قبيل توارد الخواطر . أما كيفية وصول هذا النشيد إلى العبرانيين ، فمن المحتمل أن يكون قد حفظ فى آسيا وبقى فى آدابها تتناقله الأجيال حتى جاء الوقت الذى بدأ فيه العبرانيون بكتابة التوراة فى القرن الثامن قبل الميلاد .

عاشراً – لم يتخذ أتون زوجة له ، ولم يكن للنساء شأن به أو حتى فى كهنوته . وبالرغم من أننا نعرف أن نفرتيتى كانت القوة الكامنة وراء الحركة كلها

فإن اسمـــها لم يقرن بأى وظيـــفة فى معبد أتون ولم يكن لها بهذا الدين أى شـــأن خاص .

وخير ما نفعله الآن هو تقديم ترجمة حرفية للنشيد كـــما جاء فـى إحدى مقابر العمارنة (١) .

(١) DAVIES, The Rock Tombs of El Amarnah, VI p. 29 ff.
أنظر أيضاً
ERMAN, The Literature of the Ancient Egyptians, p. 288-291
وأحدث ترجمة باللغة الإنجليزية هى ترجمة ولسون (J.A. Wilson) فى كتاب
PRITCHARD, Ancient Near Eastern Texts (1950), p. 369-371 .

نشيد إخناتون

أنت تطلع ببهاء فى أفق السماء ،
يا أتون الحى ، (يا) بداية الحياة .
عندما تبزغ فى الأفق الشرقى ،
تملأ كل البلاد بجمالك ،
أنت جميل ، عظيم ، متلألىء ، وعال فوق كل بلد.
وتحيط أشعتك بالأراضى كلها التى خلقتها،
لأنك أنت ، رع ، وتصل إلى نهايتها ،
وتخضعها لابنك المحبوب .
وبالرغم من أنك بعيد فإن أشعتك على الأرض ،
وبالرغم من أنك أمام أعينهم فلا يعرف أحد خطوات سيرك .

****

وعندما تغرب فى الأفق الغربى ،
تصبح الأرض سوداء كما لو كان حل بها الموت .
ينام (الناس) فى حجرة وقد لفوا رؤوسهم ،
فلا ترى عين عينا أخرى ،
ويمكن أن تسرق أمتعتهم التى يضعونها تحت رؤوسهم ،
فلا يدركون ذلك .
ويخرج كل أسد من عرينه .
وجميع الزواحف (تخرج) لتلدغ ،
ويلف الظلام كل شىء ويعم الأرض السكون ،
لأن الذى خلقهم يرتاح فى أفقه .
وعندما يصبح الصباح ، وتطلع أنت من الأفق ،
وعندما تضىء كأتون أثناء النهار ،

تطرد الظلمة وتمنح أشعتك .
فالأرضان فى عيد كل يوم .
ويستيقظ (الناس) ويقفون على الأقدام ،
لأنك أنت الذى أيقظتهم .

****

يغلسون أجسامهم ويلبسون ملابسهم ،
ويرفعون أذرعهم إبتهالا عند ظهورك ،
والناس جميعا يؤدون أعمالهم .
وتقنع كل الحيوانات بمراعيها ،
وتزدهر الأشجار والنباتات .
والطيور التى تطير من أعشاشها ،
(تمد) أجنحتها لتمدح قوتك ،
وتقف الحيوانات على أرجلها ،
وكل ما يطير أو يحط ،
إنهم يعيشون لأنك أشرقت من أجلهم .
وتسير السفن نحو الشمال ونحو الجنوب ،
لأن الطرق كلها مفتوحة عندما تظهر ،
وتمرق الأسماك فى النهر أمامك ،
لأن أشعتك تتغلغل فى المحيط .

****

أيها الخالق لبذرة الحياة فى النساء ،
إنك أنت الذى يجعل من البذرة السائلة إنسانا .
إنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه ،
وأنت الذى يهدئه بما يوقف بكاءه ،

لأنك تعنى به وهو فى الرحم .
أنت الذى يعطى النفس ليحفظ حياة كل من يخلقهم ،
عندما ينزل (الطفل) من بطن أمه ليتنفس ،
فى اليوم الذى يولد فيه ،
تفتح فمه ، وتمده بكل ما يحتاج إليه .
وعندما يصرخ (الكتكوت) وهو داخل البيضة .
فأنت الذى يمده بالنفس فى داخلها ليعيش ،
وعندما تتم خلقه داخل البيضة ، تجعله يكسرها ،
ويخرج من البيضة وهو يصوصو إذا ما حان موعده ،
ويمشى على رجليه عندما يخرج منها .

****

ما أعظم (أعمالك) التى عملتها !
إنها خافية على الناس .
أيها الإله الأوحد الذى لا شبيه له !
لقد خلقت الدنيا كما شئت ،
عندما كنت وحدك ،
الناس والماشية والوحوش الضارية
وكل ما على الأرض يسعى على قدميه .
وكل ما يرتفع (فى السماء) يطير بجناحيه .

****

فى بلاد سورية والنوبة وأرض مصر ،
تضع كل شيء فى مكانه .
إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه
ويحصل كل شخص على طعامه ، وسنوات حياته مقدرة له .

يختلف الناس فى لغاتهم ،
كما يختلفون أيضاً فى طبائعهم ،
ويمتاز لون جلودهم عن بعضهم البعض ،
لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية .
أنت الذى خلقت نيلا فى ذلك العالم الآخر ،
وأنت الذى يأتى به عندما يشاء ، لتبقى على الناس ،
وذلك لأنك أنت الذى خلقتهم لأُجل نفسك ،
وأنت سيدهم جميعاً ، (سيدهم) الذى يشغل نفسه من أجلهم ،
سيد كل أرض ، الذى يشرق لأُجلهم ،
أنت أتون (شمس) النهار ، عظيم البهاء .

****

أنت الذى يعطى الحياة (أيضاً) لكل البلاد الأجنبية البعيدة .
لأنك خلقت نيلا فى السماء ،
لينزل لأُجلهم ويحدث أمواجا فوق الجبال ،
مثل (أمواج) البحر ،
لتروى حقولهم التى فى قراهم ،
ما أجمل أعمالك يا رب الأبدية !
فالنيل الذى فى السماء (خلقته) للأجانب
ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام ،
أما النيل (الحقيقى) فإنه ينبع من العالم الآخر لأُجل مصر .

****

تغذى أشعتك كل مرج ،
وعندما تشرق ، تحيا وتنمو لأُجلك ،
وجعلت فصول السنة لتغذى كل ما خلقت .

فالشتاء يبرد أجسامهم .
والحراة تجعلهم يحسون بك .
لقد خلقت السماء البعيدة لتشرق منها ،
وحتى ترى كل ما صنعت .
وذلك عندما كنت وحيدا .
تشرق فى صورتك كأتون الحى .
لامعا ، مضيئا ، فى جيئتك ورواحك .
جعلت ملايين الصور من نفسك وحدها ،
(وسواء أكانت) مدنا أو بلادا أو حقولا ، طريقا أو نهرا ،
فإن كل عين تراك فوقها مشرقا ،
لأنك أتون (شمس) النهار على الأرض .

****

أنت فى قلبى ،
وليس هناك من يعرفك
غير إبنك ، نفر – خپرو – رع ، واع – إن – رع ،
لأنك أنت الذى خلقته عالما بمقاصدك و (مدركا) لقوتك
أنت الذى صنعت الدنيا بيديك ،
وخلقت (الناس) كما شئت أن تصورهم .
فهم يحيون عندما تشرق ،
ويموتون عندما تغرب ،
إنك أنت الحياة بعينها .
ويعيش الإنسان (فقط) إذا أردت .
تتعلق العيون بالجمال حتى تغيب ،
ويترك الناس أعمالهم عندما تغرب فى الغرب .

ولكن عندما (تشرق) ثانية
يزدهر كل شيء لأجل الملك ...
لأنك أنت الذى خلقت الأرض ،
وأنت الذى خلقتهم (أى الناس) لأجل إبنك .
الذى ولد من صلبك ،
ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ، ... إخناتون .
وزوجة الملك العظيمة ... نفرتيتى
عاشت ممتعة بالشباب ، دائما وإلى الأبد .

****

عائلة إخناتون :

عندما جاء إخناتون إلى تل العمارنة كانت له إبنة واحدة فقط وهى ، مريت - آتون ، ، ولكن بعد عامين إثنين أصبحنا نرى عائلته مكونة منه ومن زوجته ومن بنات ثلاث وهن ، مريت آتون ، وثانية إسمها ، ماكت آتون ، وثالثة وهى ، عنخس إن با آتون ، . وتوالت بعد ذلك بنات أخريات حتى بلغ عددهن ستا دون أن يولد له ولد واحد . وليس يعنينا من بناته غير إثنتين الأولى وهى ، مريت - آتون ، والثالثة ، عنخس إن با آتون ، أما الثانية فقد ماتت صغيرة فى حياة أبويها .

كانت حياة إخناتون ونفرتيتى هادئة بين أطفالهما منذ حضورهما إلى العمارنة فى العام السادس من حكمه حتى العام الثانى عشر ، لا ينغض حياتهما منغض؛ لأن إخناتون إنصرف عن الدنيا كلها ليتعبد لإلهه ويفسر تعاليمه محيطاً نفسه بأتباع مخلصين يشاركونه عقيدته أو بإتباع منافقين يريدون الإنتفاع من ورائه .

وظل أبوه أمنحوتب الثالث فى طيبة ومات فيها (١) أما أمه الملكة ، تيى ، فلم تذهب بعد موت زوجها إلى العمارنة وظلت فى طيبة . ولكن فى العام الثانى عشر كانت الأمور قد وصلت إلى نهايتها من التحرج ، فرأت ، تيى ، نفسها مضطرة لإتخاذ خطوة حاسمة لإصلاح المعوج من الأمور . فسافرت إلى ، أخت آتون ، وقضت فيها

(١) ربما كانت وفاة أمنحوتب الثالث عام ١٣٧٥ ق.م. أى فى العام الخامس من حكم إخناتون وهناك بين العلماء من يرى أنه عاش حتى العام العاشر على الأقل ولكن ليس هناك دليل قاطع فى هذا الأمر .

وقتاً غير قصير ، كانت فيه ضيفة عزيزة على إبنها ولم تجد أي غضاضه فى الذهاب إلى معبد آتون وتقديم القرابين له ، كما كانت راضية عن الحياة فى المدينة الجديدة ، ولم تمانع فى صنع تماثيل لها أثناء وجودها هناك .

ولكن هذا الرضا وهذا الإحتفاء بآتون كانت وراءه أغراض أخرى لأنها توصلت بذلك للحصول على ثقة ابنها ، ثم أخذت رويدا رويدا تفهمه ما وراء إندفاعه من خطر عليه وعلى البلاد .

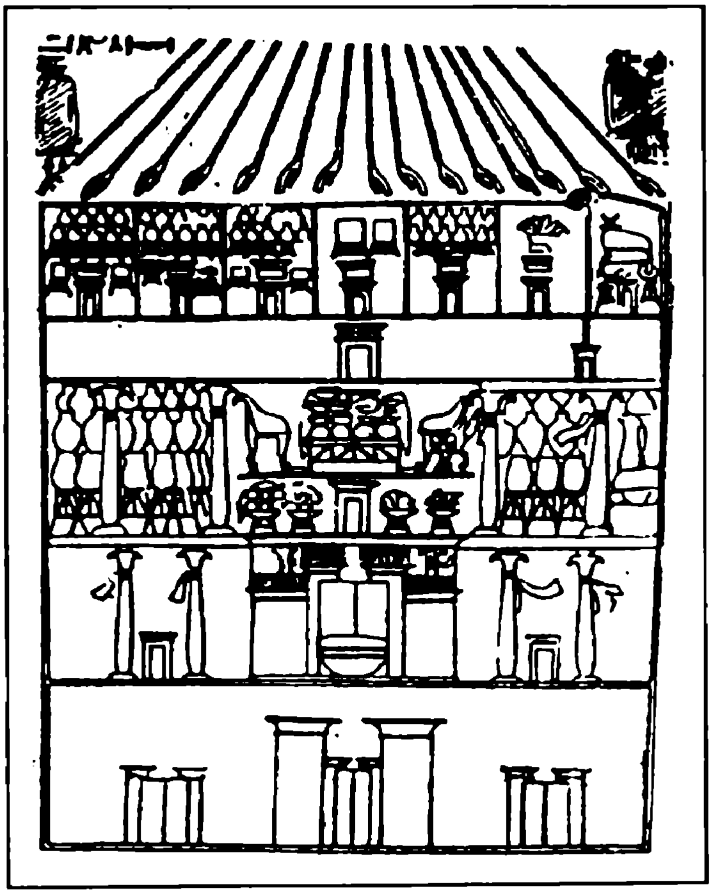
ولسنا نعرف تماماً ما حدث بين إخناتون وأمه ، وإنما الذى نعرفه أن زيارتها لمدنية ، أخت آتون ، كانت بداية الشقاق بين إخناتون ونفرتيتى ، إذ نجحت الأم أو كادت تنجح فى تحويل إبنها عن الدين الجديد ، ولكن نفرتيتى ظلت مخلصة لمبادئها وأنكرت على الملكة ، تيى ، تدخلها ومهما كان الأمر فإن ، تيى ، تركت العمارنة وخلفت وراءها صدعا لم تقو الأيام على إصلاحه ، فقد وصلت الفجوة بين إخناتون ونفرتيتى بعد ذلك بقليل إلى أن كلا منهما عاش بعيداً عن الآخر ، فبقى إخناتون فى القصر الملكى وعاشت نفرتيتى فى بيت جميل فى ضاحية فى جنوبى المدينة إسمه ، حات – آتون ، أى قصر آتون .

وعاش إخناتون فى قصره مع إبنته الكبرى ، مريت آتون ، التى جعل منها السيدة الأولى فى القصر ، وأمر بأن تزال أسماء نفرتيتى من جدران السراى وأن توضع أسماء إبنتها فى مكانها ، أما نفرتيتى فأبقت كل شيء على ما كان عليه وظلت أسماء زوجها فى مكانها على الجدران ، وظلت تعيش مع باقى بناتها فى تلك الضاحية .

ومن المرجح أنه كان لإخناتون أخوة صغار من أبيه أو أبناء إخوته ، ولا نعرف إن كانوا قد جاءوا مع ، تيى ، أو كانوا فى العمارنة من قبل زيارتها ويعنينا من هؤلاء الأمراء إثنان أحدهما إسمه ، سمنخ – كا – رع ، الذى كان عزيزاً على إخناتون ومقرباً منه فزوجه من إبنته ، مريت اتون ، وأشركه معه فى الملك ، أما الآخر فكان أصغر منه وكان إسمه ، توت – عنخ – آتون ، فأقام مع نفرتيتى .

كان تزويج ، سمنخ – كا – رع ، من ، مريت آتون ، وإعلانه شريكا فى الملك ضد رغبة نفرتيتى ، خصوصاً وأن ذلك كان تنفيذاً لسياسة خاصة وهى محاولة تقريب وجهات النظر بين إخناتون وكهنة أمون . ولسنا نعرف من الذى كان يدبر هذه المؤامرات كلها فإذا أردنا أن نحصر الظنون فإننا لا نجد فى هذه الفترة غير ثلاثة أشخاص وهم الملكة تى وقائد الجيش الذى ظهر على مسرح الحوادث بعد قليل وهو

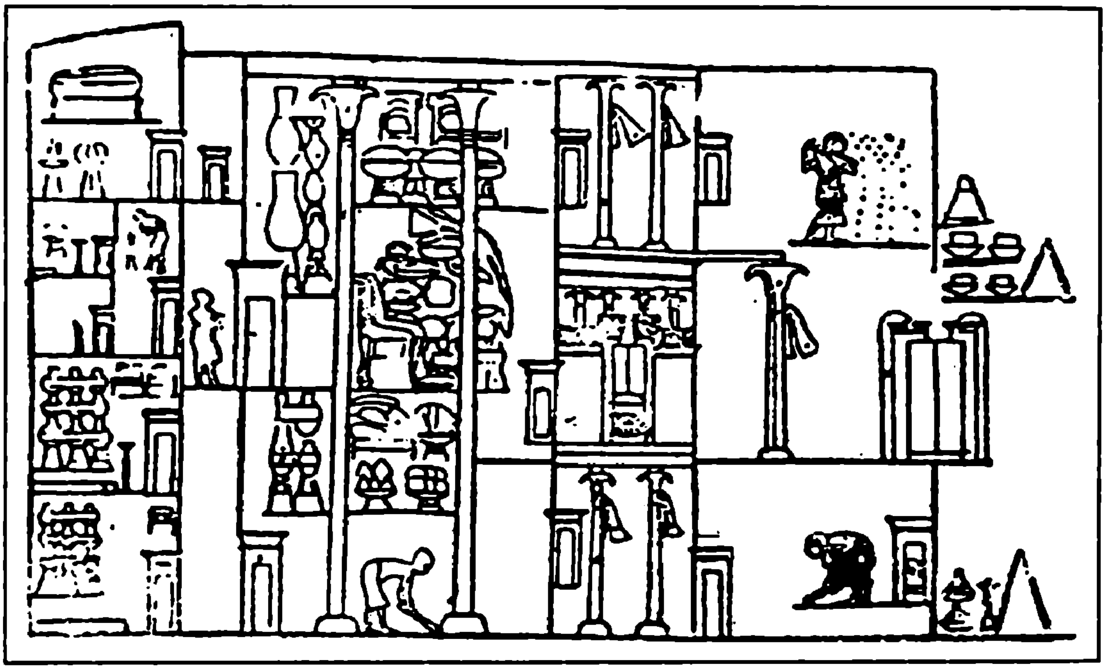
«حور محب» ، ورجل آخر بدأ حياته فى الجيش ثم أصبح من كبار رجال القصر وحصل على رتب كهنوتية كبيرة ، وكان السبب الأكبر فى تقربه من إخناتون وتقدمه فى البلاد راجعا إلى زوجته التى كانت مربية لنفرتيتى .



أحد قصور إخناتون فى تل العمارنة ، ونرى مدخله الكبير وأبهاءه واحداً بعد الآخر، وقد امتلأت الحجرات الداخلية بالمآكل وبأوانى الجعة .

وليس لدينا دليل قاطع على تدبير «تيى» لسفر سمنخ كارع إلى طيبة مع زوجته وربما كان الرجلان الآخران أو أحدهما ، هما اللذان أرادا ذلك . وعلى أى حال فإن رحلة «سمنخ - كا - رع» وإقامته الطويلة فى طيبة لم تغير من جوهر الأمر شيئاً فإن إخناتون ظل فى مدينته ولم يعلن سمنخ كارع أو يعلن إخناتون تراجعهما عن عبادة آتون ، ولكن بعد سنوات ثلاث أى فى العام التاسع عشر من حكم إخناتون تلاحقت حوادث غامضة . فمات سمنخ كارع وإختفى إسم زوجته ، وكان موته أو إغتياله فى طيبة ، فقد وجدت مومياؤه هناك فى القبر الذى كان قد أعد للملكة «تيى» فى وادى الملوك . وتلاه إخناتون بعد أقل من عامين ودفن فى قبره

فى العمارنة وتولى بعده « توت عنخ آتون » الذى كان قد تزوج - أو أعلن زواجه عند توليه العرش - من الإبنة الثالثة لإخناتون ، وظل فى « أخت آتون » .



القصر نفسه مرسوما بطريقة أخرى حسب المنظور المصرى .

ويلوح أن إخناتون حاول فى أواخر أيام حياته أن يكون له وريث بعد أن وصلته الأخبار السيئة من طيبة عن موت أو قتل سمنخ كارع وزوجتــه ، فتزوج إبنته الثالثة « عنخس إن با آتون » التى لم يزد عمرها إذ ذاك عن إثنى عشر عاما على الأكثر ولكنها لم تلد له إبناً كما كان يريد بل ولدت إبنة سموها « عنخس إن با آتون الصغرى » كما ثبت من نقش على حجر عثرت عليه البعثة الألمانية فى الأشمونيين (١) .

فلما لم يتحقق ظن إخناتون فى إنجاب وريث للعرش زوج هذه الأبنة من أمير صغيـر وهو توت عنخ آتون الذى كان لا يزيد عمره عن تسع سنوات ، وأعلنه خليفة له ، ولكن لم يطل به العمر كثيراً فمات إخناتون فى العام الحادى والعشرين من حكمه على الأرجح (٢) . ويريد بعض علماء الدراسات المصرية القديمة أن يلقى بعض الشك

(١) BRUNNER, "Eine neue Amarna-Prinzessin" , ZAS, LXXIV (1938), 104-108.

(٢) K C. SEELE, King Ay and the Amarna Age, وأنظر كذلك لوحة ٦٣ نقش رقم ١ فى كتاب City of Akhenaten, part I حيث يوجد نقش باللغة الهيراطيقية يذكر العام الحادى والعشرين

فى أنه دفن فى القبر الذى أعده لنفسه فى أحد الوديان خلف مدينة العمارنة ، ولكن وجود صندوق الأحشاء فيها يجعلنا متأكدين من دفنه هناك إذ عثر منذ وقت طويل على أجزاء هذا الصندوق المصنوع من المرمر بين رديم تلك المقبرة وظل طويلاً فى المتحف المصرى حتى تم ترميمه منذ بضع سنوات .

كان توت عنخ آتون مقيماً قبل زواجه مع الملكة نفرتيتى ، ولهذا ربما كانت راضية عن سير الأمور فى هذه الفترة . على أى حال فإننا لم نعد نسمع شيئاً عن هذه الملكة ولم يعثر لها على قبر . وبالرغم من أن الملك الصغير بدأ حكمه فى العمارنة مخلصاً لديانة آتون ، إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً .

رسائل العمارنة :

جاء ذكر رسائل العمارنة عند حديثنا على إهمال إخناتون لشئون ملكه وسد أذنيه عن سماع الشكاوى التى كان يرسلها بعض الحكام المصريين من آسيا ، وبعض الأمراء الأسيويين الموالين لمصر . وقد عثر على هذه الرسائل فى تل العمارنة فى المبنى التى كانت تحفظ فيه المراسلات وهى مكتوبة كلها على ألواح صغيرة من الطين المحروق باللغة الأكدية الدارجة كتب أغلبها كنعانيون أو مصريون يعرفون تلك اللغة .

عثرت عليها إحدى الفلاحات عند أخذ السباخ من تلك المنطقة فى عام ١٨٨٧ ، ومن ثم وجدت طريقها إلى تجار الآثار وتفرقت فى كثير من متاحف العالم . ومجموع المعروف منها ٣٣٧ رسالة (١) ، لقيت ما هى جديرة به إهتمام لأنها أهم المصادر التاريخية التى توضح لنا ما كانت عليه الحالة السياسية فى بلاد سورية – فلسطين وبابل وأشور وميتانى وخيتا فى أواخر أيام أمنحوتب الثالث وطيلة أيام إخناتون بل إن منها ما كان قد أرسل إلى سمنخ كارع خليفة إخناتون على العرش .

توضح لنا هذه الرساذل الصلة التى كانت بين مصر وتلك البلاد ، وتوضح لنا الكثير من أساليب المراسلات الدولية فى ذلك العهد ، وما كان يدور بين ولايات سورية وبين غيرها من تطاحن ومؤامرات .

كانت مملكة ميتانى فى شمالى العراق ، وكانت تربطها بمصر صلات من الود والمصاهرة ولكن مملكة خيتا (فى الأناضول) الناشئة الطموحة أرادت أن تستولى

---

(١) ترجم أولبرايت أهمها فى كتاب Ancient Near Eastern Texzis ص ٤٨٣ – ٤٩٠ ونير فى مقدمة فصله بيانات بالمؤلفات المختلفة عن هذه الرسائل .

عليها فى عهد سوبيلو ليوما فإستغاث ملك ميتانى بمصر ، فأرسل إليه أمنحوتب الثالث نجدة ساعدته فى صد الخيتيين ، وأدرك ملك خيتا أنه لن يتمكن من تحقيق أطماعه فى آسيا ما دام النفوذ المصرى قوياً ، ولهذا أخذ يؤلب بعض الأمراء الأسيويين ليشقوا عصا الطاعة فاستجاب له أميران طموحان وهما أمير قادش الذى بسط نفوذه على سهل سورية الشمالى وهزم الأمراء الموالين لمصر . ثم عبد أشرتا ملك الأموريين الذى أخذ يهاجم مدن الساحل الفينيقى وتبعه فى ذلك إبنه عزيرو الذى كان يتظاهر دائماً بالولاء لمصر ويرسل الرسائل مؤكداً إخلاصه وينفى ما يقال عنه . وأخذت المدن تستغيث بفرعون مصر ولكنه كان يعيش فى عالم آخر ولم يهتم حتى بمقابلة الرسل الذين آتوا من آسيا ليبسطوا حقيقة الأمر . كان عزيرو واثقاً من فوضى أمور البلاط فى العمارنة وكان يعتمد على صديقه ، توتو ، أحد سقاة إخناتون المقربين حتى لا تتدخل مصر أو ترسل بعض جنودها . وبعد أن تم لعزيرو ما أراد على الساحل الفينيقى شمالى مدينة جبيل بدأ يهاجم المدن الأخرى على الفرات منضما إلى جيوش الخيتيين فسقطت مدينة ، نيى ، وحاصروا ، تونيب ، فأخذت تستغيث بملك مصر : ، إن عبدتك مدينة تونيب تقول من ذا الذى كان يستطيع فيما مضى أن ينهب تونيب دون أن ينتقم لها منخبريا (تحوتمس الثالث) ويفعل بالناهب ما فعل بها ؟ إن آلهة مولانا الملك وتماثيله ما زالت لدينا وليسأل مولانا فى ذلك المتقدمين فى السن من رجاله ليعرف إذ كنا نقول الحقيقة أو لا نقولها . إذا لم تدركنا مشاة ملك مصر وعرباته قبل فوات الفرصة فإن عزيرو سيصنع معنا مثل ما صنع مع مدينة ، نيى ، ، وحينئذ لن نبكى وحدنا بل سيبكى معنا ملك مصر ، . وأخذ أهالى تونيب يستغيثون مرة بعد أخرى وهذه آخر رسالة لهم :

، والآن فإن مدينتك تونيب تبكى ودموعها تسيل ولا ناصر لنا . لقد أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم نتلق رداً منه ، .

ومن الغريب إن إخناتون كلف أحد موظفيه بعمل تحقيق فما كان من ذلك الموظف إلا أن باع نفسه لعزيرو ووقف إلى جانبه فى محاربة المخلصين لمصر للقضاء عليهم . وتكشف لنا هذه الرسائل عن جود خطر آخر وهو وجود قبائل سامية تسمى قبائل الخابيرو (وربما كان هو الأسم الذى أطلق على العبرانيين فيما بعد) ، وكانوا قبائل من البدو المقيمين فى شرقى الأردن يؤجرون أنفسهم للقتال ، فاستعان بهم بعض الأمراء للإستيلاء على حصن مجدو ثم أخذوا يهددون أورشليم فسقطت بدورها ، وهكذا أصيب النفوذ المصرى بضربات قاصمة فى سوريا وفى مدن الساحل الفينيقى وفى أعلى الفرات وفى فلسطين بينما كان إخناتون يقيم فى مدينته مقسما ألا

يغادرها حتى يموت ، موزعا وقته بين الصلاة لأتون والإستماع إلى رياء وملق رجال بلاطه الفاسدين .

وإستغاث بعض هؤلاء الأمراء بأمه الملكة « تيى » وكتبوا إليها ، وأرادت تيى أن تنقذ الموقف ولكن إبنها المسالم أبى أن يفعل شيئاً لإنقاذ الموالين له من فتك الخيتيين وقبائل الخابيرو . وأخذت الأمور تزداد سوءاً فى داخل مصر ، وفى إمبراطوريتها ، حتى إنتهت أيام إخناتون وتولى توت عنخ آتون العرش وتيسر للقائد حور محب أن يقوم ببعض المجهود لإستعادة بعض ما فقدته مصر .

نهاية ديانة آتون :

أحدثت ديانة آتون إنقساماً كبيراً فى البلاد ، ووقف الكهنة وأكثر العائلات القديمة المحافظة ، من إخناتون موقف العداء أو على الأقل موقفا سلبيا إنتظاراً لتطور الحوادث . ولم يكن للملك الفيلسوف من قوة أو نفوذ يقاوم بهما التيار لو لم يكن من ورائه الجيش يدين بالولاء للعرش ، وظل بعيداً عن المنازعات الداخلية . ويرجع الفضل فى ذلك إلى رجل حكيم مصلح وهو القائد حور محب الذى ظل على رأس الجيش طيلة هذه الفترة ، ولم يحارب الدعوة الجديدة ولم يكن من مؤيديها المخلصين المتحمسين ، بل ظل مخلصاً لواجبه فقط .

ويريد بعض الباحثين فى تاريخ هذه العائلة أن يروا أن القبر الذى يوجد فى تل العمارنة باسم « با – آتون – أم – حب » والذى لم ينته العمل فيه ، هو قبر كان قد بدأه « حور محب » أو أمر إخناتون بعمله له عندما أقام فى تلك المدينة فترة من الوقت ، ولكن هذا الرأى لا يخرج عن دائرة الظن أو الإحتمال .

فلما جلس « توت – عنخ – آتون » على العرش فى عام ١٣٤٨ ق . م . كان فى مسيس الحاجة إلى رجال مخلصين لإنقاذ البلاد مما كانت فيه ووجد ذلك فى رجلين أحدهما « آى » الذى أشرف على إدارة البلاد وحاول أن يصلح ما إستطاع ، والآخر « حور محب » الذى ظل فى منف بعيداً عن طيبة وعن تلك العمارنة وبذل كل ما فى وسعه لإصلاح الموقف فى آسيا .

وهناك إحتمال بأن حور محب ذهب مرة حوالى العام الثانى عشر من حكم إخناتون فى حملة إلى سورية ولكن هناك أيضاً ما يكاد يكون حقيقة واقعة وهو أنه فى العام الأول من حكم توت عنخ آتون ذهب على رأس الجيش لإعادة الأمن إلى بعض ولايات فلسطين وفينيقيا . أما فى سورية وفى شمال الفرات فقد كانت الحالة متحرجة إلى أبعد الحدود وكانت خيتا ، بدأت تدخل فى عصرها الذهبى وتوسعت كثيراً على

حساب مصر منذ أواسط حكم أمنحوتب الثالث ، وزادت فى أواخر أيامه وطيلة أيام إخناتون .

وليس هناك من شك فى أن التحاما ما حدث بين ومصر وخيتا أو على الأقل بين جيوش مصر والمدن المؤازرة لخيتا ، وقد إدعت النصوص الخيتية بأن النصر كان لها كما إدعت النصوص المصرية (مقبرة حور محب فى سقارة ومقبرة حوى فى طيبة وصندوق توت عنخ آمون) بأن النصر كان لها أيضا ، وربما كان كل من طرفى النزاع قد حقق جزءاً مما كان يرمى إليه فادعى النصر الكامل وكان من المستحيل أن تبقى الأمور فى مصر على ما كانت عليه . فقد رأينا كيف تراجع إخناتون فى أعوامه الأخيرة ، وكيف أرسل « سمنخ كارع » إلى طيبة ولكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل؛ لأن كهنة أمون الأقوياء رفضوا إلا إعادة الأمور إلى ما كانت عليه ورفضوا أى حل وسط .

وقضى « توت عنخ آتون » ثلاث سنوات فى العمارنة ولكنه قبل أن يغادرها إلى طيبة رضخ ، أو رضخ مستشاروه ، لمشيئة كهنة أمون وأنصارهم وغير اسمه إلى « توت عنخ آمون » . وقد عثر له ولزوجته فى تل العمارنة على آثار بعد تغيير أسمائهما بإدخال آمون فيها ، ثم إنتقل نهائياً إلى طيبة . ولاقت الدعوة إلى عبادة آتون المصير المحتوم ، فقد سلط كهنة آمون أنصارهم . على آثار آتون وآثار إخناتون فحطموها أينما كانت ، وخربوا المدينة وخربوا القبور وفتكوا بما فيها من مومياوات واعتبروا المكان بأكمله مكانا نجسا. أما موقف توت عنخ آمون من ذلك كله فإننا نراه واضحا كل الوضوح فيما خلفه من آثار فإن موارد الدولة كلها وثروة البيت المالك خصصت لإصلاح ما فسد وإقامة ما تهدم من المعابد أو أوقف العمل . ورضخ الملك الشاب لجميع إشتراطات الكهنة وإن إدعى فى لوحته بأنه فعل ذلك عن طيب خاطر ، كما ذكر فيها (١) .

وها هو يتحدث عن أعماله : « فكر جلالته فى عمل مشاريع يحبها قلبه باحثاً عن أى عمل مفيد ليؤدى خدمة لأبيه آمون . وضع له تمثالا فخما من الذهب الجيد . بل وفعل له خيراً مما كان قبل ذلك إذ جعل محفة تمثاله على ثلاثة عشر عموداً بينما كانت محفة ذلك التمثال العظيم على أحد عشر عموداً فقط » . كان ذلك دون شك ترضية لكهنة آمون إذ صنع تمثالاً من الذهب بدلا من التمثال الذى عسى أن يكون إخناتون قد أخذه من قبل ، كما جعل محفة التمثال الجديد أكبر من سابقتها . ولم يعد

(١) أحدث ترجمة لهذه اللوحة هى ترجمة بنت (J.Bennett) فى مجلة JEA,XXV (1939), p.8 ff.

هناك مجال لأولئك الدخلاء الذين أقحموا أنفسهم على الكهنوت فعاد الأمر من جديد إلى أبناء العائلات فيقول توت عنخ آمون فى موضع آخر: « وعين كهنة ومرتلين من بين أبناء وجهاء البلاد وكان كل منهم ابناً لرجل معروف وهو أيضاً رجل ذو إسم معروف » . أما المعابد المصرية الأخرى التى أصابها الخراب فقد نالت التعويض اللازم لإعادة العبادة فيها ، وضوعفت ثروات المعابد بل وكانت أيضا فى بعض الأحيان ثلاثة وأربعة أمثال ما كان لها من فضة وذهب ولازورد وفيروز . وهكذا عاد الملوك رغم أنفهم إلى حظيرة آمون وإنتصر كهنة آمون إنتصاراً كاملاً ، وكان يوم تسليم « توت عنخ آمون » للكهنة بجميع مطالبهم هو بدء تسلط الكهنة على الدولة ولم يسترجع الفراعنة سلطانهم القديم بعد ذلك اليوم .

ولكن إذا كانت هذه النكسة قد أصابت ديانة آتون فإن الفن ظل يتمتع بالكثير من حريته . فنحن نعرف أن المبالغة الكثيرة فى تصوير الأشخاص وصنع التماثيل خفت حدتها إبتداء من السنة الثانية عشرة من حكم إخناتون ، فلما جاء توت عنخ آمون إلى طيبة أخذ الفنانون يعودون إلى الأسلوب القديم ولكنهم لم يتحرروا تماما من أسلوب العمارنة . فنرى فى محتويات مقبرة توت عنخ آمون ، وفى المقابر الأخرى التى نشأت فى عهده أو فى عهد آى ، وأوائل أيام حور محب كثيراً من الحرية التى اعتدنا أن نراها فى عمل الفنانين منذ أيام أمنحوتب الثالث .

وحكم توت عنخ آمون عشر سنوات عاش السبعة الأخيرة منها فى طيبة ومات دون أن يكون له ولد من بعده ، ولم يتجه الكهنة إلى أمير من أمراء العائلة التى حكمت نحو ٢٢٠ سنة (١٥٧٠ - ١٣٥٢) بل وصل إلى العرش رجل غريب عن البيت المالك وهو « آى » الذى لعب دوراً كبيراً أثناء حياة إخناتون ، وكان دون شك المدبر لانتقال توت عنخ آمون إلى طيبة ، وصاحب الرأى الأول فى البلاد وصاحب الصلة الكبيرة بكهنة آمون .

ومن الجائز أن كهنة آمون لم يرضوا بعودة توت عنخ آمون إلى طيبة وجلوسه على عرش البلاد إلا بعد حصولهم على ضمانات كافية بألا يتكرر ما حدث من إخناتون ، وربما كان من بين هذه الضمانات ما كان يسعى إليه آى وهو الجلوس على العرش فاشترك مع توت عنخ آمون فى الحكم كما اتضح أخيراً ، إذ عثر على بقايا معبد صغير أقيم أثناء حكمهما المشترك .

عثر على أحجار من هذا المعبد ضمن مبانى البيلون الثانى فى الكرنك وهو البيلون الذى أقامه حور محب واستخدم فى مبانيه كثيرا من الأحجار التى كانت مبعثرة فى الكرنك ، ومن بينها أحجار من المعابد التى أقامها إخناتون وخلفاؤه .

ولسنا نجهل عداء حور محب لآى ، ولسنا نجهل عداءه فيما بعد لذكرى إخناتون وعائلته ، ولهذا لا يدهشنا أن نراه يحطم اسم توت عنخ آمون وآى التى كانت على جدران ذلك المعبد ثم هدمه ورمى بأحجاره فى صرحه الذى بناه ، حيث ظلت فى مكانها حتى عثر عليها فى أوائل عام ١٩٥٠ (١) .

وهذا يفسر لنا سبب وجود آى مرسوما على جدران مقبرة توت عنخ آمون يقوم بأداء بعض الطقوس الدينية لمومياءه وهو يلبس لباس الملك .

إخناتون بين ناقديه والمعجبين به :

قلما حظى ملك أو عصر بما حظى به إخناتون وعصره من اهتمام الناس ، ولو أردنا حصر ما كتب عن ثورة العمارنة وديانتها لزاد عن بضع مئات من المؤلفات والمقالات وذلك بسبب ما جاءت به تلك الثورة من آراء دينية وما نتج عنها من تحرر فى الفن .

وليس من شأن هذا الكتاب أن يقف طويلا عند هذا الموضوع أو يعطى تفصيلا أكثر مما أعطيناه ، ولكن الواجب يحتم علينا أن نشير إلى بعض نقاط مهمة ترددت فى بعض الأبحاث التى كتبها علماء محققون من المشتغلين بدراسة التاريخ .

فقد بلغ الإعجاب ببعض الباحثين فى هذا العصر إلى تمجيد إخناتون تمجيداً كاد يرفعه إلى درجة الأنبياء؛ لأن هذا الرجل العظيم استطاع فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ البشرية أن يكتب ما كتب ، ويدعو إلى ما يقرب من الوحدانية ، وكان لأناشيده وآرائه أثر على من جاء بعده من الشعوب بل ذهب بعض المؤرخين وبخاصة ، برستد ، إلى التأكيد أن نشيده هو أصل المزمور ١٠٤ .

ويحمل البعض الآخر على إخناتون حملات منكرة ، ويتهمه بالضعف وتضييع الإمبراطورية ، بل وينكر عليه أن أناشيده وآراءه كانت مبتكرة ، ويغالى البعض الآخر فيحاول الحط من قيمته بإلقاء ظلال من الشك على خلقه ، ولكنا إذا غفرنا للفريق الأول مغالاته - إذا كانت هناك حقيقة أى مغالاة - فإن الفريق الآخر متحامل دون شك على الرجل وتتصف أعمالهم بحب الطعن وتلمس الأخطاء ، بل وخلقها خلقا .

---

(١) أشار شفرييه إلى هذه الأحجار فى تقريره فى مجلة أخبار مصلحة الآثار عم ١٩٥٢ كما أفاض فى الحديث عنها سيلى فى مقاله فى JNES. XIV(1955) ص ١٧٦ وما تلاها .
وقد أراد سيلى فى مقاله المذكور (ص ١٧٨ - ١٨) أن يثبت أن آى كان جدا لتون عنخ آمون وكان والدا لأبيه أما أمه فكانت إحدى بنات أمنحوتب الثالث ولكن ما قدمه سيلى من أدلة غيركاف لقبول هذا الرأى قبولا نهائياً .

وربما كان بعضهم يفعل ذلك عن حسن نية تقليداً لغيره، ولكن البعض الآخر يتبع فى ذلك سنة استنها بعض الكتاب من الأجانب وهى التقليل من أهمية تاريخ الشرق وبخاصة مصر، وهم مدفوعون إلى ذلك إما بالتعصب الدينى أو بالتعصب الإستعمارى.

كان إخناتون فيلسوفاً ومفكراً من خير فلاسفة ومفكرى العالم القديم ، وإذا كانت المرارة قد تملكت نفسه بعد أن رأى الصعاب فى نشر دينه الجديد فأهمل شأن الحرب فربما كان لذلك أسبابه ، وربما كان أيضاً عن عقيدة راسخة فى المحبة والإخاء بين الناس ، وكراهية منه للقتل والتخريب .

وأراد بعض الباحثين أن يثبت أنه لم يكن لإخناتون أى فضل بل أن الأمور فى ذلك العصر كان يجب أن تأخذ الطريق الذى أخذته سواء فى الدين أو الفن ، بل ويغالى صاحب ذلك الرأى فيقول إنه لم يكن هناك مناص من حدوث ما حدث ، حتى إذا لم يكن إخناتون سوى غرارة من نشارة الخشب ، (١) ؛ ولكن هذا الرأى لا يمكن أن يثبت أمام النقد الصحيح فإن شخصية إخناتون كانت المحور الذى دارت عليه الحوادث كلها . ورأى البعض الآخر أن الأمر لم يكن أمر دين أو أمر تنافس سياسى بين إخناتون كملك على العرش وبين سلطان كهنة آمون وثروتهم بل كان نزاعا بين العمال وبين الأغنياء المتمليكن لثروة البلاد ، وإن هذه الفتنة لم تنته إلا بعد أن قضى عليها حورمحب (٢) . ويهب أثرى آخر وهو ، هلك ، فيهاجم هذا الرأى مهاجمة شديدة ويفنده ويثبت خطأه ليضع بدله رأيا آخر وهو أن ثورة إخناتون لم تكن إلا نتيجة للصراع بين كبار الموظفين المدنيين وكبار رجال الجيش وأن النصر لأحد الفريقين جاء أيضاً على يدى حور محب (٣) ، ولكن الأدلة التى ساقها ، هلك ، لم تكن أحسن حظا من أدلة ، فليجر ، التى هاجمها ، والواقع أن الأمر كان أبسط من ذلك كله ، ولا يمكننا أن ننسج من خيالنا وآرائنا وإحساساتنا الحالية فى القرن العشرين صورة لما كانت عليه الحالة فى عصر يبعد عنه بأكثر من ثلاثة آلاف سنة ، خصوصاً إذ ندر ، بل إذا انعدم الدليل على ما نقول .

تبقى بعد ذلك نقطة مهمة وهى أثر دعوة إخناتون على ديانة العبرانيين وصلة نشيد إخناتون بالمزمور ١٠٤ بالذات . كان المؤرخ الأمريكى الكبير جيمس هنرى

(١) L.A.WHTE. "Ikhnaton: The Great Man and the Culture Process", in JAOS. LXVIII (1948). 91ff.

(٢) K. PELUGER, Haremhab und die Amarnazeit : p. 76 No. 5

(٣) HELCK, Der Einfluss der Militärführer in der 18. aegyptischen Dy nastie, p. 73 ff.

برسيد أكثر المتحمسين لهذا الرأى وقام بعمل المقارنة بين الإثنين وخرج من بحثه ، أو من أبحاثه ، بأن ذلك لا يمكن أن يكون بسبب توارد الخواطر بحال من الأحوال .

ولا شك أن مثل هذا الرأى لا يمكن أن يطيب قبوله لمن امتلأت نفوسهم تعصبا للكتاب المقدس ، فأخذوا يتشككون فى ذلك يقولون إن آراء إخناتون لم تكن جديدة على الديانة المصرية بل وأن تعبيراته عن وحدانية إلهه كانت معروفة قبله واستمرت قرونا طويلة بعد موته ، ويقولون أن بدوا جهلاء مثل العبرانيين كانوا يعملون فى أشق الأعمال ويذوقون العذاب على أيدى المصريين ، لا يمكن أن يفهموا مثل هذا النشيد أو يعجبوا به أو بغيره [١] . ولكن حجج هذا الفريق غير مقنعة ، ويمكن لأى باحث أن يضع كلا من النشيد والمزمور إلى جوار بعضهما ليتأكد من أن نشيد إخناتون هو دون شك أصل المزمور ، أما كيف ومتى وصل إلى العبرانيين فهذا موضوع آخر . كان إخناتون عظيما من عظماء التاريخ ليس فى مصر وحدها وإنما فى تاريخ العالم ، وكانت صيحته دعوة جديدة فى آذان العالم لم يكن الناس قد تهيأوا لها إذ ذاك ، ومهما قيل عن تفكك الإمبراطورية فى عهده فهذا أمر آخر . ولو سألنا أنفسنا الآن عما كان يجنيه تاريخ مصر بوجه عام إذا كان إخناتون ملكا من ملوك المحاربين ، فلا نلبث أن نجيب على أنفسنا بأن نتيجة حروبه كان مآلها دون شك إلى الزوال كما حدث لمن جاءوا بعده ، أما أناشيده وآراؤه وأثر ثورته فى الفن فهى باقية وستظل باقية كإحدى مفاخر الحضارة المصرية ، وسيظل اسم إخناتون وثورته الدينية أسماء لامعة فى تاريخ الفكر فى العالم .

توت عنخ أمون : (١٣٤٨ - ١٣٣٧ ق.م.)

إذا درسنا آثار توت عنخ آمون وعصره فإنا نجد أنه بالرغم من كونه شابا صغير السن ضعيف البنية فإن مصر أخذت تنهض من كبوتها وتستأنف حياتها العادية . فأما عن البناء فقد نشطت حركته كثيرا وإنشغل المهندسون أولا فى إصلاح ما تخرب ثم أخذوا فى تشييد معابد فى جهات متعددة من مصر شمالها وجنوبها . ولم يقتصر الأمر على طيبة بل تعداها إلى منف وإلى منطقة أهرام الجيزة كما ترك آثاراً أخرى فى شمالى السودان .

ولسنا فى حاجة إلى تفكير طويل لندرك أن ما خلفته حركة إخناتون من

(١) أهم ما ظهر فى الموضوع هو ما قدمه ولسون فى كتابه
J.A. WILSON, The Burden of Eygpt (second Impression, 1954) p. 227 ff.
وفى الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت إسم الحضارة المصرية ص - ٣٦٤ وما بعدها .

انقسام وعداوات جعل مهمة تنظيم داخلية البلاد أمراً غير يسير ، وأن الأمر كان محتاجا إلى شخص قوى حازم يضرب ضربة قوية لإصلاح كل ما فسد . ولكن توت عنخ أمون كان صغير السن وكانت الأمور تتجه نحو كهنة آمون الذين أسكرتهم خمرة النصر ، كما إتجهت الأمور أيضا إلى تركيز السلطة فى أيدى الذين شملهم اضطهاد إخناتون فبدأوا بدورهم يضطهدون من اضطهدوهم من قبل .

ولكن مع هذا كله ظل الفن على إزدهاره ، ولم يتقلص نفوذ مصر فى النوبة وشمال السودان ، وظل حكام السودان يأتون ومعهم زعماء هذه البلاد إلى مصر ليقدموا ولاءهم وهداياهم ، أما فى آسيا فإنا لم نسمع بأى حملات حربية غير الحملة التى يحتمل أن يكون قد قام بها حور محب كقائد للجيش فى السنة الأولى من حكمه وهى التى نرى إشارات إليها فى تاريخ حياة هذا القائد وكذلك فى مقبرة حوى (رقم ٤٠ فى طيبة) وعلى أحد الصناديق التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون .

ومات توت عنخ أمون وهو فى ريعان الشباب إذ لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ودفن فى قبر صغير ربما كان قد أعدوه لغيره وملأوا حجراته الأربع ، وكدسوا فيها الأثاث وما اعتادوا وضعه مع الملوك تكديسا ، ولونوا بعض الجدران على وجه السرعة . ونحن إذ نقف اليوم فى هذا القبر الصغير تستولى علينا الدهشة ونسائل أنفسنا كيف اتسعت هذه المساحة لما نراه فى قاعات المتحف المصرى من آثار كثيرة ، وكيف يتلاءم هذا القبر المتواضع مع ذلك الأثاث الفخم الكثير . ولكن هذا التعجب لا يلبث أن يزول عندما نفكر فى أن الملك توت عنخ أمون لم يكن قد أعد لنفسه قبرا ملائماً فلما مات فى هذه السن المبكرة وضعوا مع بضع الأثاث الجنازى الشىء الكثير من المتاع الشخصى فى ذلك القبر غير الملائم.

وليس يعنينا هنا أن نصف آثار هذا الملك ، ولكن مهما حاولنا فإنه لا يمكننا أن نغفل الإشارة إلى الصور التى تمثله مع زوجته ، نراهما مرسومين على العرش وعلى غيره ، ونرى الملكة الشابة أمام زوجها تناوله الزهور مرة وتناوله السهم مرة أخرى فى منظر من مناظر الصيد . لقد كان الزوجان هانئين سعيدين ووجدا من يحمل عن عاتقهما أعباء الملك ولكن صحة الملك الشاب جعلته يلفظ أنفاسه الأخيرة تاركا زوجته الشابة تحت رحمة الأقدار .

وعندما كشف عن قبر توت عنخ آمون وجدت باقة زهر صغيرة وضعتها الملكة الشابة الحزينة بيدها فوق صندوق المومياء ، فكانت تحية وداع لزوجها ورفيق صباها الذى تركها وأخذ طريقه وحده إلى العالم الآخر .



تقديم جزية الجنوب إلى الملك توت عنخ آمون . من مقبرة حوى بطيبة

رأت عنخس إن آمون نفسها وحيدة ووجدت الملك يخرج من بيت أبيها فعز عليها أن تسكت على ذلك ، وقامت بمحاولة جريئة . أرسلت الأرملة الشابة رسولا إلى ملك خيتا ، وصاحب النفوذ الأكبر فى آسيا والذى أخذ يقوض إمبراطورية مصر فيها ، ومعه رسالة تقول فيها :

« مات زوجى وليس لى ابن ، ويقولون عنك إن لك أبناء كثيرين . فإذا أرسلت إلى ابنا لك فإنه يستطيع أن يصبح زوجى . ولن أقبل بأى حال من الأحوال أن أتزوج واحداً من رعاياى فإن ذلك شىء أمقته » ، ودهش الملك سوبيلو ليوماس لهذا الطلب فأرسل رسولا خاصا إلى بلاط مصر ليتأكد من أنه ليست هناك خدعة وعاد الرسول ومعه رسالة من الملكة قالت فيها : « لماذا تقول « إنهم يريدون خديعتى »؟ فإذا كان لى ابن فهل كان فى وسعى أن أكتب إلى أجنبى كاشفة عن مصيبتى ومصيبة بلادى؟ إنك أهنتنى بقولك هذا ، إن من كان زوجا لى قد مات وليس لى ابن فهل يتحتم على أن أتزوج من أحد رعاياى؟ إنى لم أكتب لأحد سواك . الكل يقولون إن لك أبناء كثيرين فأرسل إلى واحدا منهم ليصبح زوجى » .

وأدرك سوبيلوليوماس أن هذه فرصة سانحة ليمد نفوذه فأرسل أحد أبنائه ولكن المؤامرة فشلت ، ونعرف أن الأمير قتل قبل وصوله إلى مصر (١) .

ربما فعلت عنخس إن آمون ذلك بعد وفاة توت عنخ آمون مباشرة ، وقبل أن يتزوجها آى ، إذا كانت قد تزوجته حقا ، فإن ذلك أمر ما زال مشكوكا فى صحته . على أى حال فإننا لم نعد نسمع عنها شيئا ، وربما تكون أيضا قد حوكمت عندما عرف تآمرها ، ولسنا نعرف عنها خبراً أو قبرا ولم يرد إسمها على جدران مقبرة آى التى أنشأها لنفسه فى الوادى القبلى خلف أبواب الملوك على مقربة من مقبرة أمنحوتب الثالث ، إذ نرى على جدران تلك المقبرة إسم زوجته تيى فقط .

ولم يحكم آى أكثر من ثلاث سنوات شيد فيها بعض المبانى أهمها هيكله فى جبل أخميم ، وبعد موته تطلعت الأنظار نحو منافسه القوى حور محب إذ لم يكن هناك غيره يصلح لإنقاذ البلاد مما تردت فيه .

---

(١) كان المعتقد إلى عهد قريب أن نفرتيتى هى التى كتبت الخطاب إلى ملك خيتا وأن حور محب هو الذى أحبط المؤامرة . ولكن الوقت الذى حدثت فيه تلك الحوادث كان بعد موت إخناتون بعشر سنوات على الأقل وبهذا ينحصر الظن فى أرملة توت عنخ آمون .
– أنظر ما كتبه O.R. GURNEY. The Hittites (1952), p. 21-23 النص الكامل لهذه الوثيقة ترجم ترجمة حديثة بمعرفة جوتزه وهو منشور فى كتاب
Ancient Near. Easten Texts.p. 391 .

حور محب :

عرفنا ، حور محب ، عندما كان قائداً للجيش وأشرنا إلى ولائه لواجبه وعدم تطلعه نحو العرش كما عرفنا فيه يقظته فى تأدية واجبه . وبالرغم من أن حور - محب ولد فى بلدة تسمى حات نسوت (مكانها الآن الكوم الأحمر تجاه الشيخ فضل فى محافظة المنيا) [١] فإنه لم يبن قبره هناك عندما كان موظفاً كبيراً فى عهد توت عنخ آمون ، بل بناه فى جبانة منف التى قضى فيها أكثر أيام حياته والتى كانت مركزاً للجيش .

وقد عثر على هذا القبر منذ عهد غير قصير ، وسرقت أحجاره وبيعت فى الأسواق ووصل بعضها منذ أواخر القرن الماضى إلى متاحف أوروبا ووصل البعض الآخر إلى المتحف المصرى . وقد تجلت فى مناظره حياة حور محب كرجل حرب ، فنرى فيه مناظر الأسرى والإشارة إلى ما قام به فى العام الأول من حكم توت عنخ آمون وكذلك ما قام به نحو لاجلى فلسطين وجنوبى سورية عندما بدأت جيوش خيتا مهاجمة تلك البلاد فهربوا إلى مصر بعد أن تفشى بينهم الجزع والجوع [٢] .

ونعرف أيضاً عن هذا القائد أنه كان مغرماً منذ صدر شبابه بالأدب وتحصيل العلم ولهذا نرى توقيره الكبير للإله تحوت وإعترافه بما أنعم به عليه . سطر هذا كله على تمثاله الذى وضعه فى معبد بتاح فى منف وفضل أن يمثله جالساً يكتب بدلاً من تمثيله وهو فى مظهر آخر إذ كان هذا أقرب إلى نفسه وإلى طباعه المتواضعة .

---

(١) أوفى الأبحاث عن مكان هذه المدينة أثبتت أنها الإسم الدينى لعاصمة الإقليم السابع عشر من أقاليم الوجه القبلى وقد درس هذا الموضوع جيداً الأستاذ كيس
H. KEES, Aegypt. Zeitschr. LVIII, p. 98-99 -
أنظر أيضاً GAUTHIER, Dict. Géogr. T.IV.p. 86
وأخيراً جاردنر فى كتابه GARDINER, Onomastica II. p.106 ff.

(٢) كتب كورت فليجررسالة عن حور محب وجمع شتات هذه الأحجار التى بعثرت بين متاحف ليدن وبرلين وفينا وبولونيا ولندن ولينتجراد واللوفر والقاهرة ونشر ذلك فى بحثه
K. PFLUGER, Harémhebs Lavfbahn bis zur Thronbesteigung, 1936
وقد كتب المؤلف نفسه فى عام ١٩٤٦ مقالا عن حور محب وقوانينه فى مجلة
Journal of Near Eastern Studies, VOL. V, p. 260-267
ولكن أحدث الأبحاث عن حور محب هو ما كتبه أخيراً جاردنر
GARDINER, The Memphite Tomb of the General Haremhab, in Journal of Egyptian Archaeology, VOL. 39 (1953) p. 3 ff.
كما نشر جاردنر أيضاً فى العدد نفسه من المجلة مقالا آخر عن تتويج حور محب :
The Coronation of King Haremheb, p. 13 ff.

ويظهر أن موت إخناتون وإعلان توت عنخ آمون العودة للدين القديم لم يقض على ما أصاب البلاد من فوضى واضطراب ، بل أن ذلك فتح الباب أمام الإنتقام والتخريب ، والفقير هو الضحية الأولى دائماً فى مثل ذلك الوقت العاصف المضطرب . ومات آى فسعى الملك سعياً إلى حور محب إذ كان الناس جميعاً وبخاصة الفقراء قد سئموا الانقسام والفوضى وعدم الطمأنينة ، فلما خلا العرش سار حور محب إلى طيبة يصحبه إله المدينة التى ولد فيها وهو الإله ، حور ، حيث تمت مراسيم تتويجه هناك وإنتقل إليه الملك دون إراقة نقطة دم واحدة ، وتزوج من الأميرة ، موت نزم ، من أميرات البيت المالك القديم . لقد نشأ حور محب نشأة حربية وقضى صدر شبابه فى الجيش وكان فى وسعه أن يحصل على أمجاد كثيرة إذا سيره نحو الفتح وإحضار الغنائم ولكنه كان رجلاً حصيفاً ، وكانت تجارب الحياة قد صقلته فعرف أن الاستقرار الداخلى أجدى بكثير من إفناء موارد البلاد فى حروب غير مأمونة النتيجة ، خصوصاً وأن البلاد كانت فى حالة تكاد تصل إلى اليأس ، فكان همه الأكبر هو الإصلاح الداخلى وإزالة كل آثار سنوات حكم إخناتون ومن جاء بعده .

وهناك احتمال كبير فى أن حور محب أراد استقرار الأمور فى آسيا فعقد معاهدة بينه وبين مورسيل الثالث ملك خيتا ضمنت له استقرار الأمور على الحدود واندفع بعد ذلك بكل ما أوتى من خبرة وذكاء وهمة نحو الإصلاح الداخلى فسن القوانين العديدة وأمر بإصلاح المعابد وترميمها ما نعرف أيضاً أنه أمر بعمل تفتيش على مقابر الملوك؛ لأنه حدثت بعض الاعتداءات عليها ، وسرق بعضها فى فترة الإضطرابات . وخير ما يعطينا فكرة عن حالة مصر وتدهورها ، وما كان يقع على الفلاح المسكين من ظلم وما تفشى بين الموظفين من الفساد والرشوة ، وهو مرسوم قوانينه الذى أبقى عليه الزمن حتى الآن . وهذا هو ملخص هذا المرسوم الهام كما قسمه فليجر (١) .

يبدأ المرسوم بألقاب حور محب وبعض جمل المديح فيه ، ثم يذكر بأن الملك كان يقضى الليل والنهار فى التفكير فيما يمكن عمله لإصلاح مصر وأنه أخذ قلما وقرطاسا من البردى وكتب فيها ما يأتى :

١ - التشريع الأول خاص بالعقوبات التى توقع على كل من يعوق السفن التى تحمل

---

(١) نشر فليجر بحثه باللغة الإنجليزية فى عام ١٩٤٦ (أنظر الصفحة السابقة) وقد ترجمه إلى الفرنسية العالم الباجيكى فان دى وال B. VAN DE WALLE. Le Décret d'Horemheb. Chronique d'Égypte. No. 44 (1947). p. 230-238 .

الضرائب إلى خزائن الدولة ، وكان عقاب ذلك جدع الأنف والنفى إلى حصن ثارو على مقربة من القنطرة .

٢ – والجزء الثانى يختص بالإجراءات التى تتخذ فى حالة سرقة سفن تكون محملة بالضرائب الخاصة بالدولة وتكون مرسلة إلى الملك .

٣ – وثالث الإجراءات ما يوقع على ما يفعل ذلك أو يحول دون وصول سفن محملة بأشياء مستحقة لزوجة الملك أو إلى المعابد .

٤ – والجزء الرابع يختص بمعاقبة الموظفين الملحقين بمكتب قرابين الملك الذين يذهبون إلى قرية من القرى لأخذ نبات ، كث ، ويجعلون أرقاء بعض الناس يشتغلون فترة من الزمن دون رضاء سادتهم .

٥ – والقسم الخامس خاص بالإستيلاء على جلود الحيوانات كجزء من الضريبة ، ومعاقبة الجنود الذين يذهبون إلى الفلاحين للاستيلاء على هذه الجلود دون وجه حق .

٦ – والقسم السادس خاص بالإجراءات ضد ما يقع من ظلم على بعض الفلاحين وما يحدث من تلاعب من موظفى الضرائب .

٧ – وسابع هذه الأقسام هو العقاب الذى يوقع على من يأخذ من الفلاحين النبات المسمى ، سم ، والذى كان ضرورياً لعمل الجعة بحجة أنه يؤخذ لأجل ضرائب الملك .

٨ – ثم تأتى بعد ذلك العقوبات التى توقع على من يظلم الفلاحين بأخذ بعض الحبوب أو الخضراوات دون وجه حق باسم الملك .

٩ – وتاسع التشريعات يختص بالعقوبات التى توقع فى حالة إقتراف جريمة من الجرائم لم نعرف كنهها بالضبط نظرا لتحطيم النقش فى هذا الجزء ، غير أننا نرى فيها اسم مدير البلاد الأجنبية وأنه يعطى ذهب الملك إلى بعض الناس .

١٠ – وعاشر هذه التشريعات خاص بمنع القسوة أو كثرة العمل على الأرقاء.

فإذا ما انتهى هذا الجزء الخاص بالتشريعات والعقوبات فإن المرسوم يبدأ بذكر الإصلاحات الإدارية التى أمر حور محب بعملها ، ويبدأ هذا الجزء بمقدمة يتحدث فيها بأنه سار فى جميع أنحاء البلاد وعرف ما يجرى هناك ولهذا قام بإصلاح المحاكم ، وكان قضاتها من بعض الموظفين والكهنة . وبعد أن أصلح شئونهم المادية

اعتبر أن إعتداء أحد أعضائها على العدل وظلمه للناس بسبب الرشوة أو غيرها إنما كانت جريمة كبرى أى جزاؤها القتل .

ونظم أيضاً أمور الجيش ورتب لجميع أفراده على اختلاف أسلحتهم ودرجاتهم ما يكفل لهم الطمأنينة ، كما رتب لهم أيام راحة خاصة .

وكان آخر ما ذكره فى هذا المرسوم أنه وضع تنظيما خاصا للبروتوكول فى السراى ومراتب الموظفين وأيهم يتقدم على الآخر .

ويقول حور محب فى مرسومه هذا الذى عدد فيه إصلاحاته بأنه إذا طال به العمر سيقيم المعابد للآلهة وأنه سيجدد مولده مثل القمر ثم يختمه قائلاً « إنكم تستطيعون رؤية هذه المراسيم التى أمر جلالتى بتجديدها عند إصلاح البلاد كلها بعد أن رأى جلالتى أعمال الظلم التى كانت تقترف فى هذه البلاد » .

ونحن إذا تتبعنا حالة البلاد فى عهد حور محب فإنه لا يخامرنا أى شك فى أنه نجح فيما أراده ، فعادت لمصر ثقتها فى نفسها وعادت الطمأنينة إلى النفوس فلما مات فى عام ١٣٠٤ ق.م. بعد أن حكم ثلاثين عاما ترك وراءه بلادا مطمئنة ، وهكذا ختمت الأسرة الثامنة عشرة أيامها بملك عظيم وهو حور محب كما بدأتها بملك عظيم وهو أحمس الأول .

الأسرة التاسعة عشرة
(١٣٠٤ - ١١٩٥ ق.م.)

أسرة جديدة :

حكم حور محب ثلاثين عاماً أعاد فيها إلى البلاد أمنها وسلامتها . وكان الرجل فى مستهل حياته غير راغب فى الملك ولم يسع بعد ذلك فى يوم من الأيام إلى توطيد أركان الحكم لمصلحته الشخصية ، أو مصلحة بلده الذى نشأ فيه فى مصر الوسطى ، أو لمصلحة أحد من أهله . ولسنا نعرف إن كان هو الذى إختار قبل موته أحد زملائه فى الجيش ليجلس من بعده على العرش أو أنه ترك هذا الاختيار لغيره ، لكنا نعرف أن العرش بعد موت حور محب إنتقل بسهولة ودون أى إعتراض إلى زميل قديم فى الجيش يسمى رمسيس (فى اللغة المصرية رع - مس - سو) ، وكان شيخا طاعنا فى السن ، وكان هو ونجله سيتى من القواد العسكريين ، وكان كل منهما يشغل مركز الوزير فى الوجه القبلى فى وقت من الأوقات ، وكانا من ذوى النفوذ الكبير فى الجيش ، وفى الإدارة .

وكان رمسيس هذا من الدلتا ومن مدينة صان الحجر بالذات التى كانت مقر عبادة الإله ست منذ عصر الهكسوس ، وكان لهذا الإله منذ الدولة القديمة إحترام خاص فى شرقى الدلتا ، ولهذا لا نستغرب أن رمسيس الأول قد سمى إبنه « سيتى » نسبة إليه ولا نستغرب أيضاً إذا كان الملك رمسيس الأول بدأ يفكر تفكيراً جدياً فى الإلتفات إلى تانيس (صان الحجر) وجعلها مركزاً مهماً فى إدارة البلاد .

وبالرغم من أن الملك رمسيس الأول قد حكم أقل من عامين فإنه إستمر فى إدارة البلاد بحزم ونجح كل النجاح فى السير على سياسة حور محب . فمنذ إعتلائه العرش أراد أن يشترى تعضيد كهنة آمون فبدأ فى إقامة المبانى العظيمة له فى الكرنك إذ أن رمسيس الأول هو الذى بدأ فى إنشاء بهو الأعمدة الكبيرة ، ولم يقف الأمر عند ذلك بل أنه فى هذه الفترة القصيرة أنشأ معابد مختلفة فى الشمال وعلى الأخص فى منف ، وفى النوبة وبدأ فى تشييد قبر له فى وادى الملوك لم يكن تم جزء كبير منه يوم موته . وتلاه على العرش ابنه سيتى الأول الذى يعتبر بحق من أهم الملوك الذين جلسوا على عرش مصر .

الملك سيتى الأول : (١٣٠٣ - ١٢٩٠)

كان سيتى الأول عند موت أبيه فى منتصف الحلقة الخامسة من عمره . وكان له من خبرته وتجاربه ومن ذكائه الفطرى ما أهله للقيام بالدور العظيم الذى كان مقدراً له أن يقوم به .

فقد قضى سنوات شبابه وهو يعمل ضابطا فى الجيش وبخاصة على حدود مصر الشرقية فى حصن ثارو ، كما تقلد وظائف عدة وكان قائداً للفرسان ، كما أوكل إليه حور محب بعض الوظائف الكبيرة فى الدولة . ولا شك أنه تتبع كل إصلاحات حور محب وكان من منفذيها كما كان ساعد والده الأيمن خلال العامين اللذين جلسهما على العرش ، فلما آل إليه الملك وجد أن خير ما يفعله هو أن يسير على نمط أبيه ونمط حور محب ، وكان له من نشاطه وخبرته ما جعله يبدأ عصراً جديداً فى تاريخ البلاد فسمى أولى سنوات جلوسه على العرش أنها بدء عصر البعث ، وهم - مسوت : ترجمتها الحرفية تكرار الولادة ، .

ولم يكد يجلس على العرش وتنتهى حفلات التتويج حتى أصدر أوامره بإتمام ما لم يتمه أبوه من مبان ، كما أصدر أمره أيضاً بإصلاح ما لم تتسع أيام حور محب لإصلاحه مما تسبب عن ثورة إخناتون الدينية من تخريب فى المعابد ، ولكنه فوجىء بقيام ثورة وراء الحدود الشرقية فأسرع لإخمادها وترك لنا أخبار إنتصاراته على جدران معبد الكرنك . ورسم لنا فيها الحصون التى أعادها إلى حظيرة الطاعة بعد أن هزم بدو سينا وجنوبى فلسطين ، الشاسو ، وهى الحصون التى كانت تمتد من القنطرة حتى رفح [١] . وأراد سيتى أن يعيد لمصر مجدها القديم فتقدم مع جيشه فى فلسطين ، وعلم أن السكان الذين شقوا عصا الطاعة بمؤازرة وتعضيد مملكة ، خيتا ، تجمعوا فى بيسان وأن بعضاً منهم تجمعوا فى بلد يسمى ، حماه ، (وهى غير مدينة حماة السورية) والبعض الآخر فى بلدة ، ينعم ، فلم يمكن سيتى الأول أعداءه من التجمع سويا فى مكان واحد بل أرسل إلى كل من هؤلاء فرقة من فرق جيشه قضت عليهم بسهولة ، وتم النصر ودانت له فلسطين وفينيقيا والجزء الجنوبى من سورية وبخاصة البقاع ومدينة قادش .

وكان سيتى الأول يريد متابعة انتصاراته ليؤدب الثائرين الآخرين ويقابل

---

(١) وكان هذا الطريق يسمى طريق حورس أو الطريق الحربى الكبير وهو أقدم طريق حربى فى العالم . وقد بحث موضوعه جاردنر فى مقاله GARDINER, The military road between Egypt and Palestine, JEA, Vol. VI (1920), pp. 99 ff.

جيوش خيتا ولكن أنباء ثورة أخرى على حدود مصر الغربية اضطرته للعودة مكتفياً بما ناله من غنائم وإنتصارات .

كانت الحالة فى شمال إفريقيا بدأت تدخل فى دور من عدم الإستقرار على إثر الهجرات الهندو – أوروبية التى أخذت تجتاح كل بلاد الشرق القديم فى ذلك العهد ، وكان أثر هجرات هذه الشعوب ونزول بعضها على شاطىء شمال إفريقيا أن بعض تلك القبائل نظر بعينه نحو مصر لمهاجمتها والاستقرار فيها ، ولكن سيتى الأول هزمهم فى موقعتين سجل أخبارهما على معبد الكرنك أيضا إلى جانب أخبار معاركه الأخرى فى سينا وفلسطين وسورية .

ولسنا نستطيع أن نحدد تاريخ حربه فى ليبيا بالضبط ولكن من المؤكد أن تلك الحملة كانت بعد استيلائه على قادش وقبل أن يعود مرة ثانية إلى آسيا ليحارب « خيتا » أى أن التاريخ المرجح لهاتين المعركتين أنهما كانتا فى السنة الثانية من حكمه .

كان سيتى الأول قد اتخذ حياة وحروب تحوتمس الثالث مثالا يحتذيه ، وكان يعرف أنه طالما كانت « خيتا » بعيدة عن متناول يده فإنها لن تتوقف عن الإستمرار فى دسائسها لتأليب سورية وفلسطين على مصر خصوصا بعد أن تغلبت على بلاد «ميتانى» فى أعالى الفرات . وأصبحت وجها لوجه أمام مصر ، وتطلعت نحو سورية لتصبح تابعة لها .

ومصادرنا عن حرب سيتى مع خيتا هى ما دونه على جدران معبد الكرنك ، وكانت المعركة التى دارت بينه وبين الخيتيين فى شمال مدينة قادش ، وعاد منها ستيى منتصراً ومعه الأسرى والغنائم . وحفظت المصادر الخيتية أخبار هذه الحرب ونعرف مما كتبوه أن ملك خيتا كان يريد أن يتفادى الحرب مع مصر ويقول إنه لم يكن طالباً لشهرة أو مجد لأنه يمقت الحروب ، ولكنه يزيد على ذلك طبعاً أن جيوشه انتصرت . والرأى الأرجح هو أن تلك المعركة لم تكن حاسمة ولم يستفد منها أحد الطرفين ولم تؤثر بحال من الأحوال على مملكة « خيتا » ، وإن كانت قد أثمرت فى جعل مملكة خيتا تعرف أن مصر فى عهد سيتى الأول غيرها فى عهد إخناتون ، وأن فرعون لم يسمح لقوة أجنبية أن تتدخل لإشاعة الفوضى على حدود مصر الشرقية . وذهب سيتى أيضاً فى حملة على بلاد النوبة وهو يذكر ذلك على آثاره كما يذكر أيضا بلاد « ناهارينا » (أعالى الفرات) و « خيتا » و « آلاسا » (قبرص) وربما كان ذكر هذه الأسماء على آثار سيتى إستمراراً للتقليد القديم الباقى من أيام تحوتمس الثالث أو

ربما كانت هذه البلاد أخذت تنتهج سياسة المودة مع مصر وترسل هداياها لتؤكد صداقتها لها .

ومن المحتمل أن تكون حملات سيتى الأول فى آسيا وإفريقيا إقتصرت على السنوات الأولى من حكمه ، ولم تكن هناك حاجة إلى ذهابه إلى تلك البلاد بعد أن استتب له الأمر فيها ، ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد عقد معاهدة مع خيتا ليحترم كل من مصر وخيتا حدود الآخر وبذلك إطمأن على حدوده وانصرف بكل ما أوتى من قوة لتوطيد الأمن فى البلاد ، وإنشاء المبانى العظيمة فيها .

ويطول بنا الحديث إذا أردنا تعداد المهم من آثار الملك سيتى ويكفى أن نشير إلى أعماله فى الكرنك وبخاصة بهو الأعمدة العظيم وإلى معبده فى طيبة (معبد القرنة) وإلى قبره فى وادى الملوك الذى يمتاز بأنه أهم المقابر جميعا ، وكذلك تلك الدرة بين معابد الفراعنة ألا وهى معبده العظيم أبيدوس .

وإذا درسنا آثار هذا الفرعون فإن أهم ما يستلفت نظرنا هو المستوى العظيم فى جمال النقوش فإننا نرى من نقوش قبره فى طيبة ومعبده فى أبيدوس أن المدرسة الفنية التى وصلت إلى أوج إزدهارها فى عهد أمنحوتب الثالث ظلت على تقاليدها فأخرجت فى عهد هذا الملك روائعا فنية من أجمل ما وصل إلى أيدينا من عهد الفراعنة .

وقد إستحدث الفنانون فى عهد سيتى الأول أمراً جديداً وهو رسم المعارك الحربية مفصلة وفى حجم كبير على جدران المعابد إذ أن مصر لم تعرف ذلك من قبل ، وكان أول من استحدث رسم المعارك هو تحوتمس الرابع عندما زين عربته الحربية بمناظر إنتصاراته فى المعارك كما قلنا قبل الآن ، وقد حفظ لنا الزمن أيضاً صندوقاً من عهد توت عنخ آمون رسم على أحد جانبيه معركة حربية فى آسيا وعلى الجانب الآخر معركة حربية فى الجنوب ، ولكن فى عهد سيتى الأول رسمت هذه المعارك على جدران المعابد وهو التقليد الذى إتبعه خلفاؤه من بعده .

واهتم سيتى بالمناجم فأرسل الحملات المختلفة وبخاصة للحصول على الذهب ويرجع إلى أيامه تاريخ بردية مناجم الذهب المحفوظة فى متحف تورين بإيطاليا وهى أقدم وثيقة جغرافية فى التاريخ عنى فيها الرسام بتوضيح الطرق المختلفة وكتب عليها ما يساعد المطلع عليها لمعرفة الطريقة إلى تلك

المناجم[١]. كما حفر كثيراً من الآبار فى الصحراء لمساعدة المسافرين إلى مناطق المناجم مثل بئر وادى عباد التى أقام إلى جانبها معبداً صغيراً وهو المعبد المعروف بإسم معبد « الرديسية » .

ولم تقتصر آثار سيتى على مصر والصحراء ، بل وجدت له آثار كثيرة فى بلاد النوبة وشمال السودان وبخاصة فى « سيسيبى » و « نورى » و « جبل برقل » كما عثر له على آثار غير قليلة فى مصر وفى لبنان .

وكان سيتى الأول متزوجا من سيدة تسمى « تويا » من المرجح أنهاكانت أخت له وولدت له ولدين وبنتا . ومات أكبر الولدين فى حياة أبيه فآلت ولاية العهد إلى الأمير الثانى وكان إسمه رمسيس الذى إشترك مع أبيه فى حكم البلاد لتدريبه ، وتزوج من أخته الأميرة « سات - رع » وقد خلف هذا الأمير أباه بعد أن حكم ثلاثة عشر عاما (١٣٠٣ - ١٢٩٠ ق.م.) ودفن فى قبره فى طيبة وقد أبقى الزمن على موميائه وهى من أحسن المومياوات المحفوظة فى المتحف المصرى .

رمسيس الثانى : (١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق.م.)

لم يبلغ ملك من ملوك مصر ما بلغه رمسيس الثانى من شهرة فى التاريخ ، فقد إستطاع هذا الملك الذى حكم سبعة وستين عاما أن يفرض إسمه وشخصيته على عصره وعلى العصور التالية وملأ البلاد كلها بآثاره .

ونحن نعرف معرفة اليقين أن رمسيس الثانى لم يكن مدعياً أو موهما أهل عصره عندما ذكر على آثاره أن أباه إختاره ليكون وليا للعهد أو أنه أشركه معه فى أمور البلاد ، فإن هذا أصبح الآن حقيقة من الحقائق ، ولكنا لا نعرف عمره بالضبط عندما مات أبوه وإن كنا نرجح أنه لم يكن يقل عن الخامسة والعشرين من عمره ، إذ كان أبا لطفلين ذهبا معه إلى الحرب أو لتلقى الجزية فى بلاد النوبة كما نرى ذلك

---

(١) كانت هذه البردية منذ أيام لبسيوس فى عام ١٨٤٢ مدار بحوث كثيرين من علماء الآثار وظن البعض أن مكانها هو وادى العلاقى ولكن أهم الأبحاث عنها هى ما نشره ج . و . مرى فى كتاب JOHN BALL. Egypt in the Classical Geographers (Cairo. 1942). p.180 ff. حيث قال « مرى » بأن هذه المنطقة تنطبق على بئر أم الفواخير فى وادى الحمامات فى طريق قنا - القصير وقد نشر بعد ذلك « جويون » مقالا جديداً عن تاريخ هذه البردية وأشار إلى كل ما كتب عنها ووافق على رأى مرى فى أنها واقعة فى وادى الحمامات وذلك فى بحثه :
OEORGE GOYON. Le Papyrus de Turin. Annales du Service XLIX. p. 337-392

منقوشاً على جدران معبد بيت الوالي (١) .

وإذا رجعنا بالذاكرة إلى عهد الملك سيتي الأول لوجدنا أنه بدأ حكمه بالحرب عندما ذهب لإخضاع بدو الشاسو ، ثم تقدم حتى استولى على قادش وإلتحم بجيوش خيتا وانتهى الأمر بينه وبين « خيتا » بعقد معاهدة صداقة ظلت محترمة حتى مات الملك سيتي الأول ، وكان حد المملكة المصرية الذى يفصلها عن حد مملكة خيتا عند نهر الكلب شمالى بيروت بقليل .

وعندما تولى رمسيس الثانى الملك بعد أبيه لم يبدأ بنقض هذه المعاهدة بل وجه همه قبل كل شيء إلى توطيد حكمه فأمر بإنهاء جميع ما كان قد بدأه أبوه من معابد ولم يطل أجله ليتمه مثل معبد أبيدوس أو معبد القرنة أو مبانيه المختلفة فى الكرنك .

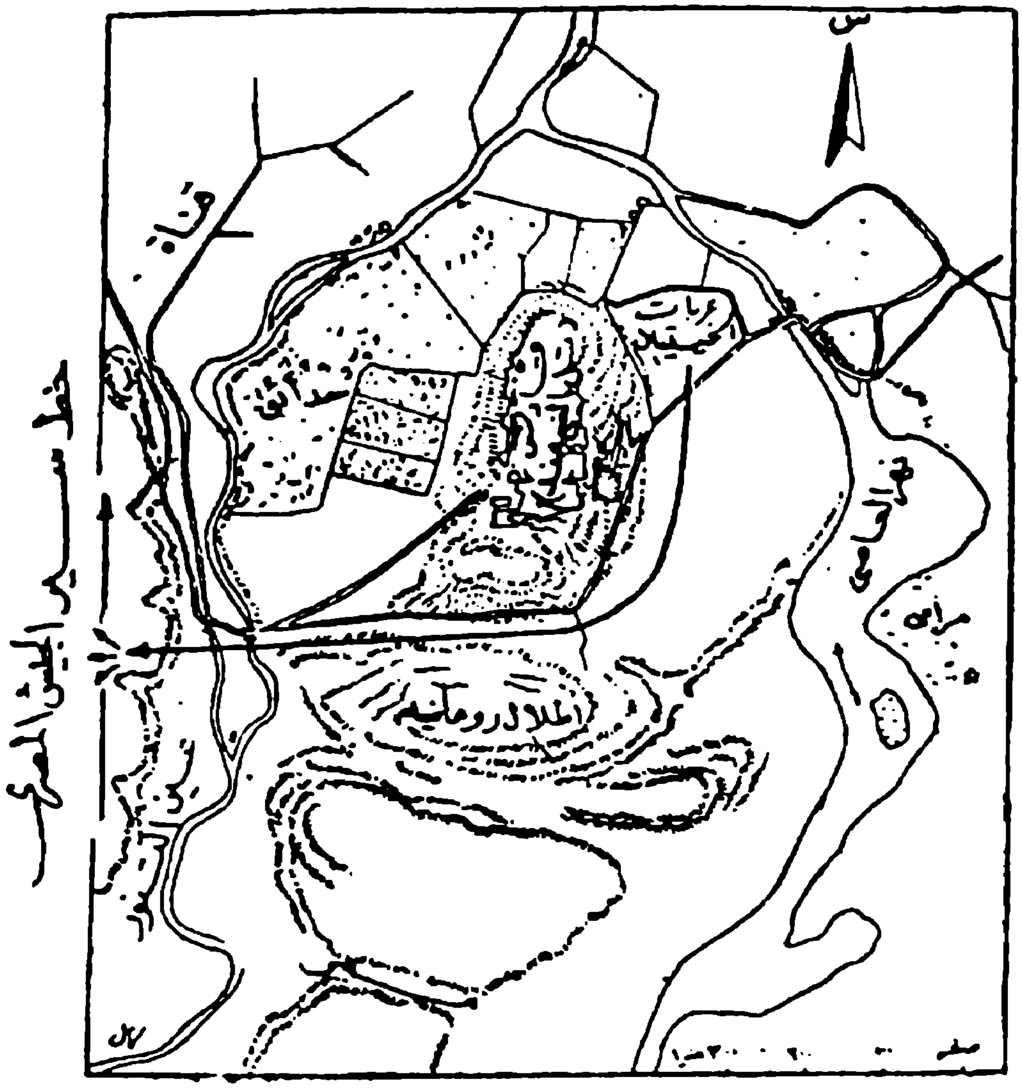
وكانت خطوته التالية هى التفكير فى استغلال مناجم الصحراء متبعاً فى ذلك سياسة أبيه من قبل . فلما انتهى من ذلك حوالى السنة الرابعة من حكمه ذهب فى رحلة لزيارة أطراف ملكه فى آسيا . وليس فى إستطاعتنا أن نعرف الباعث على ذهابه إلى آسيا أو الذى حدث أثناء هذه الرحلة وجعله يصطدم بمملكة خيتا ، ولكن من المحتمل أن مملكة خيتا هى التى بدأت بتحريض بعض الأمراء على الثورة على العصيان ، وأن حملة رمسيس الثانى إلى آسيا كانت لتوطيد النفوذ والإطمئنان على حاميات الموانيء وخطوط المواصلات . ثم عاد مرة ثانية فى السنة الخامسة من حكمه بعد أن عبأ جيوشه وتقدم بها لسحق جيوش خيتا التى كانت قد ألبت الكثير من سكان سورية ضد مصر ، وتجمعت فى قادش لصد جيوش مصر التى كانت فى طريقها إلى هناك .

معركة قادش :

كان ملك خيتا فى ذلك الوقت يسمى « موتلى » ولم يترك وسيلة من الوسائل إلا التجأ إليها ليجعل من مقابلته لجيش مصر ضربة قاضية تمحق نفوذ مصر وسيادتها فى آسيا . ولهذا لم يكتف بأن يضم إليه ، سواء بالوعد أو بالوعيد ، الساخطين على مصر أو الطامعين فى إرضاء خيتا ، بل إستعان بشعوب أخرى كثيرة وأخذ منها جنوداً

(١) أهم الأبحاث عن إشتراك رمسيس الثانى مع أبيه فى الحكم هو ما كتبه كيت سيلى فى بحثه The Coregency of Ramses II with Stety I and the Date of the Great Hypostyle Hall at Karnak . (Chicago, 1940) .
وقد عثر فى الكرنك على ما يؤيد نظريات سيلى فى موسم ١٩٥٣ – ١٩٥٤ .

مرتزقة وكان من بين هذه الشعوب سكان جزر بحر إيجة ، وإمارات آسيا الصغرى ، وبلاد الفرات إلى جانب جيش بلاده . وتقدم بكل هذه الجموع إلى قادش وهى المدينة المحصنة ذات الموقع الإستراتيجى الهام ، والتى نعرفها منذ أيام تحوتمس الثالث بأنها باب سورية الشمالية وما يليها . وتقدم رمسيس الثانـــى ومعـــه أربعة جيوش أحدها ، جـيش آمون ، والثـانى ، جـيش رع ، والثـالث ، جيش پتـاح ، والرابع ، جـيش ست ، وذلك إلى جـانب جنود مرتزقة بعضهم من الشردان الذين سبق أن أسرهم ، والبعض الآخر من الأموريين الذين ربما كان تجنيدهم فى فلسطين . اتخذ رمسيس الطريق



موقع مدينة قادش جنوبى حمص وخط سير الجيش المصرى

الحربى القديم ومعه جيش آمون تتبعه الجيوش الأخرى ، ووصل إلى بلاد كنعان وإتجه شمالا متتبعاً الشاطىء حتى شمال بيروت ، إذ ترك لوحة عند مدخل نهر الكلب مؤرخة فى السنة الخامسة أى فى هذه الحملة ، ومن هناك توغل إلى الداخل حتى وصل إلى وادى نهر العاصى .

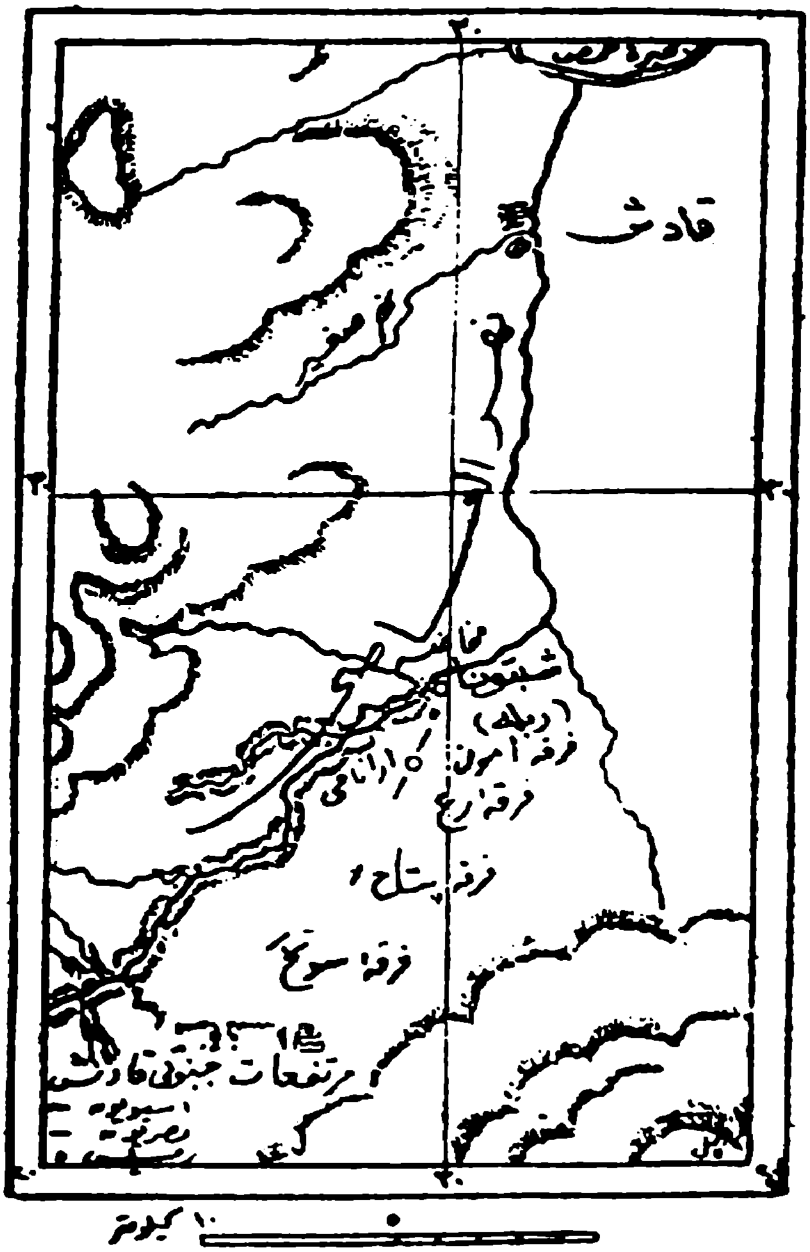
وحدث إذ ذاك أن قبض الجنود المصريون على جاسوسين من بدو فلسطين (الشاسو) كان أرسلهما « موتلى » ليعرفا تحركات الجيوش المصرية ، وإذا وقعا فى الأسر يقصان قصة متفق عليها ليضللا المصريين . واعترف الجاسوسان بعد ضربهما ضربا موجعاً بمواقع جيوش خيتا ولكنه كان إعترافا متفقا عليه من قبل إذ أنهما قالا بأن « موتلى » تقهقر بجيوشه إلى حلب عندما علم بتقدم الجيوش المصرية ، ولكن الحقيقة أن الجيوش كلها كانت مختبئة وراء مدينة قادش منتظرة حضور جيوش مصر لملاقاتها (١) .

وأراد رمسيس أن يسرع خلف عدوه ولم ينتظر حتى تلحق باقى جيوشه به فعبر نهر العاصى ومعه جيش آمون . وكان أقرب جيوشه إليه بعد ذلك هو جيش رع الذى كان على مسيرة بعيدة ، أما جيشا تاح وست فكانا بعيدين جدا . وكان سير رمسيس خطأ من الناحية الحربية ؛ لأن تجمع القوات أحد الأسس الحربية الهامة وكانت هذه القاعدة متبعة دائماً فى حروب أجداده ، ولكن تسرعه فى التقدم ومعه جيش واحد فقط ، وتصديقه لما قاله الجاسوسان وعدم تنظيمه لإدارة مخابراته كما كان يفعل تحوتمس الثالث كلفه ثمنا كبيراً كما سنرى .

عبر رمسيس الثانى نهر العاصى (الأورونت) وعسكر بجيشه فى الشمال الغربى من المدينة ولم يكن يعلم أن ملك خيتا وحلفاءه كانوا خلف التلال وأنهم قاموا فى الوقت نفسه بحركة إلتفاف وإنسحبوا إلى ما وراء قادش على الشاطىء الآخر من النهر . فلما وصل جيش رع وبدأ فى عبور النهر إنتظر المتحالفون حتى وصل بعض

(١) نشر شارل كونتز نصوص ومناظر وترجمة معركة قادش فى كتابه
KUENTZ, La Bataille de Qadesch, Le Cairo, 1928 - 1934.
ولكن منذ عام ١٩٠٣ نشر برستد بحثا وافيا عنها فى :
BREASTED, The Battle of Kadesh (Deccunial publ. of the University of Chicago V (1903), p. 81-126.
وقد عالج هذه المعركة من الناحية الحربية الميجر برن BUREN, JEA VII (1921), p. 191-195 وأشار إليها مرة أخرى فى كتابه The Art War on Land, p. 36-47 .
ولكن أحدث الأبحاث عن مدينة قادش وعن بعض النقط الغامضة فى هذه المعركة نجده فى كتاب GARDINER, Onomastico, Vol. I (1947) p. 137 ff.

الجنود إلى الشاطىء الآخر ، وعند ذلك هجموا على جيش رع هجوماً مفاجئاً فلم يستطع أن يلم شمله ويصمد للحرب ، بل ولى الجنود طالبين المعسكر المصرى فحدث إضطراب كبير ولم يكن فى وسع رمسيس الثانى إلا أن يحاول جمع شتات جنوده



تقدم الجيوش المصرية نحو قادش

ليدافعوا عن أنفسهم . ولكن هذا الهجوم المفاجيء كان قد خلع قلب جيش رع وجيش آمون الذى كان للملك بمثابة الحرس الخاص ، وتخلى عن رمسيس أكثر رجاله فلم يرى بدا من الاعتماد على نفسه فاندفع بين المهاجمين .

يقص علينا رمسيس الثانى قصة هذه المعركة فى قصيدة شعرية نقشها على جدران عدة معابد ، فى الأقصر وفى الرمسيوم وفى الكرنك وفى أبيدوس وفى إحدى البرديات ، كما صور لنا أهم مناظر المعركة على واجهات بعض المعابد ، ونعرف منها أنه رغم ترك جنوده له فإنه صمد وحده للقتال ، وكان عمله هذا مثلاً فى الشجاعة لجنوده من جيش آمون وجيش رع فلم يمض غير قليل حتى ثبتت قلوبهم والتحموا مع العدو ، وبذا تفادى رمسيس الثانى ورجاله كارثة محققة ، والفضل فى هذه الحركة الأخيرة يرجع دون شك إلى وصول نجدة لم يكن أحد يتوقع وصولها فى ذلك الوقت ، وهى نجدة من شباب الفلسطينيين المجندين (ثياروُنا - بلغة الكنعانيين معناها الشباب أو الفتيان) وصلت إلى ميدان المعركة تحت إمرة الضباط المصريين ووجدت حرج مركز رمسيس فمالت على العدو ميلة واحدة فسببت تغيراً فى سير المعركة وأنقذت رمسيس مما كان فيه ، وربما كان نجاح هذه الفرقة راجعاً إلى إنشغال الجيوش المتحالفة فى نهب معسكر المصريين .

وإنتهى اليوم الأول دون أن يكون النصر الحاسم فى جانب رمسيس أو فى جانب أعدائه ، وكانت باقى الجيوش قد وصلت على الأرجح ، كما كان شعور جيشى آمون ورع بالندم حافزاً على إستئناف القتال فى اليوم التالى ، فمالوا جميعا على العدو حتى كادوا يفنونه ، كما تقول النصوص المصرية ، فطلب المتحالفون من رمسيس العفو ، وقبل رسلهم الأرض بين قدميه وسلموه كتابا من ملكهم . ويذكر لنا رمسيس أن ملك خيتا قال له « ليس من المستحسن أن تقتل رعاياك فقد قتلت منهم بالأمس مئات الألوف وها أنت قد يتمت أولادهم ورملت نساءهم ولم تترك لهم وارثا ، فلا تكن قاسيا معنا فالعفو خير من العقاب فإمنحنا نسيم الحياة » ونصح ضباط رمسيس سيدهم بأن يقبل خضوع العدو فقبل رمسيس أن يكف عن القتال ، وإتفق الطرفان المتحاربان على أن يحترم كل منهما حدود الآخر وألا يتدخل فى شئون رعاياه . وعاد رمسيس وجيوشه إلى مصر دون أن يضم مدينة قادش إلى أملاكه ، وإقتصرت إمبراطورية مصر فى آسيا على فلسطين ولبنان وجزء صغير من سورية وعلى الأخص الموانيء التى كانت على الشاطيء .

ونحن إذ ننظر فى تاريخ هذه المعركة الآن ، ونقرأ ما كتبه عنها المصريون وما

سطروه على واجهات المعابد فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن فهم السبب الذى جعل رمسيس الثانى لا يجنى ثمرة إنتصاره ، إن كان حقيقة قد سحق أعداءه فى اليوم الثانى !! ولكن ربما كان الحق هو أن الحرب لم تكن فاصلة وأن رمسيس كان يحارب فى يومه الثانى ونفسه مملوءة بالألم والحسرة لهرب جنوده من حوله عند إشتداد الخطر عليه ، إذ نراه يكرر هذا الألم فى نصوصه التى يصف فيها المعركة ويتحدث عن فجيعته فى جنوده إذ تركوه وهو إلههم وسيدهم معرضا للموت ، وجروا طلبا للنجاة . وربما كانت حالته النفسية هى السبب فى قبوله الصلح وهو فى إنتصاره ، مادام رجاله لا يستحقون الإعتماد عليهم . يقول رمسيس إن مركبات العدو التى كانت عددها ٢٥٠٠ مركبة ، وفى كل عربة منها ثلاثة رجال ، قد أحاطت به وكانوا مقسمين إلى وحدات ، بينما « لم يكن معى قائد أو ضابط مركبة أو ضابط من المشاة ولا حامل درع فقد تركنى مشاتى وفرسانى فريسة أمام العدو ولم يثبت واحد منهم لمحاربته » .

وعاد رمسيس إلى مصر فملأ البلاد كلها بأنه إنتصر وسحق أعداءه وأن أباه آمون وقف إلى جانبه وأنه أباد عشرات الألوف بسيفه (١) ، ولكن مثل هذه الإدعاءات والتشبيهات الشعرية لا تغير من حقيقة الأمر شيئا وهى أنه إذا كانت هناك نتيجة هامة واحدة من وراء هذه المعركة فهى بقاء رمسيس على قيد الحياة ، وإحتفاظ مصر ببعض ممتلكاتها فى فلسطين والشاطىء الفينيقى .

وإذا رجعنا إلى المصادر الخيتية وخاصة ما كشفت عنه الحفائر فى الأعوام الأخيرة ، فإننا نقرأ قصة أخرى تختلف عن قصة المصادر المصرية . فقد كان النزاع بين مصر وخيتا يتركز فى السيادة على بلاد الأموريين (مملكة أمورو Amurru التى كانت مدينة قطنا « تل المشرفة الآن » عاصمة لها) وقد إنضم ملكها « بنتشينا » (Bentesina) إلى مصر ووقف إلى جانبها ولم يخضع لتهديدات ملك خيتا ومن آزروه . فلما كانت معركة السنة الخامسة من حكم رمسيس الثانى جمع كل من ملكى مصر وخيتا كل قواته وألقاها فى المعركة ، ولكن بينما تتحدث النصوص المصرية عن النصر ، وأن ملك خيتا تقدم بطلب الصلح نرى النصوص الخيتية تصف هزيمة

(١) كثيرا ما تساءل المؤرخون فيما بينهم عن عدد جنود جيش رمسيس أو عدد جنود أعدائه المتحالفين ويرى ماسبيرو (MASPERO, Struggle of Nations, p.212 note 4) أن عدد جنود خيتا المتحالفة كان حوالى ٢٠,٠٠٠ على الأكثر منها ٧٥٠٠ من فيلق المركبات والباقى من المشاة بينما كان جموع جيوش رمسيس الأربعة لم يزد على ١٥ إلى ١٨ ألفاً .

المصريين ، وتقول إن جيوش خيتا لاحقتهم حتى دمشق (١) .

ويقف المؤرخون بين هذين القولين ولكن الرأى الأرجح هو تفضيل قصة ملك خيتا؛ لأن مملكة أمورو أصبحت منذ تلك الحرب موالية لخيتا وإختفى إسم ملكها «بنتشينا» ليحل محله إسم أحد الزعماء وإسمه « سابيلى » (Sapili) كملك فى قطنا ومعترفا بسيادة ملك خيتا (٢) .

بعد معركة قادش :

وإذا تتبعنا الأحداث كما روتها المصادر المصرية فإنا نجد أنفسنا مضطرين مرة أخرى لتصديق المصادر الخيتية ، إذ لم يمض عامان على معركة قادش حتى كانت فلسطين نفسها قد ثارت بأسرها وإمتدت الثورة حتى وصلت إلى حدود مصر إذ كانت عسقلان من بين المدن التى وجد رمسيس الثانى نفسه مضطراً للإستيلاء عليها . ولم يهمل رمسيس ، بل سارع إلى إخماد الفتنة وأعاد كل فلسطين إلى حظيرته وكذلك بعض بلاد الأموريين وبخاصة حصن « دبور » التى دارت عنده إحدى المعارك الهامة . وربما كانت هناك حاميات خيتية تغلب عليها رمسيس عند إستيلائه على مدينة « تونيب » فأعادت هذه الحملة إلى مصر سيادتها على تلك البلاد كلها ، وعلى الشاطىء الفينيقي وربما بعض جزر البحر الأبيض . ونقرأ على جدران معبد الرمسيوم إشارات قليلة إلى هذه البلاد التى وردت فيها أسماء خيتا ونهارينا ورتنو وقطنا وكريت وقبرص وبابل وأشور مع ذكر خضوعها لمصر ، وربما كان فى ذلك شيء من المغالاة والأرجح أن أكثر هذه البلاد أثر السلامة فأرسل وفوده إلى ملك مصر ومعهم الهدايا طالبين مودته والإطمئنان إلى التحالف معه .

ومهما يكن من أمر فإن حملة العام الثامن – وليست حملة قادش فى العام الخامس – هى التى كانت سبباً فى ذيوع إسمه كأحد الفراعنة المحاربين الذين حافظوا على الإمبراطورية التى ورثها عن تحوتمس الثالث ، وكانت هذه الحملة أيضاً درساً قاسياً لمملكة خيتا أجبرها على إحترام مصر وعدم التدخل فى أمر ولاياتها .

(١) وهذا هو النص الذى خلفه لنا خاتوسيليس عن حروب أخيه ضد رمسيس الثانى فى معركة قادش : « فى الوقت الذى كان موتلى (أوموتليس) يحارب فيه ملك مصر ومملكة أمورو ثم هزم ملك مصر ومملكة أمورو (موقعها كان على شاطىء البحر الأبيض بين البحر وأعالى نهر العاصى) عاد بعد ذلك إلى مملكة أبا (المنطقة حول دمشق) وهزم أخى موتليس مملكة أبا أيضاً وعاد إلى بلاد خيتا ولكنه تركنى فى مملكة أبا »

Anceient Near Eastern Texts (1950), p. 319 .

(٢) ALEXANDER SCHARFF UND ANTON MOORTGAT, Aegypten and Vorderasien im Altertum, p. 359-360

ومضت على هذه الحرب أعوام طويلة مات فيها الملك موتللى فنشب نزاع عائلى بين إبن الملك وكان يسمى « أورخى – تيشوب » (Urehi - Tesup) من إحدى المحظيات ، وبين عمه المسمى « خاتوسيلى » (Khattu - Siti) وقد إنتهى النزاع بتغلب خاتوسيلى على ابن أخيه وإستيلائه على العرش ، وكان لهذا النزاع الشديد أثره فى آسيا وبخاصة فى بلاد الفرات وشمالى سورية إذ أن مملكة أشور كانت قد بدأت تدخل فى فترة من فترات قوتها ومد سلطانها على غيرها .

ولم يقف رمسيس الثانى مكتوف اليدين أمام هذا النزاع ، وأخذ يناصر « أورخى – تيشوب » . وأراد « خاتوسيلى » أن يشترى صداقة مصر حتى يتفرغ لملاقاة أشور ولهذا أراد عقد معاهدة صداقة معه ، ورحب الملك رمسيس الثانى بها ووقعها الطرفان فى العام الحادى والعشرين من حكم رمسيس أى عام ١٢٨٠ قبل الميلاد ، وكان أصلها مكتوبا بالخط المسمارى على لوح من الفضة وقد ترجم الأصل إلى اللغة المصرية وبقى على أثرين أحدهما على جدران الكرنك والآخر فى الرمسيوم ، كما عثر أيضا لحسن الحظ على الأصل الخيتى فى خرائب بوغازكوى [١] . وليس فى هذه المعاهدة غير تأكيد الصداقة وأن كلا من مصر وخيتا لا يعتدى على الآخر ، ويسلمه المجرمين الفارين إلى بلاده ويشهد كل منهما آلهة بلاده على ما يقول .

وبرٌ كل من خاووسيلى ورمسيس بوعده ، وأراد ملك خيتا أن يوثق هذه الصلة فجاء زائرا إلى مصر ومعه إبنته ، وكثير من رجاله ، ليزفها زوجة إلى رمسيس . وقد أقام رمسيس إحتفالات كبيرة وإستقبل ضيفه خير استقبال ، وأمر بتسجيل هذا الحادث العظيم على لوحات كبيرة وضعت فى المعابد المهمة كما نقشت أيضاً على جدران عدة معابد أخرى ، وكان حضور ملك خيتا إلى مصر فى العام الرابع والثلاثين من حكمه وكان فى مصاهرة هذين البيتين ما كفل الأمن والطمأنينة فى غربى آسيا ، ولو إلى حين .

ولكن هذا السلام لم يدم طويلا؛ لأن المتاعب بدأت تتوالى على خيتا بعد

(١) عثر على أصل المعاهدة على لوحين من الطين المحروق فى حفائر فنكار فى بوغاز كوى فى الأناضول فى عام ١٩٠٦ ولكن النص لم يدرس وتعرف قيمته إلا فى عام ١٩١٦ . وقد نشر لانجدون مع جاردنر (Gardiner - Longdon) ترجمة له فى J.E.A. Vol. VI, p. 179 ff. أنظر أيضاً كتاب ديلاورت عن الخيتيين DELAPORTE, Les Hittites, p. 135-70 أما أوفى الترجمات لهذه المعاهدة فهى المنشورة فى كتاب Ancient Near Eastern Texts (1950) وقام بترجمة النص الخيتى ألبرشت جوتزه ص ٢٠١ – ٢٠٣ وترجم النص المصرى جون ويلسون ص ١٩٩ – وقد أضاف كل منهما قراءات جديدة وأعطى بيانا بجميع المراجع الهامة .

مـوت ، خـاتوسيلى ، ، وربما كان جزء من هذه المتاعب راجعاً إلى تنازع عائلى فى البيت المالك ، ولكن السبب الأكبر المباشر كان ناشئا عن هجرات هندو - أوروبية تدفقت على هذا الجزء من الشرق ، ونزلت إليه من أواسط آسيا أقوام كالجراد ومعها نساؤها وأطفالها ، وكانت كل هجرة منها تتبعها أخرى لتستقر فى آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة وفى بلاد اليونان وفى شمال إفريقيا . كان بعضهم يصل عن طريق البر والبعض الآخر عن طريق البحر ، وما لبثت مملكة خيتا أن هوت وزالت من أثر هذه الهجرات فكانت أولى ممالك آسيا التى قضى عليها خطر تلك الشعوب . ومن المرجح جدا أن يكون خطر هذه الشعوب بدأ يدق على أبواب مصر من الشرق (أى من ناحية سورية وفلسطين) ومن الغرب من ناحية ليبيا ، وربما كان هذا الخطر هو السبب المباشر الذى جعل رمسيس الثانى يبنى سلسلة من الحصون فى الجهة الغربية من مصر مثل حصن الغربانيات (على مقربة من برج العرب) (١) وحصنا آخر عند العلمين (٢) وكان آخر هذه الحصون يقع داخل الحدود الحالية لمصر ، وهو الحصن المكتشف حديثاً عند زاوية أم الرخم إلى الغرب من مرسى مطروح (٣) .

ولكن دفع هذا الخطر لم يقع على كاهل رمسيس الذى كان قد أربى على الثمانين بل وقع على كاهل إبنه مر نبتاح (منفتاح) كما سنرى .

عائلة رمسيس الثانى وآثاره :

حكم رمسيس الثانى ٦٧ عاما وتزوج من كثيرات ، كما أنجب أولاداً كثيرين من محظيات وزوجات ثانويات ، ولهذا لا نعجب إذ كان عدد أولاد وبنات هذا الملك زاد عن ذرية أى ملك مصرى آخر . فنحن نعرف أنه كان متزوجا من بعض أميرات البيت المالك مثل الملكة ، نفرتارى ، الشهيرة والملكة ، إست نفرت ، كما تزوج أيضا من إبنة ملك خيتا وهى التى أطلق عليها الإسم المصرى ، ماعت نفرو رع ، وكان لها حق الزوجات الأوليات ، كما نعرف أيضاً أنه تزوج ثلاث من بناته أما عدد أبنائه وبناته فقد كان وفيرا (٤) . وكان أولاده الذكور يتقلدون جميعا وظائف مهمة فى الدولة،

(١) لم يبق من حصن الغربانيات إلا القليل وكان فى وسطه معبد بإسم رمسيس الثانى بقى منه عمود من الجرانيت نقل أثناء الحرب العالمية الثانية إلى مركز البوليس فى برج العرب .

(٢) عثر على بقايا أحجار من المعبد أثناء عمليات الحرب العالمية الثانية وقام جاسبر برنتن بنشر هذه الأحجار فى مجلة جمعية آثار الأسكندرية وأشار إليها ألن رو فى كتابه (أنظر ٣) .

(٣) ALAN ROWE-A History of Ancient Gyrenaica (Cahier 12 of Suppl. annales Service.) 1948 .

(٤) بعض المؤرخين حصر أولاد رمسيس من بنين وبنات ولكن أعدادهم تختلف وذلك لظهور أسماء جديدة من آن لآخر . ونعرف من بينهم أسماء ٥٩ بنتاً على الأقل أما عدد الذكور فقد عد بعضهم ٧٩ ويؤكد أحد المؤرخين أنهم أكثر من ١٠٠ .

وأهم هؤلاء الأولاء إبنه « خع إم واست » (خـعـمـواس) الذى فكر والده فى السنة الثلاثين من حكمه فى جعله وليا للعهد . وكان هذا الأمير مهتما بالآثار القديمة فكان يرمم كل ما يجده فى حاجة إلى ترميم ، ولهذا نرى اسمه على المعابد فى طول البلاد وعرضها كما كان على خبرة عظيمة بالأمور الدينية وتقاليد الدين واشتهر بعد وفاته بأنه كان ساحرا عظيما ، ولكن هذا الأمير توفى فى العام الخامس والخمسين من حكم والده دفن على مقربة من قرية نزلة البطران التى لا تبعد كثيراً عن أهرام الجيزة .

ومات أكثر أبنائه الأوائل فى حياته ولهذا خلفه إبنه الثالث عشر « مرنپتاح » من زوجته « إست نفرت » على العرش وكان أبوه قد إختاره فى العام الخامس والخمسين من حكمه ليكون وليا للعهد بعد موت أخيه « خع إم واست » .

وإذا أردنا الحديث عن آثار الملك رمسيس الثانى فإننا لا نقول أكثر من أنه لا تكاد توجد منطقة أثرية فى مصر لم يرد فيها إسمه ، ويكفى أن نشير إلى معابده العديدة فى الكرنك أو فى الجزء الأمامى من معبد الأقصر ، أو الرمسيوم أو أبيدوس ، أو معابده المتعددة فى النوبة وبخاصة معبد أبو سمبل لنعرف مدى نشاطه المعمارى المنقطع النظير . وكثيرا ما نقرأ أن رمسيس الثانى كان يجرؤ على أخذ ما يجده من آثار من سبقه من الملوك - حتى والده - وينسبها إلى نفسه ، وهذا صحيح ولكنه لا يغير من الحقيقة وهى أن رمسيس الثانى كان أكثر الفراعنة آثارا فى جميع نواحى المملكة وأكثرهم حبا للعظمة والفخامة .

ولم يكن رمسيس الثانى يقيم دائماً فى طيبة إذ أن أباه بنى قصراً ومقراً ملكيا فى شرقى الدلتا . وقد أحب رمسيس الإقامة فى الشمال فنشأت هناك مدينة كبيرة وهى « پر - رعمسيس » وقد ظن بعض الأثريين أنها هى مدينة صان الحجر كما يؤكد البعض الآخر أنها كانت فى المكان الذى تشغله الآن بلدة قنتير فى مركز فاقوس حيث عثر الأستاذ محمود حمزة على جزء من قصر له [١] . ومات رمسيس بعد أن شبع من دنياه ، وملأ سمع الدنيا وبصرها فى حياته وترك اسمه يرن فى آذانها حتى الآن ، ودفن فى قبره فى وادى الملوك إلى جوار آبائه وأجداده .

---

(١) لكل من الرأيين أنصار ومازلنا فى إنتظار حفر منطقة قنتير للبت فى هذا الأمر وآخر من تناول هذا الموضوع هو الأستاذ جاردنر فى كتابه Onomastica II p. 172 ff. وقد ترك الأمر دون ترجيح رأى بصفة نهائية ، ولكن الأستاذ لبيب حبشى يعد بحثا جديداً خاصاً بهذه المدينة يؤيد فيه رأى حمزة بأدلة جديدة ونرجو أن يظهر مؤلفه قريبا .

الملك مرنبتاح (منفتاح) : ١٢٢٢ - ١٢١١ ق . م .

شهدت الأعوام الأخيرة من حكم رمسيس الثانى تدهوراً فى الإمبرطورية المصرية بسبب هجرات الشعوب الهندو - أوروبية التى كانت تعيش فساداً فى جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط .

ولم يكن مرنبتاح شاباً صغيراً عندما آل إليه الملك بل كان يقرب من الستين ، وقد بذل كل ما يستطيع لصد هذا التيار . وربما ذهب مرنبتاح آلى آسيا فى السنة الثالثة من حكمه أو يكون قد أرسل جيشا لإخماد بعض الثورات التى قامت فيها كما ذكر لنا فى لوحته الشهيرة باسم « لوحة إسرائيل » (١) ، ولسنا نستبعد أن يكون ذلك من أثر المتاعب التى سببتها الهجرات . وسواء أصحت واقعة حربه فى آسيا أو أنها كانت فقط للفخر والمباهاة أو أن هذه الحرب لم تكن فى السنة الثالثة بل كانت بعد إنتهائه من حربه الليبية فى السنة الخامسة ، فإن الحرب التى إقترن إسمها باسم مرنپتاح وخلدت الآثار المصرية ذكرها هى إنقاذه للبلاد من الهجوم الذى شنه عليها الليبيون وحلفاؤهم ، وكانوا يرمون من ورائه إلى الإستيطان فى مصر . فقد تمكن أحد رؤساء القبائل التى كانت قد إستقرت على ساحل ليبيا أن يجمع إليه عدة قبائل من الشعوب الهندو - أوروبية وأن يهجموا تحت إمرة زعيم يسمى « مربى » على مصر ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، فدارت بينهم وبين مرنپتاح معركة عند مكان يسمى «پربر» فى غربى الدلتا . وقد إستمرت هذه المعركة ست ساعات إنتهت بهزيمة ساحقة للمهاجمين ففر منهم من فر ، وقتل من قتل ، ووقع تسعة آلاف من الأسرى فى أيدى المصريين .

ولم يطل حكم مرنپتاح بل مات بعد أحد عشر عاما ودفن فى قبره فى طيبة . وقبل أن نترك أيام حكم هذا الملك يحسن بنا أن نشير إشارة عابرة إلى موضوع كثيرا

(١) لوحة إسرائيل كانت قائمة فى معبد مرنپتاح الجنازى وكانت فى الأصل لوحة فى معبد أمنحوتب الثالث ونقش على ظهرها ذلك النص . وقد ترجمها شبيجلبرج
SPIEGELBERG. A.A A. 34 (1896) . p. 1-25
كما ترجمها أيضاً برستد BREASTED. A. R. III & 602-617
وأخيراً نجد ترجمة أحدث لها فى . Ancient Near Eastern Texts. p. 376-8 وفيها أشارت إلى حملته الليبية وإلى إنتصاراته فى آسيا . وجاء ذكر « إسرائيل » للمرة الأولى فى هذه اللوحة : « ينعم أصبحت كأن لم تكن ، وإسرائيل أبيدت لن يكون لها بذرة وأصبحت حورو (أى فلسطين وما جاورها) أرملة لمصر » . وهذه هى المرة الوحيدة التى ذكرت فيها كلمة «إسرائيل» على الآثار المصرية .

ما نصادفه مقرونا باسم هذا الفرعون وهو موضوع خروج بنى إسرائيل من مصر . فمنذ العثور على إسم إسرائيل على لوحة إنتصاراته إعتقد الكثيرون أن الخروج حدث فى عهده . ولكن هذا الرأى لم يجد سندا من التاريخ وظلت الآثار المصرية على صمتها تجاه هذا الأمر .

ولكن تحقيق هذا الموضوع من تاريخ العبرانيين وإحتساب الزمن ، ثم ما جاء من نتائج التنقيبات الأثرية فى فلسطين جعل خروج بنى إسرائيل فى عهد مرنپتاح أمراً يكاد يكون مستحيلاً ، ويجب أن يكون فى عهد الأسرة الثامنة عشرة . ولهذا نرى كثيراً من أسماء الفراعنة تتردد فى الأبحاث المختلفة فبعض الباحثين يرى أن فرعون الخروج كان تحوتمس الثالث وبعضهم يرى أنه كان إبنه أمنحوتب الثانى كما أن هناك من يقول إنه كان أمنحوتب الثالث ووصل الأمر ببعضهم إلى القول بأن خروجهم من مصر كانت على أثر موت إخناتون ، وأراد أن يربط بين خروجهم من مصر وثورة إخناتون الدينية .

بل ظهر أخيراً رأى آخر وهو أن خروج بنى إسرائيل من مصر لم يكن فى عهد مرنپتاح وإنما كان قبله بنحو ٤٠٠ سنة إذ كان فى عهد الهكسوس (١) . وكل ما نستطيع أن نؤكده أنه لم يظهر فى الآثار المصرية أو الآثار الفلسطينية ما يحدد وقت الخروج تحديداً تاما وسيظل هذا الموضوع مفتوحاً للمناقشة حتى ظهور أدلة جديدة (٢) .

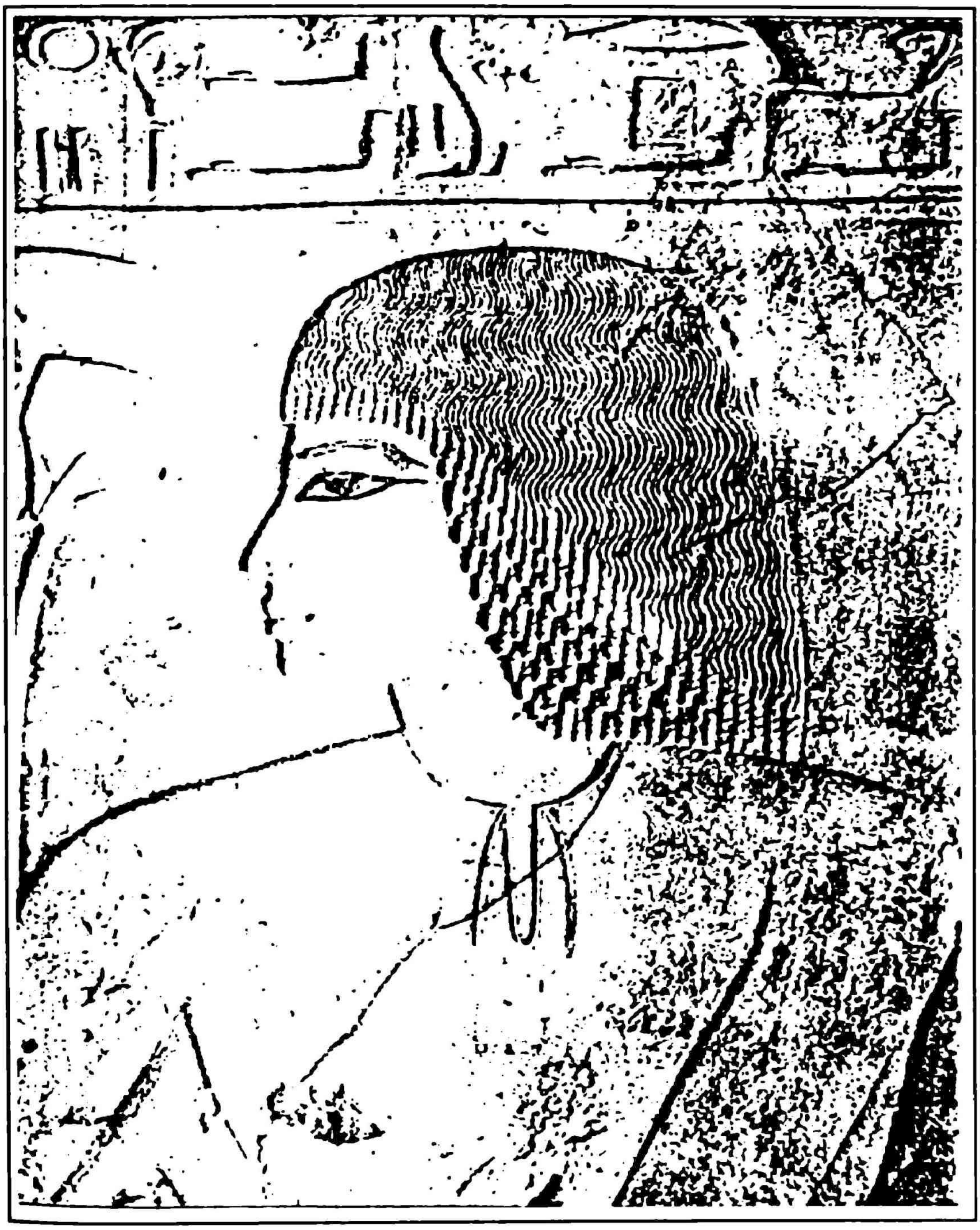
نهاية الأسرة التاسعة عشر :

وجاء بعد مرنپتاح مغتصب للملك يدعى ، آمون مس ، ولا ندرى كيف استولى على العرش ، وفى ذلك دليل على إضطراب الأمور فى البلاد؛ لأن ، أمون مس ، لم يلبث حتى خلعه مغتصب آخر إسمه ، مرنپتاح ساپتاح ، فانتقم منه وخرب قبره فى وادى الملوك . وقد حكم ساپتاح ست سنوات تمكن خلالها من عمل قبر عظيم له ، ثم خلعه عن العرش الملك ، سيتى الثانى ، الذى حكم هو الآخر ست سنوات مات بعدها ميتة طبيعية . ويلوح أن سيتى كان ذا صلة بالبيت المالك القديم وربما كان أيضا نائبا

(١) J. VON BECKERATH. Tanis and Theben. p. 67 ff.

(٢) هناك أبحاث لا حصر لها عن موضوع التوفيق بين معلوماتنا التاريخية والأثرية وبين ما ورد عن بعض الأنبياء فى التوراة ، وأكتفى بذكر أحد المؤلفات الحديثة التى يجد فيها القارىء مراجعا مختلفة إذ أراد البحث .

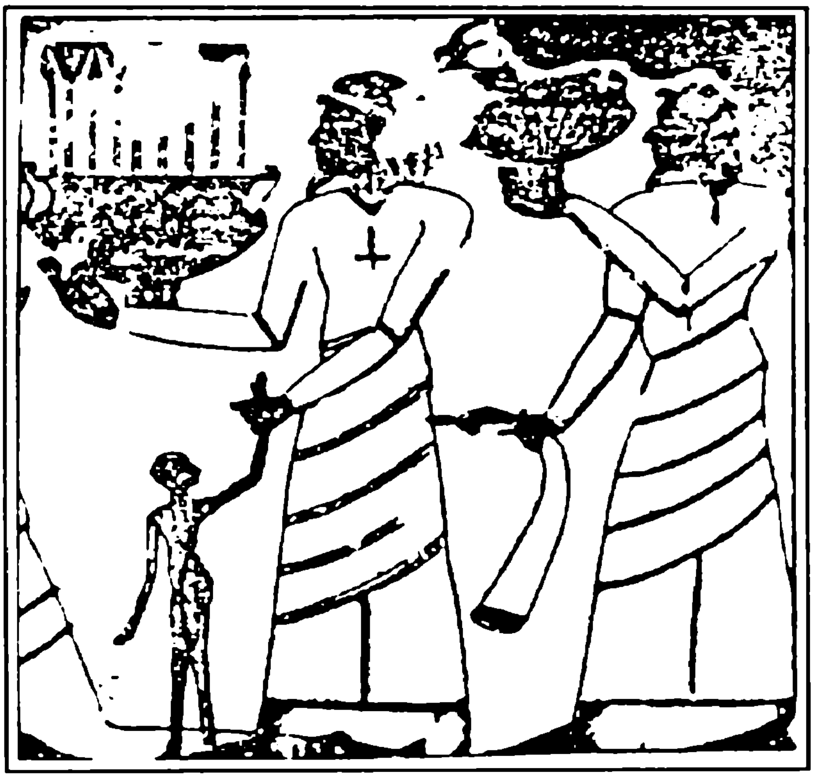
UNGER, M.F. Archaeology and the Old Testament. Michigan, 1954 .



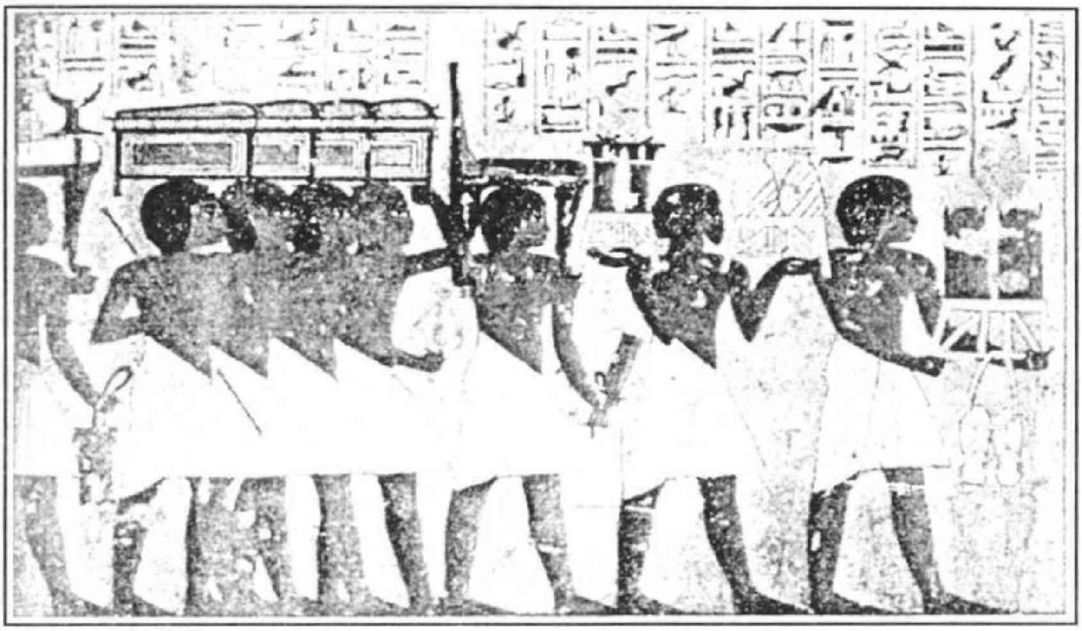
شكل رقم ١٦ : صورة بارزة على الحجر الجيرى لأحد الضيوف فى مأدبة مصورة على جدران قبر الوزير «رع - موسى» الذى عاصر أيام الملك أمنحوتب الثالث وامتد به العمر إلى عهد إخناتون .



شكل رقم ١٧ : بعض سكان سورية القدماء يقدمون الأوانى الذهبية التى أتو بها من بلادهم هدية لملك مصر .



شكل رقم ١٨ : قد وصلت صناعة تلك الأوانى فى سورية فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى أوج تقدمها . وترى فى هذه الصورة أحد الزعماء وقد اصطحب معه ابنه الصغير . وهذان الرسمان من إحدى مقابر طيبة .



شكل رقم ١٩ : بعض الأتباع يحملون الأثاث لوضعه فى القبر . صورة ملونة على أحد جدران مقبرة «رع موسى» من أواخر أيام الأسرة الثامنة عشرة .



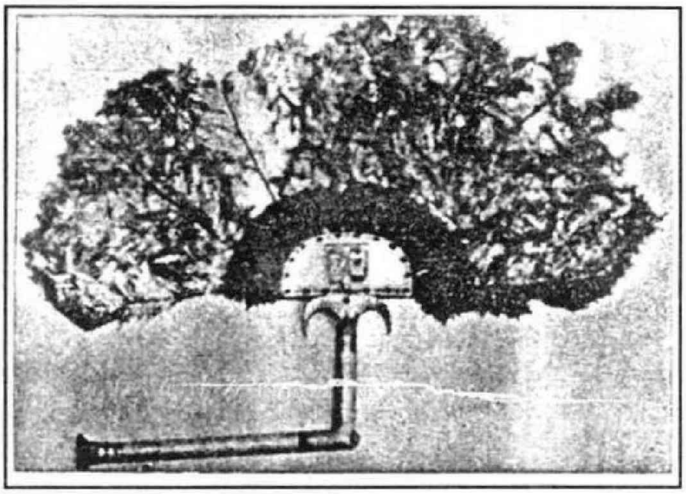
شكل رقم ٢٠ : النائحات من أهل «رع موسى» عند قبره ، وقد اشتد بهن الحزن عند رؤيتهن لتابوته قبل دفنه فى القبر .



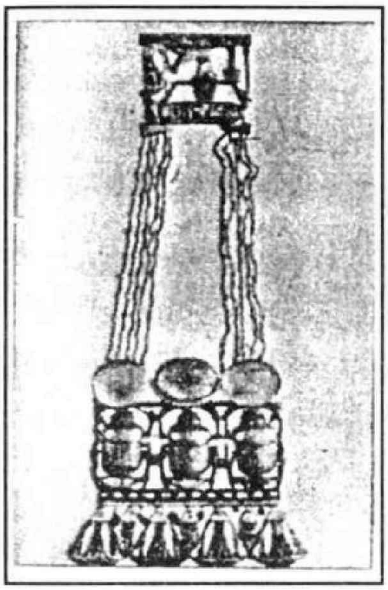
شكل رقم ٢١ : الجزء الأعلى من تمثال الملك إخناتون ، ذلك الملك الفيلسوف الذى دعا إلى عقيدة «آتون» وحارب تعدد الآلهة ، وكتب أجمل الأناشيد .



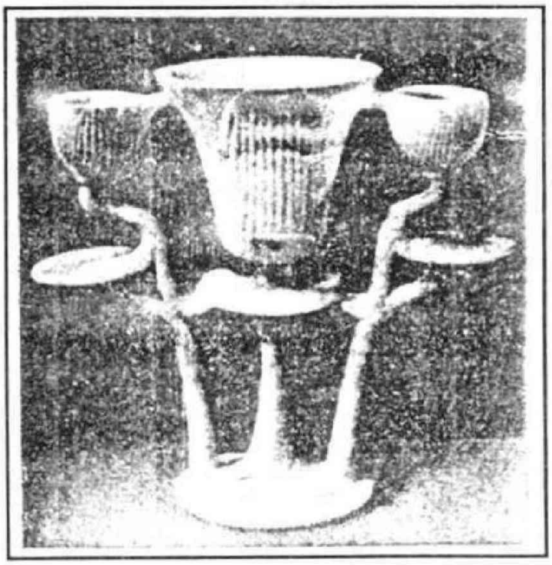
شكل رقم ٢٢ : رأس تمثال الملكة نفرتيتى ،ويتجلى فى هذين التمثالين (١٩ ، ٢٠) فن العمارة وما يمتاز به من الحساسية وصدق التعبير.



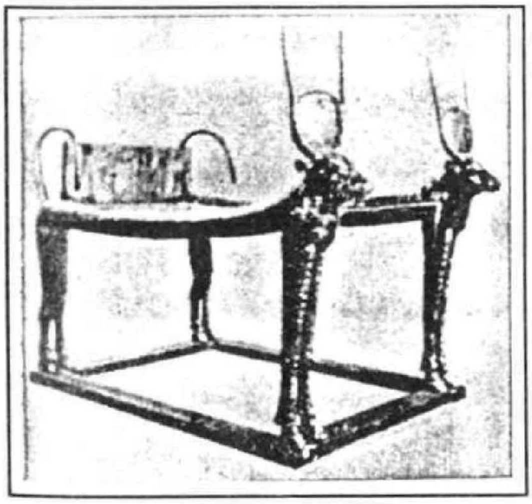
شكل رقم ٢٣ : مروحة من ريش النعام ويدها من العاج .



شكل رقم ٢٤ : عقد كبير من الذهب يحلى كلا من الصدر والظهر.

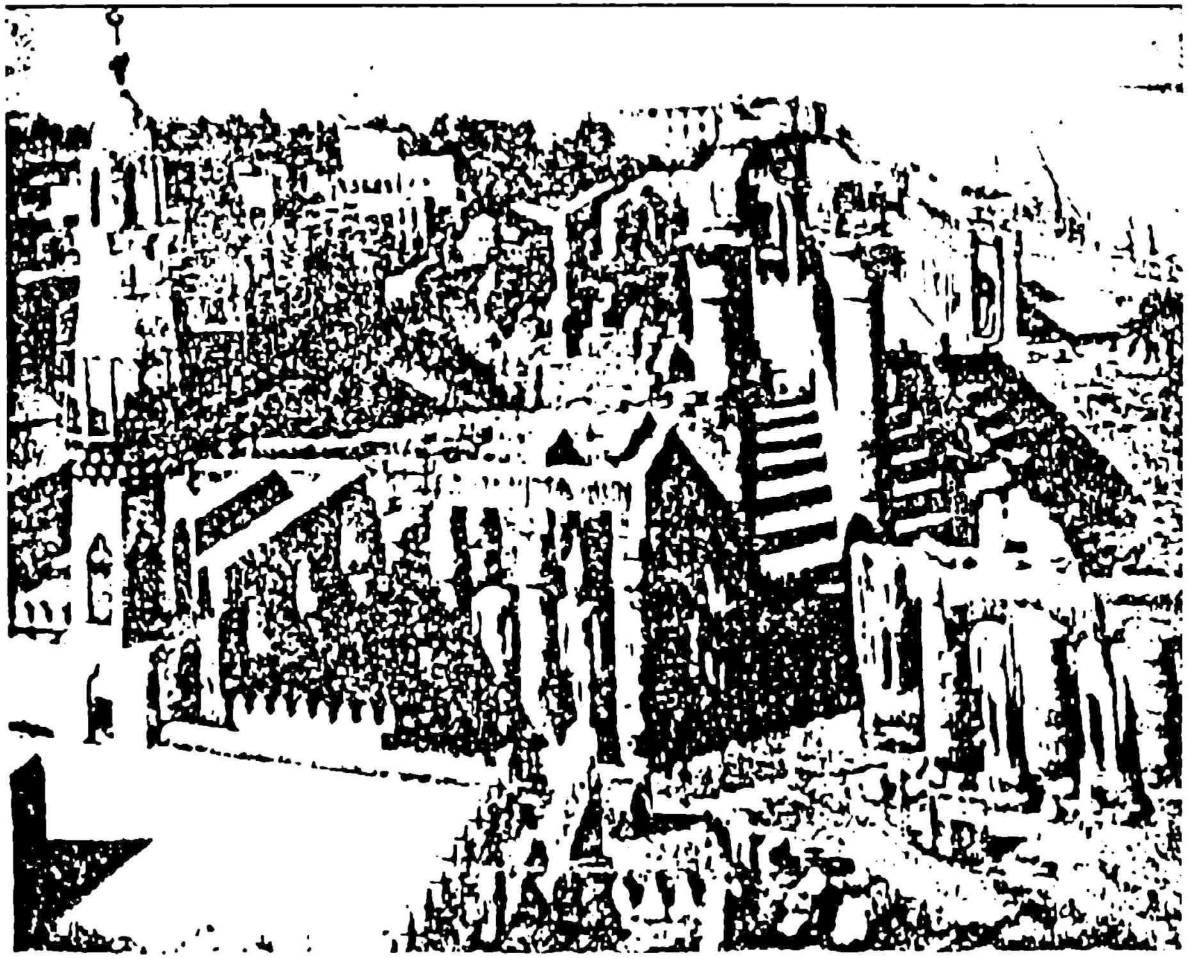


شكل رقم ٢٥ : إناء من المرمر

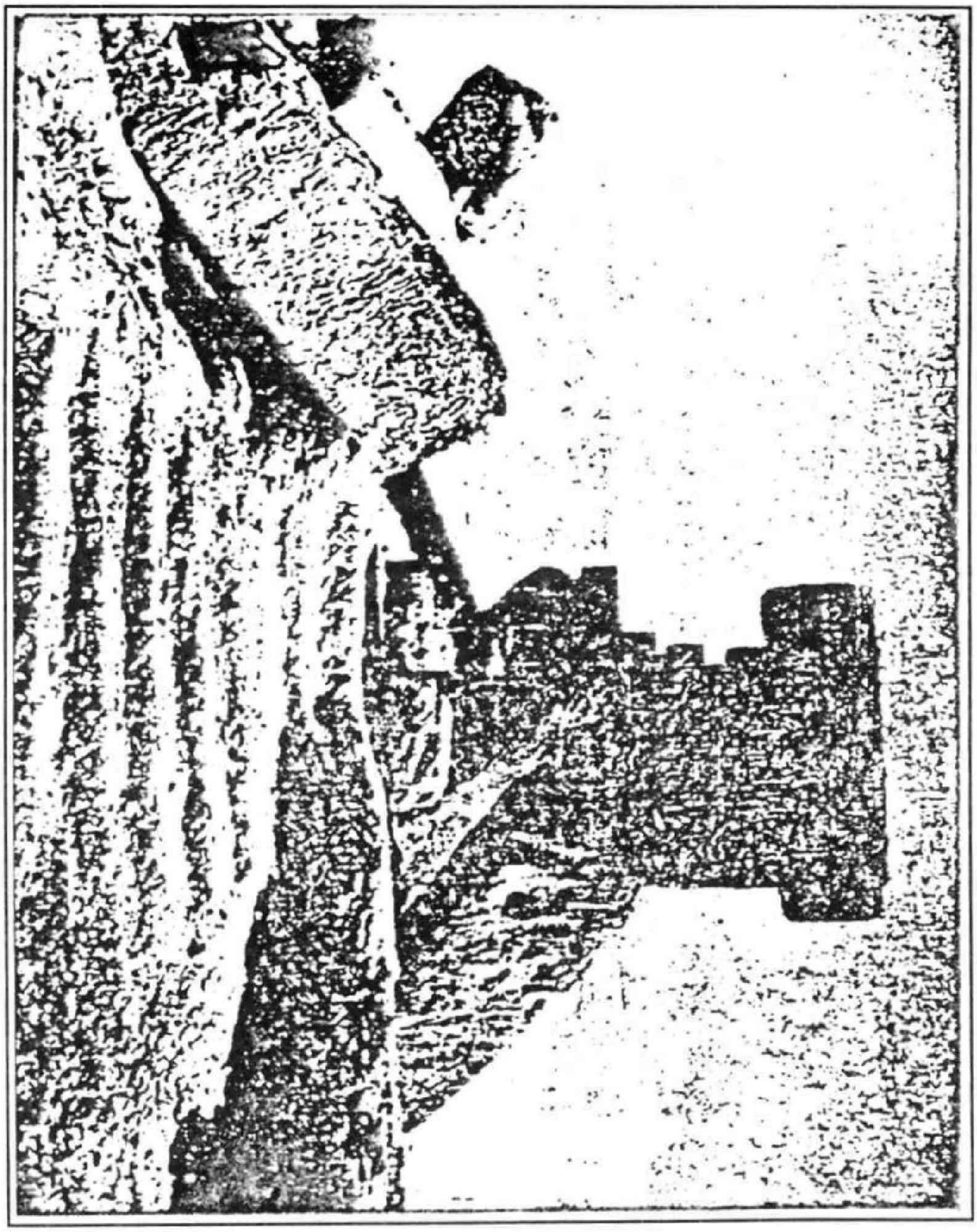


شكل ٢٦ : سرير من الخشب المذهب.

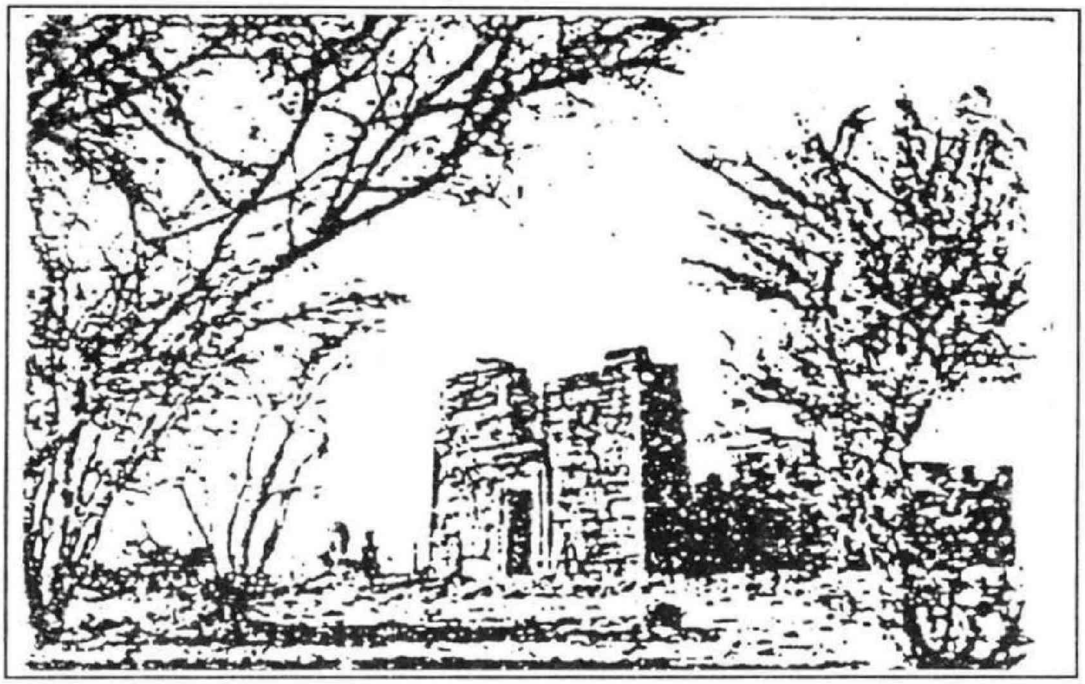
هذه كلها من مقبرة توت عنخ أمون من أواخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهى الآن مع غيرها من كنوز تلك المقبرة ، فى المتحف المصرى بالقاهرة .



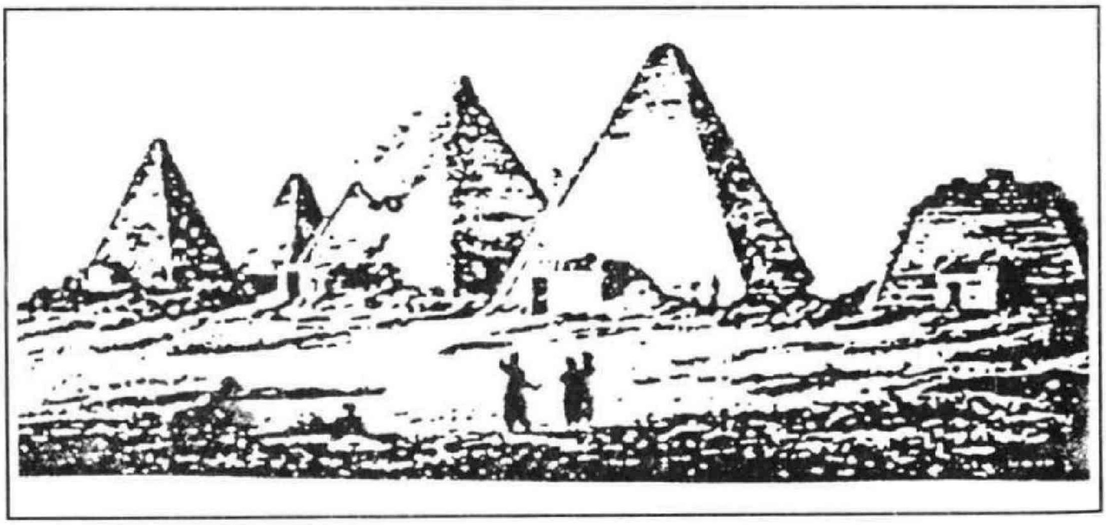
شكل رقم ٢٧ : معبد الأقصر . شيده الملك أمنحوتب الثالث وأضاف إليه رمسيس الثانى البهو الكبير الذى يظهر فى مقدمة الصورة وكذلك البيلون الأمامى للمعبد . ويمتاز معبد الأقصر بجمال نسبه واستقامة خطوطه وتوازن أعمدته . وعلى يسار الصورة مسجد «أبو الحجاج» الذى شيد قبل أكثر من سبعمائة سنة .



شكل رقم ٢٨ : خرائب معبد آمون في واحة سيوة بالصحراء الغربية ويرجع تاريخه إلى أيام الأسرة الثلاثين .



شكل رقم ٢٩ : معبد النجعة على مقربة من شندى فى شمالى السودان .
وهو من آثار العصر المروى .



شكل رقم ٣٠ : أهرام مروى بالسودان ، كما كانت فى عام ١٨٢٠ .

للملك فى السودان أثناء حكم سلفه . وبالرغم من ضعفه والجو المضطرب الذى عاش فيه فقد تمكن من تشييد بعض آثار فى مختلف أرجاء مصر ، كما شيد لنفسه قبراً فى طيبة بعد أن اغتصب لنفسه فى مبدأ الأمر قبر « سابتاح » و « تا – وسرت » . ورغم كل ذلك فقد بقى لمصر نفوذها فى النوبة وفلسطين وظلت جزية البلدين تأتى سنوياً إلى مصر .

لقد بدأت مظاهر التدهور تشمل البلاد منذ أواخر أيام رمسيس الثانى أى فى أعوام شيخوخته ، وزاد الطين بلة أن من خلفه على العرش كان شيخا مسنا وكان له إخوة وأخوات وأبناء إخوة وأخوات كثيرون ، وكان هؤلاء جميعاً ومعهم الحاشية وحكام البلاد والكهنة ذوى مطامع وأغراض ، ولم يجدوا من يستطيع أن يوقف كل واحد منهم عند حده ، ولهذا لا يدهشنا أن نرى هذا التغيير والتبديل فى الوصول إلى العرش ، فربما كان كل هؤلاء الذين وصلوا إلى الملك أو الذين كانوا يعاونونهم ويدفعونهم إلى الأمام من نسل الملك رمسيس الثانى .

ولنترك ذلك الآن لنرى ما حدث عند وفاة الملك « سيتى الثانى » . لقد خلفه على العرش وريثه الشرعى وإسمه « رمسيس سى يتاح » ، ولكن لم يكن فى إستطاعته أن يعمل شيئا ، ولهذا ظل بضع سنوات ثم إختفى من العرش وتمزقت البلاد شر ممزق وأخذ الحكام يحاربون بعضهم البعض ، وأعلن كثيرون من كبار حكام الأقاليم إستقلالهم ، وفى تلك الأيام المضطربة العصيبة تمكن شخص من أصل سورى إسمه « إرسو » من الوصول إلى العرش .

ونحن نعرف قصة تنصيبه لنفسه ملكا من بردية هاريس (١) عندما وصف رمسيس الثالث حالة البلاد المحزنة التى أنقذها منها أبوه « ست – نخت » فقد قال إن مصر غزيت من الخارج وظل الناس عدة سنوات دون حاكم عليهم ومرت سنوات إضمحلال كان الرجل فيها يذبح جاره « ، فتمكن هذا السورى من تنصيب نفسه ملكاً على مصر ، ونهب ممتلكات الناس وأهمل المعابد فغضبت عليه الآلهة وسلطت عليه رجلا إختارته وكان هذا الرجل هو « ست – نخت » . وهكذا نشأت عائلة جديدة وهى الأسرة العشرون التى وقع على أكتافها عبء كبير وهو إنقاذ البلاد مما هى فيه بعد أن وصل التفكك فى مصر إلى أسوأ الحالات .

(١) Harris Papyrus 1, PL - 75 .

الأسـرة العشـرون
(١١٩٥ - ١٠٨٠ ق.م.)

رمسيس الثالث : (١١٩٢ - ١١٦٠ ق.م.)

جاء إنقاذ مصر من ورطتها على يدى الملك « ست نخت » الذى لم يجلس على العرش أكثر من ثلاثة أعوام بين ١١٩٥ ، ١١٩٢ ق . م . وقد ترك منذ البداية لإبنه المسمى رمسيس إدارة البلاد . ولهذا فمن الجائز أن يكون « ست نخت » هذا هو أحد الأمراء المتقدمين فى السن من البيت المالك القديم جمع حوله الناس وأراد تخليص البلاد مما آلت إليه ، وكان إبنه رمسيس هو الرأس المدبر والمنفذ لجميع الإصلاحات فى الوقت الذى كانت فيه مصر فى أشد الحاجة إلى من كان مثله .

وحكم رمسيس الثالث إثنين وثلاثين عاما كانت فى الواقع فترة صحو بين عهدين فاسدين ، وسنرى أن جميع جهوده أثمرت فى البداية ولكنه عندما تقدمت به السن بدأت عوامل الانحلال مرة أخرى تظهر من جديد .

أشرنا عند الحديث عن نهاية الأسرة التاسعة عشرة إلى ما ورد فى بردية هاريس خاصا بالسورى « إرسو » والإشارة إلى غزو أجنبى لمصر ، وليس المقصود من هذا أن إرسو جاء على رأس جيش من سورية لإحتلال مصر وإنما كان ذلك ناتجاً عن أحد أمرين أولهما احتمال حدوثه بسبب هجرة من هجرات الشعوب التى كانت تعيش فى الناحية الشرقية من مصر وفى غربها ، والتى كانت منذ عهد رمسيس الأول تواقة إلى الإستيطان فى وادى النيل ، فكانت هذه الهجرة سببا فى إضطراب الأمور فوق ما كانت عليه من إضطراب ، أما الفرض الثانى فهو أنه ربما كان إرسو من زعماء الجنود المرتزقة الذين كانوا فى الجيش ، جمع حوله رجاله وحاول الإستيلاء على السلطة لمصلحته فمنذ أيام تل العمارنة ، بل وقبل ذلك ، نعرف أن الأسيويين بدأوا يفدون إلى مصر ويستقرون فيها وكان منهم فى عهد إخناتون ورجال ذوو نفوذ فى البلاط ، وتبعهم منذ أيام الفتوحات وإحضار الأسرى عدد آخر ، وكذلك عندما إستعان بهم ملوك الأسرة التاسعة عشرة وبخاصة رمسيس الثانى فى الجيش .

كان الشرق القديم مسرحاً للمتاعب فى ذلك العهد ، وقد رأينا ما سببته هجرات الشعوب الهندو - أوروبية من نكبات ، ورأينا أيضا أن بعضها جاء وإستقر فى آسيا وقضى على مملكة « خيتا » فى النهاية ، والبعض الآخر إستقر فى ليبيا ، وتمكنت

« خيتا » بتحالفها مع مصر إيقاف الكارثة إلى حين ، ولكن السيل كان أقوى مما تتحمله جدرانها فلم تلبث أن إنهارت مقاومتها . أما مصر فقد ظل لها حتى عهد رمسيس الثالث نفوذها فى فلسطين وفينيقيا وإن كان لم يبق لها نفوذ ذو شأن فى سورية أو غيرها من البلاد .

وكان من حسن حظ مصر أن الدرس القاسى الذى لقنه مرنبتاح لهذه الشعوب نجح فى إيقاف محاولاتها للإستيلاء على مصر من ليبيا لوقت غير قصير ، ولهذا لم تحاول الإستفادة من الموقف بعد وفاته أو حتى فى السنوات الأولى من حكم رمسيس الثالث ، فلما إستأنفت هذه الشعوب مهاجمتها لمصر من ليبيا كان رمسيس الثالث قد أعاد تنظيم أمور بلاده وأصبحت البلاد بفضل إصلاحاته قوية متماسكة .

ولكن قبل هذه الحملة الليبية التى كانت فى السنة الخامسة من حكمه وجد رمسيس الثالث نفسه مضطراً لإخماد ثورة فى بلاد « أمورو » كما تشير إلى ذلك نقوش معبد مدينة هابو التى تتحدث عن زعيم أمورو الذى « أصبح لا شىء وانقطعت ذريته » .

حروبه :

فى السنة الخامسة من حكمه هجم جيش كبير من الليبيين وحلفائهم من « السيد » و « والماشوش » من الشعوب الهندو – أوروبية على مصر . أما السبب فى هذا الهجوم فربما كان راجعاً إلى تدخل رمسيس الثالث فى شئونهم الداخلية ومساعدته لأحد الليبيين الذين كانوا يعيشون فى مصر ليكون حاكما عليهم . وسواء أكان ذلك هو السبب الرئيسى أو أن غزوهم كان تكرارا للمحاولات السابقة منذ عهد سيتى الأول ، فإن الليبيين وحلفاءهم من « شعوب البحر » هزموا شر هزيمة على حدود الدلتا الغربية عندما كانوا فى طريقهم إلى منف . ولو تتبعنا دروب الصحراء لوجدنا أن هذه المعركة إما أن تكون قد حدثت على مقربة من الفرع الكانوبى أى فى نهاية الطريق الساحلى ، أو عند « كوم أبو بللو » وهى إحدى المدن المصرية المهمة فى ذلك العهد وأمام الدرب الموصل من الصحراء إلى الدلتا عن طريق وادى النطرون . وقد ذكرت لنا نصوص معبد مدينة هابو أن جثثهم أصبحت أكواما وأن رمسيس الثالث أخذ من بينهم أسرى كثيرين وزعهم على الحصون المختلفة ليعملوا فيها .

حملة السنة الثامنة :

ثم حدثت بعد ذلك معركة أخرى مهمة كانت دون شك أهم أعماله الحربية وأبعدها أثراً فى حياة مصر . فقد إجتاحت الشعوب الهندو – أوروبية (شعوب البحر)

بلاد خيتا وبلاد قدى (بين آسيا الصغرى وشمال سورية) وإحتلت كيلكيا وقبرص وإستولت على مدينة قرقميش على الفرات ، وكانت هذه الشعوب فى تلك الهجرة العظيمة مؤلفة من « البلست » و « الثكرات » و « الشاكا روشا » و « الدانيونا » و « الوشاش » وكلها شعوب هندو - أوروبية جاءت فى موجة من موجات الهجرة ، وجاء بعضهم بطريق البر ، ومعهم نساؤهم وأطفالهم على عربات تجرها الثيران ، والبعض الآخر على سفن حربية . ولم يهمل رمسيس الثالث فى دفع هذا الخطر فإستعد له وجمع أسطولاً كبيراً كما جمع جيشاً برياً وسار لملاقاة أعدائه الذين كانوا فى طريقهم إلى مصر من ناحية الشرق . وقد حفظت لنا جدران معبد مدينة هابو صوراً مفصلة لهذه المعارك من برية وبحرية وهى تمثل لنا صوراً من أول صدام بين مصر والشعوب الأوروبية . نرى فيها الصراع الميت بين المتحاربين ، ونرى كيف نجح المصريون فى القضاء على أسطول هذه الشعوب كما نجحوا أيضاً فى تمزيق الجيش البرى الكبير . وكانت أولى نتائج هذا الانتصار دحر هذه الشعوب وإنقاذ مصر من خطر مؤكد لم يكن يقل عن الخطر الذى تعرضت له عند غزو الهكسوس إن لم يزد عنه ، ولم تنقذ مصر نفسها فقط بل أنقذت غربى آسيا معها ، إذ أن فلول الأساطيل المتحالفة لم تقم لها بعد ذلك قائمة ولم يصبح لمن بقى حياً من جيوشهم أى كيان تاريخى .

حملة العام الحادى عشر :

وإذا كان رمسيس الثالث قد تمكن فى حملة العام الثامن من القضاء نهائياً على قوة شعوب البحر فى آسيا فإن قوة هذه الشعوب وحلفائهم الليبيين ظلت بعد حملة السنة الثامنة على تماسكها ، وها هم مرة أخرى يعيدون تنظيم أنفسهم وخاصة شعب « الماشوش » ويهاجمون مصر تحت إمرة إبن زعيم ليبيا المسمى « مشثر » فى العام الحادى عشر من حكمه . فوقفت جيوش مصر تصد هذا الغزو فأوقعت بالقادمين هزيمة كبرى على حدود الدلتا وإرتدوا إلى الصحراء فتبعتهم الجيوش المصرية نحو عشرين كيلو متراً وأفنت منهم عدداً كبيراً ، وأسرت كثيرين كان من بينهم « مشثر » نفسه ، وبهذا تخلص رمسيس الثالث من أعدائه فى الغرب كما تخلص من أعدائه فى الشرق وإستطاع أن يقضى بعد ذلك وقتاً هانئاً يعيد فيه تنظيم أمور البلاد .

حملة أسيوية أخرى :

ولم يغب عن ذهن رمسيس بعد إطمئنانه على حدوده الغربية أنه من الضرورى أن يعيد لمصر أملاكها فى آسيا ، وأن يؤمن حدوده ويطهر سورية وفلسطين

من بقايا شعوب البحر الذين عساهم أن يكونوا قد استقروا هناك . وقد ذكر أخبار حملته هذه على جدران معبده فى مدينة هابو ونعرف منها أنه حاصر خمس مدن حصينة ، ربما كانت قادش واحدة منها ، وإذا لم تكن النصوص المصرية وقوائم أسماء البلاد المقهورة فيها شيء من المبالغة أو أنها منقولة عن قوائم أخرى من الأسرة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة فإن رمسيس الثالث يكون قد وصل إلى الفرات وهو حد كانت مصر قد فقدته منذ عهد طويل .

أما « شعوب البحر » فقد تفرقت ، وإستقر بعضها كسكان مسالمين فى كثير من نواحى البحر الأبيض المتوسط وأصبحت أسماء بعض هذه الشعوب علما على البلاد حتى الآن ، ومنهم البلست مثلا الذين أصبح اسمهم يطلق على فلسطين منذ ذلك العهد ، والشردان الذين أصبحت جزيرة « سردينيا » تسمى باسمهم ، و « ثكر » الذين من المحتمل أن يكونوا أعطوا إسمهم لجزيرة صقلية وغيرهم . وإذا كانت هذه الشعوب قد فشلت فى مصر فإنها نجحت فى أمكنة أخرى مثل بعض بلاد الساحل فى آسيا الصغرى وعلى ساحل فينيقيا حيث أمكنهم التغلب على طروادة وعلى إسرائيل .

ولا شك أن هذه الحروب المتتالية كانت عبئاً على خزينة مصر ، ولكن البلاد استطاعت أن تصمد للتجربة وأمكنها بعد ذلك أن تعوض جزءا مما فقدت وتملأ خزائنها من ممتلكاتها الأسيوية ومما وقع فى أيديها من مغانم أثناء الحروب ، ومما أخذ يتدفق على هذه الخزائن من مناجم الذهب والمعادن الأخرى التى أعيد العمل فيها ، ولكن هذا كله لم يسد ما فتحه إسراف الملك ولهوه من ثغرات فأخذت الحالة الإقتصادية تتدهور فى النصف الثانى من حكمه .

نظرة عامة :

بنى رمسيس الثالث معبده فى مدينة هابو وبنى أمامه مدخلا على شكل قلعة أسيوية ، وبنى إلى جواره قصراً لسكناه . وأغدق عليه وعلى جميع معابد مصر الهبات من أوقاف وأراض ومال . ونحن إذ نقرأ تفاصيل هذه الهبات فى بردية هاريس ، ونعرف مدى ثراء كهنة المعابد وسلطانهم وما كان لديهم من أرقاء يعملون فى الأراضى الخاصة بالمعابد ، فإننا لا نملك منع أنفسنا من التفكير فى مدى أثر هذا الثراء على نظام الدولة من ناحية ، وعلى الدخل القومى من ناحية أخرى . فقد كان للإله أمون – رع وحده ثروة طائلة ، إذ كان مجموع أراضيه نحو ١٠ ٪ من أراضى البلاد المزروعة (جميع الآلهة الأخرى كانوا يملكون ٥ ٪ أخرى) وكان لآمون ٨٦,٥٠٠ من الأرقاء الذين يعملون فى أراضيه ، وكان له خمسة قطعان من الماشية

لا يقل مجموعها عن ٤٢١,٠٠٠ رأس كما كانت له حدائق في طول البلاد وعرضها ، وكثير منها في الواحات ، كما كانت له مناجم الذهب في النوبة . وكانت له تسع مدن في سورية تأتيه محاصيل أراضيها وضرائبها بانتظام ، وغير ذلك من الموارد ، وأهمها ما يقدمه أفراد الشعب وما يقدمه الملوك ، فلا عجب إذا أصبح كهنة آمون هم القوة المسيطرة على شئون البلاد .

ولم يكن رمسيس الثالث وحده هو المسئول عن إغداق هذه الثروة على الكهنة ولكنها كانت ، في الحقيقة ، ثروة تكدست على المعابد منذ أجيال ولم يكن في وسع أحد من الفراعنة أن ينتقص شيئاً منها بل كان كل منهم يبذل جهده لإرضاء الكهنة فيزيد عليها حتى يضمن مؤازرتهم وعدم تآمرهم عليه .

لم تكن هذه المسألة هي الحالة الوحيدة الشاذة في البلاد ، بل كانت هناك حالات أخرى لا تقل عنها أثراً ، ومنها إبتداء تولي الأجانب وظائف الدولة العامة وبخاصة في البلاط . ونعرف على سبيل المثال أنه كان حول رمسيس الثالث في قصره أمناء أجانب عديدون لهم السلطان الأكبر عليه ، كما ملأوا قصره في آخر أيامه بالفتيات الجميلات سواء من أسرى شعوب البحر أو من الأسيويات أو المصريات . وكان يقضي أوقاته بينهن كما نرى ذلك في الصرح الأمامي المشيد أمام معبد مدينة هابو ، إذ نرى على جدرانه في الطابق العلوي رسوما تمثل رمسيس الثالث وهو يداعب فتياته أو يلاعبهن لعبة الداما وغير ذلك من ألعاب التسلية .

وهكذا انصرف رمسيس الثالث عن تقوية ملكه واستمع إلى نصيحة من أحاطوا به من الأجانب والمتملقين حتى صار من بين الأحد عشر أمينا في القصر الملكي خمسة غير مصريين ، أحب الاستماع إلى نصيحتهم له في الإكثار من الإستعانة بالجنود المرتزقة الأجانب ليكونوا عونا له ضد المصريين الذين أخذوا يئنون من الحالة ، وبخاصة من الأزمة الاقتصادية التي سببت ارتفاعاً كبيراً في أسعار الجنوب بصورة لم يكن للشعب عهد بها من قبل . ساءت الحالة الاقتصادية حتى إضطر عمال الجبانة في طيبة إلى الاضراب عن العمل؛ لأن مقرراتهم لم تصرف لهم لمدة شهرين من العام التاسع والعشرين من حكم الملك . توقف العمال عن عملهم وحاولا أن يلفتوا نظر رؤسائهم إلى حالتهم دون جدوى . وفي اليوم التالي تجمعوا وهاجموا مخازن معبد الرمسيوم وهم يصيحون بأنهم جائعون ، وعند ذلك اضطر كبار الموظفين إلى محاولة تهدئتهم . وتكرر الإضراب بعد ذلك مرات حتى اضطر الوزير أن يتدخل لإعطائهم ما يستحقونه . وتعطينا هذه الوثيقة فكرة عما آلت إليه حالة البلاد من

فوضى كما تعطينا أيضاً فكرة عن مدى رحمة كهنة المعابد بالفقراء من الناس الذين كانوا على وشك الموت جوعا بينما تكدست الحبوب وأكوام الذهب فى مخازن آمون . كان الكهنة أول من يسمع صياحهم دون أن تتحرك فيهم ذرة من عطف ، بل إننا نعرف من هذه الوثيقة نفسها أن رجال الدين كانوا سوط عذاب على الفقراء . ففى أحد أيام الإضطراب تجمع المتظاهرون خلف معبد مرنپتاح وأخذوا يصيحون « نحن جائعون » ، وتصادف أن مر عمدة المدينة فوعدهم بالمساعدة وأرسل إليهم خمسين غرارة من الحبوب من مخازن معبد الرمسيوم ليسعفوا بها أنفسهم حتى يأمر الملك بصرف استحقاقاتهم لهم ، ولكن بعد أيام قليلة وصلت شكوى ضد هذا العمدة من كبير كهنة آمون بأنه قد أخذ دون وجه حق من ممتلكات معبد رمسيس الثانى ليطعم المضربين ، ووصف كبير الكهنة عمله « أن ما فعله جريمة كبرى» (١) وهكذا كانت تسير الأمور ، فالكهنة يكدسون الأموال ويظلمون الشعب ، والموظفون يستغلون كل موارد الدولة لمصلحتهم ، والملك سادر فى ملذاته ، والأجانب يتحكمون فى شأن الدولة ، ولهذا لا ندهش إذا قام أحد وزراء رمسيس الثالث بثورة ضده فى الدلتا كان مركزها فى « أتريب » (بنها) ولكن الثورة لم تنجح . وبالرغم من أنها كانت إنذاراً له فإنه لم يتعظ وبدأ أهله أنفسهم يحسون أن حياته أصبحت خطراً على البلاد أو أنه أصبح لا قيمة له فدبروا مقتله .

وقد عرفنا تفاصيل هذه المؤامرة من بردية هاريس . لقد دبرتها إحدى زوجاته لأنها أحسب أن الملك لا يريد أن يجعل من إبنها « پنتاؤور » وليا للعهد ، ولهذا صممت على قتل الملك العجوز وإعلان إبنها ملكا ، وكان يعاونها فى تدبيرها إثنان من كبار موظفى القصر كانت مهمتهما جمع الأنصار فى البلاد وخارج القصر . ولسنا نعرف مدى نجاح المؤامرة فى الخارج ولكنا نعرف أنه بعد قتل الملك قبض على المتآمرين وكان مع الملكة (تتى ؟) وپنتاؤور الموظفين الكبيرين فى البلاد عشرة آخرون من الموظفين وكذلك ست نساء كن واسطة بين الملكة وشركائها فى الخارج .

ومن أوراق التحقيق فى هذه القضية نعرف أنه كان من بين الأربعة عشر موظفا الذين تكونت منهم المحكمة أربعة من الأجانب . وظهر أثناء نظر القضية أن

(١) W. SPIEGELBERG. Arbeiler and Arbeiterbewegung unter den Ramessiden (Strassburg 1895).
وقد نشر جاردنر فى كتابه Ramesside Administrative Documents (London 1984)
وفى عام ١٩٥١ ظهرت ترجمة حديثة لها وهى ترجمة آدجرتون
W.F. EDGERTON. Jnes. VOL. X NO. 3 (JULY 1958). P. 137-145.

ثلاثة من القضاة قضوا سهرة تناولوا فيها الخمر ومعهم ضابطان من الشرطة فى منزل أحد المتهمين حيث اجتمع هناك نساء بعض المتآمرين ، وكانت نتيجة هذه السهرة أن إنتقل القضاة الثلاثة من كراسى القضاء إلى قفص الإتهام . أما الأحكام التى صدرت عليهم فإن الأمير پنتاؤور وثلاثة من المتآمرين حكم عليهم بالإعدام ، وكانوا يتركون وحدهم فى غرفة المحاكمة لينهوا حياتهم بأيديهم ، ويرىء أحد القضاء أما القاضيان الآخران وضابطا الشرطة فحكم عليهم بجدع الأنف وصلم الأذنين فانتحر أحد القضاة عندما سمع الحكم عليه ، أما المتآمرون الآخرون ومنهم الملكة « تتى ؟ » فلا نعرف العقاب الذى وقع عليهم .

وهكذا انتهت حياة رمسيس الثالث بكارثة ، ولكن إنصافا للرجل يجب ألا ننسى أنه كان فى صدر أيامه آخر الملوك العظام الذين حاربوا ولم يفرطوا فى الإمبراطورية ، وكان أيضاً آخر البنائين الذين تركوا آثاراً خالدة على الدهر ، فإن معبد مدينة هابو من خير ما شيده ملوك الدولة الحديثة .

لقد أنقذ رمسيس الثالث البلاد من فوضى كانت غارقة فيها ، وكانت الخمسة وعشرون عاما الأولى من حكمه أيام مجد نسبى فى حياة مصر . ولن ينسى له التاريخ أنه أنقذ بلاد الشرق القديم ، وليس مصر فقط ، من خطر داهم كان كفيلا بالقضاء على جميع المدنيات ، مثل ما حدث فى خيتا وفى الهند ولكنه انتصر ودون إنتصاره ، فكانت مناظر حروبه ومناظر المعركة البحرية وهى أول معركة بحرية كبرى مسجلة فى العالم وأول معركة بين مصر وأوروبا (١١٨٤ ق.م.)

ومات رمسيس الثالث عام ١١٦٠ ق.م. ونفسه مملوءة بالحسرة على جحود الناس وتلاه على عرش مصر ابنه رمسيس الرابع .

خلفاء رمسيس الثالث :

كانت وفاة رمسيس الثالث فى عام ١١٦٠ وكانت نهاية الأسرة العشرين فى عام ١٠٨٠ أى أن خلفاء رمسيس الثالث وهم من رمسيس الرابع حتى رمسيس الحادى عشر حكموا ثمانين عاما . لقد رأينا مبادىء الانهيار فى الجزء الأخير من حكم رمسيس الثالث فلا عجب بعد ذلك أن تسير الأمور من سيء إلى أسوء ، وأن يظل سلطان الملوك يتضاءل شيئا فشيئا حتى أصبحوا ألعوبة فى يد الكهنة . وأخيراً حدث ما لابد من حدوثه وهو إستيلاء الكهنة على العرش وتأسيسهم للأسرة الحادية والعشرين ، وإعلان كبير كهنة أمون ، وكان إسمه « حريحور » ملكا على مصر .

كان هؤلاء الملوك الرعامسة متشابهين فى ضعفهم وفى خضوعهم لسلطان

الكهنة وفى عجزهم عن التغلب على الأزمة الإقتصادية التى بدأت تطحن البلاد ، ومتشابهين أيضاً فى عدم إستطاعتهم إيقاف الفوضى والإنحلال فى جميع مرافق الدولة وظلم الموظفين للطبقات الفقيرة .

كان هؤلاء الملوك يعيشون فى قصورهم فى شرقى الدلتا تاركين إدارة شمال البلاد للوزير فى منف ، وكان هناك وزير آخر فى طيبة ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد كهنة أمون . أما عن نفوذ مصر خارج حدودها فإننا نستطيع أن نقول إنه أخذ يقل تدريجيا فى آسيا حتى اقتصر على فلسطين ، ثم أخذ يتضاءل أيضا حتى زالت هى الأخرى كبلد تابع لمصر ، ولكن ظل نفوذ مصر فى بلاد النوبة كما كان عليه من قبل ولم يتأثر بما كان حادثا فى البلاد . ورغم إقامة الملوك فى الدلتا فإنهم ظلوا على عادتهم فى إتباع التقليد القديم وهو الدفن فى طيبة ، وظلت مدينة العمال فى دير المدينة على عمرانها ، وقد عثر فيها على كثير من الوثائق سواء من الملفات البردية أو الأوستراكا وقد أمدتنا بالقبس الذى نعرف عن هذا العصر المظلم (١) .

ولم يكن الرعامسة الثمانية من رجال الحرب أو رجال الإصلاح ولهذا قلما نسمع عن أحد منهم خبرا اللهم إلا إشارات عابرة مثلما تحدثت به بردية هاريس أو بردية مالت عن أعمال رمسيس الرابع وما قام به من إصلاحات وإنشاءات فى المعابد، أو تصميم مقبرته فى إحدى برديات متحف تورين أو العمل فى محاجر الصحراء . ولكن أهم ما جاء من عهده هى البرديات التى تفيض بأنباء الفوضى والإنحلال فى البلاد ، والسرقات والرشاوى فى إيرادات الدولة على السواء . وتلاه رمسيس الخامس فلم يكن خيراً من سابقه وأهم ما وصل إلينا من عصره بردية ولبور الشهيرة التى نعتبرها مصدراً مهماً لدراسة الضرائب وتقسيم الأراضى فى ذلك العهد بوجه خاص ، وفى عصر الدولة الحديثة بوجه عام (٢) .

(١) إن البرديات والأوستراكا التى عثر عليها فى دير المدينة لهى على أكبر جانب من الأهمية وهى أهم مصادرنا عن دراسة الحياة الإجتماعية فى مصر فى ذلك العهد . وقد سبقت الإشارة إلى بردية الإضراب ، وهناك بردية أخرى موهى التقارير عن حالة العمل فى الجبانة :
G. BOTTI AND T.E. PEET, IL Giornale Della Necropoli di Tebe (Turin, 1928).
وكذلك بردية سرقة المقابر T.E. PEET, The great Tomb-robberies of the twentieth Dynasty, Oxford, 1930.
وهناك عدة مقالات مثل مقال شرنى J. CERNY, Fluctuations in Grain Prices during the Tewntieth Egyptian Dynasty, in Archiv Orientalni, VI (1933) p. 173 ff.

(٢) عثر على هذه البردية فى الأقصر حوالى عام ١٩٢٩ فى جهة الخوخة عند تنظيف قامت به مصلحة الآثار لبعض المقابر وقد بيعت هذه البردية بعد رفض المتحف المصرى لشرائها إلى متحف بروكلين بأمريكا – وقد نشرها
ALAN GARDINER, The Wilbour Papyrus (3 Vols.) Oxford, 1948.

وتلاه رمسيس السادس وأهم آثاره قبره فى أبواب الملوك ومقبرة « بن نوت » فى عنيبة ببلاد النوبة ، وقد حكم هذا الملك أربع سنوات فقط ولكنه ترك اسمه فى كثير من بلاد مصر وشمالى السودان ، وتلاه كل من رمسيس السابع ثم الثامن ثم التاسع وكانت أيامهم جميعاً أياماً سوداء فى تاريخ مصر وإن كان رمسيس التاسع قد إشتهر فى التاريخ فإن ذلك بسبب برديات سرقات مقابر الملوك فى عهده ، وكان ذلك نهاية ما يمكن أن يصل إليه إضطراب الأمور . ولكن قبل أن نتحدث عن قضية سرقة المقابر يحسن بنا أن نلقى نظرة عامة على الحياة الاقتصادية والروح المعنوية فى البلاد لنعرف الأسباب التى أدت إلى هذه الحالة .

لقد رأينا بدء الأزمة الإقتصادية فى السنين الأخيرة من حكم رمسيس الثالث وكيف كان إرتفاع أثمان الحاجيات ، وبخاصة القمح ، سببا فى إضراب العمال إذ أن السعر العادى لغرارة القمح كان يعادل « دبن » من النحاس ولكن الأسعار إرتفعت فى ذلك العهد قليلا فكان هذا دليلا على إضطراب الحالة الإقتصادية فى بلد زراعى. وظل إرتفاع السعر بتلك النسبة القليلة حتى منتصف أيام رمسيس السادس ولكن منذ هذا العهد أخذت الأسعار ترتفع إرتفاعاً جنونياً فأصبح ثمن غرارة القمح ٢ دبن بعد أن كان ثمنها ١,٥ دبن ، ثم إرتفعت مع مرور الوقت إلى ٤ دبن وكذلك إرتفع ثمن الشعير فأصبح ثمن الغرارة الواحدة منه ٨ دبن فى عهد رمسيس السابع ولكن القمح عاد مرة ثانية إلى ٥ دبن فى عهد رمسيس التاسع . أى أصبحت البلاد فى حالة إفلاس وأضحى صغار موظفى الحكومة وعمالها فى حالة ضنك شديد لا يجدون ما يسد رمقهم ، فلم يبق أمامهم إلا السرقة والرشوة اللتين أصبحتا القاعدة فى كل شيء ، خصوصا وأن المحاكم أصبحت لا قيمة لها إذا كانت الكلمة العليا فى كل شكوى هى ما يحكم به الإله . فإذا إتهم أحد الناس شخصا آخر بسرقة فإن المتشاكيين يذهبان إلى المعبد ويضعان ورقة أمام تمثال الإله ويطلب الكاهن من ذلك التمثال أن يحكم بينهما . ويبلغ الكاهن المتقاضين بعد ذلك بما حكم به الإله وهو حكم نهائى لا رجعة فيه ، ولا يعتمد إلا على شيء واحد وهو الحصول على إقناع كهنة المعبد قبل التقدم بالشكوى أو عند عرضها . وكانت وسيلة ذلك واحدة لا تتغير فالإله يحكم لمن يستطيع أن يثبت أنه شخص تقى وذلك بتقديم ما يستطيع تقديمه للكهنة . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، أى أن القضايا التى كان يفصل فيها الكاهن هى الشكايات أو المنازعات بين الأهالى ، بل وصل الأمر بهم أن تعيين الموظفين فى وظائفهم ومحاكمة المذنبين منهم ترجع أخيراً إلى وحى آلهة المعابد وحكمهم ، وبعبارة أخرى لم يكن هناك ضمان للعدل فى وقت مضطرب كريه ، وكان فى استطاعة المرتشين السارقين أن

يستمروا فى ذلك طالما كانوا مطمئنين إلى حسن صلتهم بكهنة المعبد أو المسيطرين عليه ، وكانوا يؤكدون صداقتهم من آن لآخر بما يقدمونه لهم من هدايا وغيرهم .

ولذلك لا يدهشنا أن نرى أثر هذا الانحلال يتسرب إلى جميع مرافق الدولة ، وكان من الصعب على العمال الجائعين الناقمين أن يناموا على الطوى بينما كان على مقربة منهم كنوز مكدسة من الذهب والفضة وغيرها من النفائس ، فى مقابر الأفراد ومقابر الملوك والملكات .

بدأت سرقـــات المقابر منذ عهد غير قصير ولكنها زادت جداً فى عهد الرعامسة ، وكانت فى البداية فى مقابر الأفراد ثم تعدتها إلى مقابر الملوك . ولم يكن ما حدث فى البر الغربى سراً بل كان يحدث علناً؛ لأن السارقين كانوا مطمئنين إلى أن المسئولين سيغمضون أعينهم طالما أنهم يأخذون ثمن إغضائهم وسكوتهم ، إلى أن لعب الحسد دوره بين حاكم شرقى طيبة وبين حاكم غربى طيبة الذى كان مسئولا عن الأمن وصيانة المعابد والمقابر . كان كل من الرجلين يريد الحظوة لدى الوزير ولهذا لم يتردد « باسر » حاكم الشرق فى التقدم بتقرير ينبئه بالحالة السيئة التى وصلت إليها الجبانة التى يشرف عليها زميله « باورعا » . وكانت هناك تحقيقات أولية ، وعوينت المقابر فوجدت اللجنة أن ما قاله باسر غير حقيقى ، لأن تسع مقابر من مقابر الملكات الأربع سليمة وإعترف التقرير بأن محتويات مقابر الأشخاص كانت مبعثرة وملقاة على وجه الأرض . وتركزت نتيجة التحقيق فى أن باسر شخص كاذب ، واعتبر « باورعا » أن هذه النتيجة تبرئة له ولرجاله فاحتفلوا بذلك إحتفالاً كبيراً وعبروا النيل إلى البر الشرقى وهتفوا هتافات عدائية أمام بيت باسر وحدثت مشادة كلامية قدم على أثرها « باورعا » تقريراً للوزير ضد « باسر » وفتح التحقيق من جديد فاكتشف المحققون هذه المرة أشياء خطيرة وإعترف بعض المتهمين تحت تأثير تعذيبهم بالحقيقة ، كما ذكر الشهود ما سمعوه وما رأوه وقد دون كل ذلك فى تلك البردية . ومن هذه البردية المعروفة باسم بردية « أبوت » نقف على كثير من تدهور الحياة الإجتماعية فى ذلك العهد ونظام التحقيق والقضاء ، ولكن أهميتها الكبرى فيما يمكن أن نقف عليه من معلومات عن المقابر التى سرقها اللصوص وموقعها فى الجبانة بالنسبة إلى بعضها البعض وإلى المعابد الكبيرة ، وهى معلومات ساعدت وستساعد رجال الآثار فى أبحاثهم وحفائرهم فى هذه الجبانة المهمة .

وأهم شخصية فى تحقيقات سرقة المقابر كانت شخصية كبيرة كهنة آمون أمنحوتب الذى كان له النفوذ الأكبر فى طيبة ، وهو كبير الكهنة الذى نرى إسمه

ظاهراً واضحاً فى معبد الكرنك والذى بدأ بتقليد جديد إذ نرى كبير الكهنة مرسوما على قدم المساواة مع الملك ، ولم يكن فى ذلك ما ينافى الحق فى شيء بل أن الملك كان بكل تأكيد أقل نفوذاً وجاهاً ومالاً من كبير كهنة آمون ، ولكن التقاليد كانت حتى ذلك الحين تجعل الملك مقدماً على كل من يحيط به ، وإليه ينسب كل فضل وإذا رسم على معبد أو على حائط قبر فهو مارد يتسامى فى طوله ، وكل من حوله يرسمون فى حجم صغير .

ولكن « أمنحوتب » الذى كان يجمع إلى عمله ككبير للكهنة فى جميع المعابد المصرية أعمالاً هامة أخرى مثل إشرافه على خزانة فرعون ووظيفة حامل خاتم الملك لم يكن فى حاجة إلى هذا التملق ، فحصل لنفسه من رمسيس التاسع على حق جباية أموال آمون وضرائبه بوساطة كتبة المعابد وليس بوساطة موظفى الدولة ، وكانت هذه الإيرادات تدخل رأساً إلى خزانة المعابد ولا تمر بخزانة الدولة ، وهكذا وضع « أمنحوتب » الأساس للسياسة التى انتهت بإستيلاء الكهنة على العرش (١) .

وخلف رمسيس التاسع ، بعد حكم طال ثمانية عشر عاما رمسيس آخر وهو رمسيس العاشر ، ثم تلاه رمسيس الحادى عشر الذى طالت مدة حكمه حتى وصلت إلى الثلاثين عاما .

ووقعت فى تلك السنين بعض أحداث هامة وظهرت فى البلاد فكرة لتطهير الدولة من أدرانها وسميت هذه الفترة بعصر النهضة ، حرفيا : « تجديد الولادة » وقد بدأ ذلك العصر فى السنة التاسعة عشرة من حكم هذا الملك (٢) ، وربما كان الموحى بهذه الفكرة هم كهنة آمون الذين أرادوا لمصر أن تبدأ عهداً جديداً أساسه الحكم الدينى وكان التاريخان يكتبان جنبا إلى جنب . فنرى أن العام التاسع عشر من حكم رمسيس الحادى عشر يوافق العام الأول ، وفى وثيقة أخرى (نقش على الجدار الخارجى الشمالى من قاعة العيد فى معبد أمنحوتب الثانى بالكرنك بين البيلوتين التاسع والعاشر) أن السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك نفسه توافق العام السابع من

---

(١) نعرف من الأقوال التى جاءت على ألسنة الشهود فى قضية سرقة المقابر أنهم كانوا يؤرخون بعض الحوادث فى سنة « حرب أمنحوتب كبير الكهنة » ، مما يحملنا على الإعتقاد بأنه كانت هناك ثورة قام منحوتب بالقضاء عليها : وكان القائمون بهذه الثورة من الأجانب وربما كانوا من الجنود المرتزقة فى الجيش .

(٢) كتب شرنى عن هذا الموضوع بحثا فى CERNY. JEA. Vol. XV. p. 194 ff. كما ظهر بحث آخر فى مجلة Journal of Near Eastern Studies. Vol. VII. July 1948 p. 157 ff.

عصر النهضة ولكن هذا العصر لم يدم أكثر من تسع سنوات لأننا نرى فى ختام ذلك الوقت أن كبير الكهنة « حريحور » أصبح ملكاً على مصر .

كان حريحور من رجال الجيش ، ومن المرجح أنه كان من نسل الكهنة ، وفى الوقت ذاته ممن كانوا يتصلون بنسبهم إلى البيت المالك القديم ، وكان فى وقت من الأوقات حاكما للسودان ، وأخيراً وصل إلى الملك . وليس من المستغرب أن يكون الكهنة قد وصلوا إلى الملك ولكن الأمر المستغرب أن يظل الكهنة فترة طويلة منذ عهد رمسيس التاسع حتى نهاية عصر رمسيس الحادى عشر دون إتخاذ هذه الخطوة .

ظلت الأسرة العشرون نحو خمس عشرة ومائة سنة على العرش فقدت فيها مصر أملاكها فى آسيا ، ولكن نفوذها فى بلاد النوبة ظل كما كان من قبل ، لأن مناجم الذهب كانت ملكاً لأمون ، وكانت خيراتها تأتى إلى معابده . وكان كبار كهنته يحسنون إختيار الحكام ويمدونهم بكل ما يكفل لهم السلطة فى أقاليمهم وإشتهر من بينهم فى هذه الفترة العصيبة أكثر من فرد واحد مثل پانحسى الذى إستدعاه الملك مرة لإخماد فتنة فى الشمال ، ومثل حريحور الذى أصبح مؤسس أسرة الكهنة فيما بعد (١) .

وفى معبد خونسو بالكرنك نستطيع أن نرى بوضوح كيف تطور الأمر . فمنذ تعيين حريحور كبيرا للكهنة جمع إلى سلطته كمدبر الخزانة وقائد الجيش جميع عناصر القوة فى البلاد . فنراه فى مبدأ الأمر يذكر إسم الملك بإحترام على النقوش ثم نراه يضع إسمه إلى جانب إسم مولاه وبعد ذلك نراه يقدم إسمه على إسم الملك نفسه ، وينتهى الأمر بأن نراه وحده يحمل تاج الوجهين القبلى والبحرى فوق جبينه ويتسمى بألقاب الفراعنة . وهكذا إنتهت الدولة الحديثة بإنتهاء الأسرة العشرين ودخلت مصر بحق فى فترة اضمحلال وهى الفترة التى بدأت فى الواقع منذ أواخر أيام رمسيس الثالث .

(١) إقرا عن هذه الفترة H. KEES, Herihor und die Aufrichtung des Gottesstaates (Göttingen, 1936).

*** الفصل الثامن ***

العصر المتأخر

أيام الاضمحلال (١٠٨٠ – ١٥ ق. م.)

xxxxx

الأسرات الواحدة والعشرون حتى نهاية الرابعة والعشرين

الأسرة الحادية والعشرون (١٠٨٠ – ٩٥٠)

حريحور وعائلته :

أعلن حريحور نفسه ملكا وحكم فى طيبة ، ولكنه كان إذ ذاك شيخا طاعنا فى السن ولم يعمر طويلا ، ولسنا نعرف عن أيام حكمه إلا القليل مما خلفه فى طيبة وبخاصة بدؤه بالعناية بالمقابر الملكية التى اعتدى عليها اللصوص ، فقد أمر بإعادة دفن بعض الملوك الذين جردهم اللصوص من أكفانهم . ولكن فى الوقت الذى كان يحكم فيه حريحور فى طيبة كان هناك ملك آخر فى الشمال يحكم فى مدينة « تانيس – صان الحجر » فى شرقى الدلتا وكان لهذا الأخير ، وإسمه « نسو با نب دد ، وهو المعروف بإسم « سمندس » ، الكلمة العليا على الدلتا وعلى مصر الوسطى حتى أسيوط على الأرجح .

ولسنا نعرف حتى الآن شيئا عن أصل سمندس أو صلته بالبيت المالك القديم اللهم إلا أن زوجته « تانت آمون » كانت من العائلة المالكة ، وأصبح لزوجها حق تولى العرش بعد زواجه منها كالمعتاد وليس هناك دليل على حدوث إحتكاك بين البيتين المالكين فى الشمال والجنوب بل نكاد نجزم بأن سمندس ، وهو الذى كان أقوى وأكثر نفوذا ، لم ينظر إلى عمل حريحور كأنه عمل عدائى .

ولم تمض إلا سنوات قلائل حتى مات حريحور وخلفه فى طيبة إبنه « بعنخى » الذى كان فى وقت من الأوقات حاكما للسودان الشمالى وكان قائدا للجيش، فلم يدع الملك كأبيه وإنما إحتفظ لنفسه فقط بمنصب كبير كهنة آمون وإعترف بأحقية البيت المالك فى تانيس فى الجلوس على العرش .

ومضت الأيام وازدادت الصلة بين ملوك تانيس وكهنة آمون ، وكان سمندس

قد مات وخلفه على العرش الملك بسوسينس الأول ، باسبا أن خع نوت ، فوثق البيتان الصلة بينهما بأن تزوج بينزم أكبر أولاد بعنخى من (ماعت كارع) بنت بسوسينس . فما جاء اليوم الذى مات فيه بسوسينس الأول أعلن نفسه ملكا كما فعل حريحور من قبل ، وعند ذلك ترك لإبنه ، ماساهرتا ، وظيفة كبير الكهنة . ولكن هذا الإبن لم يلبث إلا فترة قصيرة مات بعدها فتولى أخوه ، منخبر رع ، مكانه ، وكان ذلك فى عهد الملك ، أمن إم أوبت ، الذى كان يحكم فى تانيس وكان ذلك بين العام السادس عشر والعام الخامس والعشرين من حكم هذا الملك .

وكان كبير الكهنة ، منخبر رع ذا شخصية قوية عرف بدهائه كيف يخضع ثورة قامت بها طيبة ونفى بسببها كثيرون من أهلها إلى الواحات الخارجة ، فأراد مصالحة الأهالى وقبل أن يعودوا إلى وطنهم بناء عن وحى إلهى طبعاً – كما أصدر أمره بأن رغبة الإله آمون هى ألا ينفى أحد مرة أخرى . وجاء الوقت الذى أعلن فيه ، منخبر رع ، نفسه ملكا ويرى بعض المؤرخين أنه تسمى بإسم بسوسينس الثانى ، وهكذا استمر الحال بين تانيس وطيبة إلى أن انتهت أيام الأسرة الحادية والعشرين ، فقد كان يقيم الملك فى شرقى الدلتا ويحكم كبير الكهنة فى طيبة ، ولا شك أن مثل هذه الحالة المرتبكة لم تساعد على استقرار الأمور أو تنقذ مصر مما كانت تعانيه . والوثائق التى تحت أيدينا عن هذا العصر قليلة ، ويحتار المؤرخ فى التوفيق بين ما يقرؤه فيها . وبدأت حفائر تانيس منذ عام ١٩٣٩ تلقى بشىء من الضوء على هذا العصر ، وساعدتنا على حل بعض النقط ولكن مازالت هناك نقط غيرها تنتظر ما عسى أن يظهر فى تلك المنطقة أو غيرها من معلومات .

وفى تلك الفترة المضطربة نجد أمامنا ثلاثة موضوعات مهمة فى التاريخ لابد من الإشارة إليها ولو بشىء من الإيجاز .

رحلة الكاهن ، ون – أمون ، إلى لبنان : (١)

ليس هناك ما هو أدل على إنهيار نفوذ مصر فى آسيا مما حدث لهذا الكاهن فى رحلته إلى لبنان ليحصل على شىء من خشب الأرز اللازم لتجديد سفينة الإله آمون فى طيبة . فقد إنتهى الوقت الذى كان يسجد فيه أمراء غربى آسيا أمام ملك مصر ويمرغون جباههم فى التراب طالبين منه أن يمنحهم نسيم الحياة ، وإنتهت أيضا تلك

(١) عثر على هذه البردية فى بلدة الحيبة فى مديرية المنيا عام ١٨٩١ وإشتراها العالم الروسى جولينشف وهى الآن فى موسكو وقد ترجمها صاحبها ثم ترجمها برستد أما الترجمة التى يعتمد عليها الجميع الآن فهى ترجمة إرمان إلها فى كتابه عن الأدب المصرى القديم .

الأيام التى كان فيها سكان تلك البلاد يبادرون لتلبية أى إشارة تأتى من مصر ، فقد كان آخر عهد فلسطين وفينيقيا بالنفوذ المصرى أيام أن كانت جيوش رمسيس الثالث تجوس خلال تلك البلاد وتحميها من إذلال ، شعوب البحر ، وحبهم للنهب وسفك الدماء . وها نحن الآن فى عصر الملك سمندس وأيام أن كان حريحور فى طيبة أى لم يكد يمر سبعون عاما على موت رمسيس الثالث حتى نرى مبعوث مصر عرضة للسخرية بل وللسرقة منه ، فإذا ما أشار إلى حق مصر وحق آمون لم يجد إلا إبتسامة الإستهزاء من حاكم جبيل الذى رفض مساعدته بعد أن نهبه اللصوص ، وأخذوا الأشياء التى كانت معه والتى جاء بها ليقدمها ثمناً للأخشاب التى كان يود الحصول عليها . سافر الكاهن ، ونأمون ، من طيبة إلى تانيس حيث حصل على معونة الملك ، نسوبانبدد – سمندس ، وأقلع فى سفينة تجارية يملكها بحار سورى . وسرق ما معه جماعة من شعب ال ، تكل ، ومن بينها الأوانى الفضية التى كان يريد أن يقدمها هدية إلى أمير جبيل . وأثناء سفره بالبحر من صور إلى جبيل وجد معه جماعة من ال ، تكل ، ورأى إحدى غرائرهم وكانت تحتوى على فضة وزنها ٣٠ دبناً . ولما كان بعض أفراد من هذا الشعب هم الذين سرقوا منه ٣١ دبناً فإنه أخذ هذه الغرارة رهينة عنده . وعندما وصل الجميع إلى جبيل تقدم بالشكوى إلى أميرها ، زكر بعل ، طالباً حمايته واسترداد حقه . ووجد هذا الأمير أن ذلك معناه حدوث متاعب له مع الآخرين الذين كانوا قراصنة فى البحر الأبيض المتوسط وكانت لهم قوة ، وفى الوقت ذاته كانوا جيرانا له . ورفض أمير جبيل أن يستقبله وطلب منه مغادرة بلده . وأقام الكاهن المسكين تسعة عشر يوماً فى الميناء وفى كل يوم يسمع ما يسيئه ويأمرونه بالرحيل والعودة إلى مصر . وكان ونأمون قد أحضر معه تمثالا للإله أمون معتقداً أن وجود هذا التمثال معه سيذلل الصعاب ولكن تقديره قد خاب فلم يعتن أحد بأمون أو يأبه له من بين الرجال الرسميين . ولكن يلوح أن ما أصاب الكاهن حرك الشعور الدينى عند بعض الناس فأصابت أحد الشبان نوبة . وأخذ يتحدث وهو فى نوبته العصبية طالباً إحسان معاملة أمون ورسوله وأن يقدموا الإحترام لتمثال أمون فاتح الطريق . وقبل ،زكر بعل، أن يقابل ونأمون وإتفق معه على أن يرسل الكاهن خطاباً إلى سمندس طالبا أن يرسل له شيئاً من المال . فلما عاد الرسول أمر أمير جبيل بإرسال ٣٠٠ من رجاله معهم ٣٠٠ ثور لقطع الأخشاب وإحضارها . فلما جاء وقت رحيله كان أعداؤه القدماء من شعب التكل واقفين له بالمرصاد لينتقموا منه عندما يغادر الميناء فأخذ ونأمون يبكى ويندب حظه . وأراد أمير جبيل أن يرفه عنه فأرسل إليه طعاما ومعه مغنية مصرية لتسرى عنه بأغانى وموسيقى بلده . وفى اليوم التالى تمكن الأمير من

إقناع أهالى الثكل بإن يتركوه وشأنه حتى يغادر الميناء . وسواء أكانت نجاته بحيلة بارعة من ذلك الأمير أو لم تكن ، فإنه إستطاع أن يهرب من أعدائه ولكن ريحاً مضادة إضطرته للإلتجاء إلى جزيرة قبرص وهناك كاد يقتله أهلها . ووجد أخيراً من إستطاع أن يتفاهم معه باللغة المصرية كما إستطاع أن يترجم بينه وبين ملكة قبرص التى عطفت عليه عندما عرفت قصته . وإلى هذا الحد من القصة يقف النص المحفوظ الذى وصل إلينا ، ولسنا نعرف بعد ذلك كيف وصل ونأمون إلى مصر ، ولكننا ندرك من القصة ما وصلت إليه هيبة مصر فى فينيقيا وفى غيرها . وهذه القصة مثل من خير الأمثلة لسهولة القصة المصرية وحسن تصويرها ، وما يتخللها من مواقف الدعابة وتعطينا صورة عن أدب هذا العصر إلى جانب الصورة التى توضحها لنا عن حالة مصر المحزنة إذ ذاك .

خبيئة الدير البحرى :

وإن كان لملوك الأسرة الحادية والعشرين حسنة من الحسنات فهذه الحسنة هى عنايتهم بإصلاح ما حدث من إعتداءات على مومياوات الملوك السابقين فى فترات الضعف والانحلال منذ عهد الملك رمسيس التاسع . وبالرغم من أن بعض الباحثين حاول أن يلصق بالكهنة تهمة تشجيع سرقة المقابر للحصول على الذهب فإنه لا يمكننا قبول هذا الإتهام بسهولة فإننا نعرف أن هؤلاء الكهنة بذلوا كل ما فى وسعهم لإعادة دفن الملوك ، وأخذوا ينقلون مومياواتهم من مكان إلى مكان حتى جمعوها أخيرا فى مكان واحد فى إحدى المقابر القديمة على مقربة من الدير البحرى . وكان الكاهن الأكبر الذى نفذ هذا المشروع العظيم هو بينزم الذى جعل من هذا المكان مستقراً لمومياوات أسلافه وما بقى من رفاتهم الأصلية ، وكذلك مومياوات أجداده الأقربين كهنة وكاهنات آمون . واقتفى من جاءوا بعده أثره فى تكديس المومياوات فى هذا المكان . واحتفظ الزمن بهذه الوديعة الغالية مذ الأسرة الواحدة والعشرين حتى عام ١٨٧١ عندما تمكن بعض لصوص الآثار من عائلة عبد الرسول فى قرية القرنة من معرفة هذا المكان وإستطاعوا أن يضللوا جميع الناس إذ ظل الأمر سرا بين ثلاثة إخوة كانوا يذهبون فى أوقات متباعدة دون أن يشعر بهم أحد لنقل جزء مما هناك يعيشون منه حتى يذهبوا مرة أخرى ، فلم يدخلوا المكان إلا ثلاث مرات فى عشر سنوات . وأخذت آثار ملكية بين تماثيل وأوراق بردية ، تظهر فى أسواق أوربا ومصر ، وأجمعت التحريات على أن مصدرها جميعا هو أحد أفراد عائلة عبد الرسول وشخص آخر هو وكيل قنصل إنجلترا فى الأقصر الذى كانت تحميه الإمتيازات الأجنبية . ولم ينجح التحقيق أو التهديد فى حمل عبد الرسول على الإعتراف أو حمل أهل القرنة أو

التجار الآخرين على تقديم أى دليل يساعد المحققين ، فإضطر المحققون للإفراج عنه مؤقتا .

وهنا حدثت المعجزة . فقد خرج هذا الشخص مزهواً وطالب بأن يكون له النصف جزاء ما لاقاه من سجن وتعذيب . وإختلف الإخوة فيما بينهم وتشاجروا فأبلغ أحدهم وهو محمد عبد الرسول مدير قنا بأنه مستعد للاعتراف ، وأرشد عن المكان .

وجاء رجال مصلحة الآثار ، ولم يكن أحد فى العالم يحلم بما كان هناك . ففى هذا المكان الموحش استقرت مومياوات الفراعنة العظام أمثال سقننرع وأحمس وتحوتمس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى وغيرهم وغيرهم ، آلاف السنين ، وهذه هى المومياوات الملكية التى توجد الآن فى المتحف المصرى ، أما البرديات وغيرها من الآثار التى تعد بالآلاف فقد كانت جزءاً من محتوياته .

وبعد ذلك بسنوات قليلة أرشد محمد عبد الرسول نفسه عن مكان بكر فى داخل حدود معبد الدير البحرى وهناك عثروا على مقبرة كبيرة مملوءة بتوابيت الكهنة والكاهنات وهى المجموعة العظيمة الموجودة فى المتحف المصرى الآن ويرجع تاريخها إلى ذلك العهد . وفى عام ١٩٣٤ كشفت أعمال مصلحة الآثار عن مكان آخر فيه توابيت إحدى عائلات الكهنة من الأسرة الواحدة والعشرين أيضاً ، ومن بينها مومياوات وتوابيت ، نسپاقاشوتى ، وعائلته .

اكتشاف مقابر صان الحجر :

وكأن الحظ أبى إلا أن يحالف هذه الفترة من تاريخ مصر ، فكما إحتفظت الأيام بسر الكهنة وبقيت خبيئة الدير البحرى إلى عصرنا الحاضر حيث أمكن إنقاذ الجزء الأكبر منها ، فإن هذه الأيام كانت كريمة أيضاً وذلك بإحتفاظها بمقابر بعض ملوك الأسرة الواحدة والعشرين حتى عام ١٩٣٩ ، عندما عثر عليها أعضاء بعثة الحفرة الفرنسية التى كانت تعمل فى صان الحجر (تانيس) مقر ملوك هذه الأسرة .

وكان من ضمن المقابر التى وجدت سليمة لم تمسسها يد مقابر الملك بسوسينس الأول ومقبرة الملكة ، موت نزمت ، زوجته كما وجد إلى جانب قبر هذا الملك قبر كبير الكهنة ورئيس الرماة فى عهده واسمه ، أوندباد ندد ، ، وعثر كذلك على مدفن الملك ، أمنمأوبت ، وغيره من الأمراء .

وبالرغم من أنه معروف لنا أن هذا العصر كان وقت إنحلال وتدهور فإن الأشياء التى عثر عليها وبخاصة الحلى الذهبية قد أثبتت أن الذوق الفنى والمهارة فى صناعة الحلى لم تتدهور فى مصر . كما أن كميات الذهب والفضة التى دفنت مع هؤلاء الملوك تثبت غناهم الكبير ، ويكفى لزائر المتحف المصرى أن يدخل قاعة تانيس ويرى ما عثر عليه فى هذه المقابر ليقف على الكثير مما يذهله ويأخذ بتفكيره .

وقبل أن نترك تاريخ هذه الأسرة ونتحدث عن نشأة الأسرة الثانية والعشرين يجدر بنا أن نضع فى ذهننا أن ترتيب ملوك هذه الأسرة من الأمور التى لم يتفق عليها علماء الآثار إتفاقا كاملا حتى الآن ، وربما كان حظنا فى معرفة ترتيب كبار كهنة آمون فى طيبة خيرا من حظنا من معرفة تتابع ملوك تانيس بالرغم من حفائر صان الحجر الأخيرة ومحاولات المسيو مونتيه لترتيبهم .

وليس أمامنا من سبيل غير الاكتفاء بما لدينا من معلومات عن هذا العصر المضطرب حتى يحين الوقت لظهور وثائق جديدة تزيد من معلوماتنا عن ترتيب هؤلاء الملوك وبخاصة فى أواخر أيام الأسرة .

الأسرة الثانية والعشرون (٩٥٠ - ٧٣٠ ق.م.)

أصل ملوك الأسرة :

منذ فجر التاريخ المصرى كان غربى الدلتا هدفا لهجرات أفراد أو جماعات من سكان ليبيا ، ونعرف منذ أيام الملك ، نعرمر ، مؤسس الأسرة الأولى أنه حاربهم وإنتصر عليهم . وإستمرت هذه المحاولات والغزوات الصغيرة طيلة التاريخ المصرى ولكنها لم تأخذ صورة عنيفة إلا فى عهد ملوك الأسرة التاسعة عشرة عندما هدفت هجرات بعض الشعوب الهندو - أوروبية إلى محاولة الاستقرار فى الدلتا بعد غزوها ، وقد وقع عبء صد غزوات هذه الشعوب على عاتق الملكين مرنبتاح ثم رمسيس الثالث كما أسلفنا .

ولكن قبل أن يتولى الملك مرنبتاح الحكم كان بعض هؤلاء الشعوب ، الذين كانوا إستقروا فى ليبيا وفى غيرها من البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، قد أخذوا طريقهم إلى الجيش المصرى كجنود مأجورين ، ثم أخذ عدد هؤلاء الجنود المأجورين فى الإزدياد وإتخذ بعض الملوك من بينهم رجال حرسه وبعض موظفى بلاطه ، ثم مهد هؤلاء الطريق لأبناء جلدتهم وخصوصا من شعب ، الماشوش ، للحضور والإقامة فى مصر فى حاميات فى طول البلاد وعرضها . وهكذا حصلت هذه الشعوب التى كانت فى ليبيا بطريق السلم على ما لم تنله بطريق الحرب ، وأصبح للكثير من زعمائهم مكان مرموق .

ويعنينا من أمر هؤلاء الزعماء أو رؤساء ، ما ، العظام (إختصار لكلمة ماشوش) شخص واحد إسمه ، شاشانق ، عرفنا إسمه من حادث إرتبط به ، فى أواخر أيام رئيس الكهنة ، بينزم ، . فقد كان شاشانق يعيش فى ذلك الوقت فى بلدة ، إهناسيا ، كزعيم لعائلة قوية هناك ، وقد مات إبن له يسمى ، نمرود ، فدفنه فى أبيدوس . وحدث إعتداء على قبره فذهب ، شاشانق ، شاكياً إلى الملك فى تانيس فإهتم بالأمر وسافر بنفسه إلى طيبة ومعه الشاكى ليستمعوا إلى حكم الإله آمون فى ذلك الأمر ، فحكم وحى الإله بإدانة الجناة وأرسل الملك ، ترضية للشاكى ، تمثالا بإسم إبنه ليوضع فى معبد أوزيريس فى أبيدوس .

وليس هناك شك فى أن هذا الحادث يوضح لنا أمرين مهمين : أولهما قوة بعض العائلات التى من أصل ليبى ومحاذرة الملك وكبير الكهنة من إغضابهم ،

والأمر الثانى أن هؤلاء الليبيين كانوا قد تمصروا تمصيرا تاما وإعتنقوا ديانة المصريين وأصبحوا كغيرهم من سكان البلاد .

ولكن يحق لنا أن نتساءل مرة أخرى عن « شاشانق » ، هذا وعن أصله والجواب يأتينا عن طريق لوحة أقامها كاهن من إهناسيا ووضعها فى السرابيوم ،(١) وفيها نسبه الذى ينتمى إلى هذه العائلة ومنها نعرف أن شاشانق والد نمرود كان من أسرة ليبية إستقرت وقتا ما فى إحدى واحات الصحراء الغربية (على الأرجح الواحات البحرية) ثم نزحت إلى أهناسيا وإستقرت فيها منذ ستة أجيال ، وهى تنحدر من شخص يسمى « بويوواوا » الذى كان يعاصر أواخر أيام الرعامسة . وكانت هذه العائلة قد بدأت تمصرها فى الواحات ولهذا لم يمض غير قليل حتى أصبح « موسن بين بويوواوا » أحد كهنة الإله « حرى شف » رب مدينة إهناسيا ، وقد بقى هذا المنصف الكهنوتى فى العائلة التى أخذت تثرى ويزداد نفوذها . ونجح شاشانق الذى تحدثنا عنه فى حصوله على مركز رئيس الحامية الحربية الليبية فى المنطقة ، وبذلك جمع فى يده السلطتين الدينية والحربية . ولم يطل عمر « نمرود » إبن « شاشانق » ليؤدى عملا هاما ولكن إبنه وكان يسمى « شاشانق » مثل جده ، وكان طموحا فمد سلطانه حتى الدلتا وأصبحت تل بسطة (برياستت - الزقازيق) مركزاً له ، وهذا هو السبب الذى حدا بمانيتون إلى القول بأن هذه الأسرة أصلها من تل بسطة . ولكن شاشانق هذا لم يقم بثورة لخلع الملك « بسوسينس » الثانى بل إنتظر حتى مات ميتة طبيعية فتقدم يعاونه غيره فإستولى على العرش فى تانيس ولم يظهر أى عداء للبيت المالك بل إنه كـرم ذكـرى سلفه وأتم مـا لم يتـم من أعمـاله ، وزوج ولـى عـهده وكان يسمى « أوسركون » من إبنة بسوسينس وكانت تسمى « ماعت - كا - رع » ليجعل مركز العائلة شرعياً من جميع الوجوه .

ومن هذا نرى أنه بالرغم من أن أجداد هذه العائلة كانوا غريبين عن البلاد إلا أنه كان قد مضى عليهم ستة أجيال بعد تمصيرهم وإعتناقهم الديانة المصرية . ولم يكـن لهؤلاء الملوك وطن آخر يعرفونه ، أو يعتمدون فى حكمهم للبلاد على قوة أخرى ، أو ينقلون خيراتها أو يفرضون جزية لبلد أخر على الشعب . ولهذا فإنه من التجنى على التاريخ أن يسمى وجود أفراد هذه الأسرة على عرش البلاد أنه إستعمار ليبى أو أن مصر فقدت إستقلالها وأصبحت محكومة بغير أبنائها . ففى كثير من بلاد

(١) MARIETTE. Le Serapeum de Memphis 1857. III pl. 3 ; Breasted. A. R. IV. & 785 - 792 .

الأرض فى الأزمان الغابرة وفى وقتنا الحاضر عائلات ملكية من أصل أجنبى ، ولكن لم يقل أحد أن إنجلترا محكومة بالألمان أو أن اليونان وبلچيكا وهولندا وغيرها مستعمرات ألمانية أو أنها فاقدة لإستقلالها؛ لأن ملوكها الحاليين من أصل ألمانى غير وطنى .

الملك شاشانق الأول : (٩٥٠ – ٩٢٩ ق.م.)

لم يجد شاشانق الأول صعوبة فى إستيلائه على الملك فى الشمال ولكن كهنة آمون فى طيبة لم يرحبوا بهذا التعبير الذى رأوا فيه ما يهدد مركزهم وثروتهم . ولم تكن هناك مندوحة من حدوث صدام بينهم وبين أى شخص يريد الحد من سلطانهم ، ولهذا لم يعترفوا لشاشانق فى بداية حكمه بملك مصر بل أنه كان فى نظرهم ، رئيس ، ما ، العظيم : شاشانق ، كما كتبوه على لوحة مؤرخة فى السنة الثانية من حكمه إذ ورد إسمه كما ذكرنا دون الألقاب الملكية . ولكن لم يمض غير قليل حتى حدث التصادم وفر كثير من هؤلاء الكهنة إلى السودان وإستقروا فى مدينة نپتا ولم يطل بهم الزمن حتى أسسوا أسرة ملكية هناك ، كما نفى بعض منهم إلى الواحات الخارجة .

ولنترك شاشانق يوطد من سلطته ويصلح ما إستطاع من الإصلاح لتوحيد البلاد وتنقية إدارتها من نفوذ كهنة آمون ، ونلقى بنظرنا نحو الشرق لنعرف ماذا كان يحدث على حدود مصر ، وصلة مصر بما كان يجرى هناك من أحداث . لقد رأينا أثر هجرات الشعوب الهندو – أوروبية على غربى آسيا ، ورأينا كيف إستطاع رمسيس الثالث أن ينقذ مصر من شرورها وينقذ ممتلكاتها ، ولكن خلفاءه الضعاف لم يستطيعوا السيطرة على هذه الممتلكات فسرعان ما تفككت إلى دويلات صغيرة وأخذت بعض الشعوب الهندو – أوروبية مثل البلست (الفلسطينيين) يستقرون على الشاطىء ، كما بدأت شعوب أخرى تستولى على الموانىء ، وفى الوقت ذاته أخذت قبيلة إسرائيل تغير على البلاد وتوطد لها ملكا جديدا فى فلسطين . ونحن نعتمد فى دراسة هذه الفترة من تاريخ غربى آسيا على رواية التوراة وعلى القليل من الآثار ومنها نعلم أن مصر لم تقطع علاقاتها نهائياً بتلك البلاد بل أن تجارتها إستمرت مع الموانىء فى أيام الأسرة الواحدة والعشرين ، كما نعرف أيضاً أنه فى أواخر أيام هذه الأسرة لم تقف مصر بعيدة عن الأحداث التى كانت تجرى على حدودها .

ظهر الملك داوود فوحد الأسباط وكون مملكة إسرائيل ، وكان لابد له من شن الحرب على من قاوم سلطانه ، وأرسل قائده اليهودى ، يوآب ، ليؤدب إدوم ففر أميرها وإسمه ، هدد ، ملتجئاً إلى مصر ، ومعه عدد من رجاله ليفر من المذبحة ، فوجد كل

ترحاب من ملك مصر الذى كان على الأرجح پسوسينس فأنزله فى قصر خاص ورتب له المرتبات وأقطعه ورجاله أرضا ليعيشوا من خيراتها ، بل زاد ملك مصر على ذلك بأن زوجه من أميرة مصرية كانت أختا لزوجته .

وبناء على رواية التوراة أيضا نعرف أن ملك مصر لم يكن على علاقة سيئة بملوك إسرائيل فإن سليمان إبن داوود خلف أباه على العرش وكانت علاقته بالبلاط المصرى على خير حالة ، وكانت تجارته آمنة بفضل مصاهرته لملك مصر الذى أعطاه إحدى بناته زوجة له . ومن قصة التوراة أيضاً نعرف أن الملك المصرى (على الأرجح پسوسينس) هاجم جنوبى فلسطين (كنعان) وإستولى على مدينة ، جزر ، وأحرقها ثم أعطاه هدية أو مهراً لإبنته عند زواجها .

وحكم سليمان وقتا طويلا على عرش إسرائيل ومكنته صلته بمصر ومصاهرته لبيتها المالك من الحصول على المهندسين والفنانين الذين إشتركوا مع الفينيقيين فى بناء هيكله الشهير فى أورشليم ، وجمع سليمان ثروة عظيمة من التجارة ، وبخاصة تجارة الخيول ، وظل طيلة حياته على صلته الودية كما كانت ، ولكن هذه الصلة لم تمنع ملوك مصر من النظر إلى مصلحتهم الخاصة إذ أننا نعرف أيضا أن صلة سليمان بملك مصر لم تمنــع الأخير ، وكان شاشانق الأول ، من أن يرحب بعدو سليمان وهو ، يربعام ، الذى كان يرى نفسه أحق بمملكة إسرائيل منه ؛ لأن يربعام كان من سبط إفرايم ، فلما مات سليمان عاد يربعام إلى فلسطين وحــدث إنــشقاق كبــير فلم يتــبع ، رحبعام ، بن سليمان إلا سبطان من الأسباط الإثــنى عــشر وتبع يربعـام عشرة منها .

وليس هناك شك فى أن نجاح يربعام كان بسبب تأييد مصر ومناصرتها له ، ولهذا لا نعجب إذا ظل يربعام موالياً لها ، ولا نعجب أيضاً إذا كان رحبعام يعتقد أن مصائبه كلها أتت من مصر . وبقى رحبعام يحكم على جزء من البلاد وكانت أورشليم هى عاصمته التى كدس فيها كل ما جمعه داوود وسليمان من ذهب وفضة وذخائر أخرى. ولسنا نعرف السبب الذى جعل شاشانق يغضب على إسرائيل فإن المصادر المصرية لم تحتفظ لنا بشىء عن هذه الحملة إلا القليل المسطر على واجهة الپيلون الثانى بالكرنك ، ولكنه لا يعدو أن يكون سجلا بأسماء بعض البلاد التى دانت لشاشانق بالطاعة فى فلسطين . ولكن التوراة تذكر لنا أنه ، فى السنة الخامسة من حكم رحبعام حنق ، شيشاق ، ملك مصر على أورشليم وإستولى على كنوز بيت الرب وكنوز الملك وأخذ كل شىء ، . وتزيد رواية التوراة (الملوك الأول ١٤ : ٢٥ – ٢٦) فتقول بإنه

أخذ كل التروس الذهب التى صنعها سليمان وكان عددها مئتى ترس من ذهب مطرق وثلاثمائة مجن من ذهب مطرق (الملوك الأول ١٠ : ١٦ - ١٨) .

كان لهذه الحملة الحربية أثر عظيم فى فلسطين ولبنان ، وتوطيد مركز مصر هناك ، وأخذ ولاة فينيقيا يتسابقون للحصول على رضاء مصر فكانوا يضعون فى معابدهم تماثيل ولوحات باسم ملك مصر . وظلت هذه الصلة الطيبة وقتا طويلا بعد شاشانق ، وعادت لمصر بعض سمعتها ومكانتها فى تلك البلاد . أما الثروة العظيمة التى حصل عليها هذا الملك من غزوته الفلسطينية فقد مكنته من إقامة مبان كثيرة أهمها جميعا قاعته العظيمة فى الكرنك والبيلون الذى بناه أمام هذه القاعة وهو أعظم بيلون فى مصر على الإطلاق ، وقد مات صاحبه دون أن ينقش جدرانه فظلت حتى الآن كما تركها .

خلفاء الملك شاشانق الأول :

لم يهمل شاشانق الأول أمر وظيفة رئيس كهنة آمون فعين فيها إبنه « يوأبت » فكان كاهنا أعظم وفى الوقت ذاته كان يحمل لقب « الرئيس العظيم لما » أو رئيس الجيوش الكبير » . وظل يوأبت فى هذا المنصب طيلة أيام حكم أبيه فلما مات شاشانق بعد أن حكم واحداً وعشرين عاما خلفه على العرش إبنه واساركون « أوسركون » ، فكان من أوائل أعماله أنه وضع إبنه وكان إسمه شاشانق فى هذا المنصف؛ لأنه خاف من أخيه لئلا يترتب على وجوده ووجود أبنائه على عرش كهنة طيبة أسرة أخرى كهنوتية تنافسه فى حكم البلاد .

كان الكاهن الأكبر شاشانق قوى الشخصية فحصل من والده على الإذن له بوضع إسمه فى خانات ملكية ، كما نراه أيضاً قد ورث منصبه بعد وفاته إلى إبنه « حور - سا - إيسى » الذى إتبع تقليد أبيه فى وضع إسمه داخل خانة ملكية ، وكان معاصراً للأيام الأخيرة من حكم جده واساركون ، كما كان أيضاً فى وظيفته فى أيام الملك « تكلوت الأول » الذى خلف واساركون على العرش . وعندما توفى الملك « تكلوت الأول » خلفه على العرش الملك « واساركون الثانى » وقد أراد هذا الأخير أن يحصل على ثروة كهنة آمون فوضع إبنه المسمى « نمرود » كبيراً لكهنة طيبة وكان قبل ذلك كبيراً لكهنة إهناسيا ، وأصبح « نمرود » بذلك سيدا لطيبة وللصعيد ، وزوج ابنته المسماة « كارو - معم » إلى أخيه « تكلوت » الذى أصبح ملكا فى الشمال وتسمى بإسم « تكلوت الثانى » . ومن ثمرة هذا الزواج ولد إبن إسمه « واساركون » أصبح فيما بعد كبيراً لكهنة طيبة فى العام الحادى عشر من حكم والده « تكلوت الثانى » .

لم يكن تولى « واساركون » لوظيفة كبير الكهنة إلا تنفيذا لسياسة خاصة . فقد كان طفلاً صغيراً عندما أسند إليه هذا المنصب ، ولم يكن من السهل على الفرع الآخر من العائلة أن يترك السلطة والمال طواعية وإختياراً فحدثت فتن وثورات فى طيبة جعلته يفر منها ويلتجىء إلى الجنوب . ولكن حزبه تمكن بعد ذلك من إعادة طيبة إلى هدوئها وعاد واساركون فى العام الخامس والعشرين من حكم تكلوت الثانى إلى عرشه الكهنوتى . وعلى أحد جدران معبد الكرنك نرى فى أحد النقوش كيف إستقبله أهل طيبة بحماس عظيم ، وربما كان فراره من طيبة فى العام الخامس عشر من حكمه ، وإستمر بعيداً عنها عشر سنوات . ولكن لم تلبث الثورات أن قامت مرة أخرى ، ووصل إلى عرش كهانة آمون شخص آخر وهو « حور - سا - إيسى » ، الذى نعرف أنه كان فى هذه الوظيفة فى العام السادس من حكم شاشانق الثالث (شاشانق الثانى أعلن أبوه تكلوت الثانى أن شريكه فى الملك ولكنه مات فى حياة أبيه ولم يحكم بمفرده) وربما كان « حور - سا - إيسى » هذا هو الذى تزعم الثورة ضد واساركون .

ولكن لم يمض غير عام واحد حتى عاد واساركون مرة أخرى وظل بعد ذلك فترة طويلة فى منصبه إلى أن مات فى العام ٣٩ من حكم شاشانق الثالث . وقد تخللت هذه الفترات ثورات متعددة كانت إحداها فى العام الأخير من حياته وقد سببت هذه الثورات إضطرابا كبيراً ليس فى أمور طيبة فقط بل فى مصر كلها ، وبعد موت واساركون خلفه فى عرش كهنة طيبة « حور - سا - إيسى الثانى » الذى كان فى هذا المنصب نفسه عند نفى واساركون .

وفى بداية تولى « حور - سا - إيسى » لمنصبه الكهنوتى فى طيبة بدأت الأمور تأخذ صورة جديدة نتيجة لعدم الإستقرار والتنازع ، إذ أن الآثار التى أقيمت فى الكرنك لم تعد تؤرخ بحكم شاشانق الثالث أو خلفائه بل بإسم ملك آخر إسمه « پا - دى - باستا » الذى يعتبره مانيتون مؤسس الأسرة الثالثة والعشرين .

الأسرة الثالثة والعشرون : (٨١٧ - ٧٣٠ ق.م.)

انقسمت مصر على نفسها من أثر هذه الثورات المتتالية ، وضعفت سلطة الملوك وقويت سلطة أمراء الأقاليم إذ أخذ كل منهم يقوى نفسه خشية من سطوة جاره ، أو طمعا فى توسيع رقعة ملكه ، ولهذا لم يجد « پا - دى - باست » كثيراً من المقاومة عندما أراد خلق عائلة مالكة جديدة حكمت فى الشمال فى تل بسطة ، بينما كان هناك ملك آخر فى « صان الحجر » . ويظهر أن « پادى باست » حكم جزءاً كبيراً من غربى الدلتا (صا الحجر) وحصل على معونة كهنة طيبة بينما ظل كهنة منف

على ولائهم للبيت المالك القديم الذين ظل لهم النفوذ على شرقى الدلتا ومصر الوسطى .

ومهما كان الحال فإننا نعرف تماما أن الأسرة الثانية والعشرين ظلت على العرش لمدة سبعة وأربعين عاما بعد ظهور ، پا - دى - باست ، ويظهر أن البيتين المالكين تقاتلا فى البداية ثم إصطلحا فيما بينهما ، وقبل كل منهما الأمر الواقع وصار فى مصر أسرتان ملكيتان تحكمان فى وقت واحد . ولكن لم يكن لواحد من هذين البيتين حكم كامل على البلاد التى يحكمها أمراؤها ، إذ أن هؤلا الأمراء كانوا يعيشون شبه مستقلين وكان لكل منهم جيشه الخاص وبلاطه .

وإذا رجعنا إلى عرش كهنة طيبة فإننا نرى أن الكاهن الأكبر ، حور -سا - إيسى ، أصبح له الحق هو الآخر فى كتابة إسمه داخل خانة ملكية . وقبل أن ينتهى حكم ، پا - دى - باست ش إنتهت أيام ، حور - سا - إيسى ، فى طيبة وخلفه فى العرش الكهنوتى شخص آخر يسمى ، تكلوت ، الذى أرخ بعض آثاره فى السنة السادسة من حكم الملك ، شاشانق الرابع ، الذى يلوح بأنه جاء بعد الملك ، پا - دى - إيسى ، . ثم جاء بعد ذلك ، واساركون الثالث ، وغيرهما . وفى الواقع إن توالى الحوادث فى هذه الفترة من تاريخ مصر غامض ومرتبك ، وبالرغم من حفائر صان الحجر فإنه ما زال ينقصنا الكثير من المعلومات لنستطيع تحديد تولى الملوك فى كل من الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين أو تحديد الصلة بينهما أو بين أحد هذين الفرعين وكهنة أمون (١) .

وقد ترك ملوك الأسرة الثالثة والعشرين بعض الآثار فى الصعيد الأعلى وبخاصة فى طيبة ، وإمتاز عصر واساركون الثالث بحادثين مهمين أولهما حدوث فيضان عال جداً فى الأقصر حطم الرصيف الأمامى وتدفقت المياه إلى معبد الأقصر وأتلفت كثيراً فيه فأمر الملك بترميم ما تهدم وبناء رصيف آخر . أم ثانى الحادثين الهامين فهو أن الملك واساركون الثالث لم يتبع ما أتبعه آباؤه من قبل بوضع أحد أبنائهم فى وظيفة كبير كهنة آمون بل زاد على ذلك بأن وضع إبنته ، شب - ان - أوبت ، فى هذه الدولة الكهنوتية بإسم ، زوجة آمون الإلهية ، ولم يمض غير قليل حتى زاد نفوذ الزوجات الإلهيات لأمون وغطى على نفوذ كبار

(١) نعرف أنه بعد إنتهاء حكم شاشانق الثالث حكم ملكان آخران وهما ، بامى ، و ، عا - خير - إن - رع - ستب - إن - رع ، ، وهو شاشانق الخامس ، كنا لا نعرف عنهما شيئا هاما أو آثاراً ذات أهمية .

الكهنة وكانت ، شب - إن - أويت ، أولى سلسلة من السيدات استمر نفوذهن لمدة قرنين من الزمان .

الأسرة الرابعة والعشرون : (٧٣٠ - ٧١٥ ق.م.)

وصلت الحالة الداخلية فى البلاد إلى الحضيض ، ولم يقتصر الأمر على وجود بيتين مالكين فقط بل إدعى آخرون الملك فلما جاء اليوم الذى مات فيه ، شاشانق الخامس ، إدعى أكثر من أمير من الأمراء أنه أحق بالملك وأعلن إستيلاءه على العرش إلى جانب الفرع القديم فى تل بسطة ، وكان أهم هؤلاء أمير مدينة ، صا الحجر ، فى غربى الدلتا الذى أسس بيتا مالكاً جديداً وهو الأسرة الرابعة والعشرون ، وكان هذا الأمير يسمى ، تف - نخت ، الذى وجد أن هناك ملكا آخر ينافسه فى إهناسيا وآخر فى الأشمونين وثالثاً فى تل بسطة ورابعاً فى تانيس .. إلخ ولكن رغم كل هذه المصائب فى الدلتا فإن طيبة بقيت على شيء من الهدوء يحكمها كهنتها .

لم يكن ، تف - نخت ، كغيره من الأمراء بل إمتاز عليهم جميعاً بالكثير من القوة والطموح ، ولهذا أراد أن يكون لقبه الذى وضعه أمام إسمه حقيقة واقعة وصمم على إعادة وحدة البلاد إلى ما كانت عليه وأن تكون مصر بأسرها مملكة واحدة كما كانت فى جميع أدوار عظمتها .

وتيسر لـ ، تف - نخت ، أن يخضع جميع أقاليم غربى الدلتا لحكمه ثم ثنى بشرقى الدلتا وترك كل من إعترف بسيادته من الأمراء فى مكانه إلى أن تم له إخضاع الدلتا بأكملها . ووجه عنايته بعد ذلك إلى مصر الوسطى ولكن الأمور كانت تسير سيراً آخر ، إذ أن هذه الحالة السيئة التى دفعت بـ ، تف - نخت ، إلى إنقاذ مصر دفعت أيضاً غيره للتقدم لإنقاذها ، ولم يكن هذا المنقذ الآخر إلا الملك ، يعنخى ، الذى أرسل من نباتا فى شمال السودان جيشاً لتخليص البلاد مما وصلت إليه من فوضى ، وهكذا قدر لجيوش يعنخى أن تصطدم بجيوش إبنه ، باك - ان - رنف ، . وإنتهى الصراع بإنتصار جيوش الجنوب وتأسيس أسرة ملكية جديدة وهى الأسرة الخامسة والعشرون وبدء عصر نهضة جديدة فى مصر ، ولكن قبل أن نسرد تفاصيل هذا الصراع يحسن بنا أن نرجع قليلا إلى الوراء لنعرف أصل مملكة نبتا والأسباب التى جعلت ملوكها يفكرون فى إرسال جيوشهم إلى الشمال .

*** الفصل التاسع ***

اليقظـــة

الأسرتان الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون

(٧٥١ – ٦٥٦ ، ٦٦٣ – ٥٢٥ ق.م.)

مملكة نبتا وحملة بعنخى :

لم يتأثر جنوبى وادى النيل كثيراً بأحداث الشمال إذ ظلت طيبة المسكن الأبدى لآمون وظل الكرنك مركز عرش كبير كهنته ، وكانت بلاد كوش بما فيها من مناجم للذهب ملكا لآمون . ومنذ أن عظم نفوذ كهنة طيبة فى أواخر أيام الدولة الحديثة حكموا الجنوب حكما يكاد يكون مباشرا ، وبخاصة طيلة عهد الأسرة الحادية والعشرين .

فلما رأى كهنتها أن دولتهم قد آذنت بزوال ، ورفضوا الإعتراف بشاشانق وحدثت ثورات طيبة ، أخذ أكثرهم طريقه نحو الجنوب حيث كان جبل برقل مركزاً هاماً لعبادة الإله « آمون رع » منذ الأسرة الثامنة عشرة ، وحيث كانت مدينة نبتا التى تقوم عند سفحه ملأى بالمعابد المهمة والقصور ، وأصبحت مدينة ذات أهمية تجارية .

ولا شك أن الكهنة عند رحيلهم من طيبة أخذوا معهم شيئا غير قليل من ثروة آمون ، ولهذا تيسر لهم أن يعيشوا هناك فى بحبوحة من العيش وأن يستمروا فى سيادتهم ، وفى تحويل أمر القضاء بين الناس إلى ألاعيب الوحى وأساليب الكهنة الملتوية . ولم يطل بهم الأمر حتى أعلن هؤلاء الكهنة أنفسهم سادة على الجنوب بعد أن صاهروا أهل البلاد وأنشأوا بيتا مالكا جديداً إدعى منشئه أنه ليس حاكما على كوش فحسب ، بل إنه حاكم على طيبة أيضاً كما كانت التقاليد من قبل .

ولم يقطع حكام كوش الجديدون صلتهم بطيبة بل ظلوا يقدسون إسم آمون ويتجهون بقلوبهم نحو الشمال . وحدثت فى أيام الأسرة الثالثة والعشرين شيء من التقارب بين طيبة وكوش من الناحية السياسية ولكن لم يستمر ذلك وقتاً طويلاً ، إذ ظل بيت نبتاً مستقلا فى إدارته ولكن حكامه لم ينزلوا عن دعواهم بأنهم أصحاب الحق فى عرش مصر .

وأول إسم نعرفه من هذه الأسرة هو إسم « ألارا » (Alara) الذى خلفه إبنه « كاشتا » على العرش . وقد بدأ كاشتا يتجه بقلبه نحو الشمال ولكن تحقيق الأمل لم يأت إلا على يدى إبنه « بعنخى » الذى خلفه على العرش [١] .

قضى « بعنخى » أكثر من عشرين عاما وهو ملك فى نبتا قانعا بصلته بكهنة طيبة ، ولكنه لم يفكر فى إرسال أى جيوش إلى الشمال إلا عندما وصلته الأخبار بأن الملك « تاف – نخت » بدأ فى زحفه نحو الصعيد . كانت هذه التقارير تصل إليه من طيبة بانتظام ، ولهذا أرسل أمره إلى طيبة بالمقاومة وإرسال جيش ليحاصر الأشمونين التى كانت قد إستسلمت لتاف – نخت ، وأعد فى الوقت ذاته جيشا أرسله إلى مصر وزوده يوم رحيله بتعليمات لإحترام المعابد وتخليص البلاد ممن يعيثون فيها فساداً . لم يرسل بمنخى هذا الجيش غازيا يريد الفتح والنصر ، وإنما أرسله ليؤيد آمون وكهنته وينقذ طيبه ممن حدثتهم أنفسهم بالإعتداء عليها . ولهذا نرى بعنخى بذكر جنوده بأنه لا حول ولا قوة إلا بآمون ويأمرهم عندما يرون أسوار طيبة أن يلقوا بأسلحتهم ويطهروا أنفسهم ويدخلوا مدينة آمون خاشعين . وليست هذه التعبيرات ألفاظ فاتح أجنبى وإنما هى ألفاظ شخص يؤمن بأن البلد بلده وأن آمون إلهه .

ووصل جيش بعنخى إلى طيبة وتقدم بعد ذلك إلى الشمال ، فإلتقى بجيش « تاف – نخت » الذى كان فى طريقه إلى الجنوب فكان النصر حليف جيش الجنوب الذى إستمر جنوده فى زحفهم نحو الشمال منحدرين مع بحر يوسف ، حيث خاضوا معركة أخرى شتتوا فيها شمل جيش الشمال على مقربة من مدينة إهناسيا .

وكان نمرود ملك مدينة الأشمونين حليف « تاف – نخت » فى هذه المعركة قد تمكن من الفرار ليحصن مدينته وينظم الدفاع عنها ، فلما رجع جيش الجنوب إلى هذه المدينة لم يستطع التغلب على حصونها فظل محاصراً لها .

وعلم بعنخى وهو فى نبتا بأنباء هذه المعارك وساءه أن يترك جيشه مطاردة العدو ويمكنه من الفرار ، ولهذا صمم على أن يذهب إلى مصر بنفسه ليقود الجيش ، فجاء إلى طيبة فى وقت الإحتفال بعيد « أبت » أكبر أعياد البلاد على رأس قوة أخرى . وبعد أن إنتهت أيام ذلك العيد أقلع بجيشه حتى وصل إلى الأشمونين التى

(١) أحدث الأبحاث عن ترتيب أفراد هذه العائلة هو مقال
Dows Dunham, and M. F. Laming Macadam, Names and Relationships of the Royal Family of Napata, in J. E. A. 53 (1949) p. 139-148.

كانت ما زالت تقاوم المحاصرين . ورأى بعنخى أنه من الصعب أن ينالها بهجوم مفاجيء فالتجأ إلى طريقة أخرى ، وشيد خارج الأسوار جسراً كبيراً بنى فوقه برجا عاليا وأخذ رماته يمطرون المدينة وابلا من سهامهم . ورأى نمرود أن المجاعة أخذت تفتك بجنوده ، وأن هذا الحصار الطويل أنهك قوى الجميع ، وأنه لا حول له ولا قوة أمام هذه الجيوش الجرارة فقرر الإستسلام وأرسل من يفاوض بعنخى لتسلم المدينة بمن فيها ، وفى الوقت ذاته أرسل زوجته لمقابلة زوجات بعنخى لتدافع عن زوجها وتبرر دفاعه عن مدينته ، فحصلت على وعد بالعفو عنه . وفتحت المدينة بعد ذلك أبوابها ودخل بعنخى إلى قصر نمرود حيث قدم إليه كل ثروته وما لديه من حلى وجواهر . وتقدم بعنخى لزيارة حظائر الخيل فهاله ما وصلت إليه من هزال ، وكان الملك السودانى محباً للخيل فثارت ثائرته والتفت إلى نمرود قائلا له إن جريمته فى تجويع الخيل آلمته أكثر من جميع آثامه الأخرى ، وإستولى عى أموال الملك المهزوم وقسمها بين خزينة أمون وخزينته الخاصة .

واستأنف بعنخى زحفه إلى الشمال دون أن يجد أى مقاومة جدية حتى وصل إلى منف وهناك جاءه أمير إهناسيا وغيره من أمراء البلاد لتقديم هداياهم وولائهم ، ولم يشذ عنهم غير إثنين فقط وهما أمير الفيوم وأمير أطفيح لأنهما لم يكونا فى طريق الفاتح . ولم يضيع بعنخى وقتا أو مجهوداً لمحاولة إخضاعهما بل تركهما حتى ينتهى من أمر منف . فلما وصل إليها أراد من فيها أن يقاوموا الزحف ولكنهم هزموا فارتدوا متحصنين وراء الأسوار القوية . وحاصرت جيوش بعنخى هذه المدينة ولكن الحصار لم يكن دقيقاً إذ تمكن ، تاف – نخت ، من الوصول إليها ومعه ثمانية آلاف رجل وأخذ ينظم الدفاع عنها ، فأوجد ذلك حماساً كبيراً بين الأهالى ، خصوصا وأنه كان يوجد فى المدينة مؤن كافية لأوقات طويلة كما أنها تقع على النيل الذى كان يجرى فى الناحية الشرقية من أسوارها . وبعد أن إطمأن ، تاف – نخت ، إلى حسن الدفاع غادر منف ليلا ليجمع جيشا من الدلتا ويهاجم به جيوش بعنخى ويخلص المدينة .

تضايق بعنخى من ذلك ، وأراد أن يضع حدا لهذا الموقف ، فجمع مجلسه الحربى فأشار البعض من قواده باستمرار الحصار وحبذ البعض الآخر هجوما شديدا على الأسوار ، ولكن الملك الكوشى أدرك بثاقب بصيرته وجود نقطة ضعيفة فى تحصينات المدينة تصلح لأن تكون مركزا للمهاجمة . كان النيل مرتفعا وكانت السفن الراسية فى النيل أمام الجانب الشرقى من المدينة تثبت نفسها بحبال تربط فى أقرب المنازل إلى السور نظرا لارتفاع مياه الفيضان فى ذلك المكان ، ولهذا قرر أن ينقض

على منف من هذه الناحية خصوصا وأن أهلها كانوا يتوقعون الهجوم من الناحية الغربية التى زادوا فى تحصينها .

وبمساعدة أسطوله إستطاع بعنخي أن يستولى على السفن الموجودة خارج الأسوار ، وإستطاع جنوده أن يتسلقوا بسهولة فدخلوا المدينة وفاجأوا المدافعين عنها ودارت مذبحة كبيرة ، ونهبوا البيوت ولكن المعابد والهياكل لم يصبها أذى ، وأخيرا إستسلمت منف ودخلها بعنخي وتوجه رأسا إلى معبد بتاح حيث استقبله كهنتها وإعترفوا به ملكا .

وما أن ذاع خبر سقوط منف حتى سارع أمراء الدلتا إلى تقديم ولائهم وخضوعهم ، ثم زار بعنخي مدينة إيون (هليوبوليس) حيث اعترف به أيضاً كهنة الإله رع ملكا على مصر . ثم تقدم بجيوشه نحو الشمال حيث جعل معسكره عند إتريب (بنها) فتلقاه ملكها بترحاب كبير ، ووضع كل أمواله تحت تصرفه . فلما رأى الأمراء والملوك الآخرون ذلك إستأذنوا ليعودوا بهداياهم وعادوا بها إليه ولم يشذ فى تقديم الولاء إلا مدينة واحدة فقط وهى مدينة « مسد » التى ربما كانت مكان قرية مسطاى الحالية على مقربة من قويسنا ، فأرسل بعنخى حملة لتأديبها وأهداها إلى أمير أتريب مكافأة له على ما أبداه من إخلاص .

ورأى « تاف نخت » أن الجميع قد تخلوا عنه فالتجأ إلى مستنقعات الدلتا ، وأدرك أنه لا فائدة من المقاومة فأرسل يستغفر بعنخي ويقدم ولاءه فقبل منه بعنخى ذلك ، فاستسلم وأقسم يمين الولاء وحذا حذوه كل من أميرى الفيوم وأطفيح ، وبهذا أصبح بعنخى سيد مصر والسودان دون منازع .

وترك بعنخى كل هؤلاء الأمراء ومنهم تاف - نخت يحكمون بلادهم باسمه ، وكان الواجب عليه أن يظل بجيوشه بعض الوقت فى مصر حتى يطمئن على سير الأمور ولكن حدث العكس إذ أنه بمجرد أن إنتهى من قبول خضوع الأمراء قفل عائدا إلى نبتا فكان هذا الخطأ من جانبه سببا فى تجديد المشاكل بعد سفره ، خصوصا وأنه لم يعين موظفين يمثلونه فى البلاد أو يترك فيها حاميات ، بل إطمأن إلى وعود هؤلاء الأمراء التى قطعوها على أنفسهم .

الملك « تاف » - نخت مرة أخرى :

لم يكن تاف - نخت صادقا فى تقديم ولائه ، فإنه لم يكد يطمئن إلى عودة بعنخى وجيوشه إلى نبتا حتى بدأ مرة أخرى يوطد سلطانه واستمر فى تلقيب نفسه

بأنه حاكم القطرين وسيد الدلتا والصعيد [١] . وقد استمر حكمه عشر سنوات على الأقل بعد حملة بعنخى على مصر ثم تلاه بعد موت ابنه ، باك أن رنف ، المعروف لليونانيين باسم ، بوخوريس ، والذى حكم ست سنوات ، واشتهر بين اليونانيين شهرة عظيمة بأنه أحد عظماء المشرعين الستة فى مصر .

ويظهر أن همة ، تاف نخت ، لم تقف عند حدود مصر بل وجد نفسه مسئولا عن سلامة حدودها من الشرق عندما أخذ الخطر الأشورى يدق أبواب سورية وفلسطين ، إذ نعرف من التوراة (الملوك الثانى ١٧) أنه بعد فتح الملك تيجلات بلسر الثالث لبعض البلاد السورية فى عام ٧٢٥ ق.م. ورجوعه إلى بلاده ، تحالف هوشع ملك إسرائيل مع ملك مصر .

أما نجله ، باك ان رنف ، فأراد بدوره أن يحمى بلاده من قوة أشور فأخذ يثير بلاد فلسطين ووعد الثوار بالمساعدة ، ولكن جيوش فلسطين المتحالفة هزمت شر هزيمة كما هزم الجيش الذى أرسله ، باك ان رنف ، عند رفح هزيمة شديدة ، وكانت هذه الهزيمة درساً قاسياً لـ ، باك ان رنف ، جعلته لا يعاود التدخل فى شئون فلسطين وسورية . فالتفت إلى إصلاح الدلتا وأخذ فى سن القوانين وكان يجلس للقضاء بين الناس ، وكانت أحكامه تشتهر بالتعمق والحكمة [٢] . وحكم ، بوخوريس ، ستة أعوام لم تنته إلا بحضور الملك ، شاباكو ، خليفة بعنخى لاستعادة مصر ، وإذا صدقنا رواية مانيتون فإن ، بوخوريس ، لم يمت ميتة طبيعية بل أن ، شاباكو ، أسره وأمر بإحراقه عقابا له .

وهكذا تكون الأسرة الرابعة والعشرون مكونة من ملكين فقط وهما ، تاف نخت ، وابنه .

وإذا نظرنا إلى موضوع الصراع بين ، بعنخى ، و ، تاف – نخت ، نظرة محايدة فإننا نجد أن كلا من الرجلين كان جديراً بالإعجاب ، وكان بطلا وطنيا هاله ما وصل إليه أمر مصر من خراب وفوضى فتقدم لإنقاذها . كان ، تاف – نخت ، رجلا شجاعا طموحا وصاحب سياسة ، وكان ، بعنخى ، أيضا شجاعا وطموحا ولكن لم يكن له علم بفن الحكم ، ولو أنه كان يمتاز كثيراً على خصمه بقوة جيشه وموارده

---

(١) نعرف ذلك من لوحة فى متحف أثينا مؤرخة فى السنة الثامنة من حكمه وهى تتعلق بتقديم هبة منه إلى معبد صان الحجر : وقد نشرت هذه اللوحة عدة مرات كان آخرها ما نشره :
CAPART, Recueil de monuments egyptiens, 2 eme série, 1905 PL. XCII.

(٢) Diodorus I, 65, 70, 94.

المالية والتأييد الدينى . لقد دافع كل منهما عما كان يعتقد أنه حق له وفيه مصلحة للبلاد . وربما كان من سوء الطالع أن يصطدم هذان البطلان ولكن مهما كان الأمر فإن حياة كل منهما وأسلوب كفاحه يدل على وعى قومى ويقظة وطنية ، جاء أحدهما من الجنوب وجاء الآخر من الشمال ، وكان هم كل منهما أن ينقذ مصر مما حل بها من تفكك وما آلت إليه من انهيار .

وفى الواقع أن هذه الفترة ، وهى فترة الصراع ، كانت بداية لعصر جديد أخذت تستيقظ فيه مصر من سباتها الذى قضت فيه عدة قرون ، وكانت أيام الأسرة الرابعة والعشرين القصيرة ، ثم ظهور الأسرة الخامسة والعشرين وهى بدء النهضة الكبيرة التى ظهرت فيما بعد .

خلفاء بعنخى :

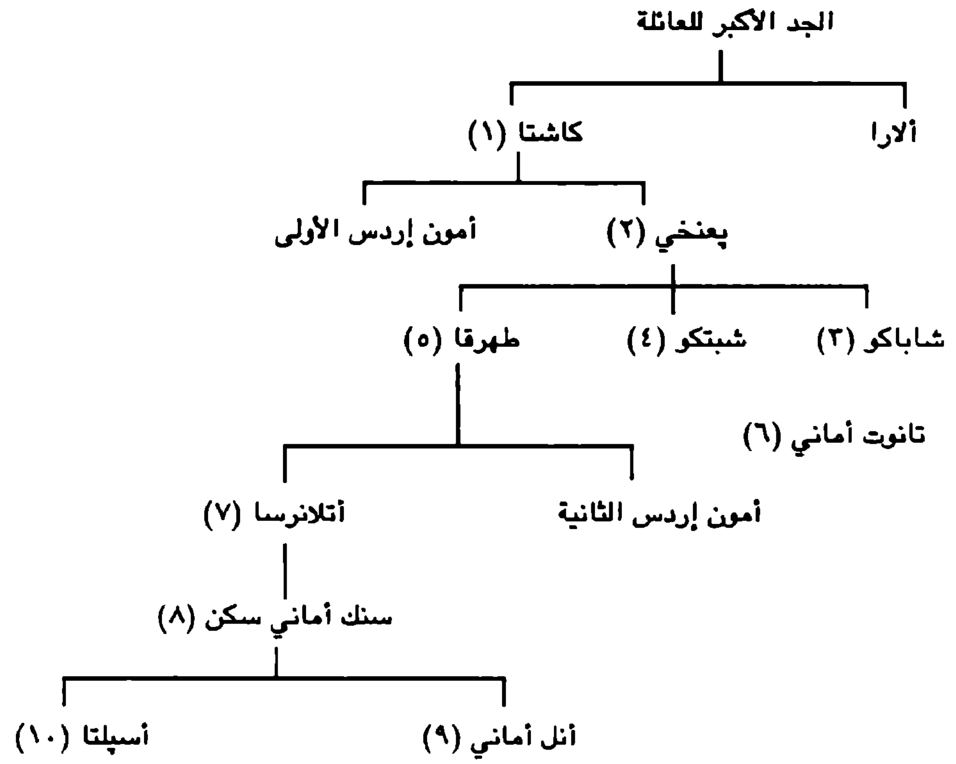
قبل أن يغادر بعنخى مدينة طيبة جعل الأميرة ، شب - إن - أويت ، ابنه وساركون الثالث ، التى كانت حتى ذلك الوقت الزوجة الإلهية لأمون ، تتبنى أخته ،أمنرديس، (أو أمون إردس) ، وبهذا ضمن لنفسه ولأسرته ثروة أمون .

ولم يظهر بعنخى بعد رحيلـه عن مصر اهتماما بأمرها ، وترك ، تاف - نخت ، و ، باك - ان رنف ، يفعلان ما يشاءان فى الدلتا دون أن يرسل من يؤدبهما ، وظل قانعا بأن طيبة ، والصعيد بوجه عام ، لم يعتد عليها معتد .

والمتتبع لحياة بعنخى تتولاه الدهشة لهذا المسلك الذى جعله يغادر مصر سريعاً إلى نبتا ولا يحرك ساكنا بعد ذلك . فقد كان كل شيء سائراً فى مجراه العادى فى نبتا على ما نعلم ، ولم تحدث هناك ثورات أو يقوم مطالب آخرى بالملك ولهذا لا يمكن أن يكون تصرفه ناتجاً إلا عن حالة نفسية خاصة لم نعرفها بعد .

وبعد موت بعنخى خلفه ابنه ، شاباكو ، فعز عليه أن يصل الحال فى شمال الوادى إلى ما وصل إليه . ولهذا أسرع نحو الشمال فأنهى أيام ، باك - ان - رنف ، كما سبق القول وأقام كثيراً من المبانى الدينية ، كما بدأ سياسة المودة نحو دولة أشور فأرسل إلى الملك سرجون الثانى بهدايا ، فلما تلقى من سرجون هدايا أخرى تأكيدا لمودته ، اعتبر شاباكو أن مدلول ذلك أنه أصبح سيد بلاد آسيا ورسمه مصوروه على الآثار وهو يمسك بناصية الأسيويين الذين أصبحوا عبيدا له .

الملوك العشرة الأول من عائلة نبتا (١)



وحكم شاباكو نحو ستة عشر عاما ثم تلاه على عرش نبتا أخ له من أبناء بعنخى إسمه « شبتكو » . جاء إلى مصر ومعه أخ شاب فى العشرين من عمره وهو من طهرقا الذى كان منذ حداثة عمره مغرما بالحرب وكانت فيه صفات أبيه وهمته . كان أمراء الدلتا قد عادوا شيئاً ما إلى سلطتهم القديمة ، وكانت بينهم عداوات وحروب، ولكن طهرقا تمكن من تهدئة الحالة بعض الشيء خصوصاً وأن الخطر الأشورى كان قد بدأ يطل برأسه مرة أخرى .

مات سرجون الثانى فخلفه على العرش نينوى إبنه سنحريب (Sennacherib) الذى قرر أن يغزو فلسطين فاجتمعت مدنها فى حلف لمقابلة المهاجمين ، وأرسلت مصر تؤازرهم ووقفت إلى جانبهم . وأرسل « شبتكو » جيشاً إلى الحدود تحت قيادة أخيه طهرقا ولكن سنحريب كان يهزأ بمساعدة مصر ، وأراد رجاله أن يحذروا أهل أورشليم أثناء حصارهم من الإتكال على معونة مصر فقالوا لهم جملتهم المأثورة التى احتفظت بها التوراة موجهين الخطاب إلى حزقيا : « على من

(١) مقتبس من مقال دنهم وما كدم فى مجلة JEA. 35, (1949), p. 149

اتكلت حتى عصيت علي ؟ هوذا قد اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة ، على مصر ، التي إذا توكأ أحد عليها دخلت في كفه وثقبتها . وهكذا هو فرعون ملك مصر لجميع المتكلين عليه ، (الملوك الثاني – الإصحاح ١٨ : ٢٠ – ٢٢) . ولكن أورشليم لم تستسلم وسار سنحريب لمهاجمة جيش مصر ، وفي ذلك الوقت حدثت معجزة جعلت سنحريب يفر بفلول جيشه عائداً إلى بلاده إذ تفشى وباء الطاعون في الجيش الأشوري . وتروى التوراة قصة إنقاذ أورشليم وتفسرها تفسيراً دينياً ، ويرويها هيرودوت ويفسر رجوع الجيش المهاجم وهزيمته تفسيراً روائياً (Herodotus II, 141) وهو أن الجرذان إنتشرت في معسكر الأشوريين وقرضت القسي وكنانات السهام وجلد التروس ففر الجنود ؛ لأنهم لم يجدوا ما يحاربون به . ولم يحاول سنحريب مرة أخرى أن يغزو فلسطين ومات مقتولا بيد أبنائه في عام ٦٨١ ق.م. وخلفه إبنه ، أسرحدون ، الذي لم يكن من بين المتآمرين فثأر لدمه واستولى على العرش . وفي العام نفسه مات ، شبتكو ، فخلفه على العرش أخوه ، طهرقا ، بن ، بعنخي ، .

الملك طهرقا :

وجه طهرقا كل نشاطه إلى الإصلاح الداخلي وبخاصة في إقامة المباني الفخمة في جهات مصر المختلفة ، وكانت طيبة بطبيعة الحال أكثر البلاد استئثاراً باهتمامه . ولم يقم طهرقا في طيبة بل فضل الإقامة في صان الحجر ليكون قريبا من حدوده الشرقية ؛ لأنه بحكم تجربته الشخصية كان يعلم أنه لا أمان لمصر طالما كانت أشور مستمرة في تطلعها نحو الغرب ، ولهذا ترك إدارة طيبة والصعيد إلى رجل من خيرة رجاله وهو ، منتومحات ، وركز جهوده لدرء الخطر الخارجي الذي كان يتهدده .

بقي طهرقا في شمال مملكته يرقب الحوادث ويدبر المؤامرات ضد الأشوريين ليقوم الفلسطينيون والفينيقيون بثورات ربما تنتهي بإنسحاب الأشوريين من فلسطين . وكان هو المحرض على ثورة في مدينة صور سببت تعباً كبيراً للأشوريين ، وإضطرت ، أسرحدون ، أن يأتي بنفسه على رأس جيش لمحاصرتها ولكنه لم يستطع التغلب على المدينة لمناعتها . وأراد أن يؤدب مصر فترك صور محاصرة وتقدم نحو وادي النيل عن طريق سينا يساعده بدو الصحراء الذين أمدوه بآلاف الجمال لنقل المؤن والمياه ، وكانوا أدلاءه في السير حتى وصل إلى وادي الطميلات . ومن وادي الطميلات قصد رأساً إلى منف فقوبل بمناوشات مستمرة في طريقه ، ولكنه رغم ذلك

وصلها بعد خمسة عشر يوما فحاصرها وإستولى عليها ووقعت فى يده ثروتها ، وكذلك عائلة طهرقا ومن بينهم زوجاته وأولاده وبناته . ويفتخر ملك أشور فيما سطره عن هذه الحملة أنه استأصل شأفة الكوشيين وقضى على سلالتهم ، ولكن هذا كان بعيداً عن الحقيقة إذ ظلت لطهرقا قوته ولم يتعد حكم الأشوريين المباشر حدود الدلتا ، ولكن جميع الحكام ومن بينهم « منتومحات » . إعترفوا بسيادة ملك أشور ودفعوا له الجزية . وفى هذه الأوقات العصيبة كان أهم اسمين من أسماء حكام البلاد الوطنيين هما « نكاو » بن « باك - ان - رنف » و « منتومحات » وكان أولهما أمير صا الحجر وكان الثانى أمير طيبة . وإعتقد « أسرحدون » أن الأمور دانت له وأنه أصبح بإنتصاره ملكا على الدلتا وعلى الصعيد وعلى كوش . وبعد سنوات قليلة عاد طهرقا مرة ثانية ليسترد ما فقده فإستولى على منف وجمع حوله الأمراء وهزم الحامية الأشورية وقام « أسرحدون » على رأس جيشه لإخضاع مصر ولكنه مات فى الطريق ، ولم يواصل الجيش سيره إلى مصر بل عاد ثانية إلى بلاده . وإذا كانت حملة « أسرحدون » لم يكتب لها النجاح ، ونجحت مصر من ويلات الحرب فإن « أشور بانيبال » ابن « أسرحدون » جمع جيشاً من السوريين والأشوريين وأرسله لمهاجمة مصر فاستولى على منف وفر طهرقا إلى طيبة . وقام بعض أمراء الدلتا بهجومهم على الأشوريين لطردهم وكادوا ينجحون فى ذلك لولا أن « أشور بانيبال» أسرع بإرسال جيش آخر أخمد الثورة ، ثم إندفع الجيش نحو طيبة . ودافع منتومحات ولكنه لم يستطع رد المهاجمين ووقعت طيبة فريسة للعدو ، ولكن يظهر أن التخريب كان محدوداً فتمكن منتومحات بعد ذلك من إصلاح ما تهدم ، وطهر المعابد والهياكل من رجس الذين دخلوها دون أن يتطهروا . وفى أثناء ذلك قبض الأشوريين على الأمراء الشماليين الذين قاموا بالثورة وعلى رأسهم « نكاو » (نيخاو) وأرسلوهم إلى نينوى . وقد استطاع نكاو أن يحوز على إعجاب ورضاء الملك الأشورى فأعاده إلى مدينة صا الحجر وغمره بالهدايا وزاد على ذلك بأن منح إمارة أتريب إلى إبنه بسمتك .

ومات طهرقا فى نبتا ، ولكنه رغم وجوده فى الجنوب فإن كهنة طيبة وكهنة منف كانوا يعتبرونه الحاكم الشرعى للبلاد ، كانوا يؤرخون الآثار بإسمه ومدة حكمه ، وذلك بالرغم من أن الأمور كانت قد تغيرت ، وكان هناك فى صا الحجر من إدعى الملك ، كما كانت هناك الحاميات الأشورية ومن والاها من أهل البلاد . ومما يستحق الذكر أننا نجد على إحدى لوحات السرابيوم أن أحد العجول قد نفق ، وكان ذلك فى العام العشرين من حكم بسمتك الأول ، وأرخه الكهنة فى العام السادس والعشرين من حكم طهرقا .

وخلف الملك « تانوت – أمانى » عمه طهرقا على عرش نپتا وقد ذكر لنا فى إحدى لوحاته كيف أصبح ملكا وأنه قبل موت عمه رأى حلما فسروه له بأنه سيصبح ملكا على الشمال والجنوب وأنه سيسترد مصر من الأشوريين . وما أن تم تتويجه حتى جمع جيشا وسار إلى الشمال لتحقيق هذه الرؤيا فوصل إلى طيبة ، وكان فيها « منتومحات » و « شب – ان – أوبت » الثانية ، وقوبل منهما ومن جميع الأهالى بإستقبال المنقذ ، ثم سار حتى وصل إلى منف واضطر لخوض معركة مع أمراء الدلتا الذين كانوا موالين للأشوريين فهزمهم . وظل فى منف ليتلقى هدايا وولاء بعض الأمراء الآخرين ولكنه لم يقو على الاستيلاء على أكثر من مدن الدلتا ولم تلبث الأخبار أن جاءت منذرة بوصول جيش من أشور فلم يبق فى الشمال ، وفر عائداً إلى طيبة فتبعته جيوش أشور وسقطت طيبة فى أيديهم ، وذاق أهلها مرارة الأسر والذل وذاقت معابدها الأمرين من النهب والتخريب .

وعاد جيش أشور نحو الشمال ، وحاول « منتومحات » قدر استطاعته إصلاح ما تخرب ، وظل على ولائه لنپتا . وهناك أثر مؤرخ فى العالم الثامن من حكم « تانوت – أمانى » عثر عليه فى طيبة مع أنه كانت هناك عائلة مالكة أخرى جديدة فى صان الحجر . وقنع ملك نپتا بما حدث ولم يحاول بعد ذلك استعادة طيبة أو طرد الأشوريين من البلاد بل ترك هذا الواجب لأبناء الشمال ، وبخاصة حفيد « تاف نخت » ، الذى شاءت الأقدار أن يحقق وحدة البلاد وأن ينهضها من كبوتها وهو الأمر الذى لم يتيسر لجده أن يحققه .

الأسرة السادسة والعشرون
(٦٦٣ - ٥٢٥ ق.م .)

نظرة عامة :

كان القرن السابع قبل الميلاد من أهم الفترات فى التاريخ القديم ، ففى هذا القرن من الزمان كانت دول الشرق القديم تتصارع فيما بينها تصارعا مميتا أفنى قواها . فقد رأينا دولة أشور وقد مدت سلطانها على جيرانها ولم تقنع بذلك بل رمت بعينها إلى الغرب فضمت دويلات سورية وفلسطين إليها ، بل إنها ضمت مصر أيضاً . ولكن اليقظة التى سرت فى بلاد وادى النيل جعلت الشمال والجنوب يفتحان أعينهما على الحقيقة الرهيبة وهى أن دوام تفكك البلاد سيسبب خرابها التام ، فسعى « تاف - نخت » من غرب الدلتا و « بعنخى » من دنقلة ليعيدوا للبلاد مجدها . وما كانت هذه اليقظة لتجعل مصر تصبر على الهوان الجديد . فإذا كان بيت نيتا ترك راية الجهاد يائسا ، فإن أمراء صا الحجر سلالة « تاف - نخت » حملوها وتقدموا الصفوف حتى تم لهم النصر والفوز .

ولكنا قبل أن نتحدث عن قصة هذا الصراع يجب أن نلقى نظرنا بعيداً عن وادى النيل لنعرف بعض العوامل الأخرى التى كانت تأخذ دورها فى توجيه أحداث هذا القرن الفريد فى تاريخ العالم .كانت بلاد اليونان قد اجتازت دور تكوين حضارتها وأخذت شعوبها جزرها ، ومحلاتها التى أنشأتها فى آسيا الصغرى ، أو فى شمال إفريقيا ، تنشد نصيبها من الحياة سواء فى التجارة أو فى ميدان الحروب ، وكانت فى ذلك الوقت عاملا مهما فى حوادث البحر الأبيض المتوسط ، وكان إتصال هذه الشعوب بمصر وشاطىء سورية ذا أثر كبير على الحوادث التى كانت على وشك الظهور . أما الناحية الأخرى من آسيا فقد كانت فيها حركة من نوع مختلف . ففى جبال إيران كان يعيش بعض شعوب من أصل هندو - أوروبى قضت قرونا طويلة بين الجبال تحيا حياة البداوة ولكنها بدأت فى العصر بعينه تدخل فى دور جديد ، وسرعان ما بدأت تؤثر على بلاد ما بين النهرين ، ولم تلبث أن كان لها الفوز . وإذا دهبنا إلى أبعد من ذلك نحو الشرق لرأينا أيضاً أنه فى كل من الصين والهند بدأت الحياة الإجتماعية تدخل فى دور جديد ، وفى الهند بالذات كانت الديانة الأصلية للبلاد قد بدأت تمتزج بديانة الشعوب الهندو - أوروبية التى كانت قد غزت الهند من قبل ، ونتج من صلة الهنود بحضارة كل من بلاد ما بين النهرين ومصر آراء دينية جعلت

تتطور مع الزمن حتى وصلت إلى هذا العصر ، ووجدت بين حكماء الهند القدماء من يدعو إلى فلسفة جديدة . كان هذا العصر هو فجر مولد ، الچينية ، التى كانت الأثر المباشر لظهور ، بوذا العظيم ، مؤسس البوذية التى مازالت دينا من أهم أديان العالم حتى اليوم ، والتى كانت منذ نشوئها وانتشارها معينا لكل ما ظهر من ديانات أو فلسفات فى العالم القيم . فإذا عدنا إلى مصر مرة ثانية من هذه الجولة السريعة فإننا نراها ترزخ تحت النير الأشورى وتئن من تخريب معابدها ونهب كنوزها ، ولكن هذه الضربة لم تقض على حيويتها فلم تلبث إلا قليلا حتى أفاقت وأخذت ترسم لنفسها طريق الخلاص .

لم تكن مصر وحدها هى التى كانت فى مهب هذه التيارات المختلفة بل كان كل حوض البحر الأبيض فى حالة عدم إستقرار ، وبخاصة فى فلسطين والشاطىء الفينيقى ، وكان سبب ذلك ظهور الدويلات اليونانية وهى فى عنفوانها ووجود جيوش أشور فى غربى آسيا .

ومنذ هذا العصر أصبح لدى دارسى التاريخ مصدراً مهماً وهو ما كتبه المؤلفون اليونانيون عن بلاد الشرق . وعن بلادهم وصلتها بغيرها ، ولهذا أصبحت مؤلفاتهم إلى جانب المصادر المصرية من آثار البلاد هى المعين الذى نلتجىء إليه لنشفى غلتنا . وكثيراً ما تتفق كتابات اليونانيين مع ما خلفه المصريون من آثار ولكن هناك اختلافات كثيرة أيضاً ، وعلى المؤرخ أن يوازن بين المصدرين ويتخذ طريقه بينهما ، ولكن هذا الاختلاف على وجه العموم لا يغير شيئاً من الصورة الأصلية؛ لأنه اختلاف فى التفاصيل فقط .

طرد الأشوريين من مصر :

ليس لدينا مصدر عن طرد الأشوريين من مصر إلا ما سمعه هيرودوت ممن كانوا معاصرين له (زار هيرودوت مصر حوالى عام ٤٤٥ ق.م.) أو مما قرأه فى كتابات من سبقوه ، وكانت قصته عن الملك الأول صورة للخيال الإغريقى الخصب . فالمرجح أن بسمتك - حاول عن طريقة الكهنة ووحى الآلهة أن تكون له السلطة الكاملة فى البلاد وأن يدين له الأمراء ، ولكنه فشل فى ذلك وربما اضطر إلى الاختفاء وقتا من الأوقات فى مستنقعات الدلتا . وعاود بسمتك نشاطه ولكن فى هذه المرة استعان بجنود مأجورين من الإغريق أمده بهم صديقه ، جيجس ، (Gyges) ملك ليديا فكان هذا الجيش عونا له فى إخضاع الأمراء ثم طرد الأشوريين من مصر ، ففر هؤلاء إلى فلسطين وتحصنوا فى أسدود [١] . ورأى بستمك - كما رأى أحمس الأول

(١) ERODOTUS II 147 - 157.

فى حرب الهكسوس قبل أكثر من ٩٩٠ عاما – أنه لا اطمئنان له إلا إذا اجتث الشر من جذوره ، ولهذا تبعهم إلى هناك – وانتهز الفرصة فأخذ يعيد لمصر شيئا من مركزها الممتاز فى غربى آسيا .

ولكن رواية هيرودوت ليست بهذه البساطة فإنه يقول إن الأمراء كانوا يخشون أن يسعى واحد منهم لينصب نفسه ملكا عليهم. وكان عددهم إثنى عشر فأخذوا المواثيق بينهم وبين بعضهم ألا يتعدى واحد منهم على آخر . وكانت هناك نبوءة بأن الذى سيصبح من بينهم ملكا هو الذى سيصب ماء قربانه فى هيكل بتاح من إناء من البرونز ، ولهذا إتفق هؤلاء الأمراء على ألا يذهب أحد منهم إلى معبد بتاح لتقديم القرابين بمفرده ، بل كانوا يذهبون مجتمعين . وحدث فى يوم من الأيام أنهم كانوا فى المعبد وأرادوا أن يصبوا الماء على القرابين ووقفوا صفا ، وجاء الكاهن بالكؤوس الذهبية فأعطى كل واحد منهم كأساً ليتناول فيه الماء ولكن حدث خطأ فلم يحضر إلا أحد عشر كأساً فقط ، وكان بستمك آخر الأمراء فى الصف فأنقذ الموقف بسرعة بديهته فخلع خوذته البرونزية ومسكها فى يده فصب له الكاهن الأكبر الماء دون أن يلتفت أحد إلى مغزى ذلك . واتضح لهم فيما بعد أن النبوءة تحققت وصار من المحتم أن يصبح بستمك ملكا ، ولكنهم لم يقتلوه لثقتهم فى حسن نيته واكتفوا بنفيه إلى مستنقعات الدلتا فى نفس المكان الذى اختبأ فيه جده فرارا من بعنخى . وذهب بستمك يوما من الأيام إلى معبد « بوتو » ليسأل الوحى عما يخبئه له القدر فجاء الوحى بأن الانتقام سيأتى من البحر عندما يصل رجال من البرونز ، ولم يمر إلا وقت قصير حتى نزل إلى شاطىء الدلتا على مقربة من المكان الذى كان يعيش فيه « بستمك » قراصنة من اليونانيين والكاريين يلبسون دروعاً وخوذات من البرونز فعرف فيهم الرجال الذين تحدثت عنهم النبوءة ، فأغراهم بالوعد والمال ، وحالفوه وكانوا عونه فى التغلب على الأمراء الآخرين .

هذه هى رواية هيرودوت ، ولكن الذى نعلمه من المصادر أن القائد المسمى « جيجس » كان صديقاً لبستمك وكان جيجس هذا قد اغتصب عرش مملكة ليديا فأرسل له جنوداً مرتزقة من المدربين على القتال بكامل عدتهم لمعاونته . وبعد أن أصبح بستمك سيدا لمصر كلها طرد الأشوريين أيضاً بمعونة هؤلاء الجند؛ لأن جيجس وبستمك كان كل منهما مهدداً بالأشوريين ولهذا تحالفا على تحطيم جيوشهم فى مصر وفى غرب آسيا .

وما أن تم الأمر لبستمك ودانت له الدلتا كلها وتخلص من جنود أشور حتى بدأ

يفكر فى الصعيد وثروة أمون فى طيبة . وبالرغم من ولاء منتومحات للبيت المالك فى نبتا ووجود الأميرة ، شب – إن – أوبت ، الثانية إبنة بعنخى كزوجة إلهية لأمون وإلى جوارها الأميرة (أمون إردس) الثانية إبنة طهرقا كإبنتها بالتبنى ، فإن كهنة طيبة ومنتومحات لم يجدوا أمامهم مفراً من الإذعان لبستمك وقبول سيادته ، وقبلت ، شب – إن – أوبت ، الثانية أن تعترف بتبنى إبنة بستمك وكانت تسمى ، نت إقرت ، (نيتوكريس) لتكون بعدها زوجة إلهية لأمون ، وبذلك يضمن لنفسه هذه الثروة الضخمة . ومن النص الذى يروى لنا احتفالات التبنى نعرف بيان الممتلكات التى آلت إلى نيتوكريس ، وكانت كثيرة وفى أقاليم عدة فى الجنوب والشمال . ولم يذهب بستمك إلى طيبة ليحضر هذه الإحتفالات بل أناب عـــنه أحد خلصائه المسمى (سماتاوى تاف نخت) الذى كان حاكما لإقليم إهناسيا وفى هذا الحفل سميت نيتوكريس (شب – إن – أوبت) وأصبحت ثالث زوجة إلهية لأمون تحمل هذا الاسم .

ولم يطمئن بستمك إلى ولاء كهنة طيبة وخاف من إتصالهم بنپتا ولهذا عين أحد الرجال المخلصين له وهو (نس ناو ياو) فى وظيفة حاكم الجنوب وكان مقره فى إدفو ، وكان الغرض من هذا الإجراء بطبيعة الحال الحد من سلطة منتومحات ؛ لأنه كان من سلطات حاكم الجنوب الجديد أن يكون له الإشراف على الحامية الى كانت فى إلفنتين لتعزيز حراسة الجنوب .

وقام بستمك بإصالحات عديدة ، وأنشأ جيشاً وأسطوالا كان قوامهما الجنود المرتزقة من الأجانب وعدد كبير من المصريين ، وقام بإصلاحات كثيرة فى المعابد . وقد طال حكم هذا الملك حتى زاد على الخمسين عام (٦٦٣ – ٦٠٩ ق.م.) ولم يمت إلا بعد أن رأى الإستقرار قد شمل البلاد بدأت تجارتها فى الإزدهار بفضل تشجيعه المستمر للتجار الإغريق الذين كثر توافدهم على مصر لإستيطانها . وإذا كنا نحمد لبستمك الأول جهاده لتحرير البلاد من الأشوريين ونحمد له همته وكفاءته فى القبض على ناصية الأمور ، فإننا لا نحمد له فى إستمراره فى استقدام الجنود اليونانيين إلى مصر وتشجيعه بكل الوسائل للتجار اليونانيين ، إذ أن نتيجة ذلك كانت إبعاد المصريين الوطنيين عن حياة الجندية الصحيحة واعتماد ملوكها على الأجانب لحفظ الأمن ، وفى ذلك دون شك إضعاف للروح القومية ، كما أخذت الثروة تتكدس فى أيدى التجار اليونانيين الذين انتشروا فى طول البلاد وعرضها يحميهم نفوذ الحاميات من أبناء جلدتهم ، فلم يستطع التجار الوطنيون مجاراتهم فى ذلك الوقت . أما فى الفنون فإننا نعرف أن التقاليد الفنية لم تنتشر فى أى وقت من الأوقات ويكفينا أن نزور

مقبرة منتومحات فى طيبة وأن نرى تماثيله أو تماثيل غيره من ملوك أو كهنة الأسرة الخامسة والعشرين لندرك أن المدرسة الفنية ، وبخاصة فى طيبة ، لم يصبها الوهن ولم تعدم الإبتكار والتجديد مع الوصول إلى المستوى الرفيع ، ولكننا نرى فى الوقت نفسه إتجاهاً جديداً فى الفن والأدب وهو الرجوع لمحاكاة القديم وبخاصة ما كان من الدولة وأحياناً من الأسرة الثانية عشرة . وما هذا التقليد أو المحاكاة إلا صدى للشعور الذى أخذ يحس به الكهنة والفنانون المصريون عندما رأوا اليونانيين يقيمون بين ظهرانيهم فخشوا على تراثهم القديم من الضياع إذا هم تركوا للداعين إلى التجديد ثغرة ينفذون منها . ولهذا جاءت هذه المبالغة التى نحسها فى العودة إلى القديم فى كل شيء. ولكن هذه العودة فى ذاتها دليل على أن الحيوية الكامنة قد بدأت فى الذبول ، إذ أنه ما من شعب فى الأرض ينظر دائماً إلى الوراء ويحاول تقليد آبائه وأجداده ويعيش فى جو كالذى عاشوا فيها رغم مرور الأجيال ، إلا وكان ذلك إيذانا بتدهوره لأنه مخالف لسنة الحياة .

نكاو الثانى : (ق ٠ م ٠)

احتفظت مصر أثناء حكم بستمك الأول الذى زاد على الخمسين عاما بإستقلالها واستتب أمورها ، ولكن الأمور فى غرب آسيا كانت قد وصلت إلى درجة الغليان فإن النزاع بين مملكتى بابل وأشور كان يشتد تارة ويضعف تارة أخرى ، حتى تمكنت بابل بعد جهاد طويل من تخليص نفسها من سيادة أشور . أما مملكة الميديين فى إيران فإنها كانت بدورها قد أخذت تظهر على مسرح السياسة فى العالم القديم ، وأخذوا يكيدون بدورهم لمملكة أشور فتحالفوا مع بابل ودمر الحليفان عاصمة الأشوريين « نينوى » وقضوا على مملكتهم ، ثم اقتسم الحليفان الجديدان الميراث بينهما فكان للميديين جزء كبير من وادى دجلة فى شرقه وفى غربه ، أما بابل فقد آلت إليها سورية .

وأراد « نكاو » أن يستفيد من الظروف وأن يجعل لمصر صوتا مسموعاً فى سياسة هذا الجزء من العالم فقرر معاونة أشور التى أخذت تحاول الثأر لنفسها ، وجهز جيشا تقدم به نحو العراق ولكن « يوشيا » ملك يهوذا الذى كان حليفاً لبابل تصدى لجيش مصر ، وجهز بمعونة بابل جيشا وتقابل الجيشان المصرى واليهودى عند مجدو فكان النصر حليف المصريين وقتل « يوشيا » وخلفه إبنه ، ولكن لم تمض ثلاثة شهور أخرى حتى تمكن جنود « نكاو » من أسره وبعثوا به إلى مصر، وعين « نكاو » فى مكانه آخا آخر له وكان إسمه « اليقيم » ، وغير إسمه إلى « يهويقيم » الذى قبل الخضوع لمصر كما قبل فع تعويض كبير لها ، وتقديم الجزية .

وأتم نكاو إخضاع باقى المدن السورية ووصل إلى الفرات ولكن « نبو خذنصر » (Nabuchodonosor) ملك بابل جمع جيشاً واعترض المصريين فدارت بين الجيشين معركة كبيرة فى قرقميش ، وكان ذلك حسب رواية التوراة فى العام الرابع من حكم « يهويقيم » (الملوك الثانى : ٢٣ ، ٢٤ وأرميا ٤٦) فدارت الدائرة على جيش « نكاو » وعاد مهزوما إلى الدلتا .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق شعور « نكاو » بعد هذه الهزيمة فهل صرف نظره عن محاولاته التدخل فى شئون فلسطين وسورية ، والتفت لتشجيع التجارة فأنشأ أسطوله الكبير ، أم أنه أراد أن ينشىء أسطولا قويا ليكون دعامة فى هجومه على سورية كما فعل فراعنة الأسرة الثامنة والتاسعة عشرة من قبل !!

وأنشا « نكاو » أسطولا فى البحر الأبيض المتوسط ، كما نعرف أيضاً من رواية لهيرودوت (Herodotus, II & 159-9) أنه أنشأ أيضاً أسطولاً صغيراً فى البحر الأحمر ، وأراد أن يكتشف ساحل إفريقيا فأرسل بعض السفن وفيها ملاحون فينيقيون قضوا ثلاث سنوات فى رحلتهم حول الشاطىء الإفريقى حتى عادوا من بوغاز جبل طارق إلى مصر محملين بجميع خيرات إفريقيا مما حصلوا عليه فى الموانئ التى مروا بها . وكان مما ذكره هؤلاء الملاحون أنهم ساروا دائماً وكانت الشمس تشرق عن يسارهم ولكنهم وصلوا إلى نقطة فإذا بهم يرون أن الشمس تحولت وأخذت تشرق عن يمينهم . ورفض هيرودوت تصديق ذلك بينما أن هذه النقطة بالذات تدل على صدق أنباء الرحلة ؛ لأن ذلك حدث عندما دارت السفن حول رأس الرجاء الصالح .

وكان من أهم الأعمال الإنشائية التى فكر فيها « نكاو » أن يحيى من جديد مشروع توصيل البحرين الأبيض والأحمر وذلك بعمل قناة تبدأ من مكان على مقربة من الزقازيق حتى تصل إلى البحيرات فى نقطة قريبة من مكان مدينة الإسماعيلية الحالية ، وهى قناة قديمة أنشئت فى أيام الدولة الحديثة على الأرجح ولكنها كانت تهمل من آن لآخر حتى عفت آثارها . فأراد « نكاو » أن يعيد هذا المشروع لتتمكن السفن التى فى البحر الأبيض من الملاحة فى النيل حتى منف ثم تأخذ طريقها فى الفرع البوبسطى ومنها تخرج إلى هذه الترعة فتصل إلى مياه البحر الأحمر . ويقص علينا هيرودوت أن « نكاو » تحمس لمشروعه ونفذ الجزء الأكبر منه وهلك فيه مائة وعشرون ألفا من المصريين ، ولكن نكاو أمر فجأة بترك العمل لأن نبوءة « بوتو » جاءت بأن الآلهة تأمره بترك العمل ؛ لأن هذه القناة ليست فى صالح مصر ، وأنه لن

يستفيد منها إلا الأجانب (١) . وهذا المشروع هو بعينه الذى أتمه دار الفارسى لمصلحة بلاده ، وهو أيضاً مشروع قناة السويس الذى سبب أكبر النكبات لمصر فى تاريخها الحديث قبل أن تؤمم وتعود أمورها إلى أيدى أبناء البلاد .

خلفاء نكاو الثانى :

تولى عرش مصر بعد نكاو الثانى إبنه بسمتك الثانى ولم تزد مدة حكمه على سبع سنوات . وإن كان هذا الملك لم يترك وراءه آثاراً كثيرة إلا أننا نعرف أنه ذهب إلى سورية - وربما كانت زيارة فقط وليست حملة حربية - كما نعرف أيضاً أنه ذهب مع جيشه إلى جنوبى مملكته ووصل إلى وادى حلفا . وكان هذا الجيش مؤلفا من يونانيين ومن مصريين ومن سوريين ومن بعض اليهود ، وقد ترك الجنود الكاريون نقشا يذكرون فيه رحلتهم هذه على ساق أحد تماثيل رمسيس الثانى أمام معبد أبو سمبل . ونعرف من أخبار هذا العهد أيضاً أن تجارة اليونانيين وبخاصة المقيمين فى مدينة « نوكراتيس » ازدهرت إلى أبعد الحدود كما كثر الجنود الإغريق وأصبحت هناك ثلاث حاميات رئيسية كبيرة واحدة منها ماريا فى غربى مصر على شاطىء البحيرة المعروفة بإسم مريوط ، وجيش ثان فى شرقى مصر فى « دفنة » والحامية الثالثة ، أو الجيش الثالث ، كان فى إلفنتين . ونعرف أيضاً أن هذه المدينة الأخيرة أصبحت مزدهرة وكانت تقيم فيها جالية يونانية تعتمد على التجارة . وكان حكم بستمك الثانى بين عامى ٥٩٤ ، ٥٨٧ ق.م وتلاه على العرش الملك « واح - إب - رع » المعروف للمؤرخين بإسمه فى الصيغة اليونانية (إبريس) .

« واح - إب - رع » (٥٨٨ - ٥٦٨) :

ونحن نعرف تفاصيل حكم هذا الفرعون - كما عرفنا التفاصيل القليلة من حكم سلفه - من هيرودوت ، ومن التوراة ، ومن الآثار القليلة التى أمدتنا بالشىء القليل عن تاريخه .

لم تكن الحالة قد هدأت فى غربى آسيا بل ازدادت سوءاً ، وكان ذلك ناشئا عن تطاحن الدويلات السورية والفلسطينية فيما بينها والمتاعب التى سببتها أطماع مملكة بابل فى تلك البلاد . وكانت مملكة أورشليم موالية لمصر فقاومت أطماع « نبوختنصر » فاستولت عليها جيوشه ودمرت أورشليم تدميراً كبيراً وأخذت الآلاف من

(١) إهتم بورنز بالعصر الفارسى وكتب أكثر من مرة عن هذه القناة وآخر أبحاثه مقاله
POSENER, Le Canal du Nil à la Mer Rouge, in Chronique d'Égypte No. 26 (1938), p. 259 - 273 .

رجالها القادرين أسرى إلى بابل (الملوك الثانى ٢٥) كما فر كثير من اليهود إلى مصر خوفا من مذابح البابليين فرحب بهم أيريس وسهل لهم العيش فى ربوعها ، وانتشرت جالياتهم فى الأماكن المختلفة ، حتى إلفنتين فى أقصى الجنوب كانت فيها أيضا جالية كبيرة منهم .

وإذا كانت فلسطين الداخلية أصبحت تحت رحمة بابل ، فإن مدن الشاطىء كانت تحت رحمة الأسطول المصرى . وقد ذكرت لنا المصادر اليونانية أن إيريس قاد جيشا إلى فلسطين كما هزم أسطول الصيداويين فى البحر . وكان « واح – إب – رع » (إيريس) ميالا إلى اليونانيين مثل من سبقه من ملوك هذه الأسرة ، ولكن حدث فى أيامه رد فعل لهذا الإيثار للأجانب ، وبدأ المصريون يحسون أنه قد آن الأوان لوضع حد لذلك . وجاءت الفرصة عندما إستنجد الليبيون بفرعون مصر ليحميهم من تدفق اليونانيين على بلادهم بعد أن وضعوا أقدامهم هناك بعد إنشاء مدينة قورينة (١) ، وإقتسموا فيما بينهم دون وجه حق مساحات واسعة من أملاك الأهالى ، اغتصبوها ضد إرادتهم .

وكان « واح – إب – رع » مضطرا لإرسال جيش لمعاونة الليبيين ولكنه لم يرسل أحداً من اليونانيين؛ لأنه خشى ألا يحاربوا بنى جلدتهم فأرسل جيشا من المصريين ، فوقع الجيش فى كمين بسبب خيانة اليونانيين وكاد يبيده يونانيو ليبيا . وعند ذلك قامت ثورة مصر كما أعلن من نجوا من الجيش عصيانهم فأرسل « واح – إب – رع » أحد قواده المصريين لتهدئة الحالة ولكن هذا القائد وكان اسمه « أحمس » انتهز الفرصة وقبل مبايعة الجنود له بالملك ، وتقدم نحو مصر التى كانت تلتهب بالحماس ضد « واح – إب – رع » فلم يجد حوله غير اليونانيين الذين لم يستطيعوا الثبات أمام الجنود المصريين فدارت الدائرة عليهم ، وأخذوا « واح – إب – رع » نفسه أسيراً ، فأحسن « أحمس » معاملته ، وقبل أن يظل إسمه كملك للبلاد وأن يكون أحمس شريكا له فى الملك . وظل الحال على ذلك نحو ثلاث سنوات إلى أن خان « واح – إب – رع » العهد الذى قطعه على نفسه وإستعان بفلول اليونانيين فى البلاد ، وقامت حرب بين الملكين فكانت هذه المحاولة سببا فى ازدياد النقمة على اليونانيين خصوصا وأننا نعلم من النص الوارد على إحدى اللوحات الموجودة فى المنحف المصرى (٢) أن

(١) تأسست قورينة فى عام ٦٣١ ق.م. على يد دورى يسمى Battos أما الثورة فقد حدثت فى عام ٥٧٠ عندما تدفقت عليها أفواج جديدة من اليونان .

(٢) DARESSY, rec. des Trav. 1900 p. 1-9

أحمس أخذ يذكر المصريين بما أصاب مصر من كوارث بسببهم . وقد مات « واح - إب - رع » فى هذه المعركة ، وأكرم أحمس رفاته وإعتنى بدفنها العناية اللازمة .

أحمس الثانى :

وهكذا أصبح أحمس (أماريس) ملكا على مصر وحده ، ويبدأ حكمه فى عام ٥٦٨ وينتهى فى عام ٥٢٥ وكانت أول صعوبة صادفته هى تهدئة ثورة المصريين ضد اليونانيين . فقد كان يدرك تمام الإدراك أنه لا يمكن أن يطمئن على سلامة البلاد إلا بوجود الجنود اليونانيين؛ لأن الحالة فى غربى آسيا كانت وصلت إلى أبعد حد من السوء ضد مصر ، كما أن قوة اليونانيين بوجه عام إزدادت فى البحر الأبيض المتوسط ولم يكن من حسن السياسة إضعاف الجيش وجلب عداوة جميع الدويلات اليونانية وشل إقتصاديات مصر إذا تعرض للتجار الأجانب وطردهم من البلاد .

واستطاع أحمس أن يخرج بلباقة من كل هذه المآزق فأرضى شعور الوطنيين من رجال الجيش باستدعاء اليونانيين من الحاميات التى على الحدود وأرسل المصريين ليحلوا محلهم ، ولكنه لم يسرح اليونانيين بل تركهم يعيشون فى منف وأرضى شعور التجار المصريين الذين كانوا يغيرون من ثراء اليونانيين ومنافستهم بجمعه التجار اليونانيين فى مكان واحد فى مدينة « نوكراتيس » فى غربى الدلتا ، وأرضى اليونانيين بأن سمح لهم أن يحيلوها إلى مدينة يونانية بالمعنى الكامل ، وأن يقيموا فيها معابدهم وأسواقهم ، وسرعان ما ازدهرت هذه المدينة وأصبحت مركزا رئيسياً للتجارة بين مصر وبلاد اليونان وغيرها .

وكان أحمس رجلا لبقا يحسن مقابلة الناس ، وكان ينصرف إلى عمله أثناء النهار فإذا ما انتهى من ذلك ترك لنفسه العنان بين أصدقائه المختارين فى مجالس الشراب . وقد أطال هيرودوت فى وصف هذه الناحية من أخلاقه ، فهو سياسى داهية ولكنه عربيد لطيف جميل المعاشرة ، وبخاصة مع أصدقائه من كبار القواد أو التجار اليونانيين الذين كانوا يأتون إلى مصر .

وعرف أحمس أن الخطر كان كامنا عن يمينه وعن يساره ، فأما عن خطر الغرب فقد حصن أحمس حدوده وأنشأ حاميات كثيرة على الشاطىء . وفى الواحات ، وشجع إقامة الناس فيها ، وبنى المعابد فى سيوة وفى البحرية وفى الخارجة [١] ليجعل

(١) كان « بسمتك » و « واح - إب - رع » قد فكرا أيضاً فى تعمير الواحات البحرية وأقاما فيها المعابد مثل أحمس الثانى فيما بعد .

AHMED FAKHRY, Bahria Oasis Vol I p. 20-22, Vol II 9-24, 75

من الواحات الحصون الأمامية إذا جد خطر وحدثت مهاجمة لمصر من يونانيي ليبيا . أما فى الشرق فكان الأمر مختلفا إذ كانت الدولة البابلية تمد بصرها نحو مصر نفسها ، واضطر أحمس لأن يخوض معركة فى أوائل سنى حكمه فى فلسطين وهزم العدو جنوده الأغريق . ولكن جيوش بابل لم تستمر فى هجومها على مصر . ومع ذلك فقد ظل الخطر كامنا وإستعد أحمس له باحتلال أسطوله لجزيرة قبرص ، كما عقد محالفة مع « كرويسوس » ملك ليديا ، وأنهى نزاعه مع قورينة فصالحهم وتزوج أميرة منها .

نجحت سياسة أحمس كل النجاح ، وقضت مصر عهداً مزدهراً فى كل ناحية ، وأثرت البلاد إثراء كبيراً من التجارة ، وإستقرت فيها الأمور ، ولكن فى العام الأخير من حياته أخذت السحب تتجمع ، وكانت العاصفة على وشك الانقضاض على مصر ولكنه مات قبل أن تتعرض مصر لهذا الخطر فكان نصيبه خليفته « پسمتك الثالث » التعرض لهذه الكارثة .

پسمتك الثالث :

قضى أحمس الثانى ثلاثة وأربعين عاما على العرش ، وكان الخطر فى أوائل أيام حكمه آتيا من ناحية مملكة بابل ، ولكن قبل أن يموت أحمس بثلاثين عاما كانت الأمور فى غربى آسيا قد بدأت تأخذ طريقا آخر وذلك راجع إلى ظهور ملك جديد للميديين فى إيران إسمه « قورش » (Cyrus) استطاع فى عام ٥٥٥ أن يصبح الحاكم المطلق للميديين فى بلاد الفرس ثم انقض كالصاعقة يزيل كل من اعترض طريقه فاستولى على ليديا وأسر « كرويسوس » كما استولى على مدينة بابل فى عام ٥٣٩ وأصبح سيد غربى آسيا دون منازع ، ولكنه ظل حيث كان ولم يرم ببصره نحو مصر إلى أن مات حوالى عام ٥٣٠ أى قبل موت أحمس بنحو خمس سنوات .

وأخذ خليفته وابنه قمبيز يعد العدة لإتمام ما بدأه أبوه . فأخضع باقى دويلات آسيا الصغرى والجزر اليونانية . وجمع جيشا كبيرا فى آسيا لمهاجمة مصر ، وكان أحد القواد اليونانيين من جيش أحمس قد فر إلى قمبيز وأخذ يغريه بمهاجمة مصر ويرسم له الخطة ويدله على مواطن الضعف فى استحكامات البلاد . ولم تطل حياة أحمس ليرى هذا الهوان إذ مات فى العام الذى قرر فيه قمبيز مهاجمة مصر فسار الجيش تحت قيادة الإغريقى الخائن فكانت أول معركة تقابل فيها جيش الفرس مع جيش مصر عند پلزيوم (تل الفرما) . وبالرغم من جيوش استبسال المصريين ومأجورى اليونانيين وحسن دفاعهم تغلبت عليهم جيوش الفرس فارتدوا إلى منف وتحصنوا فيها فتبعتهم جيوش الفرس إلى هناك وأخيراً اضطر المصريون إلى التسليم .

وكان قمبيز مع جيشه فى مصر فأكرم پسمتك الثالث وأحسن معاملته وأطلق سراحه ، ولكن بسمتك حاول مرة أخرى أن يثير الشعور ضد قمبيز فقبض عليه فانتحر. وبعد ذلك سار قمبيز واستولى على طيبة وبعد أن استتب له الأمر أعد جيشين أرسل أحدهما إلى الواحات لكى يحطم معبد آمون فى واحات سيوة أما الآخر قاده بنفسه ليستولى على بلاد كوش (أثيوبيا) . وهكذا انتهت أيام الأسرتين الخامسة والسادسة والعشرين وصارت مصر فى عام ٥٢٥ قبل الميلاد محكومة بجيش أجنبى وهو جيش الفرس ، كما رأت أن هذا العدو الجديد أخذ يمد ببصره نحو الجنوب ليقضى على مملكة نپتا ويضم السودان إلى إمبراطوريته الواسعة .

*** الفصل العاشر ***

مـــــد وجـــــزر

الفترة بين قمبيز والإسكندر الأكبر

(٥٢٥ - ٣٣٢ ق.م.)

الأسرات السابعة والعشرون حتى الثلاثين

الأسرة السابعة والعشرون (٥٢٥ - ٤١٥ ق. م.)

قمبيز فى مصر :

لسنا نعرف عن أخبار الفتح الفارسى لمصر من المصادر المصرية إلا قليل ، وبخاصة ما أشار إليه ، وجا - حر - رسنت ، على تمثاله المحفوظ الآن فى متحف الفاتيكان (١) من أمر كان مرعى الجانب فى بلاط قمبيز وأنه كان أميراً على الأسطول المصرى وأنه إستطاع أن يجعل قمبيز ذا عواطف طيبة نحو مصر وآلهتها وبخاصة صان الحجر التى قامت فيها ثورة (وهو يشير بذلك طبعاً إلى مقاومة المدينة للأجانب عند دخولهم إليها) لم يكن لها شبيه . ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص ممن إنضموا إلى قمبيز ، وتعاون مع الفرس الفاتحين وكان عوناً لهم فى حكم البلاد . أما هيرودوت فيروى رواية أخرى مختلفة فيقول إن الفاتحين عاثوا فى الأرض فساداً وأن قمبيز أساء معاملة الكهنة والآلهة ، بل يعزو إليه أنه قتل العجل أبيس . ولكننا لا نستطيع أن نوفق بين الروايتين فى أن ما ذكره هيرودوت فى إساءة معاملة المصريين وتخريب المعابد كان صحيحاً فى البداية . كما أن رواية ، وجا - حر - رسنت ، صحيحة أيضاً بعد أن هدأت الحالة؛ لأنه يذكر أن قمبيز أمر بطرد المعتدين من المعابد وإخراجهم منها بعد أن إستقروا فيها ، كما أمر بإصلاحها مما يثبت أن جنوده عسكروا فى هذه المعابد بعد نهبها ، كما أنه يجب ألا يغيب عن ذهننا أن العداء كان مستحكما بين الفرس واليونان ، ولسنا نتوقع من يونانى أن يكيل المدح لعدوه أو يغمض العين عن مساوئه .

(١) G. POSENER. La Premiere Domination Perse Egypte (Bibl. d'Etudes. XI) Le Caire 1936. P. 164-171.

هذا الكتاب هو أهم المصادر عن دراسة هذه الفترة من تاريخ مصر وجمع فيه كاتبه بيانا بكل آثار هذا العصر .

أما عن الجيشين اللذين خرجا من طيبة إلى إثيوبيا وإلى الصحراء الغربية فإن قمبيز نفسه كان على رأس أولهما وقد بالغ هيرودوت فى قص قصة هذا الجيش وما لقيه من مخاوف ثم جاء استرابون فزاد فى الرواية وتفنن فيها . وعلى أى حال فإن هذا الجيش قد ذهب حقيقة إلى الجنوب ووصل إلى مروى [١] ، ولكنه أصيب بهزيمة كبيرة على يدى ملوك نبتا الذين إلتقوا بهذا الجيش بعد أن خارت قواه وأصابه الجوع والخوف والتعب .

أما الجيش الآخر فكان نصيبه أسوأ من نصيب الأول إذ أنه خرج من طيبة فوصل إلى الواحات الخارجة بعد سبعة أيام ومكث هناك بعض الوقت وأخذ معه ما يلزمه من مؤونة وأدلاء ، وذهب فى طريقه إلى واحة سيوة . ولكن هذا الجيش بأكمله هلك فى الصحراء ولم يعد شخص واحد منه إلى الخارجة أو يصل جندى واحد إلى سيوة ، ومازال هذا الجيش مطموراً تحت رمال الصحراء الغربية حتى الآن . والسبب الذى دعا إلى غزو أثيوبيا كان دون شك الطمع فى ثروتها وذهبها وحب الغزو والفتح ، أما سبب إرسال جيش على سيوة فكان له دافع آخر . كان العالم القديم إبتداء من القرن السابع قبل الميلاد يؤمن إيماناً كبيراً بنبوءات الوحى التى تأتى من بعض المعابد واشتهرت فى بلاد اليونان وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط بعض مراكز للنبوءات كان يؤمن بها الناس إيماناً أعمى واشتهرت من بينها شهرة كبيرى نبوءة آمون فى سيوة ، التى كان يحج إليها حكام وقواد بلاد اليونان يسألونها عن المستقبل فتحققت نبوءتها . وسئل كهنة آمون فى سيوة عن قمبيز وغزو الفرس لمصر فجاء الجواب بأن الفرس سيرحلون وأن قمبيز سيلاقى سواء المصير فى القريب العاجل .

وكان التنافس شديدا بين الفرس واليونان ، ولهذا كان رد نبوءة آمون مشدداً للعزائم وداعياً إلى اتحاد الإغريق ، فأراد قمبيز أن يثبت تفاهة هؤلاء الكهنة فأرسل عليهم الجيش لهدم المعبد وقتل كهنته . ويؤكد لنا هيرودوت – الذى كتب تاريخه وزار مصر بعد خمسة وسبعين عاما من هذه الحوادث – أن كهنة آمون فى سيوة سئلوا عن مصير هذا الجيش فقالوا بأنه حدث فى اليوم الرابع بعد أن تركوا واحة الخارجة ، عندما استراحوا فى منتصف النهار ليتناولوا طعامهم ، أرسل عليهم آمون غضبه وانتقامه فقامت زوبعة رملية شديدة ردمتهم تحتها .

وسواء أصح ما ذكره هيرودوت بأن قمبيز أصابه الجنون عندما رأى فشله

(١) أحدث الأبحاث لتأكيد وصول قمبيز إلى مروى ما كتبه
G. A. WAINWRIGHT. The Date of the Rise of Meroe in JEA (38) 1952, p. 75-77.

واقترف فظائع كثيرة ، أو أنه لم يجن ، فإنا نعرف أنه لم يبق فى مصر كثيراً بعد فشله فى السودان ومات فى سورية وهو فى طريقه إلى بلاده .

دارا بن قمبيز (٥٢٢ - ٤٨٥ ق.م.) :

ترك قمبيز والياً فارسياً على مصر فجعل مركز حكومته فى منف . وما أن جاءت الأخبار بموته حتى قامت ثورة فى ليبيا فأرسل الوالى الفارسى وإسمه ، أرياندس ، حملة لتأديب العصاة فكان الفشل نصيبها ، وقتل قائدها عند عودته إلى مصر عقاباً له . ورأى داريوس (وهذا هو النطق اليونانى لإسمه) أن سياسة أبيه فى الإسراف فى الشدة كانت قاسية وأراد أن يستأنس برأى ، وجا - حر - رسنت ، فاستدعاه إلى فارس فأشار إليه بعدة أشياء أمر بتنفيذها ، ومنها إعادة النظر فى القوانين وإلغاء ما أصدره قمبيز من قانون يقضى بمصادرة إيرادات أكثر معابد مصر ، كما أمر أيضا بجمع كل القوانين التى وضعت فى مصر حتى نهاية حكم أحمس الثانى؛ لأنه أراد أن تحكم مصر بقوانينها ، وأمر أيضاً بإصلاح ما تهدم من المعابد بقدر الإمكان .. وأتت هذه السياسة الجديدة ببعض النتائج وهدأت الأمور فجاء داريوس إلى مصر عام ٥١٨ وأمر بالاستمرار فى الإصلاحات وإتمام معبد الخارجة الكبير الذى كان أحمس الثانى بدأ فى تشييده ، كما أصدر أوامره إلى الحكام الفرس بمراعاة شعور الناس وتقديم القرابين للآلهة المصرية وبخاصة العجل أبيس الذى كانت لعبادته فى ذلك الوقت الأهمية الكبرى فى عاصمة مصر ، وكان لهذا التسامح أثره بين الفرس فبدأ كثيرون منهم يعتنقون الديانة المصرية ويتسمون بأسماء مصرية .

وأراد ، دارا ، أن يضمن للفرس ميادين اقتصادية للتجارة ليخرجها شيئاً فشيئاً من أيدى اليونانيين ، فأمر بإتمام القناة التى لم يتمها ، نكاو الثانى ، فكان لهذا العمل أثر كبير فى تجارة العالم القديم .

ولم يكن من السهل أن تطأطىء مصر رأسها لهذا العدو الجديد ، ولم تخدع نفسها بالرضوخ للغاصب مقابل بعض إصلاحات أو إقامة بعض المعابد ، ولهذا ظلت شعلة الوطنية ملتهبة فى القلوب وكانت مصر تؤيد من قلبها الإغريق الذين بدأت الحروب بينهم وبين الفرس تأخذ شكلاً خطيراً ؛ لأنهم لم يكونوا مهددين بالقضاء على ثروتهم فى التجارة فقط ، بل كانوا مهددين أيضاً بغزو بلادهم ، لأن دارا أخذ يعد نفسه لهذه المهمة الكبيرة بإنشاء أسطول ضخم . وجاء عام ٤٩٠ الذى شهد هزيمة الفرس فى موقعة (ماراثون) وبدأ داريوس يعد عدته للإنتقام . ومن المحتمل أن يكون قد سحب من مصر بعض جيوشه لاستخدامها فى المعركة القادمة وكان ذلك

فى العام الرابع بعد ماراثون أى فى عام ٤٨٦ ، وعند ذلك هبت ثورة عاتية فى الدلتا ضد الفرس سببت لهم خسائرا كثيرة وجعلت اليونانيين يظهرون فرحهم الشديد ، فصمم داريوس على سحق المصريين والإغريق معا ولكنه مات فى السنة التالية قبل أن ينفذ وعيده .

خلفاء دارا وجهاد المصريين ضد الفرس :

ونفذ كسركسيس رغبة أبيه وسار فى السنة الثانية من حكمه إلى مصر وقضى عى الثورة ونشر الإرهاب فى كل مكان . وظلت قبضة الفرس قوية على عنق مصر طيلة حكمه ، ولم يكن يعزى المصريين إلا سماعهم بأخبار هزائمه فى حربه ضد اليونانيين . وكان اليهود فى إلفنتين وغيرها من المدن المصرية أعوانا للفرس ضد المصريين فى نضالهم . وأخيرا مات كسركسيس غيلة وتولى الملك بعده ابنه (ارتا كسركسيس) Atraxerxes (ارتا خشاشا) الأول فى عام ٤٦٤ ق.م. وبعد أربعة أعوام من حكمه قامت فى مصر ثورة شديدة فى عام ٤٦٠ كان على رأسها أميران مصريان استطاعا بما قدماه من مال أن يحصلا على معونة أثينا ، فأرسلت إليهما أسطولا من السفن ذات الثلاث طبقات وصلت من البحر الأبيض المتوسط حتى منف . وكان لهذه المعونة أثرها فى انتصار المصريين على الجيش الكبير الذى أرسله ارتا كسركسيس وكان مكونا من ٤٠٠,٠٠٠ جندى ، ففرت بقية هذا الجيش إلى منف حيث تحصنوا فى جزء منها ، وحاصرهم المصريون مدى ثمانية عشر شهرا حتى وصلت إليهم نجدات أخرى . ولم يتمكن المصريون وحلفاؤهم من الإستمرار فى القتال فتركوا الحصار وعاد الأسطول من مصر فى طريقه إلى بلاده . ولكن الثورة ظلت مستمرة ومات أثناء ذلك أحد الأميرين فظل الآخر وكان اسمه (أمون – حر) على رأس رجاله ينازل الفرس ويجالدهم ويثير الشعور القومى . وكثيراً ما كان يعتمد على أثينا ، فتارة كانت تلبى نداءه ، وتارة أخرى تخيب ظنه وتتركه وحده .

وأخيراً جاء عام ٤٤٩ الذى عقد فيه الصلح بين أثينا وفارس ورأى الفرس أن الفرصة سانحة أيضاً لإنهاء الأثر السيء الذى أحدثته قسوتهم فى مصر وأرادوا إرضاء الشعور المصرى بتعيين ابنى زعيمى الثورة فى مكانى أبيهما ولكن الثورات استمرت ، وحتى بعد موت ارتا كسركسيس فى عام ٤٢٤ واجتهاد ابنه داريوس الثانى فى مراضاة المصريين فإن الحالة لم تهدأ . وأخيرا تحرجت الأمور وأصبحت الثورة عامة فى عام ٤١٠ وهى الثورة الكبرى التى اتخذت شكل حرب مستمرة انتهت بتحرير مصر .

الأسرة الثامنة والعشرون
(٤٠٤ - ٣٩٨ ق.م.)

استقلال مصر :

ولسنا نعرف شيئاً كثيراً لسوء الحظ عن الثورة العامة التى إجتاحت مصر وأخذت تتسع حتى أصبحت نضالا سافراً عنيفاً بين مصر وبين عدوها . وكل ما نعرفه أنه فى عام ٤١٠ وهو عام بدء الثورة أحس المصريون أن موقف اليهود منهم أصبح لا يطاق ، ولهذا كانت الشرارة الأولى موجهة ضد يهود إلفنتين فهدموا معبدهم هناك ، وتفرق كثير منهم ، وانتشرت الحرب بعد ذلك فإستمرت ست سنوات حتى تحررت مصر فى عام ٤٠٤ ، وفى عام ٤٠٧ ق.م. كان يهود إلفنتين قد أخذوا يبذلون مساعيهم لإعادة بناء معبدهم الذى هدم وحرق ونهبت محتوياته إنتقاما منهم ومن مظاهرتهم للفرس ، وأخذوا يكتبون الرسائل إلى جميع زعماء اليهود فى الشرق يطلبون مساعدتهم فى ذلك ليبذلوا نفوذهم لدى حماتهم الفرس ليسمحوا لهم بإعادة تشييده ، متعهدين ألا يحرقوا فيه أي مأكولات إرضاء لديانة الفرس التى كانت تحرم تنجيس النار إذا وضعت فيها أو لامستها جثث حيوانات ميتة .

وعثر فى خرائب إلفنتين ، حيث كانت تقيم تلك الجالية ، على كمية من أوراقها وفيها صور من تلك المراسلات التى تذكر أن حرق معبدهم كان فى العام الرابع عشر من حكم داريوس ، وأن الذى أصدر الأمر بحرقه شخص يسمى « ڤيدارانج » ، وكان زعيم الجالية اليهودية يسمى « يدونياه بن جمارياه » وكان يكتب باسم الجالية كلها . ومن بين رسائله واحدة ربما كانت موجهة إلى الحاكم الفارسى يعرض فيها بإسمه وإسم جميع الزعماء اليهود أن يدفع له فى منزله كمية من المال (فقد الرقم لسوء الحظ) وألف أردب من الشعير كرشوة له إذا سمح لهم بإقامة ذلك المعبد فى مكانه (١) .

الملك أمون حر : ٤٠٤ - ٣٩٨

كان قائد الثورة هو « آمون - حر » الذى أصبح ملكا على البلاد كلها بعد طرد الفرس وأصبح المؤسس والملك الوحيد للأسرة الثامنة والعشرين التى كان مقرها فى مدينة سا (سايس - صا الحجر) .

(١) أهم تلك الرسائل المكتوبة باللغة الآرامية ترجمها حديثا جنزبرج ترجمة دقيقة وهى منشورة فى كتاب Ancient Near Eastern Texts, p. 491-492 .

اعترفت مصر كلها له بالسيادة وإعتبرته منقذها من الطغاة ، وذكره كتاب اليونان ، ولكنا لسوء الحظ لم تصلنا آثاراً مهمة من عهده ، والأثر الوحيد المؤرخ هو إحدى البرديات الآرامية من إلفنتين ، كانت بين أوراق الجالية اليهودية التى عاشت هناك ، وهى مؤرخة فى السنة الخامسة من حكمه .

ورفق المصريون بمن بقى من اليهود وتركوهم يعيشون حيث كانوا . ولكن بعد حكم « آمون – حر » إنتقل الملك إلى بيت آخر ، وملوكه هم الذين أسماهم مانيتون ملوك الأسرة التاسعة والعشرين .

الأسرة التاسعة والعشرون : (٣٩٨ – ٣٧٨ ق.م.)

كانت الأسرة الجديدة من مدينة مندس (تل الربع وتمى الأمديد) ويظهر أنه لم تكن هناك حروب عند انتقال الملك من بيت إلى بيت ، وربما كان « نايف – عاو – رود » ويسميه اليونانيون « نفريتس » (Nepherites) من زملاء « آمون – حر » فى الجهاد فى حرب التحرير ، وقد حكم نفريتس ست سنوات أيضاً (من ٣٩٨ – ٣٩٢) وكان أهم أعماله التى أراد القيام بها هو تحالفه مع الإسبرطيين ضد الفرس إذ أرسل إليهم قمحا ، وكل ما يكفى لإنشاء ١٠٠ سفينة من السفن ذات الثلاث طبقات ، ولكن التنافس المرير بين أثينا وأسبرطة كان سببا فى تحطيم هذا الأسطول ، وكان هذا سبباً فى اقتصار نفريتس على إصلاح داخلية بلاده وترك فارس وأثينا وإسبرطة تتنازع دون أن يحاول التدخل فى شئونها .

الملك هكر (أكوريس) ٣٩٢ – ٣٨٠ ق.م.

ولكن خليفته « هكر » (١) خرج على هذه القاعدة وزج بنفسه فى مخالفات ضد الفرس ووقف إلى جانب أثينا فى نضالها . ولم يدخر وسعا فى تقديم المال والمؤونة لمعاونتها . ولم يهمل هكر إصلاح الحالة الداخلية وأنشأ آثارا عدة وأبقى الزمن على إسمه وبخاصة فى محاجر طرة والمعصرة كما عثر على بقايا هياكل له فى الكرنك وفى مدينة هابو وفى الكاب وغيرها .

ولم تكن الأعوام الأخيرة من حياته هادئة بل ربما مات مقتولا أو أسيراً إذ تلاه الملك « پى – سا – موت » (Pasamouthis) لمدة عام واحد . ثم خلفه ملك إسمه نفريتس الثانى لمدة أربعة شهور فقط وأخيراً استولى على الملك أمير قوى لعب دوراً كبيراً فى أواخر أيام هكر ، ولم يكن غريبا عن الإرتباك الذى حدث ، وهذا الحاكم الجديد هو « نخت – نيف » الأول مؤسس الأسرة الثلاثين .

(١) يرجح أنه كان بين نفريتس واكوريس حكم قصير لمدة لا تزيد عن سنة واحدة لملك يسمى « موتيس .. ؟ » كما يضع بعض المؤرخين پى ساموت قبل هكر .

الأســـــرة الثلاثـــون

(٣٧٨ - ٣٤١)

كـان إسـتـيـلاء ، نخت نبف ، (نخـتـنبـو Necktanebo) على العرش إيذانا بانتصار الحزب المصرى الذى أخذ يضيق ذرعا باليونانيين الذين أظهروا كثيرا من التلون أثناء نزاع مصـر مع الفرس ، وأثبتوا أيام هكر أنهم غير جديرين بالإعتماد عليهـم . ومن المحـتمل جـدا أن يكون ، نخت نبف ، وصل إلى الملك بمعونة الكهنة وبخاصة كهنة صا الحجر الذين كانوا أغنى وأهم كهنة مصر فى ذلك العهد ، ولهذا كـان أول عمل قـام به أنه خـصص لهم عشـرات الضـرائب المحـصلة على تجـارة نوكراتيس (نيوت - كارت) وصناعتها . وظهرت نتيجة مؤامرة اليونانيين على مصر عندما وجدت نفسها وجها لوجه أمام غزو فارسى جديد كان قوامه جيش جمعه الوالى الفارسى فى سورية وكـان عدد رجالـه ٢٠٠,٠٠٠ ومـعـهم فرقة مكونة من ٢٠,٠٠٠ من مرتزقة الإغريق ، وقد تمكن هذا الجيش من الوصول إلى مصر وتوغل فى الدلتا ولم ينقذ مصر من هذا الخطر إلا فيضان النيل فوقع الجيش فى حيرة ، ولم يعرف كيف يتقدم فاضطر للتقهقر ثانية إلى آسيا .

وتمتع ، نخت نبف ، بعد ذلك بشيء من الهدوء وكان نشاطه المعمارى كبيراً فخلف آثارا كثيرة فى أكثر بلاد مصر فى الدلتا والصعيد .

وفى أواخر سنى حكمه أشرك إبنه ، جد حر ، (Teos) معه فى الحكم وكان على غير رأى أبيه فى الإغريق ، فعاود صلته بهم ولم يكد ينفرد بالحكم فى عام ٣٦١ حتى نراه قد أصبح حليفاً لإسبرطة ، وساعده ذلك على تأليف جيش وأسطول من الإغريق المرتزقة فتكلف مبالغا طائلة حصل عليها من فرض الضرائب وإلغاء إمتيازات كهنة صا الحجر . وأخيراً إستولى على جميع ما فى المعابد من معادن نفيسة ليسك منها عملة يدفع منها مرتبات المرتزقة من جنوده . وكان غرض ، جد حر ، من ذلك جمع جيش كبير ليسير به إلى أسيا ليسحق الفرس وقد نجح فى جمع جيش كان فيه ٨٠,٠٠٠ جندى مصرى ، ١٠,٠٠٠ من المرتزقة الأثينين ، ١٠٠٠ من جنود إسبرطة وكان معه أيضا أسطول يزيد عدد سفنه على مائتى سفينة من ذات الثلاث طبقات ، وتقدم ، جد حر ، على رأس جيشه العظيم واثقا من النصر بعد أن ترك أخاه نائبا عنه فى الحكم .

وسار الجيش ، وارتعدت فرائص الفرس هناك ، وكانت مصر على وشك أن تعيد ممتلكاتها فى فلسطين وسورية لولا خيانة أخيه إذ تآمر عليه فى غيابه وأرسل سرا

إلى إبن « چد حر » وهو نختنبو الثانى ، وكان مع الجيش فى سورية ، يبايعه بالملك ويطلب منه العودة . عاد الأمير الشاب ومعه الجنود الإسبرطيون وجزء كبير من المصريين فلما رأى الأثينيون ذلك عادوا بدورهم إلى بلادهم فيلس « چد حر » بعد أن رأى خيانة إبنه وأخيه وجنوده له ، فإتخذ قرارا غريبا وإلتجأ إلى ملك الفرس .

نختنبو الثانى (٣٥٩ - ٣٤١ ق.م.)

لم يكد نختنبو الثانى يعود إلى مصر حتى واجهته فتنة كبرى إذ أراد أحد سلالة الأسرة التاسعة والعشرين من مندس أن ينتهز فرصة هذا الشقاق وينتزع الملك ليعيده إلى بيته . وكاد ينجح فيما أراده ولكن نختنبو الثانى إستطاع بمساعدة أصدقائه الإسبرطيين من القضاء على الفتنة . وجلس نختنبو الثانى على عرش أبيه . وبدأت مصر فى عهده فترة زاهرة فى حياتها ، وبنى هذا الملك كثيرا من المعابد فى جميع أرجاء البلاد وأظهر المهندس والفنان المصريان أن الجذوة لم تزل متقدة فى النفوس فعاد للفن كثير من جماله وأخرج المثالون قطعا فنية تثير الإعجاب .

ونعمت مصر بالهدوء والطمأنينة ستة عشر عاما على الأقل ولكن حوالى عام ٣٤٣ أخذت السحب السوداء تتجمع فى سمائها مرة أخرى عندما صمم الملك الفارسى ارتاكسركسيس الثالث الملقب « أوخوس » على استرداد مصر . وقد حاول الهجوم على الدلتا عام ٣٥١ ولكنه آب بالفشل ثم عبأ بعد ذلك بعدة سنوات جميع قواه فكان جيشه يزيد عددا على ٣٠٠,٠٠٠ جندى ولديه أسطول من ٣٠٠ سفينة كبرى ، هاجموا مصر من البر والبحر . وكان الجيش الذى استطاع « نختنبو » جمعه لا يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ من المصريين والإغريق والليبيين فدارت الدائرة على مصر ، واحتل العدو منف وهرب نختنبو الثانى إلى الصعيد حيث استطاع أن يظل هناك كملك مصر عامين آخرين ، إلى أن كان عام ٣٤١ فأرسل الفرس حملة جديدة أتمت فتح مصر ودخلت البلاد مرة أخرى فى فترة قاسية من الخضوع للحكم الأجنبى .

الفرس للمرة الثانية فى مصر (٣٤١ - ٣٣٢ ق.م.)

لم تطأطىء مصر هامتها فى هذه المحنة الجديدة بل تجددت فيها الثورات . ومن المؤكد أن أحد أمراء الدلتا واسمه « خباشا » قاد حركة المقاومة الوطنية وأعلن نفسه ملكا على البلاد ، وقد اعترف كهنة منف به وعثر فى السرابيوم على تابوت مؤرخ فى العام الثانى من حكمه .

ونعرف من مصدر آخر ، وهو تمثال من بداية عهد البطالمة معروف بإسم

تمثال الستراپ (١) ، بأن المصريين كانوا دائمى الثورة طيلة الأعوام الثمانية التى قضاها الفرس فى إحتلالهم الثانى لمصر .

وكان نجم الإسكندر الأكبر قد بدأ يظهر فى ذلك الوقت وسار فى حملاته الموفقة على آسيا فذهب إليه مصرى من مدينة إهناسيا يسمى « تاف نخت » وكان معه فى معركة إسوس التى هزم فيها دارا الثالث ملك الفرس ، وكان « تاف نخت » (٢) هذا قد استنجد بالإسكندر لينقذ مصر مما تعانيه من ويلات . وفى نفس العام الذى إنتهت فيه معركة الإسوس سار الإسكندر فى مصر فلم يلاق عناء فى فتحها ورحب به المصريون وإعتبروه منقذا لهم مما كانوا فيه من عناء .

كان الإسكندر قائدا حربيا ممتاز ، وكان فى الوقت عينه تلميذا لأرسطو الذى ثقفه وأعده للمهمة العظيمة التى كان من نصيبه القيام بها .

وكان الإسكندر يعرف دون ريب الكثير عن أسباب تذمر المصريين من الفرس ، وكان يعرف أيضاً أنه ليس من حسن السياسة إساءة معاملة المصريين ، ولهذا نراه منذ اللحظة التى وضع فيها قدمه على أرض مصر يظهر الإحترام الكامل لعادات البلاد وديانتها ، ويقدم القرابين للآلهة المصرية . وحرص الحرص كله على أن يتم تتويجه ملكا على مصر وفق التقاليد القديمة ، وأغدق على المعابد وأمر بإصلاحها فزادت محبة المصريين له . ولم يمض عليه غير قليل حتى فكر فى إنشاء ميناء جديد على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى مكان كانت تشغله مدينة صغيرة إسمها « راقودة » فأنشأ فيها مدينته الجديدة التى سميت بإسمه ، وأصبحت ، وما زالت إلى الآن ، من أهم المدن على شاطىء البحر الأبيض المتوسط إن لم تكن أهمها . ولم يكتف الإسكندر بتتويجه فى منف وهليوبوليس بل زار معبد آمون فى سيوة حيث إستقبله كبير كهنتها ورحب به كإبن آمون وهى الزيارة التاريخية التى تركت أثراً كبيرا فى نفس الإسكندر إلى يوم موته .

دخلت مصر منذ ذلك العهد فى دور جديد من أدوار تاريخها خصوصاً بعد تأسيس أسرة البطالمة . ونترك ذلك كله الآن ونقف عند هذا الحد من تاريخ مصر بعد أن رأينا كيف تمتعت مصر بإمبراطوريتها العظيمة فى بعض الفترات ورأينا ما أصابها

---

(١) عن تمثال الستراب SETHE, Urkunden II, 11-12 .
أما عن تابوت خباشا فأنظر Ibidem, 16 - 18 .
(٢) SCHAEFER, Aegyptiaca, Festschrift für G. Ebers, p. 92 ff. ; Urkunden II. p. ff.

من ويلات فى فترات أخرى ، لكنا رأينا أيضاً كيف كانت مصر تخرج من هذه المحن، وقد أسخنتها الجراح ولكنها كانت لا تلبث حتى تسترد عافيتها وتقوم من كبوتها وتستأنف نشاطها القديم .

وقفت فى سرد قصة « مصر الفرعونية » عند زيارة الإسكندر لمصر وتأسيس أسرة البطالمة ، فهل معنى ذلك أن مصر الفرعونية قد إنتهت عند ذلك التاريخ ؟ الجواب بالنفى ، فإن مصر الفرعونية لم تنته بإنتهاء الأسرة الثلاثين ، وإنما يرجع ذلك إلى تقسيم تاريخ مصر الطويل إلى فترات محددة . وإذا كان ملوك البطالمة قد انحدروا من جد كان أصله أجنبيا عن مصر ، فإنا نعلم أنهم تمصروا مع مرور الزمن ، ولم يعرفوا لهم وطناً غير وادى النيل ولم يكن لهم ديانة غير ديانة المصريين ، ونعرف أيضاً أن آخر من حكم من هذه الأسرة وهى الملكة كليوباترة الشهيرة التى وضعت حدا لحياتها فى عام ٣٠ ق.م. ، أى عند دخول الرومان إلى مصر ، كانت مصرية صميمة فى سياستها وفى أهدافها ، وفى محاولتها القضاء على نفوذ روما وسلطانها .

وإذا كانت مصر قد آمنت بعد ذلك بالمسيحية ونبذت عنها ديانتها القديمة ، ثم فتحت ذراعيها بعد ذلك لدين الإسلام ولغة العرب فإن ذلك لا يعنى أنها تخلصت من تاريخها أو تقاليدها أو أن روح مصر الفرعونية قد عفا عليها الزمن .

إن تاريخ مصر باق وخالد ؛ لأنه مرتبط بأرضها المباركة ، وسيحافظ عليه المصريون ويقبلون دائماً على دراسته وسيذكرون فى كل لحظة أولئك الأجداد الذين عاشوا قبلهم فوق أرض هذا الوطن العزيز ، وسيعتزون بتاريخهم ومجدهم وما ساهموا به فى تقدم الجنس البشرى .

خاتمة

لقد مررنا بتاريخ مصر مروراً سريعاً ووقفنا فى سرد قصتها عند بعض الحوادث ، ولم نشر إلى البعض الآخر . وبين الحين والحين تكلمنا بإيجاز عن بعض مظاهر حضارتها وحاولنا أن نشير إشارات عابرة إلى ما توصل إليه المصريون القدماء فى بعض نواحى مدنيتهم ، على قدر ما يسمح به النطاق الضيق لهذا الكتاب .

وتبقى بعد ذلك كله نقطة أخرى وهى فضل الحضارة المصرية على غيرها من الأمم . فما من شك فى أن المصريين القدماء قد حققوا الكثير من التقدم فى مختلف ميادين الفكر والفن والعلم والأدب والصناعة والزراعة . ولا شك أيضاً فى أن ثقافتهم قد وصلت إلى غيرهم من الشعوب ولكن ما هو الدين الذى تدين به الإنسانية لمصر ؟ وما هو الدور الذى قامت به مصر فى تقدم الجنس البشرى ؟ وما هو أثرها المباشر على الحضارة الغربية بوجه عام ؟ الجواب على هذه الأسئلة يحتاج إلى كتاب كامل بل ولأكثر من كتاب ، ويكفينا أن نشير فقط إلى بعض تلك الأفضال . ففى ميدان الكتابة توصل المصريون القدماء إلى إختراعها قبيل الأسرة الأولى أى قبل أكثر من خمسة آلاف سنة ، وإستخدموها فى حياتهم اليومية وتركوا وراءهم الكثير مما ساعدنا على معرفة الحياة التى يحيونها فى ذلك العهد البعيد . فعلى جدران مقابرهم نرى ما كانوا ينتجونه من مصنوعات مختلفة ، كما نقرأ فى ألقاب رجالهم الكثير الذى يدلنا على تقدم فن الإدارة فى البلاد والإهتمام بشكل خاص بنظم الرى وحفر القنوات وكل ما من شأنه تقدم الزراعة وأساليبها . وقسموا السنة الشمسية إلى ثلاثة فصول وقسموا هذه الفصول مجتمعة إلى إثنى عشر شهراً وقسموا كل يوم إلى أربع وعشرين ساعة ، وكانوا أيضاً أول من إخترع المزاولة والساعة المائية لتقسيم ساعات النهار وساعات الليل . ولكن إلى جانب هذا التقدم فى الزراعة وأساليبها وحساب الأيام والسنين ، كانت هناك ميادين أخرى كالطب الذى تقدم فيه المصريون منذ عهد بعيد ، إذ نعرف منذ منتصف الأسرة الرابعة أى منذ أكثر من ٤٥٠٠ سنة أنهم عرفوا التخصص فى فروعه فكان هناك أطباء مختصون بالعيون وآخرون مختصون بالأمراض الباطنية ، كما استطاع أطباء الأسنان أن يقوموا بإجراء بعض العمليات الدقيقة فى الأسنان . وكان لاختراع المصريون لورق البردى وإستخدامه فى الكتابة أثر كبير فى تقدم العلوم إذ حرص المصريون منذ الدولة القديمة على عمل نسخ من المؤلفات

الهامة فى مختلف العلوم والإحتفاظ بها ، فضلا عن إستخدامه فى رسائلهم وأعمالهم الإدارية .

وقد لعب البردى دورا كبيرا فى نشر العلوم والآداب فى العالم القديم ومازال اسمه على لسان كل غربى عندما يشير إلى الورق ، فإن إسمه فى اللغات الغربية مشتق من كلمة « پاپيروس » وهو الإسم اليونانى لهذا النوع من النبات (البردى) الذى استخدم المصريون أليافه لصنع البرديات . ويعرف كل طالب غربى أن أبجديته التى يستخدمها كل يوم فى كتابة رسائله أو إستذكار كتبه تسمى الحروف اللاتينية . وأنها مأخوذة عن الرومان ويعرف بعضهم أن الرومان قد أخذوها بدورهم من اليونان بل وربما عرف بعضهم أيضاً أن اليونان بدورهم قد أخذوها عن الفينيقيين وهم شعب سامى الأصل كان يقطن الساحل السورى فى جزء من لبنان الحالى . ولكن الذى يتتبع هذا الموضوع أكثر من ذلك يصل إلى نتيجة هامة وهى أن الأبجدية الفينيقية استمدت أصولها من بضع مصادر أهمها الكتابة المصرية .

وقد عثر فى شبه جزيرة سيناء على نقوش عرفنا منها أصول كثير من الحروف الفينيقية وصلتها بالكتابة المصرية . وقلما يدرك الغربى الذى يقف معجبا أمام الآثار المصرية ، يتطلع إلى ما عليها من كتابة تصور بعض الأشياء المستخدمة فى الحياة وصور الطيور والحيوانات ، أن بعضها هو الأصل الذى نقلت عنه بعض حروفه التى يستخدمها كل يوم ، والفضل فى هذا إنما يعود إلى ذلك المصرى القديم الذى عاش منذ آلاف السنين على ضفاف النيل .

ويقف الزائر أمام الهرم الأكبر أو غيره من الآثار ، ويتطلع بإعجاب إلى عظمته ودقة بنائه وسيطرة القدماء على نحت الأحجار ونقلها ، ولكنه قلما يذهب تفكيره إلى أبعد من ذلك . فلو لم يتقدم المصريون القدماء فى فنون الرياضيات والهندسة والفلك واستخدام المعادن منذ أجيال عديدة قبل تشييد الهرم لما تمكن معماريو زوسر وسنفرو وخوفو وخفرع من تشييد أهرامهم . وقد عثر على كثير من البرديات – ولو أنها من عصور متأخرة عن الدولة القديمة – وفيها مسائل رياضية وهندسية مختلفة وحلولها .

آمنت مصر فى بداية حياتها بسياسة العزلة . واطمأنت إلى سلامتها داخل حدودها ، ولكن هذه السياسة لم تستمر طويلا وسرعان ما بدأت مصر تتصل بغيرها وتتعرف على ما يحيط بها من بلاد ، فكان رحالتها أول رحالة يذهبون إلى قلب

إفريقيا ليعرفوا الشعوب التى تعيش إلى الجنوب منهم . وما هى إلا دورة من دورات الزمن حتى أخذت الثقافة المصرية تجد طريقها إلى قلب هذه القارة ، وما زالت آثار تلك الحضارة باقية بين بعض تلك القبائل ومازال أهلها يمارسون كثيراً من العادات والشعائر المصرية القديمة حتى اليوم ، ولكن أثر مصر فى الحضارة العالمية كان أبعد وأعمق عندما إتصلت بالبلاد الواقعة إلى الشرق منها .

ألقت مصر عن كاهلها نير الهكسوس وكأن هذا الإحتلال الذى خنق البلاد وأوردها موارد الذل والهوان ، كان هو الباعث لها على نفض غبار الزمن عن كاهلها وخروجها وهى ممتلئة قوة وفتوة لتثأر لنفسها ، وتبعد الشر والخطر عن حدودها قدر ما تستطيع ، فأسست إمبراطوريتها وإتصلت بجميع مدنيات الشرق القديمة وجها لوجه ، فأعطت ما أعطته وأخذت ما أخذته . لقد تركت الديانة المصرية ، والحكم والعادات والفنون المصرية ، أثراً كبيراً فى تلك البلاد وإستمر هذا الأثر قرونا عديدة بعد زوال نفوذ مصر السياسى من تلك الأقطار .

ولمصر فضل آخر لا يمكن إغفاله . فقد أشرنا أكثر من مرة فى صفحات هذا الكتاب إلى مقابر طيبة ومعابدها وإلى ما عليها من مناظر قدوم ممثلى الشعوب المختلفة لتقديم الجزية والهدايا إلى الجالس على عرش مصر . إننا نرى فى تلك المناظر شعوب جزر البحر الأبيض وآسيا الصغرى والشاطىء الفينيقى وبلاد الرافدين وفلسطين وبلاد پونت والسودان ، وبعد ذلك مناظر شعوب البحر من الليبيين وغيرهم من الشعوب التى تحالفت معهم . نرى ممثلى تلك الشعوب يلبسون ملابسهم الوطنية ومعهم صناعات بلادهم المختلفة وأسلحتهم وخير ما كانت تخرجه تلك البلاد من محاصيل ، أو مصادر الثروة المختلفة من المعادن والأحجار الكريمة وغيرها .لقد زالت من كثير من تلك البلاد آثار تلك العصور ، ويعتمد المؤرخون عى الآثار المصرية لدراسة تلك الفترة الموغلة فى القدم ، فتمدهم بالكثير من المعلومات .

وكان نفوذ مصر الثقافى والتجارى فى فلسطين والشاطىء الفينيقى ، كبيراً منذ أقدم العصور ، وكان للديانة المصرية والأدب المصرى والغناء والموسيقى أثر مرموق فى جميع الأزمنة ، وقد زاد هذا الأثر فى أيام الإمبراطورية . وعندما قام إخناتون بدعوته الدينية ودعا إلى عبادة إله واحد فقط وهو الإله أتون ، القوة الكامنة فى قرص الشمس ، كانت تلك الدعوة هى الصيحة الأولى المعروفة فى تاريخ البشرية ،التى تقرب من التوحيد الذى جاءت به الكتب السماوية فيما بعد .

ومهما قيل عن إخناتون بأنه كان مهملا فى أمور الإمبراطورية فإن أناشيده التى تغنى بها فى مدح أتون ظلت أدبا رفيعاً سامياً تتناقله الأجيال ، ونشيده الكبير هو الأصل الذى نقل عنه الجزء الأكبر من مزمور ١٠٤ ، كما أن بردية « أمنمؤوبى » كانت أيضاً الأصل الذى نقل عنه جامع سفر الأمثال ، وبعبارة أخرى كان لمصر فضل لا ينكر على العبرانيين فى تكوين جانب من ثقافتهم ، عندما بدأوا ، فى القرن الثامن قبل الميلاد ، فى كتابة بعض أجزاء من كتاب العهد القديم .

لم يقتصر فضل مصر على نشر الثقافة والعرفان فى البلاد المجاورة لها ، بل تعدتها إلى آفاق أبعد ، وقد كان الفينيقيون يذهبون إلى أقاصى بلاد العالم المعروف ، يجوبون بحارة بسفنهم المحملة بالسلع التجارية وأكثرها من المصنوعات المصرية ، والسلع المصرية ، سواء ما كان يصنع منها فى مصر نفسها أو ما كان يقوم الفينيقيون بتقليده فى بلادهم ، وهذا يفسر لنا العثور على كثير من الآثار المصرية فى بلاد كثيرة فى أواسط آسيا وفى أوروبا ، كما يفسر لنا أيضاً إنتشار بعض مظاهر وأوضاع الفن المصرى فى بلاد بعيدة عن مصر مثل الساحل الشرقى من الهند وبعض جزر الملايو ، بل وربما أبعد من ذلك .

ويعتقد المتعلمون فى الغرب أنهم مدينون بالشىء الكثير فى مدنيتهم الحالية لمصدرين أولهما اليونان والرومان ، والثانى الكتاب المقدس . فأما الكتاب المقدس فهو نفحة من نفحات الشرق الأدنى ، وقد إستمد الكثير من أصوله من بلاد الرافدين ولكنه إستمد أيضاً الكثير من مصر ، لأن ثقافتها كانت منذ آلاف السنين هى العنصر السائد فى فلسطين وما جاورها . أما عن اليونان فقد تعلموا الكثير من مصر وإعترف الكثيرون ممن وضعوا أسس تقدمهم فى مختلف فروع الحضارة كالقانون والطب والرياضيات والموسيقى أنهم تعلموا ما نشروه بين مواطنيهم من الكهنة المصريين عندما أقاموا معهم وتتلمذوا عليهم فى مصر عدة سنوات . ولم يقتصر فضل مصر على ذلك بل أن روما تعلمت من أثينا كما تعلمت من مصر الشىء الكثير . ويكفى أن نذكر أن فضلها معترف به فى جميع الميادين ، حتى فى ميدان الدين فقد كان للإلهة المصرية « إيزيس » معابد عدة فى روما وغيرها من المدن الرومانية فى القرن الأول الميلادى فى أوروبا ، وكان يقوم على خدمة تلك المعابد كهنة من المصريين يساعدهم كهنة من أبناء البلاد ، وكانت مواكب هذه الإلهة وتمثيل قصتها كل عام ذات أثر كبير على أفكار الناس عامة فى ذلك العهد ، بل أن التمثيليات التى كانت تقام سنويا فى أعياد الآلهة ، وبخاصة تمثيلية إيزيس وأوزيريس التى كانت تمثل منذ أربع

آلاف سنة وتعتبر أقدم المسرحيات فى تاريخ العالم ، كانت الأصل للتمثيليات الدينية فى العصور الوسطى فى أوروبا ، بل ولبعض المواكب الدينية فى العصر الحاضر .

لقد قام المصريون منذ نشأة حضارتهم بدور هام فى تاريخ البشرية ، فقد إخترعوا الكثير من المخترعات التى ساعدت على تقدم المدنية ، وقاموا بدورهم فى نشر حضارتهم بين من جاورهم من الشعوب . لقد أعطى المصريون لغيرهم كما أخذوا منهم أيضا ، ومرت عليهم أيام عز وسؤدد كما مرت عليهم أيام ضعف وهوان ، ولكن الروح المصرية بقيت دائماً سليمة فى جوهرها .

ولكن لكل زمن ملابساته الخاصة به ، وما كان حسنا لمصر قبل ألف سنة أو خمسة آلاف سنة لا يمكن أن يظل حسنا أو صالحا على الدوام . إن الشعوب تبقى والمدنيات تزدهر طالما كانت مرنة وتستطيع أن تلائم نفسها مع غيرها ، وأن تتشكل حسب ما يجد عليها من مؤثرات . وإذا كان المصريون اليوم يحتفون بتاريخ بلادهم بصفة عامة ويعتزون بتاريخ مصر الفرعونية بصفة خاصة ، فما ذلك إلا لإيمانهم بأن أجدادهم القدماء قد حققوا الكثير من معجزات المدنية فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ البشرية ، وأنهم ساهموا فى تشييد صرحها ، وهذا مما يدعو إلى الفخر والإعتزاز .

إننا ما زلنا نعيش فوق تلك الأرض المحبوبة التى عاش فوقها آباؤنا ، وليس فى تلك الحقول الخضراء شبر واحد لم يمتزج ثراه بعرق أولئك الأجداد جيلا بعد جيل منذ آلاف السنين . وهذا النيل المبارك الوهاب ، مازال يسير بين الشاطئين كما فعل منذ عشرات ومئات القرون ، وتلك الآثار المنتشرة فى الوادى ، وتلك الأهرام والمعابد التى غالبت الزمن وظلت ترفع هامتها ، وتطل علينا لتذكرنا بمجد من شيدها ، إنما أصبحت جزءاً متمماً لهذا الوادى السعيد ، ولن يتم حبنا لهذا البلد العزيز إلا إذا درسنا تاريخه القديم ، وسرنا مع القدماء جيلا بعد جيل لنعرف ما مر على هذا الوطن من أحداث .

وكم من أسرات حكمت وزالت ، وكم من غزاة جاءوا وذهبوا ، وكم من عتاة حكموا ثم اختفوا مشيعين باللعنات ، وكم من حكماء وفنانين عاشوا فقراء ولكنهم تركوا ثروات خالدة بعد موتهم . لقد أصبحت المعابد الكبيرة آثاراً يزورها الناس ، ونقلت أكثر تماثيل آلهتها إلى المتاحف المختلفة فى أرجاء العالم ، ولكن بالرغم من هذا كله فإن من يزورها يتعلم الشيء الكثير . لقد سكتت أصوات الكهنة والكاهنات ،وإنقطعت المواكب وموسيقى العازفين ، ولكن صوت التاريخ ما زال يتردد بين أبهائها وحجراتها

يهتف بمجد مصر ، وكل حجر نراه فيها ليس إلا كلمة أو سطراً أو صفحة فى ذلك الكتاب الكبير الضخم الذى سطره المصريون بأنفسهم .

إن روح مصر القومية سليمة قوية ، وستظل دائماً وثابة متعطشة للتقدم . لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونيلها ، وزالت الدولة وزال الغزاة وبقيت مصر وبقى الشعب المخلص لتقاليده منذ آلاف السنين ، وستظل للمصريين تقاليدهم المجيدة طالما بقى النيل جارياً بين شاطيئه يفيض بالخير والبركات ، وهو باق بإذن الله إلى أبد الآبدين .

بعض المراجع المهمة

أهم الكتب التى ظهرت عن تاريخ مصر باللغة العربية هى الكتب الآتية مرتبة ترتيباً أبجديا :

(١) أحمد بدو ى– فى موكب الشمس . وقد ظهر منه جزءان حتى الآن ظهر أولهما فى عام ١٩٤٦ والثانى فى عام ١٩٥٠ ، ويقف عند الأسرة العشرين .

(٢) چون ولسون – الحضارة المصرية (مترجم عن الإنجليزية ، وقد نقله إلى العربية أحمد فخرى) – ظهرت الطبعة الثانية من الأصل الإنجليزى عام ١٩٥٤ وظهرت الترجمة العربية بالقاهرة عام ١٩٥٦ .

(٣) دريوتون – ڤانديه : مصر ، (ترجمة عباس بيومى) – ظهر الأصل الفرنسى فى عام ١٩٣٨ والترجمة العربية للطبعة الثانية (فى عام ١٩٤٦) وظهرت فى عام ١٩٥٠ .

(٤) سليم حسن – مصر القديمة ، ظهر منه حتى الآن إثنى عشر جزءا ، وقد صدر الجزء الأول فى عام ١٩٤٠ والجزء الثانى عشر فى عام ١٩٥٩ ، ولم ينته مؤلفه من كتابة تاريخ مصر كله .

(٥) شارف (الكسندر) – (ترجمة عبد المنعم أبو بكر) تاريخ مصر – ظهرت الترجمة العربية عام ١٩٦٠ .

(٦) نجيب ميخائيل – مصر ، الطبعة الثانية يناير ١٩٥٧ .

أما المراجع الهامة عن تاريخ مصر فهى كثيرة ولكنى أختار منها للقارىء السبعة عشر كتابا الآتية :

(1) BREASTED J. H., Ancient Records - (= BAR) , 1906

(2) RERASTED J. H., A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest, 2nd edition, 1927 .

(3) DRIOTON, (E) et VANDIER, (J) L'Egypte ("Clio Les peuples de l'orient méditerranéenm, II) 2 nd edition, 1946 .

(4) ERMAN, A., and RANKE, H., Aegypten und Aegyptisches Leben im Altertum, 1923.

وهو مترجم إلى اللغة العربية : قام بترجمته عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال في عام ١٩٥٣ وظهر تحت عنوان « مصر والحياة المصرية في العصور القديمة» .

(5) JUNKER; H. Die Aegypter (Die Vôlker des antiken Orients : Geschichte der Fûhenden Vôlker, III), 1933 .

(6) KEES, H. Aegpten, Handbuch der Altertumswis-senschaft, III, part 1 No. 3 Kulturgeschichte des alten Orients, 1), 1933.

(7) LUCAS, A. Ancient Egyptian Materials and Industries, 3rd ed 1949.

(8) MEYER, E. Geschichte des Altertums, I-III 1925 - 1937 .

(9) OTTO, E. Aegypten, Der Weg des Pharaonenreiches 2dn edition, 1955.

(10) PETRIE, W. M. F., A History of Egypt.

(11) PORTER, B, and MOSS, R.L.B. Topographical Biliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs, and Paintings 7 Vols, 1927-1949 .

(12) PRATT, I. A. Ancient Egypt : Sources of Information in the New york Public Library, 2 Vols 1925. 1942 .

(13) SCHARFF, A and MOORTGAT A., Aegypten und Vorderasien im Altertum, 1950 .

(14) STEINDORFF, G. in Baedeker, Egypt and the Sudân handbook for Travellers. 8th edition, 1929.

(15) WEIGALL, A. E. P, A Guide to the Antiquities of Upper Egypt from Abydos to the Sudan Frontier. 1910 .

(16) WILSON, J. A The Burden of Egypt, 2nd edition, 1954 .

(17) WRESZINSKI, Atlas zur Aegyptischen Kulturges-chichte I-III 1923-1940 .

المجلات وإختصارات أسمائها :

ABH. BERLIN = Abh preuss. Akad. Wiss. Berlin = Abhandlungen der (kôniglich.) preussichen Akademic der Wissenschaften (Berlin). Jahrgang ... Philos-phisch-historische Klasse.

AJSLL = The American journal of Semitic languages and Literatures.

AJOS = The American journal of oriental Studies.

ASAE = Annales du Service = Annales du service des Antiquités de l'Egypte.

BIAFO = Bulletin de l'Institut francais d'archéologie orientale du Caire.

BMFA = Bulletin of the Musum of Fine Arts, Boston.

BMMA = Bulletin of the Metropolitan Museum of Art.

JEA = The Journal of Egyptian Archaeology .

JNES = Journal of Near Eastern Studies .

REC. TRAV = Recueil de Travaux relatifa 'a la philologie et 'a l'archeologie égyptienne et assyriennes.

UrK = Urkuden = Urkunden des aegyptischen Altertums .

ZAS = A. Z = Zeitschrift fûr aegyptische Sprache und Altertums kunde.

Aegypt Zeitschr. =

يجد القارىء فى صفحات الكتاب كثيرا من المراجع مذكورة فى الهامش عند مناقشة بعض النقط وسأذكر هنا مراجعا أخرى لأجل فائدة القارىء الذى يريد المزيد من الإطلاع ، وسأقتصر على أهمها .

الفصل الأول

" مولد الحضارة ونشأتها "

- عن چيولوچيا القطر المصرى :

HUME, W. F., Geology of Egypt (Survey of Egypt) 2 vols Cairo 1925-1935 .

- عن الجغرافيا بوجه عام :

BALL, J., Contribution to the Geography of Egypt (Survey and Mines Department), Cairo.

- Egypt in the Classical Geographers (Survey of Egypt), Cairo 1942.

KEES, H. Das Alte Aegypten, Eine kleine Landeskunde, Berlin 1955.

PASSARGE, S. Die urlandschaft Aegyptens, Halle, 1940.

- عن التاريخ وحساب الزمن :

PARKER, R. The Calendars of Ancient Egypt, chicago. 1950.

- عن حضارة الفيوم :

CATON - THOMPSON, G., and GARDNER, E. W., The Desert Fayoum, 2 vols, London 1934.

- عن حضارة مرمدة :

JUNKER, H., Vorbericht die Grabungen auf des neolithichen Siedlung von merimde-Benisalâme, (Anzeiger der philosphich-historische Klasse des Akademie des Wissenschaften in Wien 1929, 1929, 1930, 1932, 1934).

- اقرأ عن حضارة عصر ما قبل الأسرات بصفة عامة الكتب الثلاثة الآتية :

BOVIER - LAPIERRE, P., " L'Egypte Pr´ehistorique", Précis de l'histoire d'Eygpte, T. I. Cairo 1932.

SCHARFF, A., Grundzûge des aegyptischen Vorgeschichte (Morgenland. Darstellungen aus Geschichte und Kultur des alten Orients, No. 12), Leipzig, 1927.

HUZAYYIN, S. A., The place of Egypt in prehistory (Mémoires présentés 'a g'Institut d'Egypte, XL III), Cairo 1941 .

أما كتاب BAUMGAERTEI, EJ. The Cultures of prehistoric Egypt Oxford, 1947.

فيجب عدم الأخذ بكل ما ورد فيه من آراء ، فمن بين تلك الآراء ما لا يمكن التسليم به، وفى الوقت ذاته فقد حوى معلومات كثيرة هامة .

– عن حضارة البدارى :

BRUNTON, G. and CATON - THOMPSON G, The Badarian Civilization and Predynastic Remains near Badari, London. 1928.

– عن حضارة المعادى :

MENGHIN, O. and AMER, M. The Excavations of the Egyptian University in the Neolithic Site at Maadi, 2 vols Cairo 1932, 1936.

وارجع أيضاً إلى ما كتبه الدكتور إبراهيم رزقانة عن المعادى وغيرها من المناطق فى مؤلفه عن حضارات عصر ما قبل الأسرات .

– عن أقدم الصلات بين مصر وآسيا :

SCHARFF, A., 'Neues Zur frage des âltesten Aegyptisch - Balylonischen kulturbezeihungen", A. Z., LXXI (1935) pp. 89-106.

Die frûhkulturen Aegyptens und Mesoptamiens (Der alte Orient, Vol 41) Leipzig 1941.

KANTOR, h.J., "The Early Relations of Egypt with Asia" JENS , 1 (1942), pp. 174-213.

FRANKFORT, H. J., The birth of Civilization in the Near east, 1951.

CHILDE, V. G., new Light on the most Ancient East, 4th edition, 1952

الفصل الثاني

" عصر الأسرات المبكر أو العصر العتيق "

- عن تاريخ وآثار هذه الفترة من تاريخ مصر اقرأ المراجع العامة ، والكتب الآتية وقد حوت أسماء كثير من المقالات والأبحاث والكتب الأخرى :

SETHE, K., Beitraege zur aeltesten Geschichte Aegyptens (Untersuchungen III), Leipzig, 1905

WEILL, R., La IIe et IIIe dynasties, Paris 1908.

QUIBELL, J.E., Hierakonpolis, 2 Vols 1900, 1902. -------, Archaic Mastabas, Cairo 1947.

SAAD, Z.Y., Royal Excavations at Saqqara and Helwan (1941 - 1945), Cairo. 1947.

أما عن مقابر هذا العصر فى أبيدوس وسقارة وطرخان فيمكن الرجوع إلى مؤلف پورتر - موس أو مؤلف پرات (أنظر المراجع العامة) .

الفصل الثالث

" الدولة القديمة "

- عن آثار زوسر ومجموعة الهرم المدرج :

كتب فى ذلك فيرث وكويبل ، ويكفى أن نذكر هنا مؤلف لاور فقد حوى ما سبق أن كتبه من كانوا قبله وقد أشار إلى مؤلفاتهم .

LAUER, J . P . La Pyramide 'a degrés, 3 Vols, Cairo, 1936-1939.

- عن الأهرام بوجه عام ، ويشمل ذلك الهرم المدرج وأهرام الدولة القديمة والوسطى ، اقرأ :

EDWARDS, I.E.S., The Pyramids of Egypt (Penguin Books), 1947.

وقد ترجمه إلى العربية مصطفى أحمد عثمان ونشرت الترجمة بعنوان أهرام مصر - القاهرة (مشروع الألف كتاب عام ١٩٥٦)

LEUER, J.P., La Probléme des pyramides d'Eygpte: Paris 1948.

PETRIE, W.M.F., The Pyramids and Temples of Gizeh, London 1883.

GRINSELL, L.V., Egyptian Pyramids, 1947.

- عن عمارة الدولة القديمة

RICKE, H. Bemerkungen zur ägyptischen Baukunst des Alten Reiches I, II, Zûrich, 1944.

- عن آثار الدولة القديمة بوجه عام :

VANDIER, J. Manuel d'Archéologie Egyptienne, T.I, II (Paris, 1952-1955) .

- عن فن النحت والرسم :

SMITH, W.S., A History of Egyptian sculpture and Painting in the Old kingdom, 2nd edition, Boston 1949.

- عن مقابر الدولة القديمة التى تم الكشف عنها فى منطقة الجيزة ، يرجع إلى مؤلفات ريزنر (Reisner) ويونكر (Junker) وسليم حسن .

- عن مقابر الدولة القديمة فى مناطق مصر المختلفة وبخاصة فى سقارة وأبو صير ودهشور ودشاشة وميدوم والشيخ سعيد والهمامية ونجع الدير ودندرة والأقصر وأسوان وغيرها ، يمكن معرفة المراجع الخاصة بها من كتاب پورتر - موس .

- عن نظام الإدارة والقوانين :

PIRENNE, J., Histoire des Institutions et du droit privé de l'ancienne Egypte, 3 Vols, Bruxelles, 1932-1934.

- عن نصوص الأهرام ، مع شرحها وترجمتها :

SETHE, K., Die altaegyptischen Pyramidentexte Leipzig, 1908-1922.

SETHE, K. Ubersetzung und Kommentar Zu den altaegyptischen Pyramidentexten.

– عن حضارة الدولة القديمة بوجه عام ، مع تفسيرات جريئة لبعض المواضيع:

SPIEGEL, J., Das Werden der altaegyptischen Hochkultur Heidelberg, 1953.

الفصل الرابع

« عصر الفترة الأولى »

النص الكامل لبرديتي ، إيبور ، و ، نفرتي (نفر روهو) ، منشوران في أكثر من مؤلف مثل :

ERMAN, A. Die Literatur der Aegypter, Leipzig 1923 (= The Literature of the ancient Egyptians - translated by A Blackman).

LEFEBVRE, G., Romans et Contes Egyptiens, 1949.

– عن مناقشة هذه النصوص وإستخلاص المغزى التاريخي منها :

SCHAREF, A., Der historische abschnitt der Lehre für König merikarê (Sitzungsberichte der Bayerischen Akademie der Wissenschaften, Philosophisch-historische abteilung, 1936) Mûnchen, 1936.

– قصة القروى الفصيح منشورة ترجمتها فى كتابى إرمان وليفقر وغيرهما ولكن المؤلف الرئيسى عنها هو كتاب :

VOGELSANG, F., and GARDINER, A.H. Die Klagen des bauern (Hieratische Papyrus aus den kônliglichen Museen Zu berlin, IV, Literarische Texte des Mittler en Reiches, I) Leipzig, 1908.

– وهناك قصة أخرى من هذا العصر وهى قصة اليائس من الحياة يجدها القارىء فى كتب الأدب السابق ذكرها ، ولكن تحليلها وشرح نقطها كان موضع عناية الأستاذ شارف فى بحث خاص .

SCHARFF. A. Der Bericht uber das Streitgesprach eines Lebensmûden mit seiner Seele, Munich 1937.

– عن مقابر هذا العصر ارجع إلى :

PETRIE, W.M.F., and BRUNTON G., Sédment, I, II, 2 Vols London, 1924.

BRUNTON G., Qan Bardari, 2 Vols, London 1927, 1928.

BRUNNER, Die Texte aus den grabern der Herkleopolitenzeit von Sit (Aegyptolog. forsch.,) 1937.

MONTET, P. "Les Tombeaux de Siout et de Deir Rifeh" kémi, III (1930), pp. 138-155.

NEWBERRY, P.E. Beni hassan , 4 Vols London, 1893.

– عن انتشار عبادة أوزيريس :

SCHARFF, A. Dic Ausbreitung des Osiriskultes in der Frûhzeit und whahrend des Alten "Reiches, Munich," 1947.

–عن حدوث بعض التطورات فى شكل الأشياء وبعض التمائم والأدوات:

JEQUIER, G., Les frises d'objects (Mém. de l'Institut F.A.O.T. 47.

SCHAFER, H., Die Enstehung einigen Mumienamuletten ZAS, XLIII, 66.

BRUNTON, G., Buttons and Design Scarabs, London 1925.

الفصل الخامس
" الدولة الوسطى "

– عن تتابع ملوك الأسرة الحادية عشرة فى الحكم :

VANDIER, J., L'ordre de succession des derniers rois de la XI Dynastie, Studia Aegyptiaca I, pp. 36-47, Rome 1938.

WINLOCK, H.E., The Rise and Fall of the MiddleKingdom in Thebes, New york, 1947.

– عن معبد الأسرة الحادية عشرة بالدير البحرى بطيبة :

NAVILLE, E., The XIth Dynastyx Temple at Deir el Bahari 3 Vols, London 1907-1913.

WINLOCK, H. E., Excavations at Deir el Bahri, 1911-1931.

New York, 1942.

– عن تطور مقابر الأسرة الحادية عشرة المقطوعة فى الصخر :

BRUNNER, H. Die Anlagen der Aegyptischen Felsgrâber bis zum mittleren Reich, 1936.

– عن النقوش التى فى تلك المقابر :

GL´ERE, J.J., and VANDIER, J. Textes de la premiére période intermédiaire et de la XIéme dynastie, 1948.

BUNNER, H. Die Texte aus den Grâbern der Herakleopolitenzeit von Siut, 1937.

GRIFFITH, F. LL., The Inscriptions of Siut and Dêr Rifeh 1889.

MONTET, P., "Les Tombeaux de Siout et de Deir Rifeh" kemi, III (1930) pp. 89-111 ; VI (1936), pp. 381-155.

POLOTSKY, H. J. Zu den Inschriften der 11 ten Dynastie (Untersuchungen XI) Leipzig 1929.

– عن نصيحة أمنمحات الأول لإبنه سنوسرت :

BUCK, A. De, "The Instruction of Amenemmes," Mélanges maspero I, pp. 874-852, Cairo, 1935.

FAULKNER, R.O., Some Notes on "The Teaching of A menemmes I to his Son "Studies presented to F.LL. Griffith, pp. 69-73 London, 1932.

MASPERO, G. Les Enseignements D'Amenemhât ler a son fils Sanouasrit, le Caire, 1914.

– عن هيكل سنوسرت الأول بالكرنك :

LACAU, P, and CHEVRIER, H., une Chapelle de Sésostris Ler 'a Karnak (Service des Sntiquetés de I'Egypte Cairo, 1956 .

– عن أهرام الأسرة الثانية عشرة ، ارجع إلى كتب الأهرام التى ذكرناها عند ذكر مصادر الدولة القديمة وكذلك كتاب فيرشو عن أهرام هذه الأسرة :

FIRCHOW, O., Studien Zu den pyramidenanlagen der 12, Dynastie Gôttingen, 1942,

- عن تطور مقابر الأسرة الثانية عشرة :

MULLER, H. W. Die felsengraeber der fûrsten von Elephantine, glûckstadt, 1940.

- عن أهم مجموعات الحلى :

BRUNTON, G., Lahun I "The Treasure; London 1920.

WINLOCK, H., The Treasure of El Lahun, New York; 1934.

MORGAN, J. DE, Fouilles 'a Dahchour, 2Vols; 1895; 1903.

- عن موضوع العلاقة بين مصر وغيرها من الأمم ، أقتصر على الأبحاث الآتية :

SAEVE - SODERBERGH, T., Aegypten und Nubien, 1941 .

HOLSCHER, W., Libyer und Aegypter, 1937.

BISSON de la ROQUE, F., Tod (Fouilles de l'Institut Francais, Vol. 17), Cairo 1937.

NONTET, P., Byblos et l'Egypte; 2 Vols; Paris 1928, 1929.

KANTOR, H. J., The Aegean and the Orient in the Second Millenniun B. C., 1947.

الفصل السادس

" عصر الفترة الثانية "

المراجع المذكورة فى هوامش صفحات هذا الفصل تكاد تكون كافية . وأضيف إليها الأبحاث القليلة الآتية :

ALBRIGHT, W. F. "An Indirect Synchronism between Egypt and mesopotamia, Circa 1730 B. C. Journal of the American Schools of Oriental Research, No. 99 (October, 1945) pp. 9-18.

ENGBERG, R. M., "The Hyksos Reconsidered" Sudies in Ancient Oriental Civilization, 18, Chicago 1939.

SCHARFF, A. "Ein Rechnungsbuch des Könlglichen Hofes aus

der 13-Dynastie (Papyrus Boulaq Nr. 19) ZAR, L VII (1922), pp. 51-68.

WEILL, R. "Les successeurs de la XIIe Dynastie â Medamoud" Revue de l'Egypte ancienne, II (1929) ; pp. 144-171.

"Compléments pour la Fin du Moyen Empire Egyptien" BIFAO, XxxII (1932); pp. ; 7-52.

EVERS, H. G., Staat aus dem Stein; 2 Vols; 1929.

WIESNER, Fahren und Reiten in Alteuropa und im alten Orient (Alte Orient, Bd. 38, 2-4) Leipzig, 1939.

ALT, A. "Die Herkunft der Hyksos in neuem Licht" Sachs. Ak. Wiss 101, 6, 1954.

الفصل السابع

" الدولة الحديثة "

ذكرت عند مناقشة المواضيع الواردة فى هذا الفصل أكثر من ثمانين مرجعا ، خمسون منها عند حديثى عن الأسرة الثامنة عشرة وأكثر من عشرين عند مناقشة أحداث الأسرة التاسعة عشرة وعشرة مراجع للأسرة العشرين ، وهذه المراجع كافية بوجه عام لدراسة هذه الفترة المهمة من تاريخ مصر إلى جانب المراجع العامة المذكورة فى أول هذا الباب ، وأزيد عليها الأبحاث القليلة الآتية لتوضيح بعض المواضيع التى أشرت إليها :

- نقوش مقبرة أحمس بن إبانا منشورة فى SETHE., Urk . IV, p. 8 ff. ومترجمة فى Breasted, A. R. II, & 80 ff. و كذلك نقوش أحمس بن يننخت ومقبرة إنينى فإنها منشورة أيضاً فى المؤلفين السابقى الذكر .
- عن موضوع البلاد التى وردت فى جداول تحوتمس الثالث ، توجد أبحاث كثيرة أختار منها :

SIMONS, J., Handbook for the Study of Egyptian Topographical lists, Leieen 1937.

JIRKU, A., "Die Aegyptischen Listen palastinensischer und sy-

rischer Ortsnamen", Klio, 38, Leipzig 1937.

GRAPOW, H. "Studien Zu den Annalen Thutmosis des Dritten", Alhand, d. deutsch, Aked. Wissenschaft Zu Berlin, 1947.

عن تل العمارنة بوجه عام ، ارجع إلى كتاب پورتر – موس ، ففيه أهم المراجع ، أما عن تخطيط المنازل .

RICKE, H., Der Grundriss des Amarna - Wohnhaus, Leipzig; 1932.

وقد ظهر فى السنوات القريبة بحث عن الإلهة ، ماعت ، فى ديانة إخناتون :

ANTHES, R. ; Die ma'at des Echnaton von Amarna; Supplement to the American Oriental Society 14, Baltimsre, 1952.

– عن وظيفة نائب الملك فى النوبة :

REISNER, G., J. E. A., VI (1920); p. 28-55-73-88.

GAUTHIER, H. Rec. Trav., (1921), p. 179-238.

عن حفلة تنصيب الوزير واختصاصاته ونصائح الملك له :

SETHE, UrK, IV; p. 1085 - 1093 ; 1103 - 1161.

وتوجد ترجمتها باللغة الإنجليزية فى كتاب :

BREASTED, A. R., II & 665-762.

SETH, K. "Einsetzung des Veziers unter der 18. Dynastie; Untersuchungen V, 2, Leipzig; 1902.

The Autobiography of Rekhmeré, ZAS, 60 p. 62 - 76.

عن معبد مدينة هابو ، ارجع إلى مطبوعات المعهد الشرقى التابع لجامعة شيكاجو ، أما بردية هاريس فاقرأ عنها :

SCHAEDEL, H. D., Die Listen des grossen Papyrus Harris Leipzig, 1936.

ERICHSEN, W., Papyrus I, Bibliotheca Aegyptiaca V, 1933.

النصوص فقط ، وترجمتها باللغة الإنجليزية فى : Breasted, A.R.

– عن القصص المختلفة والأغانى والأناشيد التى يرجع تاريخها إلى الدولة الحديثة ، إرجع إلى كتاب إرمان عن الأدب المصرى القديم ، أما عن بردية شستربيتى

وبخاصة عن بعض الأغانى الغرامية :

GARDINER, A. The Chester Beatty Papyri No. I, Oxford; 1931 p. 27-38; pl. 16, 17, 22-26; 29 : 30.

أما عن قصة النزاع بين حورس وست فهى فى البردية نفسها من ص ٨ – ٢٦ ولوحات ١ – ١٦ ، إرجع أيضاً إلى ما كتبه شبيجل :

SPIEGEL J. Die Erzählung vom Streit des Horus und Seth, Leipzig (Aegypt. Stud, 9), 1937.

الفصل الثامن

العصر المتأخر – الأسرات ٢١ – ٢٤

– عن نشأة الأسرة :

KEES, H, ":Herihor und die Aufrichtung des thebanischen Gottesstaates" Nachrichten d. Gesell. d. Wissen. Zu Gôttingen, 1936.

BECKERATH, J. V. Tanis und Theben.

MEYER, ED. "Gottesstaat, Militärherrschaft und Ständewesen in Aegypten" , Sitzungberichte d. preuss. Akad. d. Wissen, Zu Berlin, 1928, p. 495 ff.

– عن لوحات السرابيوم :

MARIETTE, A., Le Sérapeum de Memphis découvert par Auguste Mariette, Paris 1875.

– عن المومياوات والاهتمام بها بعد سرقة المقابر :

MESPERO, Les Momies reyales de Deir-el-Bahari, (Mem, miss. Archéol. Fr. au Caire, I), 1889.

– عن الزوجة الإلهية لأمون :

SANDER - HANSEN, C. E., DAS Gottesweib des Amun; Kopenhagen, 1940.

– عن رحلة « ون أمون » يرجع القارىء إلى الكتب المختلفة عن الأدب المصرى

القديم فهى مترجمة فيها جميعاً .

– عن صان الحجر وحفائر مونتيه والجبانة الملكية ، كتب مونتيه عدة كتب عن حفائره وما عثر عليه فيها ، وهو يعطى فكرة عامة عن تاريخ هذه المدينة وآثارها فى كتابه :

MONTET, P., Tains ; Douze années de fouilles; Paris; 1942.

– عن حكم أمنموؤپى الشهيرة :

LANGE, H.O., "Das Weisheitsbuch des Amenemope" Kgl. Danske Vidensk. Selskab, Fil-hist. Medd. 11, 2 ; Kopenhagen, 1925.

– عن الأسرة الثانية والعشرين فى الواحات :

AHMED FAKHRY, Bahria, Oasis, Vol. I (Cairo 1942) : p. 19 ff.

GARDINER, A.H. The Dakhleh Stela, J.E.A. 19 (1933) , p. 19 ff.

الفصل التاسع

اليقظة : الأسرتان الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون

ZEISSL, H. von. Aethiopen und Assyrer in Aegypten, Aegyptische Forsch. 14, 1944.

– عن نصوص لوحة بعنخى ، فإن أفضل نص هو الذى نشره شيفر فى :

SCHAEFER, H., Urkunden III ; p. 1 - 56.

أما عن ترجمتها ودراسة أسماء الأماكن الواردة فيها فاننا ما زلنا نعتمد على ترجمة برستد (Breasted, Ancient Records : IV, & 796-833) .

وهناك ترجمة عربية لها منشورة فى كتاب : سليم حسن – مصر القديمة الجزء ١١ (القاهرة ١٩٥٦) ص – ٩ وما بعدها .

– عن الصراع بين مصر وأشور ، يمكن الرجوع إلى ما كتبه إدوارد ماير فى تاريخه (الجزء الثالث ص٣ وما بعدها) ، وإلى كتاب :

LUCKENBILL, Ancient Records of Assyria and Babylonia, 2 Vols, 1926 - 1927.

انظر أيضاً مقال بيت : PEET, T.E.A. ; XI (1925) : P. 117.

– عن منتومحات :

legrain,. RECEUIL DES TRAV. 27 (1905) ; 80 - 81 ,

– عن الأسرة السادسة والعشرين فى تاريخ هيرودوت :

MEULENAERE, H. DE, Herodotos Over de 26 ste Dynastie, Bibl. de Muséon 27, Leuven 1951.

KEES, H., "Zur Innenpolitik der Saitendynastie" Nachr. G.W. Gôttingen, 1935.

– عن موضوع عصيان حامية إلفنتين :

SCHEFER, H. Die Auswanderung der Krieger unter Psammetich I. und der Sôldneraufstand in Elephantine unter Apries, Klio IV, 1904; p. 152 ff.

– عن الصلات الخارجية بين ملوك الأسرة السادسة والعشرين وغيرهم من الشعوب :

WIEDEMANN, Geschichte Aegyptens von Psammetich I, bis auf Alexander den Grossen.

– عن إهتمام ملوك الأسرة السادسة والعشرين بالواحات :

FAKHRY, A., Bahria Oasis ; Vol. I (Cairo ; 1942) ; Vol. II (Cairo, 1950) .

الفصل العاشر

مد وجزر : الأسرات ٢٧ – ٣٠

يجد القارىء فى هوامش صفحات هذا الفصل أهم المراجع ، وأضيف إليها هنا بعض المراجع الأخرى :

– عن معبد الواحات الخادجة ، يمكن الرجوع إلى المجلدين اللذين نشرهما متحف المتروبوليتان وأولهما عن العمارة والثانى عن نقوش المعبد التى قام برسمها المرحوم نورمان دى جاريس ديفز وقام بإعدادها للنشر المرحوم لدلويل فى عام ١٩٥٢ .

- عن مجموعة الأوراق البردية الآرامية التى عثر عليها فى جزيرة إلفنتين :

MEYER, ED. Der Papyrusfund von Elephantine, Leipzig ; 1912 .

VINCENT, A. La religion des Judéo-Araméens d'Elephantine, Paris 1937.

- عن الصلة بين الإغريق ومصر فى هذه الفترة من تاريخها :

MILNE, J.E.A., XXV (1939) ; p. 177-183.

- عن ترتيب تتابع كل من تختنبو الأول وتختنبو الثانى والآثار المنسوبة إلى كل منهما :

CAPART, J. Chronique d'Egypte, 29 (1940).

- عن هذا العصر بوجه عام :

KEINITZ F. K., Die Politische Geschichte Agptens von 7 bis zum 4 . Jahrhundert vor der Zeitwende (Berlin, 1953),

OTTO, E., Die Endsituation der Aegyptischen Kultur ; Die Welt als Geschichte. 1951.

--------, Die Biographien der Aegyptischen Spatzeit, Problem der Aegyptologie II, Leiden 1954.

- عن زيارة الإسكندر الأكبر لهيكل الوحى فى سيوة :

HRY, A., Siwa Oasis (Cairo ; 1944) ; p. 35 - 44 ; p. 96 .

فهارس الكتاب

١ - آلهـــــة

٢ - أهم الملوك والملكات

٣ – أشخاص

٤ – أماكــــــــن

٥ – أسـرات

٦- عصور

٧- عمـــــومى

منافذ بيع مكتبة الأسرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة
ت : ٢٥٧٧٥٠٠٠ - ٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلى ١٩٤ - ٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبه جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى
بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة - الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا - المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى - توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير - الزقازيق

ت : ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠ - ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢

إنسانيات

مجموعة الحقول المعرفية التى تعنى بدراسة الإنسان وتاريخه وبيئته وواقعه الاجتماعى والثقافى والسياسى، وما ينشغل به البشر من إشكاليات حياتهم ومجتمعهم وأنساق ثقافتهم وقيمهم فى علوم مثل: التاريخ والأنثروبولوجيا والاقتصاد والنقد الأدبى.

مصر الفرعونية

موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ قبل الميلاد

يعرض الكتاب بعضاً من مظاهر الحضارة الفرعونية عبر إشارات عابرة إلى ما توصل إليه المصريون القدماء فى بعض نواحى مدنيتهم، ويؤكد على فضل الحضارة المصرية القديمة على غيرها من الأمم فى شتى ميادين الفكر والفن والعلم والأدب والصناعة والزراعة.

ويستعرض الكتاب عدداً من الموضوعات المهمة التى تتعلق بمصر الفرعونية فى الحقبة محل الدراسة بدءاً من مولد الحضارة ونشأتها، ومروراً بعصر الأسرات المبكر (العصر العتيق) والدولة الوسطى، والدولة الحديثة وانتهائها بالعصر المتأخر ورصد تاريخ الأسرات من ٢٥ – ٣٠.

أحمد فخرى

شيخ الأثريين، وراهب الصحراء، والذى ولد فى عام ١٩٠٥ وعمل أستاذاً لتاريخ مصر الفرعونية والشرقية القديمة - كلية الآداب - جامعة القاهرة.

قام بالعديد من الاكتشافات الأثرية مثل: معابد عين المفتلة، مقبرة هضبة السوبى، منطقة سن العجوز، مقابر المرزوقة .. وغيرها.

ISBN# 9789772071753

مكتبة الأسرة ٢٠١٢